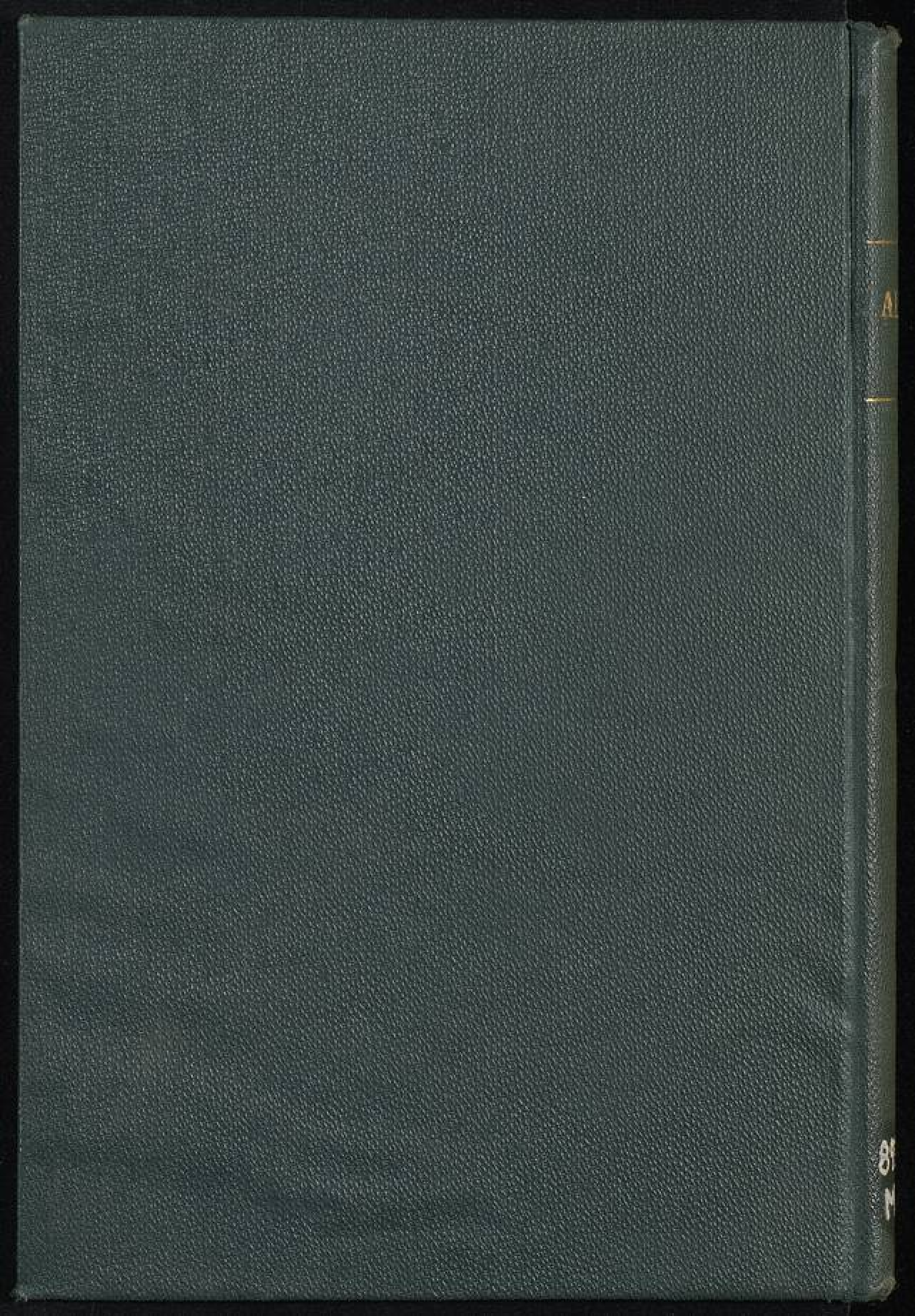






W. Arthur Jeffery



المكتبة الأهلية . بمصر

بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب

تأليف

السيد محمود شكري الألوسي
البغدادي

عني بشرحه وتصحيحه وضبطه

محمد بهجة الأثري

١٣٤٢ هـ الطبعة الثانية ١٩٢٤ م

الجزء الأول — من ثلاثة أجزاء

المطبعة الرحمانية — بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى ، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى . وبعد فان كتاب (بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب) الذى نال به مؤلفه أستاذنا العالم الجهبذ السيد محمود شكرى الالوسى الجائزة من لجنة الألسنة الشرقية في (استقهولم) كان قد طبع سنة ١٣١٤ ببغداد دارالسلام فاقبل الناس عليه اقبالا عظيما حتى نفدت جميع نسخه بمدة وجيزة فازدادت الرغبة فيه ، وأخذت الرسائل من البلدان النائية والاقطار الشاسعة تترى الى المؤلف بطلب الكتاب والاحتياج اليه فكان يوعدهم باعادة طبعه اذا سنحت له الفرصة وأتاح القدر له ذلك حتى عام ١٣٤٠ ، فأشار عليّ واشارته حكم ، واطاعته غنم ، بأن أصحح الكتاب وأشرحه شرحاً موجزاً ، وأضبط ما يستحق الضبط من الفاظه ليعيد طبعه ، فقمت بذلك على قدر الامكان ، أداء لواجب تحتم عليّ ، وخدمة للعلم والأدب ، غير إن حوادث الدهر حالت دون اعادة طبعه فى ذلك الوقت فبقى لدىّ حتى رغب فى هذه الايام السيد محمد جمال صاحب المكتبة الاهلية المعروفة بمصر فى طبعه على نفقته ، فسمحنا له بذلك لينتفع عشاق الادب ، والمتطلعون الى الوقوف على ما كانت عليه العرب قبل الاسلام ، من الأحوال والعادات والاطوار ، فان الكتاب من أجمع ما كتب فى بابه ، وإن تطفل بعضهم بعيد ظهوره على تأليف كتاب يبحث عن العرب وأطوارهم فانتحل معظم الكتاب حرفياً من غير مبالاة بملامة لائم ، حتى إنك لتجد الخطأ المطبعى فى بلوغ الارب وارداً بعينه فى كتابه ، وهذا من أغرب ما رأيناه من أدعياء العلم والادب لا أكثر الله عديدهم ، ونسأل غفار الجرائم والذنوب أن يغفر له هذه الجريمة التي يسود منها جبين الانصاف ، ويحمر لها وجه العلم والادب خجلا

فى ١٠ ربيع الثانى سنة ١٣٤٢ — محمد بهجة الاثري

بلوغ الأرب

في

معرفة احوال العرب

عني بنشره — محمد جمال — صاحب المكتبة الأهلية — بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العلي الشان ، العظيم السلطان ، صرف الدهور بقدرته والأكوان ، وأبهرت حكمته العقول والاذهان ، يخلق ما يشاء كما يشاء ، من غير تعريف ولا بيان ، والصلاة والسلام على رسوله محمد الذي استخلصه من أفضل المعادن منبتاً وأعز الأرومات [١] مغرساً فكان سيد ولد عدنان وقحطان ، وهو النبي الأمي ، العربي الهاشمي ، الذي أنقذنا بنور وجوده من ظلمات جهل الجاهلين الى ذروة الفضل والعرفان ، وعلى آله وأصحابه هداة كل حيران ، المفصحين عن الحق المبين بأفصح لسان وأعذب بيان ، والمتفحصين عن أحوال الأمم الغابرين ليزدادوا إيماناً على إيمان ، وعلى من تبعهم باحسان ، ما تعاقب الملوان ، [٢] وكر الجديدان ، [٣]

(أما بعد) فان العبد الفقير ، الى لطف مولاه الغزير ، محمود شكري بن عبد الله بن محمود الألوسي البغدادي ، كان الله تعالى له خير معين وأحسن هادي ، ووفقه سبحانه لشكر مزيد النعم والأيادي ، يقول : لا يخفى على من عرف أحوال الامم ، ووقف على ما كان عليه أجيال بني آدم ، أن أمة العرب على اختلافها ، وتفاوت أصولها وأصنافها ، كانت ممتازة على غيرها من الناس ، متقدمةً في الفضائل والمآثر على سائر الأنواع والأجناس ، فان الله تعالى قد شرفها برسوله ، وفضلها

(١) الارومة بالفتح وتضم : الاصل (٢) الملوان : الليل والنهار أو طرفاهما (٣) الجديدان والاجدان : الليل والنهار

بتنزيله ، وخصها بالخطاب المعجز ، واللفظ البليغ الموجز [١] ، والسؤال الشافى ، والجواب الكافى ، فالعرب أمراء الكلام ، ومعادن العلوم والأحكام ، وهم ليوث الحرب ، وغيوث الكرب والرفد [٢] فى الجَدْب ، وهم أهل الشيمة [٣] والحياء ، والكرم والوفاء ، والمروءة والسخاء ، أحكمتهم التجارب ، وأدبتهم الحكمة فقضوا منها المآرب ، ذلت ألسنتهم بالوعد وانبسطت أيديهم بالإنجاز [٤] ، فأحسنوا المقال ، وشفعوه بحسن الفعال ، ولبسوا من المجد ثوبا سندسى الطراز [٥] ، يغسلون من العار وجوهاً مسوده ، ويفتحون من الرأى أبواباً منسده ، كأنَّ الفهمَ منهم ذو أُذنين ، والجواب ذو لسانين ، يضربون هامات الأبطال ، ويَعْرِفون حقوقَ الرجال ، الى أن تلاعبت بهم أيدى الأقدار ، وتفرقوا فى أقصى الأنحاء والأقطار ، وإنى لم أزل أتشوق للوقوف على آثارهم ، والاطلاع على شريف سيرهم وأخبارهم ، وأتمنى أن أظفرَ بكتاب يشتمل على أحوالهم قبل الاسلام ، ويحتوى على ما كانوا عليه فى جاهليتهم من العوائد والأحكام ، فلم أرَ ذلك فيما بين الأيدى من الكتب والمجامع ، ولا أنه قد طرق باب سمع من المسامع ، مع أن المتقدمين ، من علماء المسلمين ، لم يهملوا مثل هذا المهم ، ولم يتركوا قولاً لقائل فى كل

---

(١) الموجز : القصير السريع الوصول الى الفهم ، يقال وجز اللفظ بالضم وجازة فهو وجيز ويتعدى بالحركة والهمزة فيقال وجزته من باب وعد واوجزته وبعضهم يقول وجز فى كلامه واوجز فيه أيضاً (٢) الرفد بالكسر العطاء والصلة ، والجدب : المحل (٣) الشيمة : الغريزة والطبيعة والجبلة وهى التى خلق الانسان عليها والمراد بها ههنا الاخلاق الحسنة (٤) يقال نجز الوعد نجزاً : تعجل ويعدى بالهمزة والحرف فيقال انجزته ونجزت به اذا عجلته (٥) سندسى الطراز السندس بالضم رقيق الديباج معرب والطراز بالكسر علم الثوب معرب

علم ، وهم الذين امتد باعهم فى جميع الفنون ، وحسنت منا بهم الظنون ، غير أن مرور الأعصر والأعوام ، أدى بآثارهم الى الضياع وأودى بها فى سائر البقاع ، وكان كثيراً ما يختلج فى القلب ويخطر بالبال ، أن أتطفل بجمع كتاب يستوعب أحوالهم على سبيل الإجمال ، غير أن قلة البضاعة تصدنى عن الإقدام ، وتثبّطنى (١) عن طَرْق باب هذا المرام ، حتى اتفق بعض الدواعى التى لم أرَ للتخلف عنها سبيلا ، ولم أجد للاعراض عن هذا الغرض مقيلا ، فشرعت فى المقصود ، وبذلت فيه غاية المجهود لما يترتب على ذلك من المصالح العمومية ، وما يستنتجه إن شاء الله تعالى من الفوائد الكلية ، وقد التزمت طريق الاختصار ، وتجنبت عن التطويل والاكثار ، ومع ذلك فانى معترف بالقصور والنقصان ، وأنى لست من فرسان هذا الميدان ، ولله تعالى در الأقدار ، فانها تسوق المرء الى ماليس له فيه اختيار .

إن المقاديرَ اذا ساعدتْ * ألحقت العاجزَ بالحازم

(وقد سميت) ماجمعته ، وكتبته فى هذا الباب وحررته ، بلوغَ الأرب ، فى معرفة أحوال العرب ، ومن الله تعالى استمد الإعانة والتوفيق ، والهدايةَ إلى أقوم طريق ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

مقدمة الطبعة الاولى سنة ١٣١٤

(١) ثبطه عن الامر عوقه وبطأ به عنه كثبطه فيهما

تعريف العرب وبيان أنواعهم وأقسامهم

العرب جيل من الناس لم يزالوا موسومين [١] بين الامم بالبيان فى الكلام، والفصاحة فى المنطق، والذلاقة [٢] فى اللسان، ولذلك سموا بهذا الاسم فانه مشتق من الابانة، لقولهم أعرب الرجل عما فى ضميره اذا أبان عنه، ومنه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم «الثيب تُعْرِبُ عن نفسها» والبيان سمتهم بين الأمم وستمر بك قصة كسرى لما طلب من خليفته على العرب النعمان بن المنذر أنْ يوفد عليه من كبرآئهم وخطبآئهم من رضى لذلك فاختار منهم وَفْداً أوفده عليه، وكان من خبره واستغراب ماجآؤا به من البيان ماهو معروف، وهم أمة قديمة فقد كانوا بعد الطوفان وعصر نوح عليه السلام فى عاد الاولى وثمود والعمالقة وطسم وجديس وأميم وجرهم وحضرموت ومن ينتمى اليهم من العرب العاربة من أبناء سام بن نوح، ثم لما انقرضت تلك العصور وذهب أولئك الأمم وأبادهم [٣] الله تعالى بما شاء من قدرته وصار هذا الجيل فى آخرين ممن قرب من نسبهم من حمير وكهلان وأعقابهم من التبابعة ومن اليهم من العرب المستعربة من أبناء عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام، ثم لما تطاولت تلك العصور وتعاقبت وكان بنو شالخ بن عابر أعالِمَ من بين ولده واختص الله تعالى بالنبوة منهم إبراهيم بن تارخ وهو آزر بن ناحور بن ساروخ بن أرغو بن فالغ وكان من شأنه مع نمروذ ماقصه القرآن ثم كان من هجرته الى الحجاز ماهو مذكور، وتخلف ابنه إسمعيل مع أمه هاجر بالحجر قُرباناً [٤] لله تعالى ومرت بها رفقة من جرهم فى تلك المفازة فخالطوها ونشأ إسمعيلُ بينهم وربى فى أحيآئهم وتعلم لغتهم العربية بعد أن كان

(١) موسومين السمة العلامة (٢) الذلاقة: البلاغة فى المنطق (٣) أبادهم: أهلكهم
(٤) قربانا بالضم ما يتقرب به الى الله تعالى من ذبح وغيره وهو فعلان من القربة

أبوه أعجميا ، ثم كان بناء البيت كما قصه القرآن ثم بعثه الله تعالى الى جرهم والعمالقة الذين كانوا بالحجاز فآمن كثير منهم واتبعوه ثم عظم نسله وكثر وصار بالجيل آخر من ربيعة ومضر ومن اليهم من إياد وعك وشعوب نزار وعدنان وسائر ولد إسمعيل وهم العرب التابعة للعرب ، ثم انقرض أولئك الشعوب فى أحقاب طويلة وانقرض ما كان لهم من الدولة فى الاسلام وخالطوا العجم بما كان لهم من التغلب عليهم ففسدت لغة أعقابهم فى آماد (١) متطاولة وبقى خلفهم أحياء بادين (٢) فى القفار والرمال والخلاء من الأرض تارة والعمران تارة وقبائل المشرق والمغرب والحجاز واليمن وبلاد الصعيد والنُوبة (٣) والحبشة وبلاد الشام والعراق والبحرين وبلاد فارس والسِنْد وكِرْمان وخُراسان أمما لا يأخذها الحصر والضبط قد كاثروا أمم الأرض

وقد حصر ابن خلدون فى كتاب العبر أجيالَ العرب من مبدأ الخليقة الى عهده فى أربع طبقات متعاقبة ، وذكر ما كان فى كل طبقة منها من عصور وأجيال ودول وأحياء وبدأ أولا بذكر :

الطبقة الاولى

وهم العرب العاربة وذكر أنسابهم ومواطنهم وما كان لهم من الملك والدولة وسمى أهلَ هذا الجيل العربَ العاربةَ إما بمعنى الراسخة فى العروبية كما يقال: ليل ألْيَل وصوم صائم . أو بمعنى الفاعلة للعروبية والمبتدعة لها بما كانت أول أجيالها وقد تسمى البائدة أيضاً بمعنى الهالكة لأنه لم يبق على وجه الأرض أحد من نسلهم ، ثم :

(١) آماد جمع أمد محركة ، قال الراغب فى المفردات : يقال باعتبار الغاية والزمان عام فى الغاية والمبدأ ويعبر به مجازاً عن سائر المدة ، والامد المنتهى من الاعمار (٢) بدأ القوم بداء خرجوا الى البادية (٣) النوبة بالضم بلاد واسعة للسودان بجنوب الصعيد منها بلال الحبشى

الطبقة الثانية

وهم العرب المستعربة من بنى حمير بن سبا وذكر أنسابهم وما كان لهم من الملك والدولة باليمن فى التبابعة وأعقابهم وإنما سمى أهل هذه الطبقة بهذا الاسم لأن السِمات والشعائر العربية لما انتقلت اليهم ممن قبلهم اعتبرت فيها الصيرورة بمعنى أنهم صاروا الى حال لم يكن عليها أهل نسبهم وهى اللغة العربية التى تكلموا بها فهو من استفعل بمعنى الصيرورة من قولهم: استنوق الجمل واستحجر الطين. وأهل الطبقة الأولى لما كانوا أقدمَ الأمم فيما يعلم جيلا كانت اللغة العربية لهم بالأصالة وقيل العاربة ؛ ثم ذكر :

الطبقة الثالثة

وهم العرب التابعة للعرب من قُضاعة وقحطان وعدنان وشعبيها العظيمين ربيعة ومضر وبدأ بقضاعة وأنسابهم وما كان لهم من الملك البدوى فى آل النعمان بالحيرة والعراق ومن زاحمهم فيها من ملوك كندة بن حجر آكل المُرار [1] ، ثم ما كان لهم أيضاً من الملك البدوى بالشام فى بنى جَفْنة بالبلقاء ، والأوس والخزرج بالمدينة النبوية ، ثم عدنان وأنسابهم وما كان لهم من الملك بمكة فى قريش ، ثم ما شرفهم الله تعالى به وجيل الآدميين أجمع من النبوة وذكر الهجرة والسيرة النبوية وغير ذلك ، ووجه تسمية هذا الجيل بذلك الاسم ظاهر ، ثم ذكر :

الطبقة الرابعة

وهم العرب المستعجمة ومن له ملك بدوى بالمغرب والمشرق ، وسموا بذلك لاستعجام لغتهم على اللسان المضرى الذى نزل به القرآن وهو لسان سلفهم وقد أطنب رحمه الله تعالى الكلام فى ذكر هذه الطبقات الأربع حيث كانت موضوع

(١) المرار بالضم شجر مر من أفضل العشب وأضخمه اذا أكلتها الابل قلصت مشافرها فبدت أسنانها ولذلك قيل لجد امرئ القيس آكل المرار لكشر كان به والناس يقرؤنه بالكسر وهو غلط فتنبه

كتابه ومدار بحثه وهذا الكتاب مما تداوله الأيدى فلا حاجة فى إتعاب البنان بنقل ما ذكره

تعريف من يطلق عليه لفظ العرب

إن لفظ العرب فى الاصل اسم لقوم جمعوا عدة أوصاف: أحدها أن لسانَهم كان اللغةَ العربية . الثانى أنهم كانوا من أولاد العرب . الثالث أن مساكنهم كانت أرضَ العرب وهى جزيرة العرب التى هى من بحر القُلْزُم الى بحر البصرة ومن أقصى حجر باليمن الى أوائل الشام بحيث كانت تدخل اليمن فى دراهم ولا تدخل فيها الشام ، وفى هذه الأرض كانت العرب حين المبعث وقبله فلما جاء الاسلام وفتحت الأمصار سكنوا سائر البلاد ومن أقصى المشرق الى أقصى المغرب والى سواحل الشام وأرمينية وهذه كانت مساكن فارس والروم والبربر وغيرهم ، ثم انقسمت هذه البلاد قسمين منها ما غلب على أهله لسان العرب حتى لا تعرف عامتهم غيره أو يعرفونه وغيره مع ما دخل فى لسان العرب من اللحن وهذه غالب مساكن الشام وعراق ومِصْرَ والأُنْدُلس ونحو ذلك وأرض فارس وخراسان كانت هكذا قديماً ومنها ما العجمية كثيرة فيهم وغالبة عليهم كبلاد الترك وخراسان وإرْمِينِيَة وآذربيجان ونحو ذلك فهذه البقاع انقسمت الى ما هو عربى ابتداء والى ما هو عربى انتقالا والى ماهو عجمى ، وكذلك الأنساب ثلاثة أقسام: قوم من نسل العرب وهم باقون على العربية لساناً وداراً أو لساناً لا داراً أو داراً لا لساناً، وقوم من نسل العرب بل من نسل بنى هاشم ثم صارت العربية لسانهم ودارهم أو أحدهما، وقوم مجهولو الأصل لا يدرون أمن نسل العرب هم أم من نسل العجم وهم أكثر الناس اليوم سوآء كانوا عرب الدار واللسان أو فى أحدهما ، وكذلك انقسموا فى اللسان ثلاثة أقسام: قوم يتكلمون بالعربية لفظاً

ونغمةً وقوم يتكلمون لفظاً لا نغمة وهم المتعربون الذين لم يتعلموا اللغة ابتداء من العرب وانما اعتادوا غيرها ثم تعلموها كغالب أهل العلم ممن تعلم العربية وقوم لا يتكلمون بها الا قليلا وهذان القسمان منهم من تغلب عليه العربية ومنهم من تغلب عليه العجمة ومنهم من قد يتكافأ فى حقه الأمران إما قدرة وإما عادة

الفرق بين العرب والأعراب فى المعنى

ذهب بعضُ أهل اللغة الى الترادف بين اللفظين وأنهما بمعنى واحد ، قال الجوهرى فى كتاب الصحاح : العرب جيل من الناس وهم أهل الأمصار والنسبة الى العرب عربى والى الأعراب أعرابى والذى عليه العرف العام اطلاق لفظ العرب على الجميع ومثل ذلك فى القاموس وغيره من كتب اللغة المعتبرة ، وذكر أبو العباس أحمد بن عبد الله الشهير بابن أبى غدّة فى كتابه نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب: أن العرب هم أهل الأمصار والأعراب سكان البادية وفى العرف يطلق لفظ العرب على الجميع وقال شيخ الاسلام ابو العباس أحمد بن تيمية فى كتاب (الاقتضاء) : إن لفظ الأعراب هو فى الأصل اسم لبادية العرب فان كل أمة لها حاضرة وبادية فبادية العرب الأعراب ، وقد يقال : إن باديةَ الروم الأرمنُ ونحوهم ، وباديةَ الفرس الأكرادُ ونحوهم ، وباديةَ الترك التترُ ونحوهم ، قال : وهذا والله أعلم هو الأصل وإن كان قد يقع فيه زيادة ونقصان ، وقال أهل التفسير : الأعراب صيغة جمع وليست بجمع للعرب على ماروى عن سيبويه لئلا يلزمَ كونُ الجمع أخصَّ من الواحد فان العرب هذا الجيل المعروف مطلقا والأعراب سكان البادية منهم ولذا نسب الى الأعراب على لفظه فقيل أعرابى وقال فريق منهم: العرب سكان المُدن والقُرى والأعراب سكان الباديةَ من هذا الجيل أو مواليهم فعلى هذا القول هما متباينان ويفرق بين الجمع والواحد بالياء فيهما ، فيقال للواحد

عربي واعرابي وللجماعة عرب وأعراب وكذا أعاريب وذلك كما يقال للواحد مجوسي ويهودي ثم تحذف الياء في الجمع فيقال المجوس واليهود واستعمالُ البلغاء يوافق قولَ المفسرين في الكتاب الكريم عند بيان احوالِ منافقي العربِ إثْرَ بيان منافقي أهلِ المدينة من سورة التوبة (وجاء المُعَذِّرون [1] من الاعراب ليؤذن لهم) وفي آية أخرى (وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق [2] لا تعلمهم ، نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم) وفي أخرى (الاعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم ، ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم ، ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم)

والمؤرخون على القول بان الأعراب قسم من العرب، ففي كتاب العبر عند القول في أجيال العرب وأوليتها واختلاف طبقاتهم: أعلم أن العرب منهم الامة الراحلة الناجعة أهل الخيام لسكناهم والخيل لركوبهم والأنعام لكسبهم يقومون عليها

(١) المعذرون بتشديد الذال المكسورة : المعتذرون الذين لهم عذر وبه قرأ سائر قراء الامصار ومعنى المعتذرون الذين يعتذرون كان لهم عذر أو لم يكن وهو ههنا شبيه بأن يكون لهم عذر ، وقال أبو الهيثم في تفسير هذه الآية : معناه المعتذرون يقال عذر يعذر عذاراً في معنى اعتذر ويجوز عذر الرجل يعذر فهو معذور واللغة الاولى أجودهما قال ومثله هدى يهدي هداء اذا اهتدى ، قال الله عز وجل : أمن لا يهدي الا أن يهدى ، قال الازهري: وقد يكون المعذر بالتشديد غير محق وهم الذين يعتذرون بلا عذر فالمعنى المقصرون بغير عذر فهو على جهة المفعل لانه الممرض والمقصر يعتذر بغير عذر، وقرأها ابن عباس (رض) بالتخفيف من أعذر وكان يقول : والله هكذا أنزلت . وكان يقول: لعن الله المعذرين بالتشديد كأن المعذر عنده انما هو غير المحق وبالتخفيف من له عذر (٢) مردوا على النفاق ، قال الفراء : يريد مرنوا عليه كقولك تمردوا . وقال ابن الاعرابي المرد التداول بالكبر والمعاصي . وفي المفردات للراغب : هو من قولهم شجرة مرداء أي لا ورق عليها ، أي انهم خلوا عن الخير ، وليس بشيء

ويقتاتون من ألبانها ويتخذون الدفء [١] والأثاث [٢] من أوبارها وأشعارها ويحملون أثقالهم على ظهورها يتنازلون حللا متفرقة ويبتغون الرزق فى غالب أحوالهم من القنص ويتقلبون دائماً فى المجالات فراراً من حمارة القيظ [٣] تارة وصبارة البرد أخرى وانتجاعاً [٤] لمراعى غنمهم ، وارتياداً [٥] لمصالح إبلهم الكفيلة بمعاشهم وحمل أثقالهم ودفئهم ومنافعهم فاختصوا لذلك بسكنى الاقليم الثالث مابين البحر المحيط من المغرب الى أقصى اليمن وحدود الهند من المشرق فعمروا اليمن والحجاز ونجداً وتهامة وما ورآء ذلك مما دخلوا اليه فى المائة الخامسة كما ذكروه من مصر وصحارى برقة وتلولها وقُسطنطينية وافريقية وزاغاو المغرب الاقصى والسوس لاختصاص هذه البلاد بالرمال والقفار المحيطة بالأرياف [٦] والتلول والارياف الآهلة بمن سواهم من الأمم فى فصل الربيع وزخرف الأرض لرعى الكلأ [٧] والعُشب فى منابتها والتنقل فى نواحيها الى فصل الصيف لمدة الأقوات فى سنتهم من حبوبها ، وربما يلحق أهل العمران أثناء ذلك معرات من أضرارهم بافساد السابلة [٨] ورعى الزرع مخضراً وانتهابه قائماً وحصيداً الا ماحاطته الدولة وذادت عنه الحامية فى الممالك التى للسلاطين عليهم فيها ، ثم ينحدرون فى فصل الخريف الى القفار لرعى شجرها ونتاج إبلهم فى رمالها وما أحاط به علمهم من مصالحها وفراراً بانفسهم وظعائنهم من أذى البرد الى دفء ماشيتها فلا يزالون فى كل عام مترددين بين الريف والصحراء مابين الاقليم الثالث والرابع صاعدين ومنحدرين على ممر الأيام شعارهم لبس المخيط فى الغالب ولبس العمائم تيجاناً على رؤسهم يرسلون من أطرافها عذبات يتلثم قوم منهم بفضلها وهم عرب المشرق

(١) الدفء : ماستدفئ به من الاكسية والاخبية وغير ذلك (٢) الاثاث : متاع البيت واحدها اثاثه
(٣) حمارة القيظ شدته وصبارة البرد شدته أيضاً (٤) انتجاعا : طلباً للكلاء فى موضعه
(٥) ارتياداً أى طلبا (٦) الارياف : جمع ريف بالكسر ارض فيها زرع وخصب
(٧) الكلاء مهموز : العشب رطبا كان أو يابسا والجمع الكلاء مثل سبب وأسباب وموضع كالئ ومكلئ فيه الكلاء (٨) السابلة من الطرق المسلوكة والقوم المختلفة عليها وأسبلت الطريق كثرت سابلتها

وقوم يلفون منها الليتَ (١) والاخدَعَ (٢) قبل لبسها ثم يتلثمون بما تحت أذقانهم من فضلها وهم عرب المغرب حاكوا بها عمائم زِنَاتَةَ (٣) من أمم البربر قبلهم وكذلك لقنوا منهم فى حمل السلاح اعتقال الرماح الخطية (٤) وهجروا تنكب القسى (٥) وكان المعروف لأولهم ومن بالمشرق لهذا العهد منهم استعمال الأمرين. انتهى المقصود من نقله وهذا هو المشهور، وعليه من أهل اللغة الجمهور.

معنى الجاهلية وما تطلق عليه

الجاهلية الزمان الذى كثر فيه الجهال وهى ما قبل الاسلام وقيل: أيام الفترة وهى الزمن بين الرسولين، وقد تطلق على زمن الكفر مطلقاً وعلى ما قبل الفتح وعلى ما كان بين مولد النبى والمبعث «وعن ابن خالويه» أن هذا اللفظ اسم حدث فى الاسلام للزمن الذى كان قبل البعثة «قال العسقلانى» فى شرحه على البخارى: وهذا هو الغالب ومنه (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) ثم قال: وأما جزم النووى فى عدة مواضع فى شرح مسلم أن هذا هو المراد حيث أتى. ففيه نظر فان هذا اللفظَ وهو الجاهلية يطلق على ما مضى والمراد ما قبل اسلامه وضابط آخره فتح مكة انتهى. وتفصيلُ الكلام أن لفظ الجاهلية قد يكون اسماً للحال وهو الغالب فى الكتاب والسنة وقد يكون اسماً لذى الحال فمن الأول قول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لأبى ذَرّ «انك امرؤ فيك جاهلية» وقول عُمَرَ رضى الله تعالى عنه: انى نذرت فى الجاهلية أنْ اعتكف ليلة، وقول عائشةَ رضى الله تعالى عنها: كان النكاح فى الجاهلية على أربعة أنحاء. وقولهم: يارسول الله كنا

(١) الليت بالكسر: صفحة العنق (٢) الاخدع عرق فى المحجمتين وهو شعبة من الوريد (٣) زناته بالكسر: قبيلة بالمغرب منها الزناتى المنجم (٤) الرماح الخطية: منسوبة الى خط اسم أرض، قال الاصمعى: لاأعلم إلام نسبة الخط وهى جزيرة بالبحرين اليها تنسب الرماح الا ان يقال ان سفن الرماح ترفأ الى هذا الموضع فقيل للرماح خطية (٥) تنكب القسى بكسر القاف: جمع قوس وهو يذكر ويؤنث، يتنكبها القاها على منكبه

فى جاهلية وشر ، أى فى حال جاهلية أو طريقة جاهلية أو عادة جاهلية ونحو ذلك فان الجاهلية وإن كانت فى الأصل صفة ولكن غلب عليه الاستعمال حتى صار اسماً ومعناه قريب من معنى المصدر . وأما الثانى فتقول : طائفة جاهلية وشاعر جاهلى وذلك نسبة الى الجهل الذى هو عدم العلم أو عدم اتباع العلم ، فأما من لم يعلم الحق فهو جاهل جهلاً بسيطاً فان اعتقد خلافه فهو جاهل جهلاً مركباً فان قال خلاف الحق عالماً بالحق أو غير عالم فهو جاهل أيضاً كما قال تعالى (واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) وقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « اذا كان أحدُكم صائماً فلا يرفُثْ ولا يجهل » ومن هذا قول عمرو بن كُلثوم فى قصيدته :

أَلا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا * فَنَجْهَلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا

أى لا يسفه أحد علينا فنسفهَ عليهم فوق سفههم أى نجازيهم بسفههم جزاءً يرْبى عليه ، واستعمال هذا اللفظ بهذا المعنى كثير وكذلك من عمل بخلاف الحق فهو جاهل وإن علم أنه مخالف للحق ، كما قال سبحانه (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : كل من عمل سوءاً فهو جاهل وإن علم أنه مخالف للحق ، وسبب ذلك أن العلم الحقيق الراسخ فى القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعفه فى القلب بمقاومة ما يعارضه وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فتصير جهلاً بهذا الاعتبار ومن هنا تعرف دخول الأعمال فى مسمى الايمان حقيقة لا مجازا وإن لم يكن كل من ترك شيئاً من الأعمال كافراً ولا خارجا عن أصل مسمى الايمان وكذلك اسم العقل ونحو ذلك من الأسماء ولهذا يسمى الله تعالى أصحاب هذه الأحوال موتى وعُمْيا وبُكْماً وصُمّا وضالين وجاهلين ويَصِفُهم بانهم لا يعقلون ولا يسمعون ويَصِفُ المؤمنين بأولى الالباب وأولى النهى وأنهم مهتدون وأن لهم نوراً وأنهم يسمعون ويعقلون . فاذا تبين ذلك فالناس قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم فى حال جاهلية جهلاً منسوبا الى الجاهل

فانّ ما كانوا عليه من الاقوال والاعمال انما أحدثه لهم جاهل وانما يفعله جاهل . وكذلك كل مايخالف ماجاءت به المرسلون من يهودية أو نصرانية فهى جاهلية وتلك كانت الجاهلية العامة فاما بعد مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم فالجاهلية المطلقة قد تكون فى مصر دون مصر كما هى فى دار غير الاسلام وقد تكون فى شخص دون شخص كالرجل قبل أن يسلم فانه فى جاهلية وإن كان فى دار الاسلام فاما فى زمان مطلقا فلا جاهلية بعد بعث محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فانه لا تزال من امته طائفة ظاهرين على الحق الى قيام الساعة والجاهلية المقيدة قد تقوم فى بعض ديار المسلمين وفى كثير من الاشخاص المسلمين كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم أربع فى امتى من أمر الجاهلية لايتركونهن : الفخر بالاحساب والطعن فى الانساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة . وقال لابى ذرّ لما عَيَّر رجلاً بامه « انك امْرُؤٌ فيك جاهلية » فهذه كلها جاهلية وان كان لفظ الجاهلية لا يقال غالباً الا على حال العرب التى كانوا عليها قبل الاسلام ، لما كانوا عليه من مزيد الجهل فى كثير من الاعمال والاحكام ، روى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال : اذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ مافوقَ الثلاثين ومائة فى سورة الانعام « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرّموا مارزقهم الله افتراء على الله قد ضلّوا وما كانوا مهتدين » وقد اختلف المفسرون فى المراد من الجاهلية الاولى فى قوله تعالى « وَقَرْنَ فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى » فقيل : كانت فى الزمن الذى ولد فيه ابراهيم عليه السلام فقد كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال . وقال الحكم بن عُيَيْنَة[1] : كانت بين آدم ونوح وهى ثمانمائة سنة وحكيت لهم سيرة ذميمة . وقال ابن عباس : مابين نوح وادريس . وقال الكلبى : مابين نوح وابراهيم قيل ان المرأة كانت تلبس الدرع من اللؤلؤ غير مخيط الجانبين

(١) كذا فى الاصل ولعله عتيبة وهو الامام الحكم بن عتيبة الكندى

وتلبس الثياب الرقاق ولا توارى بدنها وقالت فرقة: مابين موسى وعيسى . وقال الثعلبى: مابين عيسى ومحمد صلى الله تعالى عليه وسلم . وقال ابو العالية هى زمان داود وسليمان عليهما السلام كان للمرأة قميص من الدر غير مخيط الجانبين . وكان النساء يُظْهِرْنَ ما يقبح اظهاره حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وخِلّها فينفرد خِلُّها بما فوقَ الازار وينفرد زوجها بما دونَ الازار الى أسفل وربما سأل أحدهما صاحبه البدل . وقال مجاهد : كانت النساء يمشين بين الرجال فذلك التبرج . قال ابن عطية : والذى يظهر عندى أنه تعالى أشار للجاهلية التى أدركنها فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها وهى ما كان قبل الشرع من سيرة الكفار لانهم كانوا لاغيرة عندهم فكان أمر النساء دون حجبة وجعلها أولى بالنسبة الى ما كنّ عليه . وليس المعنى أن ثمّ جاهلية أخرى وقد أوقع لفظ الجاهلية على تلك المدة التى قبل الاسلام كما لايخفى

بيان فضل جنس العرب وما امتازوا به

اعلم أن كمال كل نوع انما هو بحصول صفاته الخاصة به وصدور آثاره المقصودة منه وبحسب زيادة ذلك ونقصانه يفضل بعض أفراده بعضا ، إلى أن يُعدَّ أحدهما سماء والآخر أرضاً ، والانسان مشارك لسائر الأجسام فى الحصول فى الحيز والفضاء ، وللنباتات فى الاغتذاء والنشو والنماء ، وللحيوانات العجم فى حيويته بأنفاسه ، وحركته بارادته واحساسه ، وانما يتميز بما أعطى من القوة النطقية ، وما يتبعها من العقل والعلوم الضرورية ، والاعمال الصالحة المرضية ، وأهليته للنظر والاستدلال ، وترقيه بذلك فى مدارج الكمال ، وعلمه بما أمكن واستحال ، فاذا كماله انما هو بتعقل المعقولات ، واكتساب المجهولات ، وبالاخلاق الحسنة التابعة للاعمال الصالحات ، فللانسان فضل على سائر الحيوانات كلها فى نفسه وجسمه ، « أما فضله فى نفسه » فبالقوة المفكرة التى بها العقل والعلم والحكمة

والتدبير والرأى فان البهائم وان كان كلها يحس وبعضها يتخيل فليس لها فكرة ولا روية ولا استنباط المجهول بالمعلوم ولا تعرف عللَ الاشياء ولا أسبابها وليس فى قوتها تعلّم الصناعات الفكرية وانما يتعلم بعضها بعض الصناعات المتخيلة فاقواها فى ذلك الفيلُ والقِرْد . « وأما فضله فى جسمه » فباليدِ العاملة واللسان الناطق وانتصاب القامة الدال على استيلائه على كل ما أوجد فى هذا العالم ، وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » وقوله « وصوّركم فأحسن صوركم » ولم يَعْنِ الصورةَ التخطيطيةَ فقط بل عناها والصورةَ المعقولة ولتشريفه تعالى أياه بذلك قال « ولقد كرمنا بنى آدمَ وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ومن زعم أن الانسانَ خُلِقَ خلقةً ناقصة عن الوحشيات من حيث إنه لم يكف الملبس كما كفيته ولم يُعْطَ سلاحاً فى ذاته كما اعطِىَ كثيرٌ منها فنظره ناقص ، اذ قد أُعطى الانسان بدل ذلك التمييز الذى يمكنه أن يتخذ به كل ملبس وكل سلاح حَسْبَ مايريده فيتناوله متى أراد ويضَعُهُ متى أحب ثم لو أعطى الانسان بعض الاسلحة التى أعطيته لم يمكنه أن يستعمل غيره كالوحشيات وأيضاً فلو أعطى ذلك لكان من الحق أن لايعطى التمييز لانه حينئذ كان يستغنى عنه فتبطل فائدته وفعلُ الله تعالى منزه عن ذلك ؛ إن قيلَ كيف قال تعالى « خلق الانسان ضعيفا » فاستضعفه قيل ضعفه بالاضافة الى الملأ الاعلى لما فيه من الحاجات البدنية التى كفيها ، فاذا كان مناط الفضيلة ماذكرناه ففضل جنس العرب على غيرهم بسبب ما اختصوا به فى عقولهم وألسنتهم واخلاقهم واعمالهم ؛ وذلك أن الفضل إما بالعلم النافع وإما بالعمل الصالح والعلم له مبدأ وهو قوة العقل الذى هو الحفظ والفهم وتمام وهو قوة المنطق الذى هو البيان والعبارة والعرب هم أفهم من غيرهم وأحفظ وأقدر على البيان

(أما كمالهم فى الفهم) فلانهم كانوا لايبارون قوة ذكاء واصابة حدس

وحدة ألمعية وصدق فراسة يخبرون عن الغائب بقوة ذكائهم كأنْ قد شاهدوه ، ويصف لهم الحدس الصائب حال الورد قبل أن يردوه ، ويثبتون أبعد شيء بحدة ألمعيتهم كأن ليس ببعيد . وينظم لهم المجهول صدق فراستهم فى سلك المعروف منذ زمان مديد ، وقد كان منهم فى الازمنة المتأخرة من هو دون السابقين بمراتبَ كثيرة ومع ذلك يتفطنون للرمزة والدقيقة ويتنبهون من اللحظة الخفية والاشارة اللطيفة كما يحكى أن سليمانَ بنَ عبدِ الملك أتى باسارى وكان الفرزدقُ حاضراً فامره سليمان بضرب واحدٍ منهم فاستعفى فما عفى وقد اشير الى سيف غير صالح للضرب ليستعمله فقال الفرزدق : بل أضرب بسيف ابى رَغْوان [1] سيفِ مُجاشعٍ يعنى نفسه وكأنه قال : لا يستعمل ذلك السيف الاظالم أو ابن ظالم ، ثم ضرب بسيفه الاسيرَ وانفق أن نبا السيفُ فضحك سليمان ومن حوله

فقال الفرزدق

أيعجب الناس أن أضحكت سيدَهم خليفةَ الله يُسْتَسْقى به المطرُ
لم يَنْبُ [2] سيفى من رُعْب ولا دَهَش عن الاسير ولكن اخرَّ القَدَرُ
ولن يقدّمَ نفساً قبل ميتتها جمع اليدين ولا الصَّمْصامة [3] الذكر

ثم اغمد سيفه وهو يقول :

ما إنْ يعاب سيدٌ اذا صبا [4] ولا يعاب . صارمٌ اذا نبا
ولا يعاب شاعر اذا كبا [5]

ثم جلس يقول : كأنى بابن المراغة قد هجانى فقال :

---

(١) رغوان لقب مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، لقب به لفصاحته وجهارة صوته ، ويقال وقالت امرأة سمعته : ماهذا الا يرغو ، فلقب رغوان

(٢) لم ينب : أى لم يكل عن الضريبة ، قال الشاعر

اما السيف الا ان للسيف نبوة ومثلى لاتنبو عليك مضاربه

(٣) الصمصامة : السيف لاينثنى كالصمصام والذكر أيبس الحديد واجوده وأشده كالذكير كامير وهو خلاف الانيث وبذلك يسمى السيف مذكراً (٤) صبا الى المراة صبوة وصبوة وصبواً حن ، واصبته وتصبته شاقته ودعته الى الصبا فحن اليها (٥) كبا : انكب على وجهه

بسيف ابى رَغوان سيفِ مجاشع   ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

وقام وانصرف وحضر جرير فخبر الخبر ولم ينشد الشعر فانشأ يقول :

بسيف ابى رَغْوانَ سيفِ مُجاشع   ضربتَ ولم تَضْرِب بسيفِ ابن ظالم

فاعجب سليمان ماشاهد ثم قال: يا أمير المؤمنين كأنى بابن القين قد اجابنى فقال :

ولا نقتُل الأسرى ولكن نفكهم   اذا أثقل الاعناقَ حملُ المغارم

ثم اخبر الفرزدق بالهجو دون ماعداه فقال مجيباً :

كذاك سيوف الهند تنبو ظُباتُها [١]   وتقطع أحيانا مناطَ التمائم

ولا نقتُل الأسرى ولكن نفكهم   اذا أثقل الاعناقَ حملُ المغارم

وهل ضربة الرومى جاعلة لكم   أبا عن كليب أو اخاً مثلَ دارم

وما يحكى أن ذا الرُّمَّة استرفد [٢] جريراً فى قصيدته التى مستهلها :

نبت عيناك عن طَلَل [٣] بِحُزْوى [٤]   عفتْه الريحُ وامتنح القَطارا

عدة ابيات فقالها له وهى هذه :

يعد الناسبون الى تميم   بيوتَ المجد اربعةً كبارا

يعدون الربابَ [٥] وآلَ بكر   وعمراً ثم حنظلةَ [٦] الخيارا

---

(١) جمع ظبة وظبة السيف حده (٢) الاسترفاد والمرافدة : أخذ الشعر هبة (٣) طلل محركة الشاخص من آثار الدار والجمع اطلال وربما قيل طلول (٤) حزوى كقصوى اسم موضع قال ذو الرمة :

اداراً بحزوي هجت للعين عبرة   فماء الهوى يرفض أو يترقرق

وعفته الريح : درسته ومحته ، وامتنح اخذ العطاء ، وامتنح مالا رزقه ، والقطار المطر قال الزمخشرى : ومن المجاز منحت الارض القطار ثم أنشد البيت (٥) الرباب بالكسر خمس قبائل تجمعوا فصاروا يداً واحدة وهم ضبة وثور وعكل وتيم وعدى ، وانما سموا بذلك لانهم غمسوا ايديهم فى رُب وتحالفوا عليه ، وقيل سموا به لانهم تربوا أى تجمعوا والنسبة اليهم ربى بالضم لان الواحد منهم ربة لانك اذا نسبت الشىء الى الجمع رددته الى الواحد الا ان تكون سميت به رجلا فلا ترده الى الواحد كما يقال فى انمار انمارى وفى كلاب كلابى (٦) حنظلة أكرم قبيلة من تميم يقال لهم حنظلة الاكرمون وابوهم حنظلة بن مالك بن عمرو بن تميم ينسب اليه العنبر والهجيم والحرث الحبط ومالك وغيرهم ، وآل بكر بطن من ربيعة من العدنانية وفيهم العدد والشهرة

ويذهب فيهما المرّىّ لغواً كما ألغيتَ فى الدية الحُوارا [1]

فضمنها القصيدةَ وهى اثنان وخمسون قافيةً . ثم مر به الفرزدق فاستنشده إياها فأخذ ينشدها والفرزدق يستمع لا يزيد على الاستماع حتى بلغ هذه الابياتَ الثلاثةَ استعادها منه الفرزدق مرتين ثم قال: والله لقد علكهُنّ من هو أشدمنك لحيين . وما يحكى أن عمر بن لجأ [2] أنشد جريراً شعراً فقال : ما هذا شعرك هذا شعر حنظلى . ولا تسأل عن فطانتهم المنتهية على الرمزة اللطيفة ، وحدة نظرهم الداركة للمحة الضعيفة ، كما يترجم عن ذلك الروايات عنهم المشهورة ، يروى أن فَزاريًّا ونميريًّا تسايرًا فقال الفَزارى للنميرى : غُضَّ لجامَ فرسِك. فقال : إنها مكتوبة. وانما أراد الفَزارى ما قيل فى بنى نُمَير :

(١) الحوار بالضم وقد يكسر : ولد الناقة ساعة تضعه أو الى ان ينفصل عن امه والمرى المنسوب الى بنى مرة ، والدية بالكسر حق القتيل والهاء عوض من الواو (٢) عمر بن لجأ قال المجد لجأ جد عمر بن الاشعث لا والده ووهم الجوهرى ، قال الزبيدى : وهذا الذي ذكره الجوهرى هو الذى اطبق عليه أئمة الانساب واللغة ، قال البلاذرى فى معاجم الاشراف ما نصه : وولد ذهل ابن تيم بن عبد مناة بن اد بن طابخة سعد بن ذهل فولد سعد ثعلبة بن سعد وجشم بن سعد وبكر بن سعد فولد ثعلبة امرأ القيس بن ثعلبة فولد امرؤ القيس جلهم ، منهم عمر بن لجأ بن حدير بن مصاد بن ذهل بن تيم بن عبد مناة بن اد الشاعر ، وكان يهاجى جرير بن عطية بن الخطفى وكان سبب تهاجيهما ان ابن لجأ أنشد جريراً بالىمانية :

تجر بالاهون فى أدنائها ☆ جر العجوز جانبي خبائها

فقال له جرير : هلا قلت : جر العروس طرفى ردائها ، فقال ابن لجأ فأنت الذى تقول :

لقومى احمى للحقيقة منكم ☆ واضرب للجبار والنقع ساطع

واوثق عند المردفات عشية ☆ لحاقاً اذا ما جرد السيف مانع

أرأيت اذا أخذن غدوة ولم تلحقهن الاعشية وقد نكحن فما غناؤهم فتحاكما الى عبيد بن غاضرة العنبرى فقضى على جرير فهجاه بشعر مذكور في الكتاب المذكور وكذا جواب ابن لجأ . ومات عمر بن لجأ بالاهواز وبينهما مفاخرات ومعارضات حسنة ليس هذا محل ذكرها . وقد عرفت من كلام البلاذرى ان لجأ والده لا جده وعلى التسليم فان مثل ذلك لا يعترض به لانه كثيراً ما ينسب الرجل الى جده لكونه أشهر أو أفخر أو غير ذلك من الاغراض ، ألا ترى الى قول النبى صلى الله عليه وسلم « انا النبي لا كذب انا ابن عبد المطلب » وأمثلة ذلك لا تحصى والله أعلم — وانظر الاغانى (ج ٧ ص ٤١ و ٤٢ و ٦٤)

فغض الطّرف[١] انك من نمَيْر فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وانما عنى النميرى ما قيل فى بنى فَزارة :

لا تأمنن[٢] فَزاريا خَلَوْتَ به على قَلوصِك وا كتُبْها باسيار[٣]

وأن واحداً من نمير هو شريك النميرى لقى رجلا من تميم فقال له التميمى يعجبنى من الجوارح البازى : قال شريك :وخاصةً ما يصيد القطا أراد التميمى بقوله البازى :

أنا البازى[٤] المطل على نمير أتيح من السماء له انصبابا

وعنى شريك بذكر القطا قولَ الطِّرِمّاح :

(١) قال ابن رشيق : وممن وضعه ماقيل فيه من الشعر حتى انكسر نسبه وسقط عن رتبته وعيب بفضيلته بنو نمير وكانوا جمرة من جمرات العرب اذا سئل أحدهم ممن الرجل فخم لفظه ومد صوته وقال من بنى نمير الى أن صنع جرير قصيدته التى هجا بها عبيد بن حصين الراعى فسهر لها وطالت ليلته الى أن قال : فغض الطرف الخ فاطفأ سراجه ونام وقال : قد والله أخزيتهم آخر الدهر ، فلم يرفعوا رأساً بعدها الا نكس بهذا البيت حتى ان مولى لباهلة كان يرد سوق البصرة ممتاراً فيصيح به بنو نمير ياجوذاب باهلة فقص الخبر على مواليه وقد ضجر من ذلك فقالوا له اذا نبزوك فقل لهم فغض الطرف الخ . . ومر بهم بعد ذلك فنبزوه واراد البيت فنسيه فقال غمض والا جاءك ماتنكره فكفوا عنه ولم يعرضوا له بعدها

ومرت امرأة ببعض مجالس بني نمير فرادوا النظر اليها فقالت : قبحكم الله يابنى نمير ماقبلتم قول الله عز وجل (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) ولاقول الشاعر فغض الطرف الخ

وهذه القصيدة تسميها العرب الفاضحة وقيل سماها جرير الدامغة تركت بنى نمير ينتسبون بالبصرة الى عامر بن صعصعة ويتجاوزون اباهم نميراً الى ابيه هرباً من ذكر من نمير وفراراً مما وسم من الفضيحة والوسمة

(٢) البيت لابن دارة يعير به بنى فزارة بغشيان الابل والقلوص من الابل الشابة أو الباقية على السير أو أول ما يركب من اناثها الى أن تثنى ثم هى ناقة والناقة الطويلة القوائم خاص بالاناث والجمع قلائص وقلص (٣) اكتبها باسيار : أى شد حياءها أى اختمه باسيار جمع سير

(٤) البازى بالياء مخففاً ضرب من الصقور وهو أفصح لغاته ثم البازى بالياء مشددة كما حكاه ابن سيده ويكنى بابى الاشعث وابى البهلول وابى لاحق وهو من أشد الحيوانات تكبراً واضيقها خلقاً وفى عجائب المخلوقات للقزوينى انه لا يكون الا انثى وذكرها من نوع آخر من الحداة والشواهين ولهذا اختلفت اشكاله انتهى ويضرب به المثل فى نهاية الشرف كما فى قوله :

اذا ما اعتز ذو علم بمال فعلم الفقه أولى باعتزاز

وكم طيب يفوح ولا كمسك ولا طير يطير ولا كبازي

وقوله المطل يقال اطل عليه اذا اشرف واتيح له الشيء قدر أو هيىء له والانصباب الانحدار

تميم بطرق اللؤم اهدى من القطا ولو سلكت سُبُلَ المكارم ضلتِ

وأن معاوية قال للأحنف : ما الشيء الملفف فى البجاد ؟ فقال : السخينة ، وانما أراد معاوية قول القائل :

اذا ما مات ميت من تميم فسرك أنْ يعيش فجىءْ بزادِ
بخبز أو بتمر أو بسمْن أو الشيء الملفَّف فى البجاد
تراه يطوف فى الآفاق حرْصاً ليأ كل رأس لقمان بن عاد

وكان الأحنف من تميم وانما أراد الأحنف بالسخينة وهى حساء يؤكل عند غلاء السعر وكان قوم معاوية يقتصرون عليه ، رمَيَهمْ بالبخل . وأن رجلا من بنى مُحارب دخل على عبد الله بن يزيد الهلالى فقال عبد الله ماذا لقينا البارحة من شيوخ محارب ما تركونا ننام وأراد قول الأخطل :

تكِشُ(١) بلا شيء شيوخُ محارب وما خلْتُها كانت تريشُ ولا تبرى
ضفادع فى ظلماء ليل تجاوبتْ فدل على صوتها حيَّة البحر

فقال : أصلحك الله تعالى أضلوا البارحة بُرْقعاً فكانوا فى طلبه أراد قول القائل :

لكلّ هلالىٍ من اللؤم برقع ولابن يزيدٍ برقعٌ وجلالُ

---

(١) يقال كش الضب والضفدع يكش كشيشاً صوت وخال ظن وفلان لايريش ولايبرى أى لايضر ولاينفع والضفدع حيوان نهري وفى الامثال قالوا : انق من ضفدع ، قال عبد القاهر : والثعبان يستدل بصياح الضفدع عليه فيأتى على صياحه فيأ كله وانشد فى ذلك :

يجعل فى الاشداق ماء ينصفه حتى ينق والنقيق يتلفه

ينصفه بضم الياء وليس المراد هنا العدل بل المراد حتى يبلغ نصف فكه الاعلى ، وقوله والنقيق يتلفه اراد به الضفادع اذا صاحت يتبعها الثعبان فيجىء فيأ كلها كما قال القائل : ضفادع فى ظلماء البيت وحية البحر الافعى التى تكون فى البر وهى تعيش فى البر والبحر ومحارب فيها ضعة وخمول ، وعليه قول اسمعيل بن عمار الاسدى :

نكت دار بشر شجوها اذ تبدلت هلال بن مرزوق ببشر بن غالب
وهل هى الامثل عرس تبدلت على رغمها من هاشم فى محارب

يقول ماهى فى استبدالها الا كعروس زوجت فى بنى هاشم ثم انتقلت فى محارب حتى قال بعض الشعراء وهو يحلف فصيرنى ربى اذاً من محارب

وان رجلا وقف على الحسن ابن أبي الحسين(١) البصري رحمة الله عليه فقال أعتمرُ أخرُجُ أبادرُ . فقال : كذبوا عليك ما كان ذلك إن السائل أراد عثمان أخرج أبا ذرّ . وان الحسن بن وهب نهض ذات ليلة من مجلس ابن الزيات . فقال سُحيْرُ أي بت بخير فقال له ابن الزيات : بِدَيِه ، أي بت به . وما ظنك بكياسة جيل قد بلغت من الذكاء نساؤهم الى حد نقدُهن للكلام ما يحكى أنشدت واحدة وكانت الخنساء(٢)

(١) كذا في الاصل وفي المفتاح : بن الحسن

(١) اقول : ان المصنف نقل هذه القصة عن (مفتاح العلوم) للامام السكاكي والصحيح انها وقعت للنابغة الذبياني مع حسان بن ثابت (رض) على مانقل كثير من ائمة الادب ، منهم أبو عبد الله المرزباني في (الموشح) وابن ابي الاصبع في باب (الافراط في الصنعة) من كتاب (تحرير التحبير) وابو الفرج الاصبهاني في (الاغاني) والرضي في (الكافية) والشيخ عبد القادر البغدادي في (خزانة الادب) والامام سيبويه في (الكتاب) وغيرهم ... قال المرزباني في (الموشح) : كتب الى احمد بن عبد العزيز اخبرنا عمر بن شبة حدثني ابو بكر العليمي حدثنا عبد الملك بن قريب قال : كان النابغة الذبياني تضرب له قبة حمراء من أدم بسوق (عكاظ) فتأتيه الشعراء فتعرض عليه اشعارها . قال : فاول من أنشده حسان بن ثابت الانصاري :

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى   واسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابن محرق   فأكرم بنا خالا واكرم بنا ابنما

فقال له النابغة : انت شاعر ولكنك اقللت جفانك واسيافك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك .. وحدثني علي بن يحيي حدثنا احمد بن سعيد حدثنا الزبير بن بكار حدثني عمي مصعب بن عبد الله قال انشد حسان ، نابغة بني ذبيان ، قصيدته التي يقول فيها لنا الجفنات الغر فقال له : ماصنعت شيئاً قللت امركم فقلت جفنات وأسياف .. واخبرني الصولي قال حدثني محمد بن سعيد ومحمد بن العباس الرياشي عن الاصمعي عن ابي عمرو بن العلاء قال : كان النابغة الذبياني تضرب له قبة بسوق عكاظ من أدم فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها فاتاه الاعشى فكان أول من أنشده ثم أنشده حسان بن ثابت قصيدته التي منها : لنا الجفنات الغر وذكر البيتين فقال له النابغة : انت شاعر ولكنك اقللت جفانك واسيافك وفخرت بمن ولدت ولم تفتخر بمن ولدك .. قال الصولي فانظر الى هذا النقد الجليل الذي يدل عليه نقاء كلام النابغة وديباجة شعره لانه قال وأسيافنا ، وأسياف جمع لادنى العدد والكثير سيوف والجفنات لادنى العدد والكثير جفان وترك الفخر بآبائه وفخر بمن ولد نساؤه ، قال : ويروى أن النابغة قال له اقللت اسيافك ولمعت اجفانك يريد قوله لنا الجفنات الغر والغرة لمعة بياض في الجفنة فكأن النابغة عاب هذه الجفان وذهب الى انه لو قال لنا الجفنات البيض فجعلها بيضا كان احسن فلعمري انه حسن في الجفان الا ان الغر اجل لفظاً من البيض .. قال أبو عبد الله المرزباني : وقال قوم ممن انكر هذا البيت في قوله يلمعن بالضحى ولم يقل بالدجى وفي قوله وأسيافنا

لنا الجفناتُ الغرّ يلمعن بالضحى　　وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فقالت أى فخر يكون فى أن له ولعشيرته ولمن ينضوى اليهم من الجفان ما نهايتها فى العدد عشرة وكذا من السيوف ألا استعمل جمع الكثرة الجفان والسيوف . وأى فخر فى أن تكون جفنة وقت الضحوة — وهو وقتُ تناول الطعام — غرّاء لامعةً كجفان البائع أما يُشبه ان قد جعل نفسه وعشيرته بائعى عدة جفنات ، ثم أنى يصلح للمبالغة فى التمدح بالشجاعة وأنه فى مقامها يقطرن اما كان يجب أن يتركها الى يَسِلْن أو يفِضْنَ أو ما شا كل ذلك . وقداجتمع راوية جرير وراوية كُثيّر وراوية جميل وراوية نصيبٍ وأُخذيتصعب كل واحدلصاحبه ويجمع له فى البلاغة قصبَ الرهان فحكّموا واحدة وكانت سُكيْنةَ . فقالت لراوية جرير : أليس صاحبُك القائل :

طرقتك صائدةَ القلوب وليس ذا　　حين الزيارة فارجعى بسلام

وأى ساعة أولى بالزيارة من الطروق (١) قبح الله صاحبك وقبح شعره . ثم قالت لراوية كُثيّر : أليس صاحبُك الذى يقول :

يقرُّ بعينى ما يقر بعينها　　وأحسن شىءٍ مابه العينُ قرّت

وليس شىءٌ أقرّ لعيونهن من النكاح أفيحبُّ صاحبك أن يُنكحَ قبح الله صاحبك وقبح شعره . ثم قالت لراوية جميل : أليس صاحبك الذى يقول :

يقطرن ولم يقل يجرين لان الجرى أكثر من القطر وقد رد هذا القول واحتج فيه قوم لحسان بما لاوجه لذكره فى هذا الموضع فأما قوله فخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك فلا عذر عندى لحسان فيه على مذهب نقاد الشعر ، وقد احترس من مثل هذا الزلل رجل من كلب فقال يذكر ولادتهم لمصعب بن الزبير وغيره ممن ولده نساؤهم :

وعبد العزيز قد ولدنا ومصعبا　　وكلب ابٌ للصالحين ولود

فانه لما فخر بمن ولده نساؤهم فضل رجالهم واخبر انهم يلدون الفاضلين وجمع ذلك فى بيت واحد واجاد ، انتهى والتفصيل فى خزانة الادب ولب لباب لسان العرب للامام عبد القادر البغدادى (٣ — ٤٣٠)

(١) الزيارة ليلا قال الشاعر :

الا طرقتنا مية ابنة منذر　　فما ارق النيام الا سلامها

فلو تركتْ عقلي معي ماطلبتها ... وان طلابيها لما فات من عقلي

فما أرى لصاحبك هوى انما طلب عقله قبح الله صاحبك وقبح شعره . ثم قالت لراوية نُصَيْب : أليس صاحبك الذى يقول :

أهيم بدعدٍ ماحييت فان أمت ... فياويح نفسي من يهيم بها بعدى

أما كان لصاحبك همّ الاهم من يهيم بها قبح الله صاحبك وقبح شعره ، ألا قال :

أهيم بدعد ما حييتُ فان أمت ... فلاصلحتْ دعد لذى خلة بعدى

بل قد وصل العرب فى الفطنة والذكاء وحسن الفهم الى ما كاد أن يصل الى حد الاعجاز . وفى الاغانى لأبى فرج الأصبهانى بسنده الى عبد الملك بن عمير . قال قدم علينا عمرو بن هبيرة الكوفة فأرسل الى عشرة أنا أحدهم من وجوه الكوفة فسمروا عنده ، ثم قال : ليحدثنى كل رجل منكم احدوثة وأبدأ أنت يا أبا عمرو ، فقلت : أصلح الله الأمير أحديث الحق أم حديث الباطل . قال : بل حديث الحق . قلت : ان امرأ القيس آلى[1] بألية أن لا يتزوج امرأةً حتى يسألها عن ثمانية وأربعة وثنتين فجعل يخطبُ النساء فاذا سألهن عن هذا قلن أربعة عشر فبينما هو يسير فى جوف الليل اذا هو برجل يحمل ابنةً له صغيرة كأنها البدرُ ليلة تمامه فأعجبته ، فقال لها يا جارية : ما ثمانية وأربعة واثنتان . فقالت : أما ثمانية فأطباء الكلبة[2] وأما أربعة فأخلافُ[3] الناقة ، وأما ثنتان فثديا المرأة . فخطبها الى أبيها فزوجه اياها ، وشرطت هى عليه أن تسأله ليلة بنائها عن ثلاث خصال فجعل لها ذلك وعلى أن يسوق اليها مائة من الابل وعشرة أعبُدٍ وعشر وصائف وثلاثة أفراس ففعل ذلك . ثم انه بعث عبداً له الى المرأة وأهدى

(١) آلى : أى أقسم ، وفى الاغانى انظر (ج ٨ ص ٧١ و ٧٢) من طبعة الساسى
(٢) الاطباء : جمع طبي لذات الخف والظلف كالثدى للمرأة ويطلق قليلا لذات الحافر والسباع
(٣) الاخلاف : جمع خلف من ذوات الخف كالثدى للانسان وقيل الخلف طرف الضرع

إليها نحياً[١] من سمن ونحياً من عسل وحلة[٢] من عصب[٣] فنزل العبد ببعض المياه فنشر الحُلة ولبسها فتعلقت بشعره فانشقت وفتح النحيين فطعم أهل الماء منهما فنقصا ثم قدم على حي المرأة وهم خُلوف[٤] فسألها عن أبيها وأمها وأخيها ودفع إليها هديتها. فقالت له: أعلم أي أخبر مولاك ان أبى ذهب يقرب بعيداً ويبعد قريباً، وأن أمى ذهبت تشق النفس نفسين وان أخى يراعى الشمس وان سماءكم انشقت وان وعاءيكم نضبا[٥] فقدم الغلام على مولاه فأخبره. فقال أما قولها: ان أبى ذهب يقرب بعيداً ويبعد قريباً فان أباها ذهب يحالف قوماً على قومه. وأما قولها: ذهبت أمى تشق النفس نفسين فان أمها ذهبت تقبل امرأة[٦] نفساء. وأما قولها: ان أخى يراعى الشمس فان أخاها فى سرح[٧] له يرعاه فهو ينتظر وجوب الشمس[٨] ليروح[٩] به. وأما قولها: ان سماءكم انشقت فان البُرْد الذى بعثت به انشق. وأما قولها: ان وعاءيكم نضبا، فان النحيين اللذين بعثت بهما نقصا، فاصدقنى، فقال: يا مولاى انى نزلت بماء من مياه العرب فسألونى عن نسبى فأخبرتهم انى ابن عمك ونشرت الحلة فانشقت وفتحت النحيين فأطعمت منهما أهل الماء فقال: أولى لك[١٠]. ثم ساق مائة من الابل وخرج

(١) النحى بالكسر الزق أو ما كان للسمن خاصة (٢) الحلة بالضم لا تكون الا ثوبين من جنس واحد (٣) العصب مثل فلس برد يصبغ غزله ثم ينسج، ولا يثنى ولا يجمع وانما يثنى ويجمع مايضاف اليه فيقال بردا عصب وبرود عصب والاضافة للتخصيص ويجوز أن يجعل وصفاً فيقال شريت ثوباً عصباً (٤) وهم خلوف بالضم وهم الذين ذهبوا من الحى

(٥) يقال نضب المال ينضب وينضب نضوباً ذهب فى الارض والمراد هنا نقصا

(٦) قبلت القابلة الولد تلقته عند خروجه قبالة بالكسر والجمع قوابل وامرأة قابلة وقبيل أيضاً

(٧) السرح المال السائم (٨) وجوب الشمس: أى غروبها (٩) أى ليرجع يقال راح يروح رواحاً وتروح مثله يكون بمعنى الغدو وبمعنى الرجوع وقد طابق بينهما فى قوله تعالى: غدوها شهر ورواحها شهر أى ذهابها ورجوعها، وقد يتوهم بعض الناس أن الرواح لا يكون الا فى آخر النهار وليس كذلك بل الرواح والغدو عند العرب يستعملان فى المسير أى وقت كان من ليل أو نهار، قاله الازهرى وغيره (١٠) أولى لك تهدد ووعيد، قال الاصمعى: أى قاربه ما يهلكه اى نزل به، ومنه قوله تعالى أولى لك فأولى، معناه التوعد والتهدد أى الشر أقرب اليك

نحوها ومعه الغلام فنزلا منزلا فخرج الغلام يسقى الابل فعجز فأعانه امرؤ القيس فرمى به الغلامُ فى البئر . وخرج حتى أتى المرأة بالابل وأخبرهم انه زوجُها فقيل لها : قد جاء زوجك فقالت : والله ما أدرى أزوجى هو أم لا ولكن انحروا له جزوراً[١] وأطعموه من كرشها وذنبها. ففعلوا فقالت : اسقوه لبناً حازراً . وهو الحامض فسقوه فشرب، فقالت : افرشوا له عند الفرث[٢] والدم. ففرشوا له فنام فلما أصبحت أرسلت اليه انى أريد أن أسألك ، فقال: سَلى عما شئت. فقالت: مِمَّ تختلج[٣] شفتاك ؟ قال : لتقبيلى إياك . قالت : فمم يختلج كشحاك[٤] ؟ قال : لالتزامى إياك . قالت : فمم يختلج فخذاك ؟ قال : لتوركى إياك . قالت : عليكم العبد فشدوا أيديكم به. ففعلوا . قال : ومرَّ قوم فاستخرجوا أمرأ القيس من البئر فرجع الى حيه فاستاق مائة من الابل وأقبل الى امرأته . فقيل لها : قد جاء زوجك . فقالت : والله ما أدرى أهو زوجى أم لا ولكن انحروا له جزوراً فاطعموه من كرشها وذنبها ففعلوا . فلما أتوه بذلك قال : وأين الكبد والسنام والملحاء .[٥] فأبى أن يأكل . فقالت : اسقوه لبناً حازراً. فأبى أن يشرب به وقال فأين الصريف[٦] والرثيئة[٧] . فقالت : افرشوا له عند الفرث والدم . فأبى أن ينام وقال : افرشوا لى فوق التلعة[٨] الحمراء واضربوا عليها خباء . ثم أرسلت اليه: هلم شريطتى عليك فى المسائل الثلاث. فأرسل اليها أن سلى عما شئت . فقالت : مم تختلج شفتاك ؟ قال : لشربى المشعشعات[٩] قالت : فممَّ يختلج كشحاك ؟ قال: للبسى الحبرات[١٠]

---

(١) الجزور من الابل خاصة يقع على الذكر والانثى والجمع جزر مثل رسول ورسل ويجمع أيضاً على جزرات ثم على جزائر ولفظ الجزور انثى يقال رعت الجزور قاله ابن الانبارى وزاد الصاغانى وقيل الجزور الناقة التى تنحر وجزرت الجزور وغيرها من باب قتل نحرتها

(٢) الفرث : السرجين (٣) تختلج : تضطرب وتتحرك (٤) الكشح مابين الخاصرة الى الضلع الخلف (٥) الملحاء : لحم فى الصلب من الكاهل الى العجز (٦) الصريف : اللبن ساعة حلب (٧) الرثيئة : اللبن الحامض يحلب عليه فيخثر (٨) التلعة : ماارتفع من الارض وما انبهط منها ضد والمراد هنا الاول (٩) المشعشع : الشراب الممزوج ، قال عمر بن كلثوم

مشعشعة كأن الحص فيها اذا ما الماء خالطها سخينا

(١٠) الحبرات جمع حبرة وزان عنبة ثوب يمانى من قطن أو كتان مخطط يقال بردحبرة

قالت : فمم يختلج فخذاك ؟ قال : لركضى المطهمات [1] . قالت : هذا زوجى لعمرى فعليكم به واقتلوا العبد . فقتلوه ودخل امرؤ القيس بالجارية . فقال ابن هبيرة : حسبكم فلا خير فى الحديث فى سائر الليلة بعد حديثك يا أبا عمرو ولن تأتينا بأعجب منه . فقمنا وانصرفنا وأمرلى بجائزة . وقال المبرد فى كتابه الموسوم (بالروضة) : كانت العرب تستدل باللحظة واللفظة ، فمن ذلك ماروى ان جميلا قال لِكُثَيِّرٍ : لو صرتَ الى بثينة فأخذتَ لى عنها موعداً . فقال : إنَّ غاشية عمها كثير . فقال : إن الحيلة تأتى من وراء ذلك . فأطرق كُثَيِّر إطراقة . ثم قال : متى كان آخر عهدك بها ؟ قال : يوم كذا . قال : فى أى موضع ؟ قال : فى واد يقال له «وادى الدوم» فأصاب ثوبها شىء فغسلته قال : فأتى الحى فجعل يتحدث اليهم حتى أتى عمها فحادثه وقال : أسمعك أبياتاً فى عزة حضرتنى قال : هاتِها . فأعلنَ إنشاده لتسمع بثينة وقال :

أقول لها يا عزُّ : أرسل صاحبى — على نأى دارٍ [2] والرسول موكل
بأنْ تجعلى بينى وبينك موعداً — وأنْ تأمُرِينى بالذى فيه أفعل
أما تذكرين العهد يوم لقيتكم — بأسفل وادى الدومْ والثوب يغسل

فعلمت انه إياها يقصدُ بالعلامة فصاحت : اخسأ [3] فصاح بها عمها ما خسأت ؟ قالت : كلباً يعترينا ليلا ثم رأيته الساعة . فرجع كثيّر الى جميل فقال : ائتها الليلة فانها ذكرت الليل . وقال ابن الاعرابى : أسرت طيّ ء رجلا شاباً من العرب فقدم عليه أبوه وعمه ليفدياه فاشتطوا [4] عليهما فى الفداء فأعطيا به عطية فلم يرضَوْا بها فقال أبوه : لا والذى جعل الفرقدين [5] يُصبحان ويُمسيان على جبل طيّ ء لا أزيدكم

على الوصف وبرد حبرة قال الازهرى ليس حبرة موضعاً أو شيئاً معلوماً انما هو وشى معلوم أضيف الثوب اليه كما قيل ثوب قرمز بالاضافة والقرمز صبغة فأضيف الثوب الى الوشى والصبغ للتوضيح (١) المطهمات : الخيل التامة الحسن (٢) النأى : البعد (٣) اخسأ : أى ابعد والخاسى من الكلاب المبعد لا يترك ان يدنو من الناس (٤) اشتطوا : أى جاروا عليه فى الطلب (٥) الفرقدان : نجمان فى السماء لا يغربان ولكنهما يطوفان بالجدى ، وقيل هما كوكبان قريبان من القطب ، وقيل هما كوكبان فى بنات نعش الصغرى

على ما أعطيتكم. ثم انصرفا ، فقال الأب للعم : لقد ألقيت الى ابنى كليمة لئن كان فيه خير لينجون بها. فما لبث أن نجا واطرد قطعة من ابلهم فذهب بها كأنه قال : الزم الفرقدين على جبل طيء فانهما طالعان عليه وهما لا يغيبان عنه . وفى كتاب الملاحن [1] : يروى عن ابن دريد فى أسير بكر بن وائل حيث سألهم رسولا الى قومه فقالوا : لا ترسل الا بحضرتنا. اشفاقاً منه أن يُنذرهم فقد كانوا هموا بغزو قومه فجىء بعبد اسود فقال له : أتعقل ؟ قال : نعم إني لعاقل. قال : ما أراك عاقلا. ثم قال : ما هذا ؟ وأشار بيده الى الليل فقال : هذا الليل فقال : أراك عاقلا . ثم ملأ كفيه من الرمل فقال : كم هذا ؟ قال : لا أدرى وإنه لكثير . قال : أيما أكثر النجوم أم النيران؟ قال : كلٌّ كثير . قال : أبلغ قومى التحية وقل لهم: أكرموا فلاناً — يعنى أسيراً كان فى أيديهم — فانهم لى مكرمون وقل لهم: ان العرفج قد أدبى وقد شكت النساء ومُرهم أن يعروا ناقتى الحمراء. فقد أطالوا ركوبها وأن يركبوا جملى الأصهب بآية ما أكلت معكم حيساً وسلوا الحارث عن خبرى . فلما أدى العبد اليهم الرسالة قالوا : قد جن الأعور . والله ما نعرف له ناقةً حمراء ولا جملاً أصهب. ثم سرحوا العبد ودعوا الحارث وقصوا عليه القصة فقال : قد أنذركم. أما قوله قد أدبى العرفج أى الرجال قد استلأموا ولبسوا السلاح . وقوله شكت النساء أى اتخذوا الشكاء للسفر والشكوة القربة الصغيرة . وقوله : اعروا ناقتى الحمراء . أى ارتحلوا عن الدهناء واركبوا الصمان وهو الجمل الأصهب . وقوله : أكلت معكم حيساً يريد أخلاطاً من الناس قد غزوكم لأن الحيس يجمع السمن والتمر والأقط . فامتثلوا ذلك وعرفوا ما قال . فأخذ هذا المعنى رجل كان أسيراً فى بنى تميم فكتب الى قومه ملغزاً فى الشعر يُنذرُهم .

(١) هو لابن دريد والملاحن الالغاز وهي المحاجاة لانها تظهر الحجى والمعاياة والرمز والمعمى ، قال الخفاجى : والمتأخرون من الادباء اصطلحوا على التفريق بينهما وهو ليس بأمر لغوى وقد تطلق على كناياتهم كقولهم للخمر اشقر وللماء أشهب الى غير ذلك مما ذكر فى كتاب الكناية لابن المكرم

خلوا عن الناقة الحمراء واقتعدوا ا ا عوْد الذى فى جنابى ظهره وقع

ان الذئاب قد اخضرّتْ برانثها والناس كلُّهُمُ بكر اذا شبِعوا

قال أبو عثمان الاشناندانى فى أبيات المعانى : أراد بالناقة الحمراء الدهناء وهى أرض لبنى تميم تشبيهاً بالناقة لتأتيها وسهولة ركوبها لانها أرض فلاة سهلة واقتعدوا العود أى اسكنوا الصمان وهو بلد لبنى تميم أرض غليظة صلبة . وانما شبهه بالعود لتذكير اسمه والعود المسن من الابل وجعل فى ظهره وقعاً وهو آثار الدبر فى ظهر البعير تشبيهاً للصمان بما قد وطئ وكثرت آثار الناس فيه بظهر بعير موقع . يقول امتنعوا بركوب الصمان لأنه وعر صلب يشق على الخيل أن تطأه ، والدهناء ممكنة . وأراد بالذئاب القوم الذين يغيرون عليهم ، شبههم بالذئاب لخفتهم وحرصهم على الغارة . وقوله قد اخضرت برانثها : يريد قد اخضرت الأرض وكثر العُشب فيها وأمكن الغزو والاقدام مخضرة من الكلأ . فجعل الاقدام برائن . وقوله والناس كلهم بكر اذا شبعوا : يريد ان بكر بن وائل أشد الناس عداوة لبنى تميم يقول : اذا شبعوا وأخصبوا فعداوتهم كعداوة بكر . ومن الغريب فى هذا الباب ما روى المرزبان أن رجلا كثير المال صحب عبدين فى سفر فلما توسطا الطريق همّا بقتله فلما صح ذلك عنده . قال أقسمُ عليكما اذا كانا لا بد لكما من قتلى أن تمضيا الى دارى وتنشدا ابنتى هذا البيت . قالا : وما هو قال :

من مبلغٌ بنتىَّ ان أباهما لله درُّ كما(١) ودر أبيكما

فقال أحدهما للآخر : ما نرى به بأساً . فلما قتلاه جاءا الى داره وقالا لابنته الكبرى : إن أباك لحقه ما يلحق الناس وآلى علينا أن نخبركما بهذا البيت فقالت الكبرى : ما أرى فيه شيئاً تخبرانى به ولكن اصبرا حتى أستدعى أختى الصغرى . فاستدعتها فأنشدتها البيت فخرجت حاسرة (٢) وقالت : هذان قتلا أبى يا معشر العرب ما أنتم

(١) لله دره : أى عمله ولا درد ره لازكا عمله (٢) حاسرة : أى كاشفة ، يقال حسرت المرأة ذراعها وخمارها من باب ضرب كشفته

فصحاء قالوا : وما الدليل عليه ؟ قالت : المصراع الثانى يحتاج الى أول والأول يحتاج الى ثان لا يليق أحدهما بالآخر قالوا : فما ينبغى أن يكون ؟ قالت : ينبغى أن يكون

من مخبرٌ بنىَّ أن أباهما ... أمسى قتيلاً بالفلاة مجندلا[1]

لله دركما ودر أبيكما ... لن يبرح العبدانِ حتى يقتلا

قال : فاستخبروهما فوجدوا الأمر على ماذكرت . ومما يدل على غزارةِ فهم العرب ودقيقِ نظرهم ما اختصوا به من قرع العصا وهو أشد أنواع الرموز استخراجاً وأصعبها استنباطاً لخلوه من النطق وللاقتصار فيه على مجرد الفعل فانه شارة بالفعل دون القول . وقد ادعى بنو قيس بن ثعلبة أن أول من قرع العصا سعد بن مالك بن ضُبَيْعة بن قيس بن ثعلبة قرعها لأخيه عمرو بن مالك وذلك حين لقى النعمان سعداً ومعه خيل بعضها يقاد وبعضها أعراء مهملة . فلما انتهى الى لنعمان سأله عنها فقال سعدٌ : إنى لم أقُدْ هذه لأمنعها . ولم أعرِّ هذه لأضيعها[2] فسأله النعمان عن أرضه هل أصابها غيث يحمد أثره . ويروى شجره . فقال سعد : أما المطر فغزير . وأما الورق فشكير . وأما النافدة فساهرة . وأما الحازرة فشبعى نائمة . وأما البرشاء فقد امتلأت مساربها . وابتلت جنابتها ويروى جنابتها . وأما الجوف فغدُر لا تطلع . وأما الحذف فعزاف لا ينكع . يفتر اذا يرتع[3] . فقال النعمان وحسده على ما رأى من ذَرَب لسانه : وأبيك انك لمفوّه فان شئت أتيتك بما تعيا عن جوابه . فقال : شئت ان لم يكن منك افراط ولا ابعاط . فأمر النعمان وصيفاً فلطمه . وانما أراد أن يتعدى فى القول فيقتله . فقال : ما جواب هذه ؟ فقال سعد : « سفيه مأمور » فأرسلها مثلا . قال النعمان للوصيف : ألطمه أخرى فلطمه . قال ما جواب هذه ؟ قال : لو نهى عن الأولى لم يعد للأخرى فأرسلها

(١) مجندلا : أى مصروعاً على الجدالة كسحابة وهى الارض (٢) لاعبها (٣) سيأتى شرح هذه الكلمات فى الاصل

مثلا . فقال النعمان : ألطمه أخرى ففعل فقال ماجواب هذه فقال ربٌّ يؤدّبُ عبدهُ فقال الطمه أخرى ففعل فقال ماجواب هذه فقال « ملكتَ فأسْجِحْ (١) » فأرسلها مثلا فقال النعمان أصبتَ فاقعد فمكث عنده ما مكث ، ثم بدا للنعمان أن يبعث رائداً يرتاد له الكلأ فبعث عمرو بن مالك أخا سعد بن مالك فأبطأ عليه فأغضبه ذلك . فأقسم لئن جاء حامداً للكلأ أو ذاماً ليقتلنهُ فلما قدم عمرو دخل على النعمان وعنده الناس وسعد قاعد لديه مع الناس وكان قد عرف ما أقسم به النعمان من يمينه فقال سعد أتأذن لى فأكلمه؟ قال إن كلمته قطعت لسانك . قال : فأُشير اليه ؟ قال : ان أشرت اليه قطعت يدك . قال فأومئ اليه ؟ قال اذن انزع حدقتيك . قال فأقرع له العصا ؟ قال : اقرَعْ. فتناول عصا من بعض جلسائه فوضعها بين يديه وأخذ عصاه التى كانت معه وأخوه قائم فقرع بعصاه العصا الأخرى قرعة واحدة فنظر اليه أخوه ثم أومأ بالعصا نحوه فعرف انه يقول مكانك ثم قرع العصا قرعةً واحدةً ثم رفعها الى السماء ثم مسح عصاه بالأخرى فعرف انه يقول قل له لم أجد جدباً ثم قرع العصا مراراً بطرف عصاه ثم رفعها شيئاً فعرف أنه يقول ولا نباتاً ثم قرع العصا قرعة وأقبل بها نحو النعمان فعرف انه يقول كلمه . فأقبل عمرو بن مالك حتى وقف بين يدى النعمان فقال له النعمان هل حَمِدْتَ خِصْبا . أو ذممت جدبا . فقال عمرو لم أذمم جدبا . ولم أحمد بقلا . الأرض مُشكلة لا خِصْبها يُعرف . ولا جدبها يوصف . رائدها واقف . ومنكرها عارف . وآمنها خائف . فقال النعمان : أولى لك (٢) بذلك نجوت فنجا وهو أول من قرعت له العصا . فقال سعد بن مالك لقرعه العصا :

قرعت العصا حتى تبين صاحبي ولم تك لولا ذاك للقوم تقرع
فقال : رأيت الأرض ليست بمُمْحل ولا سارح منها على الرعى يشبع

(١) الاسجاح حسن العفو ، أى ملكت الامر على فأحسن العفو عنى وأصله السهولة والرفق يقال مشية سجح أى سهلة . يضرب فى العفو عند المقدرة (٢) سيأتى شرحها فى الاصل

سواء فلا جدب فيعرف جدبها   ولا اصابها غيث غزير فتمرع [١]

فنجى بها حوباء [٢] نفس كريمة   وقد كاد لولا ذاك فيهم يقطع

قول سعد : « أما الورق فشكير » يعنى أنه صغير لم يكبر . « وأما النافدة فساهرة » يعنى التى قد نفدت من الهزال فلم يبق فيها قوة فهى ساهرة لانها لم تشبع بعد فسهرها لفقد الشبع . والحازرة يجب أن تكون من قولهم حزرة المال خياره أى هى تقتدر بقوتها على الرعى فتشبع فتنام . والبرشاء أرض فيها رمث [٣] . والمسارب جمع مسرب وهى المواضع التى تسرب فيها المال أى الابل . وقوله ابتلت جنابتها فهى مثل الجناب . واذا قيل جنابها فيجوز أن يكون مثل الجنابذ وهى جمع جنبذة . والجنبذة المكان المرتفع فابدلت الثاء من الذال كما قالوا جث وجذ . ومن روى الرهاء فيجوز أن يكون من الارض التى قد أصابها الرهام . [٤] والجوف البطن من الارض . والغدر جمع غدير . يعنى أن الوادى لم يكثر المطر فيسيل فيه فيرتفع سيله الى جوانبه فيجاوز حد الغدران . والحذف ضرب من الشاء صغار وعزاف يعنى أنها تعزف نفوسها عن الماء لكثرته ولا ينكع . أى لايقطع شربها . يقال نكع . وانكع . اذا قطع . قال الشاعر :

بنى ثعل لا تنكعوا [٥] العنز شربها   بنى ثعل من ينكع العنز ظالم

وتفتر تكشف اسنانها اذا رفعت رءوسها من الرعى ، واولى لك كلمة تقال

---

(١) مرع الوادى وامرع : اكلأ واخصب ، وقيل لم يأت مرع ، وقال ابن الاعرابى امرع المكان لاغير (٢) سيأتى شرحها فى الاصل (٣) رمث بالكسر مرعى الابل من الحمض وشجر يشبه الغضى (٤) الرهام كجبال جمع رهمة بالكسر المطر الضعيف الدائم الصغير القطر (٥) نكعه عن الامر اعجله عنه أو رده ومنعه ورفعه وقيل نكعه نقصه بالاعجال كنكعه تنكيعا وقال الليث نكعه وكسعه ضرب بظهر قدمه على دبره وكذلك بكعه بالموحدة ، وانشد : بنى ثعل لاتنكع العنز شربها الخ ، قال الزبيدى وانشد سيبويه هكذا وفسره فقال و نكعه الورد ومنه منعه اياه انتهى ، وبنو ثعل كصرد ابن عمرو بن الغوث حى من طىء ، قال امرؤ القيس :

رب رام من بنى ثعل   متلج كفيه فى قتره

وفى الاساس : وان دعوت على ابناء رجل اسمه عمر أو زفر فقل : اتيح لكم يا بنى فعل، رام من بنى ثعل

للرجل اذا نجا من شر بعد ما كاد يصيبه . وقوله حوْباء نفس كريمة فيه وجوه يقال أن الحوباء النفس فاذا اخذيها فانما أضيفت الحوباء الى النفس فى شعر سعدٍ لاختلاف اللفظين . وربما قالوا الحوباء خالص النفس . وقال بعضهم الحوباء روح القلب . وأهل اليمن يقولون إن أول من قرعت له العصا عمرو بن حُمَمَة الدوسى . روى ذلك الشعبى عن ابن عباس وانه المراد بذى الحلم فى قول الحارث ابن وعلة

لاتأمننْ قوما ظلمتهمُ وبدأتهمْ بالشتم والرغم

ان يأبروا (١) نخلا لغيرهم والشىء تحقره وقد ينمى

وزعمتمُ أن لاحلومَ لنا إن العصا قُرِعت لذى الحلم

يريد أن الامر والشأن لاحلوم لنا فان كان الامر كما زعمتم فنبهونا انتم فان الدوسى كان يقرع له العصا فينبه لما كان يزيغ فى الحكم لكبر سنه . وهذا تهكم منهم أى عرضتم فى قولكم بانا سفهاء فاكتفينا بالتعريض عن التصريح كاكتفاء ذى الحلم بقرع العصا . ومضر تدعى أن ذا الحلم عامر بن الظَرِب العدوانى واياه عنى ذو الاصبع فى قوله

ومنهم حكم يَقضى فلا يُنقَضُ ما يَقضى

وتدعيه ربيعة فتقول قيس بن خالد الشيبانى وهو جد بسطام بن قيس بن مسعود بن خالد . فاما ما يدعى لعمرو بن حُمَمَة فالخبر فيه وفى عامر بن الظَرِب واحد . وهو أن كل واحد منهما كان حكما للعرب يتحا كمون اليه فى كل مُعضلة . وهو لعمرو بن حُمَمَة فى هذا الحديث أشهر . وذلك أن العرب أَتَوْه يتحا كمون اليه فغلِط فى حكومته وكان قد أُسَنّ فقالت له ابنته إنك قد صِرْتَ تهم فى حكمك أى تغلط فقال : اذا رأيتِ ذلك منى فاقرعى العصا . فكان اذا قرعت له العصافطن فثاب اليه حلمه فاصاب فى حكمه

---

(١) ابرت النخل ابرا من باب ضرب وقتل لقحته وأبرته تأبيراً مبالغة وتكثير والابور وزان رسول مايؤبر به

ومن الرموز بالفعل دون القول التى اختصت العرب بفهم المراد منها ما يروى فى الامثال عن أبى فيد السدوسى . قال : حدث أبو خالد الكلابى أن الاحوص بن جعفر أتى فقيل له أتانا رجل لا نعرفه فلما دنا من القوم حيث يرونه نزل عن راحلته وأتى شجرة فعلق عليها وطباً [1] من لبن ووضع فى بعض أغصانها حنظلة ووضع صرة من تراب وصرة من شوك فى بعضها ثم اتى راحلته فاستوى عليها فنظر الاحوص والقوم فى أمره فعى به . فقال الاحوص أرسلوا الى قيس بن زهير فأتوا قيساً فجاءوا به اليه فقال له الاحوص : ألم تكن تخبرنى أنه لا يرد عليك أمر الا عرفت مأتاه مالم تر نواصى الخيل . قال وما الخبر ؟ فاعلموه فقال : « قد بيَّنَ الصبحُ لذى عينين » [2] فصار مثلا يضرب به فى وضوح الشيء . قال أما صرة التراب فانه زعم أنه أتاكم عدد كثير . وأما الحنظلة فانه يخبركم أن حنظلة قد اتتكم . وأما الشوك فأنه يخبركم أن لها شوكة . وأما اللبن فهو دليل لكم على قرب القوم وبعدهم . فان كان حلوا حليباً فقد اتتكم الخيل . وأن كان لاحلوا ولاحامضاً فعلى قدر ذلك . وان كان قارصاً [3] فعلى قدره . وان كان خاثراً فلكم مهلة من الرأى . وانما ترك الرجل كلامكم لانه قد أخذت عليه العهود وقد أنذركم . ونظائر هذه الحكايات التى رواها الثقاة كثيرة ، وسيأتى عند الكلام على علوم العرب مايزيد المقام وضوحا .

ولما كانت العرب فى قوة الفهم وحدة الذهن الى غاية الغايات كان معجزهم القرآن فان المعجز فى كل قوم بحسب أفهامهم وعلى قدر عقولهم وأذهانهم وكان فى بنى اسرائيل بلادة وغباوة لانه لم ينقل عنهم ماتدون من كلام مستحسن أو يستفاد من معنى مبتكر . وقالوا لنبيهم حين مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم اجعل لنا آلها كما لهم آلهة . نخصوا من الاعجاز بما يَصِلون اليه ببداية حواسهم .

(١) الوطب : سقاء اللبن وهو جلد الجذع فما فوقه والجمع أوطب ووطاب وأوطاب

(٢) بين هنا بمعنى تبين ، يضرب للامر يظهر كل الظهور (٣) القارص : اللبن الحامض

والعرب اصح الناس أفهاما . وأحدهم اذهانا . قد ابتكروا من الفصاحة أبلغها . ومن المعانى أغربها . ومن الآداب أحسنها . فخصوا من معجز القرآن بما تجول فيه أفهامهم . وتصل اليه اذهانهم . فيدركونه بالفطنة دون البديهة . وبالروية دون البادرة . [1] لتكون كل أمة مخصوصة بما يشاكل طبعها . ويوافق فهمها . والله ولى التوفيق .

واما كون العرب احفظ من غيرهم

فلأن الغالب منهم أميون . لايقرءون ولا يكتبون . بل إن جميع عرب البوادى كذلك ومع هذا حفظوا على سبيل التفصيل أيامهم وحروبهم ووقائعهم . وما قيل فيها من شعر وخطب . وماجرى من المفاخرات والمنافرات [2] بين قبائلهم . وضبطوا أنسابهم واسماء فرسانهم الذين نزلوا فى ميادين حروبهم وانهم من أى قبيلة والى أى أب ينتهون من الآباء الاولين . وأسلافهم السابقين . وكان أحدهم يقول الشعر بلغت أبياته مابلغت فما هم الا أن سمعوه فانتقش فى صحائف خواطرهم وتمثل فى خيالهم . وهذا مما تساوى فيه العامة والخاصة منهم والصغير والكبير والذكر والأنثى من أحيائهم . وذلك مما لايستريب فيه أحد ولايشك ذو نظر . وكانوا اذا جرت بينهم حادثة غريبة أو اتفقت لهم نكتة غريبة ضربوا بها الامثال . وسارت بين القبائل تلك الأقوال . فلا تغيب هاتيك الوقائع عن أفكارهم . ولا تزول مدى الليالى والايام عن خزائن خواطرهم . وقد دون المتأخرون مانلقوه من الثقاة . وما سمعوه من أفواه الرواة . من أيامهم وأخبارهم . وأمثالهم وأشعارهم . فبلغ ذلك مابلغ من المجامع والاسفار . حتى تجاوزت دوائر العد والانحصار . هذا مع أن ذلك بالنسبة الى مالم يصل اليهم كقطرة من

(١) البادرة : مايبدر من حدتك فى الغضب من قول أو فعل

(٢) نافر : معناه حاكم فى النسب وسميت منافرة لانهم كانوا يقولون عند المفاخرة : انا أعز نفرا

بحار . وذرة من جبال وقفار . وأما الغالب من شعرهم ولغتهم وأيامهم الاول . فقد ذهب بذهابهم وبقى فى الصدور ولم ينقل . وأخذوا فى أكفانهم (١) كثيراً من العلوم والفنون . حيث لم يجدوا من يحفظ حقوقها ويصون . وكان لكل شاعر منهم راوية يَحْفَظُ عنه ما يقول . وما يُنشد فى المواقع والمجامع حين يصول ويجول . وكل راوية من رُواتهم كان يحفظ من الاراجيز والقَصيد وسائر فنون الشعر مايفوت الاحصاء والحصر . هـذا الاصمعى من متأخريهم قال : مابلغت الحلمَ حتى رويت اثنى عشر الف أرجوزة للأعراب ، وكان خَلَفُ الاحمر أروى الناس للشعر واعلمهم بجيده . وبالجملة العرب احفظ الناس . ولايكاد يمترى فى ذلك إلا من عدم الاحساس ، حتى إن فى كتاب الوشى المرقوم : أن الهمدانى ادعى أنه لم يصل الى أحد من أخبار العرب والعجم الا بالعرب وبين ذلك على أتم وجه واثبته ثم قال والعرب أصحاب حفظ ورواية .

وفى مقدمة أقوم المسالك نقلا عن تاريخ دردى وزير المعارف العمومية بفرانسا : أن الآداب كانت قبل انتشار العرب من جزيرتهم متأصلة فيهم مؤداة بلغتين : الحميرية فى اليمن ، والقرشية فى الحجاز ، وبالآخرة جاء القرآن ، ولا يخفى عليك أن الذى يقابل الحميرية هو المضرية ، وإن وقع الاجماع فى القرآءة على خصوص القرشية ، ولذلك اشتهرت واستمر خلوصها الى وقتنا هذا باستمرار كتب العلم والديانة وما دخلت العجمة فى اللسان الا بدخول الامم فى الاسلام ، وتطاول السنين ، واللغة المذكورة من الاتساع وَسَعة المجال مالايخفى على مُثاقفها (٢)

(١) قلت : احفظ فى هذا المعنى ابياتاً لبعض الاجلة من العراقيين وهى :

اسفى على فضلى قضيت ولم أكن	ابصرت عارف حقه فيبين
ومن العلوم الغامضات ورمزها	أملى قضيت وللفنون ديون
وأخذت فى كفنى علوماً لم أجد	من يحفظن حقوقها ويصون
ورقيق اسرار جعلت لها الحشى	مستودعاً هى فى الدفين دفين

(٢) ثاقفه : جالسه وقيل لازمه وكله فهو مثاقف ومثقف كمحدث وثقف الشىء يثقفه ثقفا لزمه وثقف فلانا صاحبه حتى لا يخفى عليه شىء من أمره ورجل مثقف لخصمه أي ملازم له . والمثاقفة : الباطنة

لاسيما فى الاشياء التى بها قوام المعيشة فى البادية أو تكرر رؤيتهم لها أو تكثر حاجتهم اليها فقد يكون للشيء الواحد عدة أسماء باعتبار تعدد صفاته وأحواله ، وبكثرة الترادف عندهم أتسمت لهم دوائر الآداب الشعرية . اذ يقال إن للعسل عندهم ثمانين اسما وللثعبان مائتين وللاسد خمسمائة ، وللجمل ألفاً ، وكذا السيف ، وللداهية نحو أربعة آلاف اسم ولاجَرَم (١) أن استيعاب مثل هذه الاسماء يستدعى حافظة قوية ، وللعرب من قوة الحافظة ، وحدة الفكر مالا يسع أحداً انكاره . فمن مشاهيرهم حماد الراوية الذى ذكر يوماً للخليفة الوليد أنه ينشد له فى الحال مائة قصيدة والقصيدة من عشرين الى مائة بيت فتعب المستمع قبل المنشد انتهى نقل ماهو المقصود مما اعترف به هذا الفاضل مع كونه من صميم أهل أوربا مما للعرب من قوة الحافظة التى لم تكن لغيرهم من الامم . وانما يعرف ذا الفضل ذووه . والحق يعلو ولا يعلى عليه . فلذلك اكتفينا فى هذا الباب بهذا المقدار .

وأما كون العرب أقدر على البيان من غيرهم

فلان لسانهم أتم الالسنة بياناً وتمييزاً للمعانى جمعاً وفرقاً يجمع المعانى الكثيرة فى اللفظ القليل اذا شاء المتكلم الجمع ، ثم يميز بين كل شيئين بلفظ آخر مميز مختصر ، كما نجده من لغتهم فى جنس الحيوان ، فانهم مثلا يعبرون عن القدر المشترك بين أنواعه فى أسماء كل أمر من أموره من الاصوات والاولاد والمساكن والاظفار الى غير ذلك من خصائص اللسان العربى التى لا استراب فيها . وقد أفردها أئمة اللغة بكتب معتبرة . مطولة ومختصرة . مع ما اشتملت عليه هذه اللغة الجليلة من المزايا التى لم توجد فى غيرها من لغات الامم . أنظر الى المفرد والجمع وأسباب اختلاف العلامات الدالة على الجمع واختصاص كل محل بعلامته

(١) قال في القاموس : لاجرم ولا ذاجرم ولا ان ذا جرم ولاعن ذاجرم ولاجر ولاجرم ككرم ولاجرم بالضم أى لابد أوحقاً أو لامحالة أو هذا أصله ثم كثر حتى تحول الى معنى القسم فلذلك يجاب عنه باللام فيقال لا آتينك

ووقوع المفرد موقعَ الجمع وعكسه . وأين يحسن مراعاة الأصل وأين يحسن العدول عنه . وهذا فصل نافع جداً يُطلعك على سر هذه اللغة العظيمة القدر المفضلة على سائر لغات الأمم ، وذلك أن الأصل هو المعنى المفرد وأن يكون اللفظ الدال عليه مفرداً لأن اللفظ قالبُ المعنى ولباسه يحتذى حذوه والمناسبة الحقيقية ثابتة بين اللفظ والمعنى طولاً وقصراً وخفةً وثقلاً وكثرةً وقلةً وحركةً وسكوناً وشدة وليناً ، فان كان المعنى مفرداً أفردوا لفظه ، وان كان مركباً ركبوا اللفظ ، وان كان طويلاً طولوه كالعَنَطْنَط والعشنّق للطويل . فانظر الى طول هذا اللفظ لطول معناه . وانظر الى لفظ بُحتُر وما فيه من الضم والاجتماع لما كان مسماه القصير المجتمع الخلق . وكذلك لفظ الحديد والحجر والشدة والقوة ونحوها تجدُ فى ألفاظها ما يناسب مسمياتها ، وكذلك لفظى الحركة والسكون مناسبتهما لمسمييهما معلومة بالحس ، وكذلك لفظ الدَّوَران والنَّوَران والغَلَيان وبابه فى لفظها من تتابع الحركة ما يدل على تتابع حركة مسماها . وكذلك الدخّال والخرّاج والضرّاب والأفّاك فى تكرر الحرف المضاعف منها ما يدل على تكرر المعنى . وكذلك الغضبان والظمآن والحيران وبابه مما صيغ على هذا البناء الذى يتسع النطق به ويمتلئ الفم بلفظه لامتلاء حامله من هذه المعانى فكان الغضبان هو الممتلئ غضباً الذى قد اتسع غضبه حتى ملأ قلبهُ وجوارحهَ . وكذلك بقيتها ولا يتسع المقام لبسط هذا فانه يطول ويَدِقّ حتى يكسع عنه أكثر الأفهام وتنبو عنه لطافته . لأنه ينشأ من جوهر الحرف تارة ومن صفته ومن اقترانه بما يناسبه ومن تكرره ومن حركته وسكونه ومن تقديمه وتأخيره ومن إثباته وحذفه ومن قلبه وإعلاله . الى غير ذلك من الموازنة بين الحركات وتعديل الحروف وتوخى المشاكلة والمخالفة والخفة والثقل والفصل والوصل . وهذا باب يقوم من يتتبعه بسفر ضخم . ولنذكر منه مسألة واحدة وهى اللفظ فى افراده وتغييره عند زيادة معناه بالتثنية والجمع دون سائر تغيراته . فنقول لما كان المفرد هو الأصل والتثنية والجمع تابعان له جعل لهما

فى الاسم علامة تدل عليهما وجعلت آخره قضاء لحق الاصالة فيه والتبعية فيهما والفرعية فالتزموا هذا فى التثنية ولم ينخرم عليهم . وأما الجمع فانهم ذهبوا به كل مذهب وصرفوه كل مصرف فمرة جعلوه على حد التثنية وهو قياس الباب كالتثنية والنسب والتأنيث وغيرها . وتارة اجتلبوا له علامة فى وسطه كالألف فى جعافر والياء فى عبيد والواو فى فلوس . وتارة جعلوا اختصار بعض حروفه واسقاطها علامة عليه نحو عنكبوت وعناكب فانه لما ثقل عليهم المفرد وطالت حروفه وازداد ثقلا بالجمع خففوه بحذف بعض حروفه لئلا يجمعوا بين ثقلين . ولا يناقض هذا ما أصلوه من طول اللفظ لطول المعنى وقصره لقصره فان هذا باب آخر من المعادلة والموازنة عارض ذلك الأصل ومنع من طرده . ومنه جمعهم فعيل وفعول وفعال على فعل كرغيف وعمود وقذال على رغف وعمد وقذل لثقل المفرد بالمدة . فان كان فى واحده تاء التأنيث فانها تحذف فى الجمع فكرهوا أن يحذفوا المدة فيجمعوا عليه بين نقصين فقلبوا المدة . ولم يحذفوها كرسالة ورسائل وصحيفة وصحائف فجبروا النقص بالفرق لا انهم تناقضوا وتارة يقتصرون على تغيير بعض حركاته فيجعلونها علامة لجمعه كفلك وفلك وعبد وعبد . وتارة يجتلبون له لفظاً مستقلا من غير لفظ واحده كخيل وأنام وقوم ورهط ونحوه . وتارة يجعلون العلامة فى التقدير والنية لا فى اللفظ كفلك للواحد والجمع فان ضمة الواحد فى النية كضمة قفل وضمة الجمع كضمة رسل وكذلك هجان ودلاص وأسمال وأعشار مع ان غالب هذا الباب انما يأتى فى الصفات لحصول التميز والعلامة بموصوفاتها فلا يقع لبس ولا يكاد يجىء فى غير الصفات الا نادراً جداً . ومع هذا فلا بد أن يكون لمفرده لفظ يغاير جمعه ويكون فيه لغتان لأنهم علموا أنه يثقل عليهم ، أما فى الجر والنصب فلِتَوَالى الكسرات ، وأما فى الرفع فلِثقَل الخروج من الكسرة الى الضمة فعدلوا الى جمع تكسيره . ولا يرد هذا عليهم فى راحمين وراحمون لفصل الألف الساكنة ومنعها من توالى الحركات فهو كمسلمين وقائمين .

وكذلك عدلوا عن جمع فعل المضاعف من صفات العقلاء كَفِظٍّ وبَرٍّ فلم يجمعوه جمع سلامة. ولم يقولوا برون وفظون لئلا يشتبهَ بكلوب وسفود لانه بزنته فكسروه وقالوا أبرار فلما جاؤا الى غير المضاعف كصعب جمعوه جمعَ تصحيح ولم يخافوا التباساً اذ ليس فى الكلام فعلول ، وصعفوق [1] نادر ، فتأمل هـذا التفريقَ ، وهذا التصور الدالَّ على أن أذهان العرب قد فاقت أذهان الامم كما فاقت لغتهم لغاتهم . والكلام فى هذا المقام واسع جداً فأين لغير لغة العرب من هذه الاسرار ، والفرق واضح بين الليل والنهار .

وأما ما اشتمل عليه كلام العرب وتراكيبهم ، وما حازته من فنون البراعة أساليبهم ، فقد تكفل ببسطه كتب المعانى والبيان . وما الف فى بيان إعجاز القرآن . وقد سأل أبو اسحق المتفلسف الكندى أبا العباس المبرِّد ، فقال : إنى أجدُ فى كلام العرب حشوا يقولون عبد الله قائم . ثم يقولون إن عبد الله قائم . ثم يقولون إن عبد الله لقائم ، والمعنى واحد ، فاجابه أبو العباس : ان المعانى مختلفة فقولهم عبد الله قائم إخبار عن قيامه . وقولهم إن عبدَ الله قائم جوابٌ عن سؤال سائل . وقولهم إن عبد الله لقائم ، جواب عن إنكار منكرٍ قيامَهُ . فانظر الى تفاوت هذه المعانى مع تغيير يسير فى اللفظ . وأما ما افصح من لغاتهم ، وما ملح من بلاغاتهم ، وما سمع من الأعراب فى بواديها ، ومن خطباء الحلل فى نواديها ، [2] ومن قراضبة [3] نجد فى اكلائها ومراتعها ، ومن سماسرة [4] تهامة فى أسواقها

(١) الصعفوق : اللئيم ، قال فى القاموس : وليس فى الكلام فعلول سواه ، وأما خرنوب فضعيف وأما الفصيح فيضم خاؤه أو يشدد راؤه (٢) جمع ناد وهو المجلس ، وقد ادعى بعض العصريين ان هذا الجمع وان كان هو القياس الا أنه غير مستعمل وانما يقال فى جمعه الاندية وهو فى الاصل جمع ندى بمعنى النادى استغنوا به عن جمع النادى كما استغنوا بالاحاديث الذى هو جمع الاحدوثة عن جمع الحديث ، ولا يخفى بطلان القول على من له أقل مسكة من العلم

(٣) القراضبة : اللصوص والفقراء والواحد قرضوب وقرضاب (٤) سماسرة جمع سمسار بالكسر . المتوسط بين البائع والمشتري ومالك الشيء وقيمة السفير بين المحبين وسمسار الارض العالم بها وهى بهاء والمصدر السمسرة

ومجامعها ، وماتراجزت به السقاة على أفواه قُلُبها [١] وتساجعت به الرعاة على شفاه عُلَبها ، [٢] وما تقارضته شعراء قيس وتميم فى ساعات المماتنة ، [٣] وتزاملت [٤] به سفراء ثقيف وهذيل فى أيام المفاتنة ، فذاك الذى تنفد عنده ذكره المحابر ، ولا تستوعب محاسنه صحائف الدفاتر ، وهم الاحرياء بذلك ، والاحقاء بما هنالك ، أليس قرى الاضياف سجيتهم ، ونحر العشار للناس دأبهم وهِجّيراهم ، [٥] لامزقت ايدى الادوار لهم أديما . ولا اباحت لهم حريما . افتراهم يحسنون قرى الاشباح فيخالفون فيه بين لون ولون وطعم وطعم ولا يحسنون قرى الارواح فلا يخالفون فيه بين أسلوب وأسلوب وايراد وايراد . فان الكلام المفيد عند الانسان بالمعنى لا بالصورة أشهى غذاء لروحه . وأطيبُ قرى لها غَبوقه وصَبُوحه [٦] .

وقد سمعتُ بعض من لا خلاق له من الناس انه ادعى ان لغاتِ الافرنج اليوم أوسع من لغة العرب بناء على ماحدث فيها من الفاظ وضعوها لمعانٍ لم تكن فى القرون الخالية . والازمنة الماضية . فضلا عن أن تعرفه العرب فتفوه به . أو تتخيله فتنطق به . ولا يخفى عليك أن هذا كلام يشعر بعدم وقوف قائله على منشأ السعة وأنه لم يخض بحار فنون اللغة حتى يعلم أن المزية من أينَ حصلت . وأما ماذكر من أن مفردات العربية غير تامة بالنظر الى ما استحدث بعد العرب من الفنون والصنائع مما لم يكن يخطر ببال الاولين فهو غير شين على العربية . اذ لا يسوغ لواضع اللغة أن يضع أسماء لمسميات غير موجودة وانما الشين علينا الآن فى أن نستعير هذه الاسماء من اللغات الاجنبية مع قدرتنا على صَوْغها من لغتنا . على أن

---

(١) قلبها جمع قليب وهى البئر (٢) علبها جمع علبة بالضم قدح ضخم من جلود الابل أو من خشب يحلب فيها قال جرير .

لم تتلفع بفضل مئزرها دعد ولم تسق دعد فى العلب

(٣) المماتنة . المماطلة والمباعدة فى الغاية (٤) تزاملت : تراجزت (٥) يقال هذا هجيراه واهجيراه واهجيراؤه وهجيره وأهجورته وهجرياه . أى دأبه وشأنه ، قال الشاعر .

رمى فأخطأ والاقدار غالبة فانصمن والويل هجيراه والحرب

(٦) الغبوق كصبور مايشرب بالعشى ، والصبوح مايشرب بالغداة

أكثر هذه الأسماء هو من قبيل اسم المكان أو الآلة وصوغ اسم المكان والآلة في العربية مطرد من كل فعل ثلاثي فما الحاجة الى أن نقول : فَبْريقة أو كَرْخانة ، ولا نقول مَعْمل أو مصنع أو أنْ نقول بيمارستان (١) ولا نقول مستشفى . أو نقول ديوان ولا نقول مأمر ، أو نقول اسطرلاب (٢) ، ولا نقول منظر ، والعرب اليوم يَبْخَسُوا اللغةَ حقَّها فانهم عدلوا عنها الى اللغات العجمية من غير سبب موجب ، فان من يستعير ثوباً من آخر وهو مستغنٍ عنه يحكم عليه بالزيغ والبطر . (٣) واذا اعترض أحد بان دخول الالفاظ العجمية في العربية غير منكر ، وأن كلَّ لغةٍ من اللغات لابد أن يكون فيها دخيل ، فاللغة هي بمنزلة المتكلمين بها فلا يمكن لامةٍ أن تعيش وحدَها من دون أن تختلطَ بأمةٍ أخرى ، فان الانسان مدني بالطبع أي محتاج في تمدنه الى الاختلاط مع ابناء جنسه . والجواب أن هذا الدخيلَ إنما يُغْضَى عنه اذا لم يوجد في أصل اللغة مايرادفه ، أو لم يمكن صوغ مثله فاما مع وجود هذا الامكان فالاغضاء عنه بخس لحق اللغة لامحالة ، وإلا لزم المستعربين أن ينطقوا بالباء أو الكاف الفارسيتين ، أو أن يقدموا المضاف اليه على المضاف . وهناك وجه آخر في العربية لصوغ ألفاظ تسد مسد الالفاظ العجمية التي اضطررنا اليها وهو باب النحت . قال ابن فارس في فقه اللغة : العرب تَنْحَتُ من كلمتين كلمةً واحدة وهو جنس من الاختصار ، وذلك كقولهم « رجل عَبْشَمِيّ » منسوب الى اسمين ، وهما عبد شمس .

وأنشد الخليل

أقول لها ودمعُ العين جارٍ　　　ألم تحزُنْكِ حَيْعَلَةُ المنادى

(١) بيمارستان . قال الخفاجي . لفظة فارسية استعملها العرب ومعناها مجمع المرضى لان بيمار معناه المريض وستان هو الموضع وأول من صنعه بقراط وسماه اخشندوكين

(٢) اسطرلاب قال الخفاجي الآلات التي يعرف بها الوقت اسطرلاب والطرجهارة وهي آلة مائية ، وبنكام وهي رملية وكلها الفاظ غير عربية ذكرها في نهاية الارب

(٣) البطر : مجاوزة الحد

من قولهم « حيَّ على كذا » وهـذا مذهبنا فى أن الاشياء الزائدة على ثلاثة أحرف أكثرها منحوت مثل قول العرب للرجل الشديد « ضَبْطَر » من « ضَبَطَ » و « ضَبَرَ » . وفى قولهم « صَهْصَلِق » (١) إنه من « صهل » و « صَلَق » وفى « الصِلْدِم » إنه من « الصَلْد » و « الصدْم » الى آخر ماقال مما يدل على أن اللغة العربية أحسن اللغات صيغاً وأساليب واتمها وأكملها نَسقاً وتأليفاً مع تسويغ استعمال النحت عند اقتضاء الضرورة . ولو أن العرب الاولين شاهدوا البواخر وسكك الحديد واسلاك التلغراف والغاز والبوستة ونحو ذلك مما اخترعه الافرنج لوضعوا له أسماء خاصة ناصة فهم على هذا غير ملومين : وانما اللوم علينا حالة كوننا قد ورثنا لغتهم وشاهدنا هذه الامور باعيننا ولم نتنبه لوضع أسماء لها على النسق الذى ألفته العرب وهو الاختصار والايجاز . «وأما العمل» فان مبناه على الاخلاق وهى الغرائز المخلوقة فى النفس وغرائز العرب أطوع للخير من غيرهم فهم أقرب للسخاء والحلم والشجاعة والوفاء والغيرة وغير ذلك من الاخلاق المحمودة

أما كون العرب أقرب للسخاء من غيرهم

فذاك الذى لايحتاج الى بيان ، ولايعوز الى اقامة دليل ولا برهان . قد شهد لهم به الاوداء والأعداء ، واعترف لهم الاقربون والبعداء ، اذا ألم بهم ضيف حكموه على انفسهم ، واستهانوا له ماوجدوه من نفيسهم ، وهـذا شعرهم يَنْطِق بما جبلوا عليه ويُعرب عما ألفوه وجنحوا اليه ، وهو مما لا يمكن استيعابه فى هذا المقام ، ومن اين لنا الاحاطة بالبحر المحيط وقد ضاقت عنه دوائر الافهام ؟ غير أن المعسور . لايسقط بالميسور . فلا بد من تحلية عاطل جيد هذا الكتاب ، ببعض من عقود نظام در ذلك العباب (٣)

(١) صهصلق . العجوز الصخابة كالصهصليق (٢) الصلدم : كزبرج الاسد والصلب والشديد الحافر كالصلادم فيهما والصلدام بالكسر وهى صلدامة (٣) العباب كغراب معظم السيل وارتفاعه وكثرته أو موجه

قال عُتَيْبة بن بجير المازنى من بنى الحارث بن كعب

ومستنبحٍ باتَ الصدَى يَسْتَتِيهُهُ الى كل صوتٍ فهو فى الرحل جانح (١)
فقلتُ لاهلى : ما بُغام مطيةٍ وسارٍ أضافته الكلاب النوابح (٢)
فقالوا : غريبٌ طارقٌ طوَّحَتْ به مُتُون الفيافى والخطوبُ الطوارح (٣)
فقمتُ ولم أجثِمْ مكانى ولم تقم مع النفس عِلاّتُ البخيل الفواضح (٤)
وناديتُ شِبْلاً فاستجاب وربما ضمِنّا قِرَى عَشْر لمن لا نُصافح (٥)
فقامَ أبو ضَيْفٍ كريمٌ كأنهُ وقد جدَّ من فرط الفكاهة مازحُ (٦)

(١) المستنبح : من يطلب نباح الكلب ليستهدى بذلك فى طريقه ، والصدى : الطائر الذى يصيح بالليل وأكثر مايقولون فيه انه ذكر البوم وجمعه أصداء وقد يوقعون الصدى على ضرب من الجنادب يصيح بالليل والنهار . — ويستتيهه — هو يستفعل من تاه يتيه اذا ضل والجانح: المائل (٢) البغام : قطع مد الصوت بالحنين ، واضافته : جاوبته ، والمعنى : فقلت ما هذا البغام الذى اسمع ومن هذا السارى الذى اضافته الكلاب (٣) قال التبريزى : كان يجب ان يقول والخطوب المطوحات فى الجمع بالالف والتاء لان اسم الفاعل من طوح مطوح ولكنه اخرج الطوائح على حذف الزيادة من الفعل ومثله قوله عز وجل «وارسلنا الرياح لواقح» لان اصله ان يجئ ملاقح اوملقحات لكونها ملقحة للاشجار والفعل منه القح فاخرجه على حذف الزوائد فصار لقح ولواقح وكذلك الطوائح قياسه ان يكون اذا عدل عن الجمع بالتاء مطاوح وارتفع غريب على انه خبر ابتداء محذوف كأنه قال هوغريب طارق ومعنى طوحت به حملته على المهالك والطائح الهالك . اه

وكتب بالهامش قوله كان يجب الخ حله يفيد ان القافية الطوائح بدل الطوارح ولعلهما روايتان والمتن الصلب من الارض والفيافى جمع فيفاة وهى المكان المستوى او المفازة لاماء فيها

(٤) الجثوم اصله الصاق الصدر بالارض ولزومها ويستعمل كثيراً فى الطير والسباع والجثمان الشخص منه اشتق ، وقوله لم تكن مع النفس علات البخيل يريد ان نفسى لما تهيأت للاضافة لم تقم معها العلات التى تفضح اربابها (٥) يريد بشبل ابنه ، قال أبو العلاء : اشبه ماروى فى هذا البيت قرى عشر لمن لانصافح بفتح العين أى عشر ليال لمن ليس له بيننا وبينه مصادقة توجب مصافحة وبعض الناس يضم العين وله وجه أى ربما ضمنا قرى عشر اموالنا لمن لانعرف وقد يمكن ان يكون عشر جمع عشير وهو الذى يعاشره من الغرباء أو يكون من عشيرته مثل مايقال صديق وصدق وكريم وكرم ، وقوله لمن لانصافح يجوز ان يكون من المصافحة المعروفة ويجوز ان يكون من صفحت الناس أى نظرت فى أحوالهم

(٦) عنى بابى الضيف نفسه وارتفع مازح على انه خبر كأن وموضع وقد جد موضع الحال كانه قال يشابه المازح من فرط الصبابة وهو جاد ويقال فاكهته بملح الكلام وهى الفاكهة

الى جِذْمِ مال قد نَهِكنا سَوَامَهُ ... واعراضُنا فيه بواقٍ صحائحُ (١)

جعلناه دون الذمّ حتى كأنه ... اذا عُدَّ مال المكثرين المنائحُ (٢)

لنا حَمْدُ أرباب المئين ولا يُرَى ... الى بيتنا مالٌ مع الليل رائحُ (٣)

وقال مُرَّة بن محكان التميمي السعدي (٤)

يا ربَّةَ البيت قومي غيرَ صاغرةٍ ... ضُمّي اليكِ رحالَ القوم والقُرُبا (٥)

في ليلةٍ من جمادى ذاتِ أنديةٍ ... لا يُبصِرُ الكلبُ من ظلمائها الطُنُبا (٦)

لا ينبح الكلبُ فيها غير واحدةٍ ... حتى يَلُفَّ على خيشومه الذَنَبا (٧)

ماذا ترينَ أندْنيهم لأرحُلِنا ... في جانب البيت أم نبني لهم قببا

لمُرْمِلِ الزاد مَعْنِيٍّ بحاجته ... من كان يكره ذمّاً أو يَقي حسبا (٨)

وقمت مستبطناً سيفي فأعرضَ لي ... مثل المجادلِ كُومٌ بُرَّكت عُصبا (٩)

---

(١) الجذم : الاصل ، ونهكنا سوامه : أي أثرنا في السائمة من المال بما عودناها من النحر من قولهم نهكه المرض اذا أضر به ، والسوام : الابل الراعية وجملة الى جذم مرتبط بـ (قام) في البيت قبله والمعنى فقمت الى الابل التي انفدنا السوام منها في الضيافة وحمل الديات مع نقاء عرضنا (٢) المنائح جمع منيحة وهي الناقة أو الشاة تدفع الى الجار لينتفع بلبنها مادام بها لبن فاذا انقطع لبنها ردت ، وقوله جعلناه دون الذم يريد صيرناه دون الذم (٣) يعني انها على قلتها باركة بالفناء للحقوق لا تبلغ ان تصير سارحة ورائحة ولكن لنا حمد ارباب الابل الكثيرة لجودنا وكرمنا (٤) محكان علم مترجل فعلان من م ح ك ، ومرة هذا من بطن يقال لهم بنو ربيع بن سعد بن زيد مناة بن تميم وهو شاعر اسلامي مقل من شعراء الدولة الاموية ، عاصر جريراً والفرزدق فاخلا ذكره وكان شريفا جواداً ولا عقب له ، وهو أحد من حبس في القرى والاطعام ، قتله مصعب بن الزبير في ولايته لامر كان بينهما حبسه ثم دس اليه من قتله

(٥) القرب جمع قراب السيف وهو كالجراب يوضع السيف فيه بغمده وغير السيف وانما امرها بضم الرحال والقرب لانهم لما نزلوا عنده فقد امنوا لا يحتاجون الى حضور السلاح عنده

(٦) قوله لا يبصر الكلب مبالغة من شدة الظلمة والكلب قوي البصر بالليل فاذا بلغ امره الى ما وصف فهو نهاية الظلم والطنب حبل البيت

(٧) قوله حتى يلف انتصب الفعل باضمار ان وحتى بمعنى الى كانه قال الى ان يلف الذنب على خرطومه الانبحة واحدة (٨) المرمل : الذي قد انقطع زاده

(٩) يقال استبطنت فلاناً دونك أي خاصته وتبطنت كذا دخلت فيه حتى عرفت باطنه وقوله فاعرض لي أي ابدت لي عرضها نوق كانهن قصور ، والكوم جمع أكوام وكوماء وهي العظام الاسنمة ، وعصب جمع عصبة

فصادف السيفُ منها ساقَ مُتْلِيَةٍ ... جلْسٍ فصادف منه ساقُها العَطَبا (١)
زَيَّافَةٍ بنتِ زيَّافٍ مذكَّرةٍ ... لما نَعَوْها لراعي سَرْحِنا انتحبا (٢)
امطيتُ جازِرَنا أعلى سناسنِها ... فصار جازِرُنا من فوقِها قَتَبا (٣)
يُنَشْنِش اللحم عنها وهي باركة ... كما تنشنش كفا قاتلٍ سلبا (٤)
وقلتُ لما غدَوا أوصى قعيدتنا ... غدّى بنيك فلن تلقيهمِ حقبا (٥)
أُدعى أباهم ولم أُقْرَفْ بأمّهمِ ... وقد عمرْتُ ولم أعرف لهم نسبا
انا ابن مَحْكان اخوالي بنو مَطر ... أنمى اليهم وكانوا معشراً نُجُبا (٦)

« وقال آخر »

ومستنبحٍ قال الصدى مثل قوله ... حضأتُ له ناراً لها حطبٌ جزْلُ (٧)
فقمت اليه مُسْرعاً فغنمتهُ ... مخافة قومي أن يفوزوا به قبل
فأوسعني حمداً وأوسعته قرىً ... وارخِصْ بحمدٍ كان كاسبهُ الاكلُ

« وقال آخر »

تركتُ ضأني تودُّ الذئبَ راعيَها ... وأنها لا تراني آخرَ الأبدِ (٨)

---

(١) اراد انه عرقب ناقة منها ، والمتلية هي التي لها ولد يتلوها وقيل هي الحامل ، والجلس : الصلبة المشرفة وقيل هي الواسعة الاخذ من الارض والجلس المكان المرتفع (٢) الزيافة : التي تزيف في مشيها وتتبختر ، والمذكرة المتشبهة بالجمل ، ونعوها : اخبروا بنحرها ، والسرح : المال الراعي ، والانتحاب رفع الصوت بالبكاء ، وانما بكى عليها لانها من خيار المال واعزه عنده (٣) يقال أمطيت البعير اذا ركبت مطاه وهو الظهر وامطيته غيري وانما يصف اشراف ناقته التي نحرها فيقول ركبها جازرنا لما نحرها اذ كان أعلى سناسنها لم تصل يده اليه فصار منها لما علاها بمكان القتب ، والسناسن أعلى السنام والخارج من فقار الظهر واحدتها سنسنة ، (٤) ينشنش : أي يكشف ويفرق وقيل النشنشة مباشرة الشيء حتى تأخذه كما تريد (٥) الحقب : السنون وأحدتها حقبة (٦) بنو مطر بن شيبان رهط معن بن زائدة (٧) حضأت له ناراً : فتحت عينها لتلهب وقد أوقدت بغلاظ الحطب وكبارها وحضأت له ناراً جواب رب (٨) الضأن : ذوات الصوف من الغنم الواحدة ضائنة والذكر ضائن ، قال ابن الانباري : الضأن مؤنثة والجمع اضؤن مثل فلس وأفلس وجمع الكثرة ضئين مثل كريم

الذئبُ يَطْرُقها فى الدهر واحدةً وكلَّ يوم ترانى مُدْيَةٌ بِيَدِى (١)

« وقال آخر »

وما أنا بالساعى الى أم عاصم لأضربَها انى اذاً لَجَهُولُ (٢)
لكِ البيتُ الا فَيْنَةً تُحْسِنينها اذا حان من ضيفٍ علىَّ نزول (٣)

« وقال بعض بنى أسد »

وسوداءَ لا تُكْسَى الرقاعَ نَبيلةٍ لها عند قَرَّاتِ العشيَّاتِ أزْمَلُ (٤)
اذا ما قَرَيْناها قِراها تضمَّنَتْ قِرَى من عرانا أو تزيد فتفضلُ

« وقال آخر وهو عروة بن الورد »

سلى الطارقَ المعترَّ يا أم مالك إذا ما أتانى بين قِدْرِى ومَجْزَرِى (٥)
أيُسْفِرُ وجهى أنه أول القِرَى وأبذُلُ معروفى له دون مُنكرى (٦)

« وقال آخر »

وانا لَمَشَّاؤونَ بين رحالنا الى الضيفِ منا لاحِفٌ ومُنيمُ (٧)
فذُو الحلم منا جاهلٌ دون ضيفه وذو الجهل منا عن أذاهُ حليم

« وقال ابن هرْمَةَ »

أغشَى الطريقَ بقبَّتى ورِوَاقِها واحُلُّ فى نَشْزِ الرُّبى فأُقيمُ (٨)
إنَّ امرأً جعل الطريقَ لبيته طُنُباً وأنكرَ حقه لَلَئيمُ (٩)

(١) المدية : الشفرة والجمع مدى ومديات (٢) قوله وما أنا بالساعي كانه رأى انساناً يضرب امرأته ويحول بينها وبين تدبيرها دارها فنفى عن نفسه مثل ذلك بفعله المتناهي فى الجهل (٣) الفينة : الوقت (٤) القرة الشعر بمينه ، والازمل : الصوت الشديد ، والسوداء يعنى قدرا والرقاع يعنى الثياب ، ونبيلة : عظيمة الشان وخص قرات العشيات لانها وقت الاضياف (٥) الطارق : الآتى ليلا ، والمعتر المتعرض ولا يسأل ، وقوله : بين قدري ومجزرى يريد اذا أتانى فى موضع الضيافة أعطيته إما لحماً نياً وذلك من المجزر وإما مطبوخاً وذلك من القدر (٦) قوله انه أول القرى يريد أن اظهار البشاشة للضيف من أوائل قراه والمنكرههنا أن يسأله عن اسمه ونسبه وبلده ومقصده وكل هذا مما يجلب عليه حياء (٧) أى يلبسه اللحاف ومنيم يحدثه حتى ينام (٨) يعنى أنه يضرب قبة على الطريق ، ويروى فى قلل الربى (٩) يعنى حق الطريق ولم يرض بالحلول على الطريق حتى وصله بالاقامة ، وقوله جعل

« وقال آخر »

ومستنبحٍ تَستَكشِطُ الريحُ ثوبَهُ ... ليسقُطَ عنه وهو بالثوب مُعْصِمُ (١)
عوى فى سواد الليل بعد اعتسافه ... لينبحَ كلبٌ أو ليفزَعَ نُوَّمُ (٢)
فجاوبه مستسمعُ الصوتِ للقِرَى ... له عند اتيان المهبينَ مَطْعَمُ (٣)
يكاد اذا ما أبصر الضيفَ مقبلا ... يكلمه من حبه وهو أعجَمُ (٤)

« وقال سالم بن قُحْفان العنبرى »

لاتعذُلينى فى العطآء ويسِّرى ... لكل بعير جآء طالبه حَبْلا (٥)
فانى لاتبكى علىّ افالها ... اذا شبعت من روض أوطانها بقلا (٦)
فلم أر مثل الابل مالاً لِمُقْتَنٍ ... ولا مثل أيام الحقوق لها سبلا (٧)

« ومن خبر هـذه الابيات » أن سالم بن قحفان أتاه أخو امرأته فأعطاه بعيراً من إبله وقال لامرأته هاتى حبلا يقرن به ما أعطيناه الى بعيره . ثم أعطاه بعيراً آخر وقال هاتى حبلا ثم أعطاه ثالثاً فقال هاتى حبلا فقالت مابقى عندى حبل . فقال علىَّ الجمال . وعليكِ الحبال . فرمت اليه بخمارها وقالت اجعله حبلا لبعضها فانشأ يقول لاتعذلينى فى العطاء الابيات . فأجابته امرأته .

حلفتُ يميناً يا ابنَ قحفان بالذى ... تكفَّل بالارزاق فى السهل والجبل

الطريق لبيته طنباً أراد جعل الطريق موضع طنب بيته فحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه (١) كشط واستكشط بمعنى وهو كعجب واستعجب والكشط والقشط يتقاربان وأصل الكشط للبعير وان استعمل فى غيره والجلد يقال له الكشاط والمعصم والمستعصم واحد وهو المستمسك بالشىء (٢) الاعتساف : الاخذ فى الطريق على غير هداية وانما يقال ليفزع نوم لانهم اذا انتبهوا لصوته أجابوه وتلقوه أو رفعوا النار له (٣) قوله له عند اتيان المهبين مطعم، يعنى سعة عيش الكلب فيما ينحر للضيف والمهبون الاضياف يقال هب من نومه وأهببه (٤) أى يكاد الكلب يكلم الضيف حباً له اذا أقبل على عجمته (٥) يسرى أى هيى وأعدى (٦) افالها : صغارها الواحد أفيل وفى معناه قولان أحدهما أن الابل بهائم لاتهتم لى اذا مت بل ترتع وتشبع فوتى عندها وموت من لاينحرها سواء ، والآخر أن ابلى لاتبكى بعد موتى بل تفرح بموتى لانى أنحرها فاذا مت فلعله يأخذها من لاينحرها (٧) المقتنى الذى يقتنى المال ونفس المال المدخر قنوة

تَزالُ حبالٌ محصدات أعدُّها لها ما مشى منها على خفهِ جمل (١)
فأعطِ ولا تبخلْ لمن جاء طالبا فعندي لها خُطُمٌ وقد زاحت العلل (٢)

« وقال آخر »

ألا ترينَ وقد قطَّعتنِي عذلاً ماذا منَ البعد بين البُخْل والجودِ
إلا يكُنْ وَرَقٌ غضًا أُراحَ به للمُعتفين فانى لَيِّنُ العود (٣)

« وقال قيس بن عاصم المنقري »

إني امرؤ لايعترى خُلُقى دنس يفنده ولا أفُنُ (٤)
من منقَرٍ فى بيت مَكرُمة والغصن ينبُتُ حوله الغصن
خطباء حين يقول قائلهم بيضُ الوجوه مصاقع لُسن (٥)
لا يفطنون لعيبِ جارهِم وهُمْ لحفظ جواره فطُنُ (٦)

« وقال ابن عنقاء الفزارى »

رآنى على مابى عُمَيْلَة فاشتكى الى مالهِ حالى أَسَرَّ كما جَهَرْ (٧)
دعانى فآسانى ولو ضَنَّ لم أُلُمْ على حين لابدوٌ يرجَّى ولاحضَرْ (٨)
غلامٌ رماه الله بالخير يافعا له سِيمِياءٌ لاتَشُقُّ على البصر (٩)

---

(١) أى ماتزال وجاز حذفها لدلالة اليمين عليها (٢) زاحت بمعنى زالت وازحتها ازلتها
(٣) الورق المال من الابل والوراق الرجل الكثير الورق ، يقال رحت له اراح أى ارتحت وقيل الاريحى افعلى من هذا وذكر الورق كناية عن المال كثير في كلامهم . قال زهير

وليس مانع ذى قربى ولارحم يوماً ولا معدم من خابط ورقا

لما استعار الورق للمال وصله بالخابط تحسينا لكلامه وكذلك هذا لما كنى عن معروفه بالورق وصله بالعود واذا لان العود اهتز وعن الاهتزاز للخير يحصل الندى (٤) يفنده : يفحشه والفند الفحش ويقال افند الرجل اذا أتى بالفحش والافن اصله استخراج اللبن من الضرع حتى يخلو منه ثم قيل افن الرجل فهو مأفون اذا زال عقله (٥) المصاقع جمع مصقع واصل الصقع الضرب وهو هنا رفع الصوت ، اللسن جمع لسن يقال لسن يلسن لسناً اذا تناهى فى البلاغة والفصاحة (٦) يقول هم يلابسون الجار على ظاهر امره ولا يتجسسون عليه وان اتفق له مايوجب عليهم حفظه بعقد الجوار فطنوا له ، والفطن جمع فطن (٧) اشتكى الى ماله مجاز جعل رجوعه الى ماله فى اصلاح أمره شكاية منه اليه ، وقوله اسر كما جهر أى لم ينافق يعنى انه اسر الاهتمام بامرى كما أظهره (٨) قوله فآسانى أى جعلنى أسوة له بأن أعطانى من ماله ولو ضن أى بخل لم المه لضيق الزمان (٩) السيمياء الحسن والبهجة أى قد وسمه الله تعالى بسيمى حسنة مقبولة يلتذ الناظر اليها

كأنَّ الثريا علقت فى جبينه ... وفى خده الشعرى وفى وجهه القمرُ
اذا قيلت العوراء أغضى كأنه ... ذليل بلا ذل ولو شاء لانتصر [1]
ولما رأى المجد استعيرت ثيابه ... تردى رداءً واسع الذيل وائتزر
فقلت له خيراً وأثنيت فعله ... وأوفاك ما أسديت من ذمٍّ أو شكر [2]

قال أبو رياش : مر عميلة الفَزارى على ابن عنقاء الفَزارى وهو يحتش [3] لغنمه . وقيل يحفر عن البقل ويأكله ، فقال : يا ابن عنقاء ما أصارك الى هذه الحال ؟ فقال له ابن عنقاء : تغير الزمان ، وتعذر الاخوان ، وضَنُّ [4] أمثالك بما معهم فقال عميلة لاجرم والله لا تطلع الشمس غداً الا وأنت كأحدنا ثم انصرف كل واحد منهما الى أهله . وكان عميلة غلاماً حين بقل وجهه [5] فبات ابن عنقاء يتململ على فراشه لا يأخذه النوم اشتغالا بما قال له عميلة فقالت له امرأته ماشأنك ؟ فاخبرها الخبر فقالت : قد خَرِفت وذهب عقلك حتى تعلق نفسك بكلام غلام حديث السن لا يحفل بما يجرى على لسانه . ويحكى انه لما أصبح قالت له ابنته لو أتيت عميلة فقد وعدك ان يقاسمك ماله فقال : يابنية إن الفتى كان سكران ولا أدرى لعله لم يعقل ماقاله فبينا هى تراجعه الكلام اذ أقبل عليهم كالليل من إبل وغنم وخيل ، واذا عميلة قد وقف عليه فقال : يا ابن عنقاء أخرج الىَّ فخرج اليه . فقال : هذا مالى أجمع هلم نقتسمه فقاسمه أياه بعيراً وبعيراً وفرساً وفرساً وشاةً وشاةً وجاريةً وجاريةً وغلاماً وغلاماً . ثم انصرف فقال ابن عنقاء الابيات .

« وقال آخر »

سأشكر عمراً إن تراخت منيتى ... أيادى لم تمنن وإن هى جلت
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ... ولا مظهر الشكوى اذا النعل زلت

(١) العوراء الكلمة القبيحة ، واغضى طبق أجفانه (٢) أسدى من سدى البعير اذا قدم يديه فى السير ومن أسداك خيراً فكأنه بسط به اليك يده مقبلا (٣) يقطع الحشيش بعد جفافه (٤) ضن : أى بخل (٥) بقل وجهه أى خرج شعره

رأى خلتى من حيث يخفى مكانها   فكانت قذى عينيه حتى تجلت (١)

« وقال رجل من بهراء واسمه فدكى »

إن أجز علقمة بن سيف سعيه   لا أجزه ببلاء يوم واحد
لأحبنى حب الصبى ورمّنى   رمّ الهدىّ الى الغنىّ الواجد (٢)
وأجابنى يوم الصراخ بهجمة   مائة تشق على عصى الذائد
ولقد نضحت مليلتى فتميثت   عن آل عتاب بماء بارد (٣)

« ومن خبر فدكى » انه كان مجاوراً فى بنى تغلب لبنى عتاب بن سعد ابن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب فاقام فيهم مدة ثم إن علقمة بن سيف العتابى غزا فى بعض مغازيه فأغار حنش بن معبد أحد بنى ثعلبة بن بكر بن حبيب فأخذ ابل البهرانى فكان اذا ورد بنو عتاب نعمهم حوّض حوضاً واستقى فيه حتى يملأه ثم يغمز فيه ذكره ويقول أشرب فمالى مال غيرك واذا حضر مجالسهم انشأ يقول :

هل أنا الا معزب لياليا   لياليا من رجب ثمانيا
ثم تجيء جيرتى بماليا

فلما قدم علقمة بن سيف أخبروه شأن البهرانى ، فقال إن حنش بن معبد لى صديق وإن وفدت عليه رد على الابل ، فوفد عليه فى جماعة من بنى تغلب ، فيهم رجل من بنى الاوس بنى تغلب ، وهم أشأم حى فى العرب بسبب رجل منهم وقعت حرب البسوس وبسبب رجل آخر منهم وقعت حرب ابني بغيض ذبيان وعبس . فلما قدموا على حنش بن معبد فرح بهم وبنى عليهم قبة وأكرمهم

(١) الخلة : الفقر هنا ، وقوله فكانت قذى عينيه أى لم يصبر عليها كما لا يصبر الرجل على قذى عينيه حتى يخرجه (٢) رمنى : أصلح حالى ، رم الهدى : الهدى العروس اذا زفت العروس الى الغنى تكلف أهلها فى حسن تجهزها لئلا يعيرها أهل زوجها خللا وقع فى أمرها ولا يعير زوجها تزوجه اياها (٣) المليلة : شدة العطش والحرارة ، وتميثت : بردت وذابت من ماث الدواء اذا أذابه

ووعدهم أن يرد على علقمة بن سيف الابل اذا اصبحوا فلما كان الليل استسمع عليهم حنش بن معبد وهم يتحدثون ويذكرون ما صنع بهم حنش ووعده إياهم برد الابل وسمع الاوسى وهو يقول ألم احدثكم انها كالعصية أزدردتها (١) اللُبْوَة إن لاتقئها تخراها فاغضب ذلك حنشاً وحلف أن لايَرُدَّ منها بعيراً فلما رجعوا أخرج علقمة بن سيف من ماله مائة بعير فاعطاها البهرانى وقال هذا بدل ما أخذ منك ، فقال البهرانى : سأشكر عمراً الابيات .

وقال الحسين بن مطير الاسدى فى بعض العرب

له يوم بؤس فيه للناس أبؤس ... ويوم نعيم فيه للناس أنعُمُ (٢)
فيمطر يوم الجود من كفه الندى ... ويمطر يوم البأس من كفه الدم
ولو أن يوم البأس خلى عقابه ... على الناس لم يصبح على الارض مجرم
ولو أن يوم الجود خلَّى يمينه ... على الناس لم يصبح على الارض معدم

وقال أبو الطَمَحان القينى واسمه حنظلة بن الشرقى (٣)

اذا قيل أى الناس خيرٌ قبيلةً ... وأصبرُ يوماً لاتوارى كواكبه (٤)
فأنَّ بنى لام بن عمرو أرومةً ... سمت فوق صَعْب لاتنال مَراقبه (٥)

---

(١) زرد اللقمة وازدردها : بلعها ، واللبوة كعنوة ويكسر وكسمرة وكفناة الاسدة ، قال فى المصباح : الهاء فيها لتأكيد التأنيث كما فى ناقة ونعجة لانه ليس لها مذكر من لفظها حتى تكون فارقة ، ويقال : أجرى من اللبوة (٢) يقول ايام هذا الممدوح مقسمة بين انعام وانتقام يوم بؤس تشقى به أعداؤه ويوم نعيم تحيا به وتسعد أولياؤه ثم جاء بما عنده من الابيات مشروحاً فقال . فيمطر يوم الجود الخ (٣) ترجمته فى الخزانة (٣،٤٢٦) (٤) قبيلة منصوب على التميز والمراد باليوم يوم الحرب والقتال ، وتوارى أصله تتوارى فحذف إحدى التاءين ، وأراد بكواكبه شدة ذلك اليوم ، قال التبريزى : والاصل فى هذا ان يوم حليمة لشدة القتال صعد الغبار فى ذلك اليوم وانعقد فى الجو حتى ستر الشمس فرؤيت الكواكب ظهراً — والمعنى ان سأل سائل عن خير قبيلة وأصبرها يوم القتال الشديد قيل له بنو لام (٥) المراقب : جمع مرقبة وهى المكان المشرف العالى يقف عليه الحارس ، أى سمت فوق صعب يشق الارتقاء اليه ، الارومة : الاصل

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دُجى الليل حتى نَظَّم الجزْعَ ثاقبُهْ (١)

وقال آخر

يا أيها المتمنى أن يكون فتى مثل ابن زيد لقد خلَّى لك السُّبُلا (٢)
اعدُدْ نظائر أخلاق عُدِدن له هل سَبَّ من أحد أو سُبَّ اذ بَخِلا ؟
إن تنفق المال أو تكلف مساعيَهُ يَصْعُبْ عليك وتفعل دون مافعلا
لو يُبْعثُ الناس أدناهم وأبعدُهم فى ساحة الارض حتى يحرُثوا الابلا (٣)
كى يطلبوا فوق ظهر الارض لم يجدوا مثلَ الذى غيبوا فى بطنه رَجُلا

وقال شقران مولى سلامان من قضاعة

لو كنتُ مولى قيس عيلانَ لم تجد علىَّ لانسان من الناس درهما
ولكننى مولى قضاعةَ كلِّها فلستُ أُبالى أن أدينَ وتَغْرما
أولئك قومى بارك الله فيهم على كل حال ماأعفَّ وأ كرما (٤)
ثقالُ الجفان والحلوم رَحاهُمُ رحى الماء يكتالون كيلاغذَمذما (٥)
جفاة المحزّ لايصيبون مفْصلا ولايأ كلون اللحم الا تخذُّما (٦)

وقالت ليلى الاخيلية ويقال بل قالها أبوها

نحن الأخايل لايزال غلامنا حتى يَدِبَّ على العصا مذكورا (٧)

---

(١) الجزع بالفتح ، فيه بياض وسواد ، الواحد جزعة مثل تمر وتمرة ، والثقوب الاضاءة ، يقال نار ثاقبة وكوكب ثاقب وحسب ثاقب وقد ثقب أى اشتد ضوؤه وتلألؤه (٢) أراد بابن زيد عروة بن زيد الخيل أى لقد خلى لك الطرق فى اكتساب مناقب الفتوة (٣) قوله حتى يحرثوا الابل أى يهزلوها ويضعفوها بالاسفار ، وقوله لم يجدوا جواب لو . ومعنى البيتين : لوطاف الناس بالارض حتى تتعب ابلهم لكى يصادفوا عليها مثل هذا الممدوح الذى أودعوه بطنها لم يجدوا له نظيراً (٤) قوله على كل حال متعلق بقوله بارك الله فيهم أى بارك الله فيهم فى سائر أحوالهم ، ثم قال مستأنفاً ما أعف وأ كرما أى أعفهم وأ كرمهم — والمعنى أنه يدعو بالبركة ويتعجب من عفافهم وكرمهم (٥) الغذمذم كسفرجل الجزاف (٦) الخذم . سرعة القطع وفى التخذم زيادة تكلف ، يقول اذا أكلوا اللحم على موائدهم لم يتناولوه الا قطعاً بالسكاكين لانهشاً بالاسنان ، وقيل المراد بالاختذام هو طيب النفس يقال رجل خذم أى طيب النفس والخذم السمح (٧) الاخايل . جمع وهى قبيلة ، ويقال للشاهين الاخيل والجمع الاخايل ومراد الشاعر نحن المعروفون المشهورون ، وقوله لايزال غلامنا أى الغلام منا رفيع الذكر من صباه إلى أن يهرم

تبكي السيوفُ اذا فقدنَ اكفَّنا   جزعاً وتعلمُنا الرفاقُ بُحورا
ولنحنُ أوثقُ فى صدور نسائكم   منكم اذا بكر الصُّراخ بكورا [(١)]

وقال عمرُو بنُ الاطنابةَ أحد بنى الخزرج [(٢)]

إنّى من القوم الذين اذا انتدَوْا   بدؤا بحق الله ثم النائِل [(٣)]
المانعينَ من الخنا جاراتِهم   والحاشدين على طعام النازل [(٤)]
والخالطين فقيرَهم بغنيهم   والباذلين عطاءَهم للسائل
الضاربين الكبشَ يبرقُ بيضه   ضربَ المهَجْهِجِ عن حياض الآبلِ [(٥)]
والقائلين لدى الوغى أقرانَهم   إن المنية من وراءِ الوائل [(٦)]
والقائلون فلا يعاب كلامُهم   يوم المقامةِ بالقضاء الفاصل [(٧)]
خُزرٌ عيونُهمُ إلى أعدائهم   يمشُون مشى الأسْدِ تحت الوابل [(٨)]
ليسوا بأنكاسٍ ولا ميلٍ اذا   ما الحرب شُبّت أشعلوا بالشاعل [(٩)]

---

(١) انما خص الصراخ بالبكور لان الغارة تقع صباحاً (٢) الاطنابة . سير الحزام يكون عوناً لسيره اذا قلق ، قال سلامة : (يركضن قد قلقت عند الاطانيب) والاطنابة سير يشد فى وتر القوس العربية والاطنابة المظلة ، واسم أم عمرو هذا وهو أحد من ملك الحجاز فى الجاهلية وكان شاعراً مجيدا وهو القائل :

أقول لها وقد جشأت وجاشت   مكانك تحمدى أو تستريحى

تمثل به معاوية (رضي الله عنه) فى احدى وقعاته مع علىّ (رضي الله عنه) وكاد ينهزم فما لبث أن ثبت مكانه ، وأما الخزرج فالريح الجنوب (٣) انتدوا تصدروا في النادى وهو المجلس ، وقوله بدأوا بحق الله يعني الواجبات ، النائل : يعني العطاء للسائل (٤) قوله الحاشدين أي الذين لايفترون عن القيام بذلك ، والخنا : الفحش ، والنازل أراد به الضيف (٥) المهجهج الذى يطرد الابل عن الحوض اذا رويت فيقول لها جوه أو جاه وعندهم أن جوه من زجر الاناث وجاه من زجر الذكور ، والآبل صاحب الابل كالتامر واللابن ، والكبش سيد القوم والبيضة بيضة الحديد التى تلبس للحرب (٦) يقول ان المنية من وراء الهارب أى تلحقه على كل حال لامنجى منه ، والوغى : الحرب (٧) المقامة : المجلس (٨) الخزر ضيق العين كأنه ينظر بمؤخرها ، والوابل : المطر الشديد — معناه انهم ينظرون الى أعدائهم نظر استهزاء ولا يكترثون بهم ولا يفزعون من شىء لشدة ثباتهم (٩) الانكاس جمع نكس وهو الذى لاخير فيه ، والميل جمع أميل وهو الذى لايثبت على الفرس ، والمعنى أنهم ليسوا بالضعفاء بل هم فرسان إذا أوقدت نار الحرب أشعلوها بمن يشعلها

وقال حجرُ بن خالد يمدح النعمانَ بن المنذر

سمعتُ بفعل الفاعلين فلم أجد ... كمثل أبي قابوس حزما ونائلا[١]
فساق إلهي الغيث من كل بلدة ... اليك فاضحى حول بيتك نازلا
فاصبح منه كل وادٍ حللتهُ ... من الارض مسفوح المذانب سائلا[٢]
متى تُنْعَ يُنْعَ الجودُ والبأس والتقى ... وتُصبح قلوص الحرب جرباء حائلا[٣]
فلا ملكٌ ما يُدركنكَ سعيهُ ... ولا سُوقةٌ ما يمدحنكَ باطلا[٤]

وقال آخر

ومستنبح بعد الهدوء دعوته ... بشقراء مثلِ الفجر ذاكٍ وقودُها[٥]
فقلتُ له: أهلاً وسهلاً ومرحباً ... بمُوقِدِ نارٍ مُخْمَدٍ من يرودها
نَصبْنا له جَوفاء ذات ضبابةٍ ... من الدهم مبطاناً طويلاً رُكُودُها[٦]
فان شئت أتويناك في الحيّ مكرماً ... وان شئت بلغناك أرضاً تريدها[٧]

وقال آخر

ومستنبح تهوى مساقط رأسه ... الى كل شخص فهوَ للسمع أصوَرُ[٨]

---

(١) أبو قابوس كنية النعمان والكاف من كمثل زائدة ومثله (لواحق الاقراب فيها كالمقق) أراد فيها المقق كما أن هذا يريد لم أر مثل أبي قابوس (٢) فاصبح منه أي من الغيث وانتصب مسفوح المذانب على أنه خبر أصبح والمذانب المسايل (٣) ليس للحرب قلوص انما هو مجاز استعمله لضعف الحرب بعده لان القلوص اذا جربت لم تركب واذا حالت لم تحلب (٤) السوقة سموا سوقة لان الملك يسوقهم على حكمه والواحد والجمع في اللفظ سواء ، وقوله ما يمدحنك باطلا أي مدحاً باطلا وانتصب باطلا على أنه صفة لمصدر محذوف (٥) بعد الهدوء أي بعد قطعة من الليل يهدأ فيها الناس ، وشقراء نار شبهها بالفجر لارتفاعها وانتشارها وقوله ذاك وقودها أي متقد ايقادها وهذا من باب جنونك مجنون وشعرك شاعر ومعنى دعائه الى النار الهابه اياها ليبصر ضوءها فيجيء اليها (٦) جوفاء: أي قدراً واسعة الجوف كثير الاخذ ، والضبابة: ما يتعقب المطر من الظلمة الرقيقة والسحاب الركيك وذكر ههنا مثلا والدهم السود ، وركودها ثباتها على النار لعظمها وكثرة اللحم فيها (٧) يقول ان أردت الاقامة اقمت مكرماً معظماً وان أردت التوجه في مقصدك بلغناك مقرك (٨) المساقط جمع مسقط ويريد به المصدر أي يميل رأسه الى كل شخص يقدره انساناً ليلتجيء اليه لانه ضل الطريق

يصفّقه أنفٌ من الريح باردٌ ونكباء ليلٍ من جمادي وصرصر (١)
حبيبٌ الى كلب الكريم مُناخه بغيضٌ الى الكوماء والكلب أبصر (٢)
حضأت له نارى فأبصرَ ضوءها وما كاد لولا حضأة النار يُبصر (٣)
دعته بغير اسمٍ هلمَّ الى القِرى فأسرى يَبوع الارض والنار تَزْهَر (٤)
فلما أضاءت شخصهُ قلتُ مرحباً هلمَّ وللصالين بالنار أبشروا (٥)
فجاء ومحمود القرى يستفزّه اليها وداعى الليل بالصبح يصفِر (٦)
تأخرت حتى لم تكد تصطفى القِرى على أهله والحق لايتأخر (٧)
وقمت بنصلِ السيف والبَرْكُ هاجدٌ بهازرهُ والموت بالسيف ينظر (٨)
فاعضضتهُ الطولى سناماً وخيرها بلاءً وخيرُ الخير ما يتخير (٩)
فأوفضْ عنها وهى ترغو حُشاشةً بذى نفسها والسيف عُريان أحمر (١٠)

والاصور · المائل (١) يصفقه · يضربه ، والانف من الريح أولها ، والنكباء · كل ريح تهب بين ريحين من الرياح الاربع ، والصرصر : الريح الباردة (٢) الكوماء الناقة العظيمة السنام ، وابصر بمعنى اعلم من بصر القلب لابصر العين ، معناه أن كلب الرجل الكريم يحب الضيف ليأكل من طعامه وان ناقته تكره الضيف لانه ينحرها له

(٣) حضأت له نارى أى رفعتها له ليستدل بها ولولا رفعها له ما كان يبصر الطريق ولا يهتدى

(٤) يبوع الارض · أى يقطعها بخطو واسع وحركة سريعة ويقال بعت أبوع بوعاً من هذا وفرس بيع واسع الخطو والنار تزهر الواو واو الحال وتزهر تفىء فى صعود (٥) أى لما دنا منى وتراآى لى شخصه بضوء النار تلقيته بالترحيب وقلت لمن حول النار من المصطلين ومن الاهل والحول استبشروا بالضيف ، وقوله مرحباً تسليم عليه ؛ وهلم أمر بالدنو له فكأنه استأنف بعد التسليم بهذا الكلام ولم يجمعهما اللفظ به فى حالة واحدة (٦) يستفزه · أى يستحثه ، وداعى الليل · مايصوت بالسحر مثل الديك وغيره ، والصفير · كل صوت يمتد معرقة (٧) أي قلت للضيف تأخرت حتى كاد غيرك يسبق الى القرى فينال صفوة القرى أى خياره دونك ولكن حق الضيف لايؤخر عنه بتأخر حضوره (٨) البرك : الابل ، والهاجد : النائم ، والبهازر جمع بهزرة وهى الناقة العظيمة (٩) فاعضضته الطولى أى جعلت السيف يعضها والطولى مؤنثة الاطول وخيرها بلاء أى وأحسنها نعمة ومن نعمة الناقة أن تكون كريمة الاولاد غزيرة اللبن سريعة السير وغير ذلك من الصفات المحمودة فيها · ومعناه انه نحر من الابل أطولها سناماً وأطيبها لحماً وأكرمها عنده منزلة (١٠) أوفضن أى تفرقن بسرعة وأصل الايفاض الاسراع وترغو من الرغاء اى تصوت ، والحشاشة بقية الروح ، وبذى نفسها أي بخالصة نفسها ، وعريان أحمر أى مجرد من غمده متلطخ بدم الناقة

فباتت رُحابٌ جَوْنةٌ من لحامها ‏ ‏ وفوها بما فى جَوْفها يتغرغرُ (١)

وقال آخر

وما يكُ فىَّ من عيبٍ فانى ‏ ‏ جبان الكلب مهزول الفصيل (٢)

وقال آخر

سأقدحُ من قدرى نصيباً لجارتى ‏ ‏ وان كان مافيها كَفافاً على أهلى (٣)

اذا أنت لم تشرك رفيقك فى الذى ‏ ‏ يكون قليلا لم نشاركه فى الفضل (٤)

وقال عمروُ بنُ الاهتم

ذرينى فان الشحَّ يا أم هيثم ‏ ‏ لصالح اخلاق الرجال سروق (٥)

ذرينى وحطى فى هواى فاننى ‏ ‏ على الحسب الزاكى الرفيع شفيق (٦)

ذرينى فانى ذو فعال تهمنى ‏ ‏ نوائب يغشى رزؤها وحقوق (٧)

وكلُّ كريم يتقى الذم بالقرى ‏ ‏ وللحق بين الصالحين طريق (٨)

لعمرك ماضاقت بلادٌ باهلها ‏ ‏ ولكن أخلاق الرجال تضيق (٩)

---

(١) الرحاب الواسعة وأراد بها القدر ، والجونة السوداء ومن لحامها خبر بانت كقولك انت منى ، وفوها أى فمها ، ويتغرغر أى يصوت من شدة غليانها ويسيل بما فيها على النار (٢) جبان الكلب أى كلبى جبان وفصيلى مهزول انما قال جبان الكلب لانه تعود أن يسالم الطراق لئلا تتأذى به الضيوف اذا وردوا وقال مهزول الفصيل لأنه يؤثر بلبن أمه غيره أو تنحر عنه (٣) القدح : الغرف ، والكفاف : مايكف الانسان عن السؤال ويكون على قدر حاجته لايزيد عنها ولا ينقص (٤) الفضل مازاد عن الحاجة ومثل هذا البيت قول الآخر

ليس العطاء من الفضول سماحة ‏ ‏ حتى تجود وما لديك قليل

(٥) يقول ذرينى اجر على كرمى فان الشح يزين للانسان العذر الكاذب والعلل الباطلة فكأنه يسرق كل أخلاقه الحميدة (٦) حطى فى هواى أى ساعدينى على الجود ، والزاكى : الزائد ، وشفيق ومشفق والشفقة عطف مع خوف ولهذا لايوصف الله تعالى بالشفقة (٧) يغشى رزؤها أى يغشانى رزؤها فحذف المفعول ومعنى الرزء هنا اصابة الناس من ماله وانتفاعهم به ويقال منه وهو برزأ اذا كان سخياً ينال الناس افضاله (٨) القرى طعام الضيافة ، معناه أن كل كريم يبذل ماله دون عرضه ويتبع سبيل الحق ويسلك طريقه ليستوجب المدح والشكر (٩) تضيق : أى تضيق بهم فحذف ذلك لان ما تقدمه يدل عليه ، معناه أن أرض الله واسعة لم تضق على امرئ وانما تضيق أخلاق الرجال وصدورهم

وقال آخر

أجلَّك قوم حين صرت الى الغنى　　وكلُّ غنى فى القلوب جليل (١)
وليس الغنى الا غنًى زيَّنَ الفتى　　عشيةَ يَقْرِى أو غداة يُنيل

وقال المثلم بن رياح المرى (٢)

بكر العواذل بالسواد يلمننى　　جهلا يقلنَ الا ترى ماتصنعُ (٣)
افنيتَ مالك فى السفاه وانما　　أمر السفاهة ما أَمَرْنَك أجمعُ (٤)
وقتود ناجية وضعت بقفرة　　والطيرُ غاشية العوافى وُقَّعُ (٥)
بمُهَنَّدٍ ذى حلْية جردته　　يَبْرِى الاصمَّ من العظام ويقطع (٦)
لتنوب نائبةٌ فتعلم أننى　　ممن يغرُّ على الثناء فيُخدع
انى مقسم ما ملكت فجاعلٌ　　أجراً لآخرةٍ ودنيا تنفع

وقال ارطاة بن سهية المرى

فلو أن ما نعطى من المال نبتغى　　به الحمد يعطى مثله زاخر البحر (٧)
لظلت قراقيرٌ صياماً بظاهر　　من الضَحْل كانت قبل فى لجج خضر (٨)
ولا نكسر العظم الصحيح تعززاً　　ونغنى عن المولى ونجبرُ ذا الكسر

(١) يقول لما استغنيت عظمت فى عيون الناس فاجلوا قدرك وليس الغنى الا ما يضاف به القوم عشية اذا نزلوا ويصلهم بالغداة اذا ارتحلوا (٢) هو شاعر جاهلى وهو الذى التجأ بالحصين بن الحمام المرى لما قتل حباشة الذى كان فى جوار الحرث بن ظالم فأجاره الحصين وغرم عنه دية القتيل ، هذا وقال دعبل ان هذه الابيات لشبيب بن البرصاء (٣) انما قال بكر العواذل لان العرب تشرب ليلا وتسكر وتهب فاذا أصبحت لامها من أرادلومها على ذلك بالسواد قبل الاسفار وقوله الا ترى أى أى شىء تصنع (٤) السفاه والسفاهة الخفة والطيش معناه قالت لى العواذل ضيعت مالك فى السفاهة وليس بى سفاهة وانما السفاهة ماقلته من عذلى ولومى (٥) وقتود مجرور به بمقدرة والقتود جمع قتد وهو خشب الرحل ، والناجية . الناقة القوية السريعة ، والعوافى : الطير جمع عافية وهو من قولهم عفاه واعتفاه اذا طلب معروفه (٦) ومهند تعلق بقوله وضعت بقفرة لانه فى معنى عرقبت والمراد بالحلية دم الناقة الذى تلطخ به السيف جعله كالحلية له . ويبرى يقطع . والاصم : ما ليس بأجوف فاذا قطع الاصم فهو للمجوف اقطع معناه انه عرقب الناقة بسيف ماض (٧) زاخر البحر أى طاق البحر (٨) أى لظلت سفن راكدة وواحد القراقير قرقور وهى السفن ، والضحل : الماء القليل يترقرق على وجه الارض ، واللجج جمع لجة . وهى معظم البحر ، والخضر : السود والبحر الاخضر الاسود

غلبنا بنى حواءَ مجداً وسؤدداً ولكننا لم نستطع غلب الدهرِ (١)

وقال حُجْرُ بن حيةَ العَبْسى

ولا أُدوِّمُ قِدرى بعد ما نضجتْ بُخْلاً لتمنع ما فيها أثافيها (٢)
حتى تقسم شتى بين ما وسِعتْ ولا يؤنَّبَ تحتَ الليل عافيها (٣)
لا أحرِم الجارةَ الدنيا اذا اقتربت ولا أقوم بها فى الحى أُخزيها (٤)
ولا اكلمها الا علانيةً ولا أخبِّرها الا أناديها (٥)

وقال المساور بن هند بن قيس بن زهير

فِدىً لبنى هندٍ غداةَ دعوتهم بجوِّ وبالَ النفسِ والأَبوان (٦)
اذا جارةٌ شُلَّتْ لسعد بن مالكٍ لها إبلٌ شُلَّت لها إبلان (٧)
اذا عقدت افناء سعدِ بن مالكٍ لهاذمةً عزتْ بكل مكان
اذا سُئلوا ما ليس بالحق فيهم ابى كل مجنىٍّ عليه وجانى
ودارِ حفاظٍ قد حللتم مهانةٍ بها نيبُكم والضيفُ غيرُ مهان (٨)

وقال آخر

جزى الله خيراً غالباً من عشيرةٍ اذا حدثان الدهر نابت نوائبه (٩)
فكم دفعوا من كربةٍ قد تلاحمت علىَّ وموج قد علتنى غواربه (١٠)
اذا قلت عُودوا عاد كل شمرْدلٍ اشمَّ من الفتيان جزْلٍ مواهبُهْ (١١)

---

(١) المراد ببنى حواء جميع الناس (٢) أى لا أطيل ادامة قدرى بعد ادرا كها على الاثاف بخلا بما فيها وجعل المنع للاثاف لانها لم تغرف ما دامت عليها منصوبة ، والاثافي جمع أثفية وهى الحجارة التى توضع عليها القدر (٣) ولا يؤنب أى لا يلام . والعافى طالب المعروف (٤) الدنيا : أى القربى ولا أقوم بها تقول العرب قام بى فلان وقعد اذا تثنا عنك قبيحاً . واخزيها أى اهينها (٥) العلانية ضد السر (٦) وبال . اسم ماء لبنى عبس أضيف اليه الجو والجو ما اطمأن من الارض (٧) شلت . طردت (٨) دار الحفاظ . هى التى يقيم بها أهلها فى الجدب والخصب يحافظ على صيانتها مهانة . والنيب جمع ناب وهى الناقة المسنة

(٩) الحدثان . نوائب الدهر وشدائده مصدر حدث (١٠) الكربة اسم لما يأخذ بالنفس من الهم والحزن . وتلاحمت . اشتدت ولزمت . والغوارب جمع غارب وهو أعلى الموج وأعلى الظهر (١١) اذا قلت عودوا أى الى الحرب . والشمردل : الطويل ، والاشم . من

اذا اخذت بزلُ المخاض سلاحها   تجرد فيها متلف المال كاسبه (١)

وقال آخر

وليس فتى الفتيان من جلُّ همه   صبوح وإن أمسى ففضل غبوق (٢)
ولكن فتى الفتيان من راح أوغدا   لضرِّ عدوٍّ أو لنفع صديقِ

وقال خراز بن عمرو من بنى عبد مناف

لنا ابلٌ لم تُهن ربَّها   كرامتها والفتى ذاهب
هجانٌ يكافأ منها الصديقُ   ويدرك فيها المنى الراغب (٣)
ونطعن عنها نحور العدى   ويشربُ منَّابها الشارب (٤)
ونؤلفها فى السنينَ الكلولَ   اذا لم يجد مكسباً كاسب (٥)
ولم تكُ يوما اذا روّحت   على الحى يلقى لها جادب (٦)
حبانا بها جدُّنا والاله   وضربٌ لنا خذمٌ صائب (٧)

وقال مضرس بن ربعى

وانى لادعو الضيف بالضوء بعدما   كسى الارض نضاح الجليد وجامده (٨)
لأكرمه إن الكرامة حقه   ومثلان عندى قُربهُ وتباعده
أبيت أعشّيهِ السديفَ وإننى   بما نال حتى يترك الحى حامده (٩)

الشمم كناية عن الكرم وأصله ارتفاع الانف (١) البزل جمع بازل وهو المتناهى قوة وشباباً . والمخاض . النوق الحوامل والمراد بسلاحها محاسنها وامارات عتقها وكرمها . ومتلف المال كاسبه هو كقولهم مخاف متلف ومخلاف متلاف (٢) من جل همه أى أكبر همه وقصده والصبوح الشرب في أول النهار ، والغبوق : الشرب فى آخره (٣) الهجان الابل البيض ويقع على الواحد والجمع . ويكافأ من المكافأة وهى المجازاة والمراد بالصديق جنسه . والمراد بالراغب طالب الخير والمعروف (٤) معناه ندفع عنها الغارات ونحامى دونها والمراد بالشارب هنا شارب الخمر (٥) أراد بالكلول الضعفاء الواحد كل . وقوله اذا لم يجد مكسبا كاسب بدل من قوله فى السنين أى اذا اشتد الزمان جعلنا ابلنا يألفها كلول الناس فينالون منها (٦) الجادب العائب (٧) حبانا من الحباء وهو العطاء بلا جزاء ولا منّ . والخذم . القاطع أى بضرب قاطع صائب (٨) دعوة الضيف بالضوء هى أن العرب كانوا يوقدون النار فى أعالى الجبال ليراها المارة ويأتوها فيضيفوهم ويكرموهم . والنضاح الرشاش . والجليد مايسقط على الارض من الندى فيجمد لبرد الهواء (٩) السديف شحم السنام وقوله وانى بما نال الخ يريد ان أقترح على شيئاً أعده

وقال حماس بنُ نامل

ومستنبحٍ في لجِّ ليلٍ دعوتهُ   بمشبوبةٍ في رأس صمدٍ مقابلِ (١)
وقلت له : أقبل فانك راشدٌ   وإن على النار الندى وابنَ ناملِ (٢)

وقال النَمَريُّ ويقال انها لرجل من باهلة

وداعٍ دعا بعد الهدوء كأنما   يقاتل أهوال السُرى وتُقاتله (٣)
دعا بائساً شبه الجنون وما به   جنونٌ ولكن كيدُ أمرٍ يحاوله (٤)
فلما سمعتُ الصوتَ ناديت نحوه   بصوت كريم الجدِ حلوٍ شمائله (٥)
فأبرزت ناري ثم أثقبت ضوءها   وأخرجت كلبي وهو في البيت داخله (٦)
فلمّا رآني كبّر الله وحده   وبشّر قلباً كان جمّاً بلابله (٧)
فقلت له : أهلاً وسهلا ومرحباً   رشدْتَ ولم أقعد اليه أسائله (٨)
وقمتُ الى بركٍ هجانٍ أعدهُ   لوجبة حقٍّ نازلٍ أنا فاعله (٩)
بابيض خطت نعله حيث أدركت   من الأرض لم تخطل على حمائله (١٠)
فجال قليلاً واتقاني بخيرهِ   سناماً واملاه من النيّ كاهله (١١)

نعمة يستوجب مني حمداً وشكراً عليها وذلك له طول مقامه الى ان يفارقني . وقال النمري هو منصور بن الزبرقان احد بني نمر بن قاسط من شعراء الدولة العباسية وكان مع الرشيد ومقدماً عنده كما في مختصر شرح الحماسة (١) المستنبح من يطلب نباح الكلب ليهتدي بذلك في طريقه ولج الليل معظم ظلمته واصله لمعظم الماء ، والمشبوبة : النار المضرمة ، والصمد : الجبل أو الارض المرتفعة (٢) راشد مهتد ، والندى : الجود (٣) الهدوء السكون ، والسرى السير ليلا ، وقوله كأنما يقاتل الخ يريد ان الحال بلغ به حداً رأى فيه ان اهوال السرى تغالبه عن نفسه ويصارعها عنها ويدفعها (٤) البائس . هو الذي نزلت به شدة ، والمراد به الكلب ، والكيد الحيلة . ويحاوله يطلب دفعه والخلاص منه (٥) حلو شمائله أي أخلاقه كريمة (٦) اثقبت ضوءها أرته ، والاثقاب الانارة وهو في البيت مبتدأ وخبر وداخله خبر ثان (٧) جماً بلابله أي همومه كثيرة (٨) أي وجدت أهلا وسهلا وسعة ، ورشدت اهتديت (٩) البرك اسم جمع لما يبرك من الابل ، والهجان كرائم الابل . ووجبة الحق نزوله (١٠) بابيض متعلق بقوله قمت في البيت قبله . والابيض السيف ونعل السيف ماتكون في أسفل غمده من حديد أو غيره من المعادن . ولم تخطل أي لم تضطرب ولم تطل . وحمائل السيف علاقاته (١١) فاعل جال عائد على البرك المتقدم ذكره . والنيء : الشحم ، والكاهل مابين الكتفين

بقرم هجان مصعب كان فحلها — طويل القرى لم يعد ان شق بازله (١)
فخرَّ وظيفُ القَرْمِ فى نِصفِ ساقهِ — وذاكَ عقالٌ لا يُنَشَّطُ عاقلِه (٢)
بذلك أوصانى أبى وبمثله — كذلك أوصاهُ قديماً أوائله

وقال النابغة الذبيانى

له بفناءِ البيتِ سوداءُ فخمةٌ — تلقَّمُ أوصالَ الجزورِ العُراعِرِ (٣)
بقيةُ قدرٍ من قدورٍ تُوُرِّثَتْ — لآلِ الجُلاحِ كابراً بعد كابرِ
تَظَلُّ الاماءُ يبتدرْنَ قَديحها — كما ابتدرت سعدٌ مياهَ قُراقِرِ (٤)

وقال الفرزدق

وداعٍ بلحنِ الكلبِ يدعو ودونهُ — من الليل سجفا ظلمةٍ وغيومُها (٥)
دعا وهو يرجو أن يُنبَّهَ إذ دعا — فتى كابنِ ليلى حين غارت نجومُها (٦)
بعثتُ له دهماءَ ليست بلِقْحةٍ — تدرُّ إذا ما هبَّ نحساً عقيمُها (٧)
كأنَّ المحالَ الغُرَّ فى حَجَراتها — عذارى بدتْ لما أصيب حميمُها (٨)

---

(١) القرم : الجمل الشاب وهو بدل من خبره فى البيت قبله ، والمصعب الفحل الكريم الذى لا يبتذل في العوارض بل يقصر على الضراب والضمير فى فحلها راجع الى البرك فيما تقدم ، والقرى الظهر ، وشق بازله طلع سنه وذلك سن يطلع للجمال فى السنة التاسعة من اعمارها (٢) فخر أي فسقط ، والوظيف : مستدق الذراع ، والعقال ما يعقل ويربط به من حبل ونحوه ، ولا ينشط أى لا يحل (٣) فناء البيت : هو ما امتد من جوانبه ، ويعنى بالسوداء القدر ، والفخمة العظيمة ، والاوصال المفاصل ، والجزور الناقة ، والعراعر العظيم الخلق وجعل اشتمالها على الاوصال كتلقمها إياها (٤) القديح فعيل بمعنى مفعول وهو المرق المقدوح ، وقراقر واد بالدهناء وشبه تبادر الاماء نحو القدر بتبادر بطون سعد الى تلك المياه (٥) يعنى مستنبحاً تكلف نبح الكلب فى صورته وفعل ذلك إذ حال بينه وبين الناظر من الليل ستران من الظلم والتباس الغيوم (٦) غارت نجومها : أى غابت وذهبت (٧) الدهماء : السوداء وأراد بها القدر ، والعقيم الريح التى ليس معها مطر لأنها لاتنفع الاشجار ، وقوله ليست بلقحة أى ليست هى بناقة وانما هى قدر تدر بمرقها اذا هب عقيم الرياح بالنحس (٨) المحال : فقر الظهر واحده محالة ، والغر : البيض ، والحجرات : الجوانب ، والعذارى : الابكار ، والحميم : القريب الذى يهتم لأمره وشبه المحال وفقر الظهر فى نواحى القدر وجوانبها وهى بيضاء سمينة مع تضمن القدر السوداء لها بالعذارى الابكار وقد لبسن ثياب السواد لما أصبن بمن يعز عليهن

غضوباً كحيزوم النعامة أُحمشت باجواز خُشبٍ زال عنها هشيمها (١)
مُحَضَّرَةٌ لايُجعلُ السترُ دونها اذا المُرْضِع العوجاءُ جال بريمُها (٢)

وقال شُرَيْحُ بنُ الاحوص

ومستنبحٍ يبغى المبيتَ ودونه من الليل سِجْفا ظلمةٍ وستورُها
رفعت له ناري فلما اهتدى بها زجرت كلابى أن يَهِرَّ عَقُورُها (٣)
فبات وانْ أسْرى من الليل عُقْبةً بليلةِ صدقٍ غاب عنها شُرورُها (٤)

وقال مسكين الدارمى

كأنَّ قدورَ قومى كلَّ يومٍ قبابُ الترك ملبسةَ الجلالِ (٥)
كأنَّ الموقدين بها جِمالٌ طلاها الزفتَ والقِطرانِ طالى (٦)
بأيديهم مغارفُ من حديدٍ أشبِّهها مقيَّرةَ الدوالى (٧)

وقال العُكْلِىُّ

أعاذل بكّينى لاضيافِ ليلةٍ نزور القِرى أمست بليلاً شَمالُها (٨)
أعامرُ مهلاً لاتلمنى ولا تكن خفياً اذا الخيرات عدت رجالها
أرى إبلى تجزى مجازى هَجْمَةٍ كثيرٍ وان كانت قليلاً إفالها (٩)
مثا كيلُ ماتنفكّ ارحلَ نجمةٍ تُرُدُّ عليهم نوقها وجمالها (١٠)

---

(١) غضوباً صفة لدهماء وجعل غليانها بمنزلة الغضب ، وحيزوم النعامة : صدرها ، وأحمشت أى أشبعت وقوداً تحتها ، والاجواز : الاوساط ، والهشيم : اليابس المتكسر من النبات (٢) محضرة أى لا يمنع منها أحد ، والعوجاء : التى أعوجت هزالاً وجوعاً ، والبريم : خيط أو سير ينظم فيه خرز فتشده النساء فى أوساطهن وانما يجول البريم اذا أثر الهزال فيها (٣) أراد أن لا يهرهر الكلب اذا صوت وموضع قوله أن يهر نصب على البدل من كلابى (٤) انتصب عقبة على الظرف وأصلها أن يتعاقب اثنان على بعير فاذا ركب أحدهما مشى الآخر ثم كثر استعماله فاجري مجرى النوبة والفرصة (٥) المعنى انه يشبه قدور قومه فى عظمها واتساعها واسوداد ظاهرها بقباب الترك التى ألبست اغطية سوداً (٦) يريد بالموقدين المزاولين لها فى نصبها وانزالها وطبخها وأصل الموقد المشرف على الشىء العالى عليه (٧) المقيرة : المطلية بالقار وهو الزفت ، والدوالى جمع دالية وهى دلو يستق بها (٨) اعاذل منادى مرخم عاذلة ونزور القرى أى قليل القرى : البليل الريح الباردة مع المطر (٩) الهجمة : القطعة من الابل من الاربعين الى المائة والافال جمع افيل وهو ابن مخاض والانثى افيلة (١٠) مثا كيل جمع مشكال وهى الناقة التى

وقال جابر بن حيان

فان يقتسم مالى بنيَّ واخوتى ... فلن يقسموا خُلق الكريم ولا فعلى (١)
أهينُ لهم مالى وأعلمُ أننى ... سأورثهُ الأحياءَ سيرةَ من قبلى
وما وَجد الأضيافُ فيما ينوبُهم ... لهم عند علاّت الزمان أباً مثلى (٢)

وقال عُتْبَةُ بن بُجَيْر

لحافى لحافُ الضيف والبيتُ بيتهُ ... ولم يُلهِنى عنه غزالٌ مقنعُ (٣)
أحدثهُ ان الحديث من القِرى ... وتعلم نفسى أنه سوف يَهْجَعُ

وقال المرّارُ الفقعسى

آليتُ لا أُخفى اذا الليل جَنّنى ... سنا النارِ عن سارٍ ولا مُتَنَوِّرِ (٤)
فياموُقِدى نارى ارفعاها لعلها ... تُضىء لسارٍ آخرَ الليل مقترِ (٥)
وماذا علينا أنْ يواجه نارَنا ... كَريمُ المُحَيّا شاحبُ المُتحَسَّرِ (٦)
اذا قال : من أنتمْ ليعرفَ أهلَها ... رفعْتُ له باسْمى ولم أتنكرِ
فبتنا بخيرٍ من كرامة ضيفنا ... وبتنا نُهَيِّء طُعمَهُ غيرَ مَيْسِرِ (٧)

وقال يزيدُ بنُ الطثرية

إذا أرسلونى عندَ تقديرِ حاجةٍ ... أُمارسُ فيها كنتُ نِعمَ المُمارسُ (٨)
ونفعِى نفعُ الموسرين وانما ... سوَامى سوام المقترين المفالسِ (٩)

اعتادت ان تثكل ولدها أى تفقده بنحر أو موت او نحوه ، الجة الجماعة ترد فى الصلح بين الناس والارحل جمع رحل وهو المثوى والمنزل (١) يقول ان اقتسم مالى أولادى فلن يقتسموا ما تفردت به من خلق كريم وفعل جميل اعدهما لزوارى (٢) علات الزمان : مكارهه وشدائده وجعل نفسه اباً للاضياف لانه يحنو عليهم حنو الاب وهذا على عادتهم فى تسمية المضيف ابا المثوى (٣) كنى بالغزال المقنع عن ذى الوجه الجميل ويهجع ينام ومعنى البيتين كل ما املكه فهو ملك للضيف وليس يلهينى عنه ما يلهى الناس وانى لا أقتصر على اطعامه بل لاازال أحدثه وأسامره وأونسه حتى تطيب نفسه فاذا رأيته يميل الى النوم خليته (٤) آليت : حلفت ، وجنة الليل ستره ، والسنا : الضوء ، والسارى : المسافر ليلا (٥) المقتر : البائس المفتقر (٦) شاحب المتحسر أى متغير ما يبدو منه كالوجه واليد والرجل وانما شحب لتعب السفر (٧) الطعم : الطعام ، والميسر : القمار (٨) امارس : اعانى وجملة امارس صفة لحاجة يصف نفسه بحسن التأنى فى الامور يرسل فيها (٩) السوام : الانعام الراعية ، والمقتر : الفقير ، والمفالس جمع

وقال عروة بن الورد العبسى

أرى أُمَّ حسانَ الغداةَ تلومُنى ... تُخَوِّفُنى الأعداءَ والنفسُ أخْوفُ (١)
لعل الذى خوَّفتِنا من أمامنا ... يُصادفه فى أهلِهِ المُتَخَلِّفُ
اذا قلتَ قد جاءَ الغنى حال دونه ... أبو صِبْيَةٍ يشكو المفاقرَ أعْجَفُ (٢)
له خَلَّةٌ لا يَدْخُلُ الحقُّ دونَها ... كريمٌ أصابته حوادثُ تَجْرُفُ (٣)

وقال الاقرع بن معاذ

إنَّ لَنا صِرْمَةً تُلفى مُخَيَّسَةً ... فيها معادٌ وفى أربابِها كرمُ (٤)
تُسَلِّفُ الجارَ شِرباً وهْىَ حائمة ... ولا يبيت على أعناقها قسَمُ (٥)
ولا تُسفِّهُ عند الحوض عطشتُها ... احلامنا وشريب السوْءِ يحتدمُ (٦)

وقال يزيدُ بنُ الجهم الهلالى ويروى لحُمَيدِ بن ثَوْر

لقد أمَرَتْ بالبُخْلِ أمُّ محمدٍ ... فقلتُ لها حُثِّى على البخل أحْمَدَا
فانّى امرؤٌ عودتُ نفسىَ عادةً ... وكلُّ امرئٍ جارٍ على ما تعوّدا
أحينَ بدا فى الرأس شيبٌ واقبلت ... إلىَّ بنو عَيْلانَ مَثْنَى ومَوْحَدا (٧)
رَجَوْتِ سِقاطى واعتلالى ونَبْوَتى ... وراءكِ عنى طالِقاً وارحلى غدا (٨)

مفلس وانما قيل للفقير مفلس لأنه من قولهم أفلس الرجل اذا صار صاحب فلوس بعد أن كان صاحب أموال وتفليس الحاكم معروف وهو من هذا كأنه ينسبه الى ذلك فهذا كالتعديل والتفسيق يقول عطائى كثير ومالى قليل لأنى غني النفس (١) المعنى أن أم حسان تعذلنى وتخوفنى الخروج الى أعدائى والنفس أخوف من أن تحذر ولكن الموت لا بد منه والذى تخوفني منه لعله يصادف المتخلف فى أهله (٢) المفاقر الحاجات جمع فقر على غير قياس ، وأعجف هزيل من الضر (٣) الخلة : الحاجة، والحق : القرابة هنا وتجرف أى تذهب بالمال كما تذهب المجرفة بما يجرف بها (٤) الصرمة : من الابل نحو الاربعين والمخيسة التى لم تسرح ولكنها حبست للنحر أو القسم وقوله فيها معاد اى يعود فيها العفاة يصيبون منها مرة بعد اخرى (٥) تسلف أى تقدم والجار نصب على نزع الخافض أى تقدم الى الجار والشرب الماء واراد به هنا اللبن والحائم العطشان الذى يحول حول الماء ولا يبيت على اعناقها قسم يريد لا نقسم عليها ان لا تنحر او توهب (٦) يقول اذا اوردناها الماء وبها عطش لا نواثب الموردين ولا نجفوهم فيكون عطشها سفه احلامنا أى عقولنا وأصل الاحتدام الاحتراق (٧) مثنى معدول عن اثنين وموحد معدول عن واحد واحد (٨) السقاط ان لا يفعل الانسان فعل الكرام وان

وقال آخر

إنى وإن لم ينلْ مالى مَدى خلقى فيّاضُ ماملكتْ كفّاى من مالِ
لا أحبِسُ المالَ الا ريْثَ أُتلِفهُ ولا تغيّرُنى حالٌ الى حالِ (١)

وقال سوادةُ اليَرْبوعى

ألا بكَرتْ مَىٌّ علىَّ تلومنى تقولُ الا أهلكتَ من أنت عائِله
ذَرينى فان البُخلَ لايُخلِدُ الفتَى ولا يُهلِكُ المعروفُ من هو فاعلهُ

وقالَ المقنّع الكِنْدِىّ

نزَلَ المشيبُ فأينَ تذهبُ بعدَهُ وقدِ ارْعَوَيْتَ وحانَ منكَ رحيلُ (٢)
كانَ الشّبابُ خفيفةٌ أيّامهُ والشيبُ مَحْمَلُهُ علىَّ ثقيلُ (٣)
ليس العطاءُ من الفضول سماحةً حتى تجودَ وما لديكَ قليلُ (٤)

الى غير ذلك من الشعر الذى هو على هذا المسلك وكله يدل على ما كان متنافساً فيه بين العرب من الصفات المحمودة . وعلى ما كانوا عليه من الكرم والسخاء والسماحة . وقد ألف بعض المتقدمين من أئمة أهل اللغة والأدب كتاباً فيما ورد من أخبار ضيوف العرب . وما اتفق فى ذلك من النوادر والقصص الغريبة والشعر المنتخب . والذى كتبته من الشعر كان من رواية أبى تمام فى حماسته . ولذلك اعرضت عن شرحه فان شروح الكتاب كثيرة مشهورة فمن اشكل عليه شىء فليراجعها .

ومما يدلك على مزيد سخاء العرب انه كانت لهم نار تسمى نار القرى وهى نار الضيافة توقد لاستدلال الاضياف بها على المنزل . وكانوا يوقدونها على

لا يذهب مذهبهم ويسلك طريقهم ، والاعتلال التعلل وأراد بالنبوة البعد وقوله وراءك عنى أى ابعد عنى وطالقاً انتصب على الحال من قوله وراءك عنى ولم يقل طالقة لانه اخرج مخرج النسب (١) الريث البطء (٢) ارعوى عن الشىء انصرف عنه ، وحان : قرب (٣) محمله أى حمله (٤) الفضول مافضل عنك بعد حوائجك والمعنى ان العطاء من الفضول لا يقال له جود وسماحة وانما الجود والسماحة ان يجود الانسان بكل شىء له فلا يبقى قليله أيضا

الاماكن المرتفعة لتكون أشهرَ . وربما أوقدوها بالمندلى الرطب وهو عِطْر ينسب الى مندل وهى بلدة من بلاد الهند ونحوه مما يتبخر به ليهتدى اليها العميان . وهذه النار عندهم أجل سائر نيرانهم التى سنفصلها على أتم وجه ان شاء الله تعالى ولم تزل مذكورةً على ألسنة شعرائهم . قال أبو زياد الاعرابى الكلابى يصف بعض أجواد العرب :

له نار تُشَبُّ على يفَاعٍ … اذا النيران ألبست القِناعا[1]
ولم يكُ أكثرَ الفتيان مالاً … ولكن كانَ أرحبَهمْ ذراعا[2]

وقال آخر

انى اذا خَفِيَتْ نار لمرْمِلَة … القى بارفع تلّ رافعاً نارى[3]
ذاك وانى على جارى لذو حدب … احنو عليه كما يُحْنَى على الجار

وانهم كانوا يقتنون الكلابَ لأمورٍ منها أنها تدل الاضياف على منازلهم بنُباحها وكانوا يمدحونها على ذلك، قال قائل منهم فى كلب له

أوصيكَ خيراً به فانّ له … خلائقاً لا أزال أحمَدُها
يدل ضيفى علىَّ وغَسَق الليل … اذا النار نام موقدها[4]

وكان لَعِبُهم بالميسر منبعثاً عن السخاء وكرم الطبع فان أهل الثروة والاجواد منهم فى شدة البرد وكَلَب الزمان[5] ييسرون أى يتقامرون بالقِداح وهى عشرة على جزور يجزّونها ثمانيةً وعشرين جزءاً وسيجىء ان شاء الله تعالى كيفية عملهم فى ذلك عند الكلام على أعمالهم التى جبها الاسلام فاذا قمر أحدهم جعل أجزاء الجزور لذوى الحاجة وأهل المسكنة واستراش الناسُ وعاشوا . وكانت العرب تمدح بأخذ القِداح وتَعيب من لاييسر وتسميه البرم .

---

(١) تشب أى توقد ، واليفاع المكان المرتفع . والبست القناعة كناية عن اخمادها
(٢) الذراع والذرع يراد به النفس (٣) المرملة . الجماعة التى نفذ زادها وافتقرت والتل ما ارتفع من الارض وايقاد النار فى الاماكن المرتفعة من اخلاق الكرام حتى يهتدى الضيف اليه فى الليل المظلم ويأتى (٤) غسق الليل : ظلمته (٥) كلب الزمان : شدته

قال متمم بن نُوَيْرة يرثى أخاه مالكا

ولا بَرَمًا تهدى النسآء لعرسه   اذا القِشْع من برد الشتاء تقعقعا[1]

وقال العَرَنْدَس فى قوم من العرب[2]

هَيْنُوْن لينون أيسار ذوو كرم   سُوّاس مكرُمةٍ أبناء أيسار[3]
إن يسألوا الحقَّ يُعطوه وإن خُبِرُوا   فى الجَهْدِ أُدرِكَ منهم طيب أخبار[4]
وان توددتَهم لانوا وإن شُهِمُوا   كشفْتَ أذمار شرٍّ غير أشرار[5]
فيهم ومنهم يُعَدّ المجدُ مُتلِداً   ولا يعد نثا خزىٍ ولا عار[6]
لا يَنطِقون عن الفحشاء ان نطقُوا   ولا يُمارون إن ماروا بإكثار[7]
من تلقَ منهم تَقُلْ لاقيتُ سيدَهم   مثلَ النجوم التى يسرى بها السارى

وقال لبيد بن مالك فى معلقته

وجزورِ أيسارٍ دعوتُ لِحَتْفِهَا   بمَغَالِقٍ متشابهٍ أجسامُها[8]
ادعو بهنَّ لعاقرٍ أو مُطْفِلٍ   بُذِلَتْ لجيران الجميع لِحامُها[9]
فالضيفُ والجارُ الجَنِيبُ كأنما   هَبَطا تبالةَ مُخصِباً أهضامُها[10]

---

(١) هذا البيت من قصيدة له فريدة في بابها يرثى بها أخاه مالكا وكان خرج مع خالد بن الوليد مرجعه من اليمامة يظهر الاسلام فظن به خالد غير ذلك فأمر ضرار بن الازور الاسدى فقتله وكان مالك من ارداف الملوك ومن متقدمى فرسان يربوع ، وقوله ولا برما البرم الذى لا ينزل مع الناس ولا يأخذ في الميسر ولا ينزع الا نكداً ، قال النابغة .

هلا سألت بنى ذبيان ما حسبى   اذا الدخان تغشى الاشمط البرما

والقشع الجلد اليابس ويقال لكناسة الحمام القشع ، قال أبو هريرة وكذبت حتى رميت بالقشع (٢) العرندس هو أحد بنى بكر بن كلاب ويمدح بهذا الشعر بنى عمرو الغنويين وكان أبو عبيدة اذا أنشدها يقول هذا والله محال كلابى يمدح غنويا (٣) الايسار جمع يسر وهم الذين يجيلون القداح ، وقوله سواس مكرمة أى يروضون المكارم ويلون أمرها (٤) الجهد : الشدة، والحق هنا ما أوجبوه على أنفسهم من مالهم ، وخبروا يريد اختبروا (٥) توددتهم : أى طلبت مودتهم وشهموا مبنى للمجهول من شهمه اذا أفزعه ، والاذمار جمع ذمر وهو الشجاع والشر الحرب وقوله غير اشرار جمع شرير على غير قياس (٦) المتلد : القديم . والنثا ما يخبر به عن الرجل من حسن أو سيىء أى تناسؤ يذل صاحبه اذا ذكر به (٧) لا يمارون اى لا يجادلون (٨) المغالق : سهام الميسر سميت بها لان بها يغلق الخطر من قولهم غلق الرهن يغلق غلقاً اذا لم يوجد له تخلص وفكاك (٩) العاقر : التى لا تلد ، والمطفل التى معها ولدها ، واللحام جمع لحم (١٠) الجنيب . القريب وتبالة واد مخصب من أودية اليمن والهضم المطمئن من الارض والجمع الاهضام والهضوم

تأوى إلى الاطْناب كل رذِيَّةٍ   مثل البليّةِ قالصٍ أهدامُها[١]

ويكلّلونَ اذا الرياح تناوَحَتْ   خُلجا تُمَدُّ شوارعاً أيتامها[٢]

والشعر فى ذلك كثير . ثم ان السخاء لايتوقف على بذل المال فانه هيئة للانسان داعية الى بذل القنيات حصل معه البذل أولم يحصل . ويقابله الشح والجود بذل المقتنى ويقابله البخل . هذا هو الاصل . وان كان كل واحد منهما قد يستعمل فى موضع الآخر . ويدلك على هذا الفرق أنهم جعلوا الفاعل من السخاء والشح على بناء الافعال الغريزية . فقالوا شحيح وسخى وقالوا جواد وباخل . وأما قولهم بخيل فمصروف عن لفظ الفاعل للمبالغة كقولهم راحم ورحيم . ولكون السخاء غريزةً لم يوصف البارى تعالى به

من اشتهر بالجود والسخاء وضُرِب بهم المثل فى الكرم من عرب الجاهلية ، منهم :

حاتم الطائى

قالوا فى المثل : أجود من حاتم ، يريدون به حاتم بن عبدالله بن سعد بن الحشرج ابن امرىء القيس بن عدى بن أحزم الطائى الجواد المشهور وأحد شعراء الجاهلية ويكنى أبا عدى وأبا سفَّانة « بفتح السين وتشديد الفاء » . وابنه أدرك الاسلام وأسلم . اخرج أحمد فى مسنده عن ابنه عَدِىٍّ قال قلت يارسول الله إن أبى كان يَصِلِ الرحم ويفعل كذا وكذا قال إن أباك أراد أمراً فأدْرَكَه يعنى الذكر . وكانت سفَّانة بنته أُتى بها الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالت يامحمد هلك الوالد . وغاب الرافد . فان رأيت أن تخلى عنى ولا تشمت بى أحياء العرب فان

---

(١) الاطناب : حبال البيت واحدها طنب والرذية الناقة التى ترذى فى السفر أى تخلف لفرط هزالها وكلالها والجمع الرذايا استعارها للفقيرة والبلية : الناقة التى تشد على قبر صاحبها حتى تموت والجمع البلايا والاهدام الاخلاق من الثياب واحدها هدم . وقلوصها : قصرها

(٢) تناوحت : تقابلت ومنه قولهم الجبلان متناوحان أى متقابلان ومنه النوائح لتقابلهن والخلج جمع خليج وهو نهر صغير يخلج من نهر كبير او من بحر والخلج الجذب وتمد : تزاد وشرع في الماء خاصه

أبي سيدُ قومه كان يفك العانى ويحمى الذِمار[١] . ويفرج عن المكروب . ويطعم الطعام . ويفشى السلام . ولم يطلب اليه طالب قط حاجةً فرده أنا ابنة حاتم طيّء . فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ياجارية هذه صفة المؤمن لو كان أبوك اسلامياً لترحمنا عليه خلوا عنها فان أباها كان يحب مكارم الأخلاق

قال ابن الاعرابى : كان حاتم من شعراء الجاهلية ، وكان جواداً يشبه جوده شعرُه . ويصدق قولَهُ فعلهُ ، وكان حيثما نزل عرف منزله ، وكان مظفراً اذا قاتل غلب ، واذا غنم انهب ، واذا ضرب بالقِداح فاز ، واذا سابق سبق ، واذا أسر أطلق ، وكان أقسم بالله لا يقتل واحدَ امهِ ، وكان اذا أهلَّ رجب نحر فى كل يوم عشرة من الابل وأطعم الناس واجتمعوا عليه ، وكان أوّل ماظهر من جوده أن أباه خلفه فى ابله وهو غلام فمر به جماعة من الشعراء ، فيهم عَبيد بن الابرص وبِشر بن أبى حازم ، والنابغة الذبيانى ، يريدون النعمانَ بن المنذر ، فقالوا له : هل من قِرَىً ولم يعرِفهم ، فقال : أتسألونى القرى وقد رأيتم الابل والغنم ، انزلوا فنزلوا فنحر لكل واحد منهم وسألهم عن أسمائهم فأخبروه ففرق فيهم الابلَ والغنم وجاء أبوه ، فقال : مافعلت ؟ قال : طوقتُك مجدَ الدهر طوقَ الحمامة وعرفه القضية فقال أبوه : اذاً لا أساكنك بعدها أبداً ولا آويك . فقال حاتم اذاً لا أبالى .

« ومن حديثه » . انه خرج فى الشهر الحرام يطلب حاجة فلما كان بأرض عَنَزَة ناداه أسير لهم يا أبا سفّانة أكلنى الأسار والقمل . فقال : ويحك ما أنا فى بلاد قومى ومامعى شيء وقد أسأتَ بى إذْ نوهتَ باسمى ومالكَ مَتْرَك . ثم ساوم به العنزيين واشتراه منهم فخلاه وأقام مكانه فى قيده حتى أتى بفدائه فاداه اليهم .

« ومن حديثه » أن ماوية أمرأة حاتم حدثت أن الناس أصابتهم سنة[٢]

---

(١) الذمار بالكسر : مايلزمك حفظه وحمايته (٢) سنة أى اقحطوا

فأذهبت الخف والظلف فبتنا ذاتَ ليلة بأشد الجوع فأخذ حاتِم عَدِيًا وأخذت سفّانة فعللناها حتى ناما ثم أخذ يعللني بالحديث لِأنام فرققت لما به من الجهد فامسكت عن كلامه لينام ويظن انى نائمة فقال لى أنمت مراراً فلم أجِبهُ فسكت ونظر من وراء الخباء فاذا شيء قد أقبل فرفع رأسه فاذا امرأة تقول يا أبا سفّانةَ قد أتيتك من عند صبية جياع فقال احضرينى صبيانك فوالله لاشبعنهم قالت فقمت سريعاً فقلت بماذا ياحاتم فوالله ماتام صبيانك من الجوع الا بالتعليل فقام الى فرسه فذبحه. ثم أجّج ناراً ورفع اليها شَفْرَةً وقال اشتوى وكلى واطعمى ولدك. وقال لى أيقظى صبيّيك فأيقظتهما ثم قال: واللهِ ان هذا للؤم أن تأكلوا وأهل الصِرْم[1] حالهم كحالكم فجعل يأتى الصِرْمَ بيتاً بيتاً ويقول عليكم النار فاجتمعوا وأكلوا وتقنع بكسائه وقعد ناحية حتى لم يوجد من الفرس على الأرض قليل ولا كثير ولم يذق منه شيئاً. وقد روى هذه القصة الفاضل شهاب الدين فى العقد على غير هذا الوجه فلتراجع[2] والتى ذكرناها رواية الميدانى فى مجمع الامثال. وأخبار كرم حاتم كثيرة وشهيرة. ونذكر قضية قِراه بعد موته وهى من العجائب. روى محرز مولى أبى هريرة قال مر نفر من عبد القيس بقبر حاتم فنزلوا قريباً منه فقام اليه رجل يقال له أبو الخيبرى وجعل يركض برجله[3] قبره ويقول: اقرنا فقال له بعضهم: ويلك ما يدعوك أن تعرض لرجل قد مات قال أن طيأ تزعم أنه ما نزل به أحد الا قراه ثم أجنهم الليل فناموا فقام أبو الخيبرى فَزِعاً وهو يقول: وا راحلتاه فقالوا له مالك قال أتانى حاتِم فى النوم وعقرَ ناقتى بالسيف وأنا أنظر اليها ثم أنشدنى شعراً حفِظته يقول فيه:

أبا الخيبرى وأنت امرُؤٌ ظلومُ العشيرة شتّامُها
أتيت بصحبك تبغى القِرَى لدى حُفرة قد صدتْ هامُها

---

(١) الصرم بالكسر أبيات من الناس مجتمعة والجمع اصرام واصارم (٢) ج ١ ص ١٤٥ من طبعة الجمالية (٣) ركض الرجل ركضاً من باب قتل ضرب برجله

أتبغى لى الذمَّ عند المبيت　　وحولك طى وأنعامها
فانا لنشبع أضيافنا　　وتأتى المطى فنعتامها[١]

فقاموا واذا ناقة الرجل تكوس[٢] عقيرا فانتحروها وباتوا يأكلون وقالوا قرانا حاتم حياً وميتاً واردفوا صاحبهم وانطلقوا سائرين واذا برجل راكب بعيرا ويقود آخر قد لحقه وهو يقول أيكم أبو الخيبرى قال الرجل انا ، قال نخذ هذا البعير أنا عدىّ بنُ حاتم جاءنى حاتم فى النوم ، وزعم أنه قراكم بناقتك ، وأمرنى أن أحملك فشأنك والبعير ودفعه اليهم وانصرف . والى هذه القضية أشار ابن دارةَ الغطَفانى فى قوله يمدح عدىّ بن حاتم :

أبوك أبو سَفّانةَ الخير لم يزل　　لدُنْ شبَّ حتى مات فى الخير راغبا
به تضرب الأمثال فى الشعر ميتا　　وكان له اذ ذاك حياً مصاحبا
قرى قبرُهُ الأضيافَ اذ نزلوا به　　ولم يقرِ قبرٌ قبله الدهر راكبا

ولحاتم الطائى شعر كثير وهو من البلاغة بمكان والمذكور فى ديوانه بعض منه ، ومن شعره يخاطب امرأته ماوية بنت عبد الله :

أيا ابنةَ عبدِ الله وابنةَ مالكٍ　　ويا ابنةَ ذى البُرْدَيْنِ والفرس الوَرْدِ[٣]
اذا ما صنعتِ الزادَ فالتمسى له　　أكيلا فانى لستُ آكلهُ وحدى[٤]
أخاً طارقاً أو جارَ بيتٍ فاننى　　أخاف مذماتِ الاحاديث من بعدى[٥]
وانى لَعبْدُ الضيفِ ما دام ثاوياً　　وما فىَّ الا تلك من شيمةِ العبد[٦]

---

(١) عتمت الابل واعتمت واستعتمت اذا حلبت عشاء وهو من الابطاء والتأخر قال أبو محمد الحذلمى :

فيها ضوى قد رد من اعتامها

(٢) كاس البعير : مشى على ثلاث قوائم وهو معرقب (٣) ابنة مالك هى ماوية بنت عبدالله زوجة حاتم الطائى والمراد بذى البردين عامر بن احيمر بن بهدلة اعطاه المنذر بن ماء السماء بردين حين سأله عن حقيقته فوجده من أشرف العرب واشجعهم كما فصل فى الاصل والورد من الخيل بين الكميت والاشقر (٤) الاكيل من يواكلك (٥) الطارق : الذى يأتى ليلا (٦) ثاويا : مقيما

عنى بذى البردين عامر بن احيمر بن بَهْدَلة . وكان من حديث البردين حين لقب به ان الوفود اجتمعت عند المنذر بن ماء السماء . وهو المنـذر بن امرىء القيس وماء السماء ، قيل : أمه نسبَ اليها لشرفها ، وقيل لقبت بماء السماء لصفاء نسبها ويقال لنقاء لونها ، ويراد انها كماء السماء لم يحتمل كدورةً ، وأخرج المنذر بُردين يوماً يبلو الوفود . وقال ليقم أعزُّ العرب قبيلةً فليأخذهما فقام عامر بن احيمر فأخذهما وائتزر بأحدهما وارتدى بالآخر ، فقال له المنذر أأنت أعز العرب قبيلةً ؟ قال : العز والعدد فى معد ، ثم فى نِزارٍ ، ثم فى مُضَر ، ثم فى خِندِف ، ثم فى تميم ، ثم فى سعد ، ثم فى كعب ، ثم فى عوف ، ثم فى بهدلة ، فمن أنكر هذا فلينافرنى فسكت الناس ، فقال المنذر : هـذه عشيرتك كما تزعم فكيف أنت فى أهل بيتك وفى نفسك ؟ فقال : أنا أبو عشَرة وأخو عشرة وخال عشرة وعم عشرة ، وأما أنا فى نفسى فشاهد العز شاهدى ، ثم وضع قدمه على الارض فقال من أزالها عن مكانها فله مائة من الابل فلم يقم اليه أحد من الحاضرين ففاز بالبردين.

ومن شعر حاتم أيضاً قوله :

وعاذلةٍ قامت علىَّ تلومُنى ... كأنى اذا أعطيتُ مالى أضيمها
أعاذلُ إن الجودَ ليس بِمُهلِكى ... ولا مُخلِدِ النفسِ الشحيحةِ لؤمها (١)
وتُذْكَرُ أخلاق الفتى وعظامُه ... مُغيبةٍ فى اللحد بالٍ رميمها (٢)
ومن يبتدعْ ماليس من خِيم نفسه ... يَدعهُ ويغلبْهُ على النفسِ خِيمُها (٣)

ومن ذلك قوله أيضاً

أكفُّ يدى عن أن ينالَ التماسُها ... اكفُّ صِحابى حينَ حاجتُنا معا (٤)
أبيتُ هضيمَ الكشحِ مُضطمِرَ الحشا ... من الجوعِ أخشى الذمَّ أن أتضلّعا (٥)

---

(١) أعاذل مرخم عاذلة (٢) الرميم : العظم البالى (٣) الخيم : الطبيعة والخلق
(٤) اكف يدى أى اقبضها ، وقوله حاجتنا معا أى كنا جائع فحاجته الى الطعام كحاجة صاحبه (٥) الهضيم : الضامر ، والكشح : مابين الخاصرة الى الضلع ، والمضطمر المهزول، وتضلع الرجل اذا امتلأ من الزاد

وإني لأستحيي رفيقيَ أنْ يرَى   مَكان يدي من جانب الزاد أقرَعا[١]
وإنك مهما تُعْطِ بطنَك سؤْلَهُ   وفرجكَ نالا منتهى الذمّ أجمعا[٢]

وقال أيضاً

أما والذى لا يعلمُ السرَّ غيرُهُ   ويُحيي العظامَ البيضَ وهيَ رَميمُ
لقد كنتُ أختارُ القِرَى طاويَ الحشا   محافظةً من أن يقالَ : لئيمُ
وإني لأستحيي يميني وبينها   وبين فمي داجى الظلام بهيم[٣]

وقال أيضاً

ولما رأيتُ الناسَ هرَّتْ كلابُهم   ضربتُ بسيفي ساقَ أفعى فخرَّتِ
وقلتُ لأصباء صغار ونسوةٍ   بشهباءَ من ليل الثمانين قَرَّتِ :
عليكم من الشطَّيْن كل ورِيّة   اذا النار مست جانبيها ارمعلَّتِ[٤]
ولا ينزل المرء الكريمُ عيالَه   وأضيافَه ما ساق مالاً بضرت

وقال أيضاً

لا تسترى قدرى اذا ما طبَخْتِها   عليَّ اذا ما تطبُخين حرام
ولكن بهذاك اليفاعِ فأوقدِى   بجَزْلٍ اذا أوقدتِ لا بِضِرام[٥]

وقال أيضاً

وقائلةٍ أهلكتَ بالجود مالَنا   ونفسكَ حتى ضرَّ نفسكَ جودُها
فقلتُ : دعيني إنما تلك عادتي   لكل كريمٍ عادةٌ يستعيدها

وهو القائل لغلامه يسار ، وكان اذا اشتد البرد وكَلِبَ الشتا[٦] أمر غلامه

---

(١) اراد بالاقرع الخالى من الطعام والمعنى انى لاستحيى ممن يجالسنى على الطعام أن يرى مايلينى من المائدة خاليا (٢) السؤل المسؤل واراد به مايشتهيه والمعنى ان الشخص اذا اعطى بطنه وفرجه ما يشتهى واتبع هواه بقضاء ماتزينه له نفسه من شهواتها اصابه من الناس منتهى الذم والشتم ولقد صدق (٣) بهيم أى شديد الظلمة لا وضح فيه (٤) الشط جانب السنام أو نصفه ، والورية القطعة من الشحم السمين وارمعل الشواء سال دسمه (٥) اليفاع ما ارتفع من الارض ، والجزل الحطب اليابس او الغليظ العظيم منه والضرام ككتاب دقاق الحطب أو ما ضعف ولان او مالا جرله أو مااشتعل من الحطب . (٦) كلب الشتاء : أى أشتد

فأوقد نارا فى يَفاعٍ من الأرض لينظر إليها من أضلَّ الطريق ليلا فيصمدَ نحوه (١)

أوقد فان الليل ليلٌ قرٌّ   والريح يا واقدُ ريحٌ صِرُّ (٢)
علَّ يرى نارك من يمُرُّ   ان جلبت ضيفاً فأنت حُرُّ (٣)

وقال أيضاً

اماويَّ قد طال التجنبُ والهجر   وقد عذرتنا فى طِلابكم العذرُ (٤)
اماويَّ ان المالَ غادٍ ورائحٌ   ويبقى من المال الأحاديثُ والذكرُ
اماويَّ اما مانع فمبين   واما عطاء لا يُنَهْنِهُهُ الزجر (٥)
اماويَّ انى لا أقولُ لسائلٍ   اذا جاء يوما حل فى مالى النزْرُ (٦)
اماوى لا يغنى الثراء عن الفتى   اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر (٧)
اماويَّ ان يُصبح صدايَ بقَفْرةٍ   من الأرض لا ماءٌ لدىَّ ولا خمرُ (٨)
تَرَىْ أنَّ ما أنفقتُ لم يكُ ضرَّنى   وان يدى مما بَخلتُ به صِفْرُ (٩)
اذا أنا دلاَّنى الذين يلوننى   بمظلمة لجٍّ جوانبها غبر
وراحوا سراعا يَنفضُون اكفَّهم   يقولون قد أدمى أظافِرَنا الحفرُ
اماويَّ إن المال مالٌ بذلته   فأوَّلُه شكرٌ وآخره ذكرُ
وقد يعلم الأقوامُ لو أن حاتما   أراد ثراءَ المالِ كانَ له وفْرُ
فانى وجدى ربٌّ واحد أمة   أخذت فلا قتلٌ عليه ولا أسرُ

---

(١) الصمد : القصد (٢) ليل قر : بارد ، وريح صر وصرصر : شديدة الصوت أو البرد
(٣) علّ بلام مشددة مفتوحة أو مكسورة لغة فى لعل وهى أصلها عنه من زعم زيادة اللام ، قال الشاعر

لا تهين الفقير علك ان   تركع يوماً والدهر قد رفعه

وهما بمنزلة عسى فى المعنى وبمنزلة ان المشددة فى العمل (٤) الهمزة للنداء وماوى منادى مرخم ماوية وهى زوجته ، وقوله وقد عذرتنا الخ عذرته فيما صنع رفعت عنه اللوم فهو معذور أى غير ملوم (٥) نهنهة : كفه ومنعه (٦) حل فى مالنا النزر : أى القلة (٧) الحشرجة أوله حاء مهملة وآخره جيم الغرغرة عند الموت وتردد النفس (٨) الصدى ما يبقى من الميت فى قبره ، والقفرة الارض الخالية من السكان والنبات (٩) صفر وزان حمل أى خال من المتاع وهو صفر اليدين ليس فيهما شيء — مأخوذ من الصفير وهو الصوت الخالى من الحروف كما فى المصباح

ولا أظلم ابنَ العم ان كان إخوتى   شهوداً وقد أوْدى بإخوتِه الدهرُ
غنينا زمانا بالتقصد والغنى   وكل سقانا وهو كاسبنا الدهرُ (١)
فما زادنا مأوى على ذى قرابةٍ   غنانا ولا أزرى باحلامنا الفقرُ

وله قصيدة طويلة تتعلق بالكرم ومكارم الأخلاق وهى مسطورة فى (الحماسة البصرية) وغيرها وهى هذه :

وعاذلتين هبتا بعد هجعةٍ   تلومان متلافا مفيدا ملوّما (٢)
تلومان لما غوّر النجمُ ضلةً   فتى لا يرى الانفاق فى الحمد مغرما (٣)
فقلت وقد طال العتابُ عليهما   وأوعدتمانى ان تبينا وتصرما
الا لا تلومانى على ما تقدما   كفى بصروف الدهر للمرء محكما
فانكما لا ما مضى تدْركانه   ولستُ على ما فاتنى متندّما
فنفسكَ أكرِمْها فانك ان تهُنْ   عليك فلن تلقى مدى الدهر مكرما
اهن للذى تهوى التلاد فانه   اذا متّ كان المال نهْباً مُقسّما
ولا تشقين فيه فيسعدَ وارث   به حين تغشى أغبر الجوف مظلما (٤)
يقسمه غنماً ويشرى كرامةً   وقد صرت فى خطٍ من الارض أعظُما
قليلا به ما يحمدنك وارث   اذا نال مما كنتَ تجمع مغنَما
تَحلّم عن الادنين واستبق ودّهم   ولن تستطيعَ الحلمَ حتى تحلّما (٥)
وعوراء قد أعرضتُ عنها فلم تضر   وذى أوَد قوّمته فتقوّما (٦)
واغفرْ عوراء الكريم ادخاره   وأعرضُ عن شتم اللئيم تكرّما
ولا أخذُلُ المولى وان كان خاذلا   ولا أشتمُ ابن العم ان كان مُفحما

(١) غني كفرح عاش وغنى بالمكان : أقام به (٢) هبتا أى استيقظتا ، وهذا البيت من شواهد مغنى اللبيب (٣) غور النجم أى غابت الثريا ، وقوله ضلة هو قيد فى اللوم لامه ضلة اذا لم يوفق للرشاد فى لومه ، والمغرم بالفتح الغرامة (٤) أغبر الجوف : القبر ومثله خط من الارض (٥) تحلما أى تتحلم أى تتكلف (٦) قوله فلم تضر من ضار يضير ضد نفع والاود بفتحتين الاعوجاج

ولا زادنى عنه مناىَ تباعدا   وان كان ذا نقص من المال مصرما
وليلٍ بهيمٍ قد تسربلتُ هولَهُ   اذا الليل بالنِّكس الدنىء تجهما (١)
ولن يكسب الصُّعلوكُ حمداً ولا غنى   اذا هو لم يركبْ من الأمر معظما (٢)
لحا الله صُعلوكا مُناه وهمُّه   من العيش ان يلقى لَبُوسا ومَطْعَما (٣)
ينام الضحى حتى اذا نومُهُ استوى   تنبّهَ مثلوجَ الفؤادِ مورّما (٤)
مقيماً مع المُثرين ليس ببارحٍ   اذا نال جَدْوى من طعام ومجثما (٥)
ولله صُعلوكٌ يساور همه   ويمضى على الاحداث والدهر مقدما (٦)
فتى طلباتٍ لا يرى الخَمصَ ترحةً   ولا شَبْعة ان نالها عَـدّ مغنما (٧)
يرى الخمصَ تعذيبا ولم يلقَ شبعة   يبت قلبه من قلة الهم مبهما
اذا ما رأى يوما مكارمَ أعرضت   تيمَّمَ كبراهن ثُمّتَ صمّما (٨)
ويغشى اذا ما كان يومُ كريهةٍ   صدورَ العوالى فهو مختضبٌ دما
يرى رمحه ونبله ومِجَنّـه   وذا شُطَبٍ عَضب الضريبة مِخْذَما
واحناء سرجٍ قاتر ولجامه   عتاد فتى هيجا وطِرْفاً مُسَوَّما (٩)

---

(١) النكس بكسر النون الردىء وأصله السهم الذى كسر فوقه ، وتجهم : كلح وجهه
(٢) الصعلوك بالضم الفقير (٣) لحا الله : قبح الله (٤) مثلوج الفؤاد من المجاز ، ثلج قلبه : بلد وذهب والمثلوج الفؤاد البليد ، قال أبو خراش الهذلى

ولم يك مثلوج الفؤاد مهيجا   أضاع الشباب فى الربلة والخفض

(٥) المجثم بفتح الميم وكسر المثلثة مكان الجثوم وهو بروك الطائر (٦) قوله ولله صعلوك تعجب ومدح يقال عند استغراب الشيء واستعظامه أى هو صنع الله ومختاره اذ له القدرة على خلق مثله ، ويساور : يواثب ، وهمه أى عزمه مفعول ، وقوله : ويمضى على الاحداث أى لايشغله الدهر وحوادثه فى حالة اقدامه على مايريد (٧) قوله فتى طلبات اشارة الى علو همته ، والخمص بالفتح الجوع ، والترحة ضد الفرحة ، والشبعة المرة من الشبع (٨) ثمت حرف يعطف الجمل ورمحه وما عطف عليه مفعول اول ليرى (٩) وعتاد هو المفعول الثانى وذا شطب هو السيف جمع شطبة وهى الطريقة فى متن السيف والمجن بالكسر الترس والدرقة والعضب القاطع والضريبة موضع الضرب والمخذم بكسر اوله وبالمعجمتين السيف القاطع وباعجام الثانى فقطمن الخذم وهو القطع السريع

فذلك إن يهلكْ فحُسْنَى ثناؤه   وان عاش لم يقعدْ ضعيفاً مُذمَّماً[١]

وقد اعرضت عن شرح ما أوردته من شعره فان الغالب منه مشروح فى شواهد كتب العلم، ومنهم :

كعب بن مامة الايادى

وكان ممن يضرب بهم المثل أيضاً فى الجود، ومن حديثه انه خرج فى ركبٍ فيهم رجل من النمر بن قاسط فى شهر ناجرٍ[٢] فضلوا فتصافنوا ماءهم وهو أن يطرح فى القعب[٣] حصاة، ثم يصب فيه من الماء بقدر ما يغمر الحصاة وتلك الحصاة هى المقلة[٤] فيشرب كل انسان بقدر واحد فقعدوا للشرب فلما دار القعب فانتهى الى كعب ابصر النمرى يحدد النظر اليه فآثره بمائه، وقال للساقى اِسْقِ أخاك النمَرِى فشرب النمرى نصيبَ كعب ذلك اليوم من الماء، ثم نزلوا من غدهم المنزلَ الآخر فتصافنوا بقيةَ مائهم فنظر اليه النمَرى كنظرة أمسه. فقال كعب كقوله أمس وارتحل القوم. وقالوا يا كعب ارتحل فلم تكن به قوة للنهوض. وكانوا قد قربوا من الماء فقيل له رِدْ كعبُ إنك ورّاد، فعجز عن الجواب فلما يَئِسوا منه خيلوا عليه بثوب يمنعه من السبع أن يأكله وتركوه مكانه ففاض. فقال أبوه مامة يرثيه :

= الاحناء جمع حنو بالكسر يطلق على ما فيه اعوجاج من القتب والسرج وغيرهما، والقاتر بالقاف وبالمثناة الفوقية الواق والحافظ لا يعقر ظهر الفرس، وعتاد بالفتح العدة، وطرفا معطوف على رمحه الذى هو أول مفعول يرى وهو الكريم من الخيل، والمسوم المعلم تشهير لعتقه ولكرمه من السومة وهى العلامة أو المسيب فى الرعى ولا يركب الا فى الحروب

(١) الحسنى مصدر كالبشرى وقيل اسم للاحسان والمعنى سرت بليل فقير بوائب همته ويمضى مقدماً على الدهر والحال انه فى طلبات يتجدد طلبه كل ساعة والدهر يسعف بمطلوبه بجده ورشده ولا يرى الجوع شدة ولا الشبع غنيمة لعلو همته فان يهلك فله ثناء حسن وان يعش يعش ممدحاً معززاً

(٢) هو رجب أو صفر وكل شهر من شهور الصيف، كذا فى القاموس (٣) إناء ضخم كالقصعة والجمع قعاب وأقعب (٤) المقلة بفتح الميم ويقال مقلها اذا ألقاها فى الاناء وصب عليها الماء

ما كان من سوقة اسقى على ظمأ ... خمراً بماء اذا ناجودها بردا [1]

من ابن مامةَ كعب ثم عىَّ به ... زوُّ المنيـة الا حـرة وقدا

اوفى على الماء كعبٌ ثم قيل له ... رِدْ كعبُ إِنك ورّاد فما وردا

زو المنية قدرها . وعى به أي عيت الاحداث الا أن تقتـله عطشا . وقال الاصمعى : زو المنية مايحدث من هلاك المنية . ويقال الزو القدر . ويقال قضى علينا وقدر وحم وزى . وهذا أكثر من كل ما أتى لغيره . وله يقول حبيب :

يجود بالنفس اذ ضنَّ البخيلُ بها ... والجودُ بالنفس أقصى غايةِ الجود

وله ولحاتم الطائى يقول القائل

كعب وحاتم اللـذان تقسَّما ... خِطَطَ العُلى من طارفٍ وتليدِ [2]

هذا الذى خلفَ السحابَ ومات ذا ... فى الجهد ميتةَ خِضرمٍ صِنْديدِ [3]

انلا يكن فيها الشـهيد فقومُهُ ... لايسمَحُون بهِ بالف شـهيدِ

ومنهم :

اوس بن حارثة بن لام الطائى

كان أوس هذا ممن يضرب به المثل فى الكرم والجود يقال له ابن سعدى ،

قال جرير :

وما كعبُ ابنُ مامةَ وابن سعدى ... باجودَ منك ياعمر الجوادا [4]

(١) الناجود أول مايخرج من الخمر اذا بزل عنها الدن ، قاله الأصمعى واحتج بقول الاخطل :

كأنما المسك نهبي بين أرحلنا ... مما تضوع من ناجودها الجارى

وقيل الخمر الجيد وهو مذكر والناجود أيضاً اناؤها وعن الليث الناجود هو الراووق نفسه ، وفى حديث الشعبى وبين أيديهم ناجود خمر أى راووق واحتج على الاصمعى بقول علقمة :

ظلت ترقرق فى الناجود يصفقها ... وليد أعجم بالكتان ملثوم

يصفقها يحولها من اناء الى اناء لتصفو (٢) الطارف : المال المستحدث وهو خلاف التليد

(٣) الخضرم : الكثير من كل شىء والواسع والجواد المعطاء والسيد الحمول ، والصنديد : السيد الشجاع أو الحليم أو الجواد أو الشريف (٤) هذا البيت من قصيدة له مدح فيها عمر ابن عبد العزيز وأولها

أبت عيناك بالحسن الرقادا ... وأنكرت الاصادق والبلادا

الحسن نقا فى بلاد بنى ضبة سمى بالحسن لحسن شجره

وكان بشر ابن أبى خازم الاسدى أولا يهجو أوساً وكان أوس نذر لئن ظَفِرَ به ليحرقنَّه فلما تمكن أطلقه وأحسن اليه فمدحه بعدة قصائد ، وسبب هجاء بشر لاوس ، هو ما حكاه أبو العباس المبرد فى الكامل قال : اوس بن حارثة ابن لام الطائى ، كان سيداً مقدماً وفد هو وحاتم بن عبد الله الطائى على عمرو بن هند وأبوه المنذر بن المنذر بن ماء السماء فدعا اوساً فقال له أأنت أفضل أم حاتم فقال أبيتَ اللعنَ (١) لو ملكنى حاتم وولدى ولحمتى لوهبنا فى غداة واحدة ثم دعا حاتماً فقال أأنت أفضل أم أوس فقال أبيت اللعن انما ذكرت باوس ولاحد ولده أفضل منى . وكان النعمان بن المنذر دعا بحُلَّةٍ وعنده وفودُ العرب من كل حَىٍّ فقال احضُروا فى غدٍ فانى ملبس هذه الحُلَّةَ أكرمَكم فحضر القوم جميعاً الا اوْساً فقيل له لم تتخلف ؟ فقال : ان كان المراد غيرى فاجمل الاشياء ان لا أكونَ حاضراً وان كنتُ المرادَ فسأُطلب ويعرف مكانى ، فلما جلس النعمان لم يرَ أوساً فقال : اذهبوا الى أوس فقولوا له : احضر آمناً مما خفت فحضر فألبسه الحُلَّةَ فحسده قوم من أهله فقالوا للحطيئة اهجُهُ ولك ثلاثمائة ناقة فقال الحطيئة كيف اهجو رجلا لاأرى فى بيتى أثاثا ولا مالا الا من عنده ، ثم قال :

كيف الهجاء وما تنفك صالحة　　من آل لام بظهر الغيب تأتينى

فقال لهم ابن أبى خازم أحد بنى أسد بن خزيمة أنا أهجوه لكم فاخذ الابل وفعل فاغار أوس عليها فاكتسحها فجعل لايستجير حياً الا قال قد أجرتك الامن أوس . وكان فى هجائه قد ذكر أمه فاتى به فدخل أوس على أمه فقال : قد أتينا ببشر الهاجى لك ولى . قالت : أو تطيعنى ؟ قال نعم . قالت : أرى أن ترد عليه

لعمرك ان نفع سعاد عنى　　لمصروف ونفعى عن سعادا

وهى طويلة لا يسعنا ايرادها فى هذا المقام

وهذا البيت من شواهد النحو يستشهد به على جواز نصب المنادى الموصوف بغير ابن عند الكوفيين وأوله المانذون بالقطع أى انه مفعول لفعل محذوف (١) كان العرب فى الجاهلية يخصون ملوكهم عند التحية بقولهم أبيت اللعن أى أبيت أن تأتى من الاخلاق المذمومة ما تلعن عليه وكانت هذه تحية ملوك لخم وجذام

ماله وتعفو عنه وتحبوه وافعل مثل ذلك فانه لا يغسل هجاءه الا مدحه فخرج فقال: إن أمي سعدى التي كنت تهجوها قد أمرت فيك بكذا وكذا فقال لاجرم والله لا امدحتُ حتى أموتَ أحداً غيرَك ففيه يقول:

الى أوس بن حارثة بن لام ليقضي حاجتي فيمن قضاها

فما وطئ الثَرى مثلُ ابن سعدى ولا لبس النعال ولا احتذاها

هذا ما أورده المبرد ولم يذكر كيف تمكن منه اوس. وقد حكاه معمر بن المثنى في شرحه قال ان بشر ابن أبي خازم غزا طيئاً ثم بني نبهان فجرح فاثقل جراحه وهو يومئذ يحمى أحد أصحابه وانما كان في بني والبةَ فاسرته بنو نبهان فخبؤه كراهيةَ أن يبلغ أوساً فَسمع أوس أنه عندهم فقال: واللهِ لا يكون بيني وبينهم خيراً أبداً أو يدفعوه ثم أعطاهم مائتي بعير وأخذه منهم، فجاء به وأوقد له ناراً ليحرقه، وقال بعض بني أسد لم تكن نار ولكنه أدخله في جلد بعير حين سلخه ويقال جلد كبش ثم تركه حتى جف عليه فصار فيه كأنه العصفور. فبلغ ذلك سعدى بنت حصين الطائية وهي سيدة فخرجت اليه فقالت ماتريد أن تصنع فقال احرق هذا الذي شتمنا فقالت قبح الله قوما يسودونك أو يقتبسون من رأيك. واللهِ لكانما أخذت به اما تعلم منزلته في قومه خل سبيله واكرمه فانه لا يغسل عنك ماصنع غيرهُ فحبسه عنده وداوى جرحه وكتمه مايريد أن يصنع به. وقال ابعث الى قومك يفدونك فاني قد اشتريتك بمائتي بعير فارسل بشر الى قومه فهيئوا له الفداء وبادرهم أوس فأحسنَ كسوته وحمله على نجيبه الذي كان يركبه وسار معه حتى اذا بلغ أدنى أرض غطَفان جعل بشر يمدح أوساً وأهلَ بيته بمكان كل قصيدة هجاهم بها قصيدة فهجاهم بخمس ومدحهم بخمس، ومنهم:

هَرِم بن سنان

وكان من أشهر أجواد زمانه وأرغبهم في الاحسان والمعروف وهو ممن يضرب به المثل في ذلك. وهو صاحب زُهيْر الذي يقول فيه:

متى تلاق على عِلاَّته هَرِماً　　تلق السماحةَ فى خلق وفى خلق

وكان سنان أبو هَرِم سيدَ غَطَفان وماتت أمه وهى حامل به ، وقالت : اذا أنا مُتُّ فشقوا بطنى ، فان سيد غَطَفان فيه فلما ماتت شقوا بطنها فاستخرجوا منه سنانا ، وفى بنى سنان يقول زهير :

قوم أبوهم سنان حين تنسبهم　　طابوا وطاب من الاولاد ماولدوا
لو كانَ يقعُدُ فوق الشمس من كرم　　قوم باولهم أو مجدهم قعدوا
جِنٌّ اذا فَزِعوا انس اذا امنوا　　مرزؤن بهاليلٌ اذا قصدوا [1]
محسدون عَلى ما كان من نعم　　لاينزع الله منهم ماله حسدوا

وقال زهير فى هَرِم بن سنان

وابيضَ فَيَّاضٍ يداه غَمامةٌ　　على معتَفيه ما تُغِبّ فواضِله [2]
تراه اذا ماجئتَه متهللاً　　كانك تُعطيه الذى أنت سائله [3]
أخو ثقة لاتتلف الخمرُ مالَهُ　　ولكنه قد يتلف المالَ نائلُه [4]

وقال زهير أيضاً فى هرم بن سنان وأهل بيته

اليك اعملتها فتلا مرافقها　　شهرين يجهض من ارحامها العَلَقُ [5]
حتى دفعن الى حلو شمائله　　كالغيث تنبت فى آثاره الورق
من أهل بيت يرى ذو العرش فضلَهُمُ　　يُبْنَى لهم فى جنان الخلد مرتَفَقُ [6]

(١) بهاليل جمع بهلول كسرسور الضحاك والسيد الجامع لكل خير (٢) قوله وابيض يريد رجلا نقيا ، والفياض : الكثير العطاء وأصله من الفيض ، وقوله يداه غمامة أى تمطر يداه بالاعطاء كما تمطر الغمامة ؛ والمعتفون : الطالبون ما عنده ، وقوله ما تغب فواضله أى هى دائمة لا تنقطع ولا تأتى فى الغب ويقال غبه وأغبه اذا أتاه غبا ، وفواضله : عطاياه لانها تفضل كل عطاء (٣) المتهلل : الطلق الوجه المستبشر يقول هو مسرور بمن سأله مستبشر به كما يستبشر الانسان بأن يوصل ويعطى ولم يرد انه حريص على الاخذ مستبشر به ولكنه قال هذا على ما جرت به العادة من محبة النفس للاخذ وكراهيتها الاعطاء (٤) قوله أخو ثقة أى يوثق بما عنده من الخير لما علم من جوده وكرمه ، والنائل : العطاء ، يقول لا يتلف ماله بشرب الخمر ولكن يتلفه بالعطاء (٥) أعملتها أى الناقة يقال أعملت الناقة اذا حثثتها وسقتها ، والفتل بالتحريك اندماج فى مرفق الناقة ، والنعت مرفق أفتل بين الفتل وهى فتلاء وقوم فتل الايدى ، وأجهضت الناقة ولدها أسقطته ناقص الخلق ، والعلق جمع علقة الدم الجامد (٦) المرتفق : المتكأ

المطعمين اذا ما أَزْمَةٌ أَزَمَتْ والطيبينَ ثياباً كلما عرقوا[١]
كأنَّ آخرَهُمْ فى الجود أولهم إن الشمائلَ والاخلاق تتفق
ان قامروا اقمروا أو فاخروا فخروا أو ناضلوا نضلوا أوسابقوا سبقوا[٢]
تَنافس الارض موتاهم اذا دفنوا كما تنفس عند الباعة الورق

قال الميدانى فى مجمع أمثاله عند قولهم « أجود من هَرِم » : هو هَرِم بن سنان ابن أبى حارثة المُرّى وقد سار بذكر جوده المثل ، قال زهير بن أبى سلمى فيه :

إن البخيلَ ملومٌ حيث كان ولـكنَّ الجوادَ على عِلاّته هَرِمُ[٣]
هو الجوادُ الذى يعطيك نائله عفواً ويَظْلِمُ أحياناً فيظلم[٤]

ووفدت ابنة هرم على عُمَرَ ، فقال لها : ما الذى أعطى أبوك زهيراً حتى قابله من المديح بما قد سار فيه ؟ فقالت : اعطاه خيلا تنضى[٥] ، وإبلا تتوى[٦] ونيابا تبلى ، ومالا يفنى . فقال عمر : لكن ما أعطاكم زهير لايبليه الدهر ، ولا يفنيه العصر ، وبروى انها قالت : ما أعطى هَرِمٌ زهيراً قد نسى . قال لكن ما أعطاكم زهير لا ينسى . ومنهم :

عبد الله بن حبيب العنبرى

وكان يُضْرب به المثل فى الجود . فيقولون أقرى من آكل الخبز وهو أحد

---

(١) أزم الزمان : اشتد بالقحط ، والازمة اسم منه (٢) ناضلت عنه : حاميت ، وناضلته راميته فنضلته نضلا غلبته فى الرمى (٣) قوله على علاته أى على ما ينوبه من قلة ذات يد وعوز (٤) الجواد : الكريم المكثر فى العطاء ، والنائل العطية ، وعفواً أى من غير طلب يتقدمه أو سهلا بلا مطل ولا تعب وهذا البيت من شواهد الصرف يستشهد به على ان أصل يظلم يظتلم قلبت التاء طاء لمجاورتها الظاء فاذا أدغم فنهم من يقلب الظاء طاء ثم يدغم ومنهم من يدغم الظاء فى الطاء على القياس فيصير يطلم وقد روى البيت بالوجهين وروى بالاظهار أيضاً قال ابن قتيبة فى (الشعر والشعراء) : قد سبق زهير الى هذا المعنى ، لا ينازعه فيه أحد غير كثير فانه قال يمدح عبد العزيز بن مروان :

رأيت ابن مالى يعترى صلب ماله مسائل شتى من غنى ومصرم
مسائل ان توجد لديه تجد بها يداه وان يظلم بها يتظلم

والمصرم القليل المال (٥) أى تبلى (٦) تهلك

بنى سمرة سمى آكل الخبز . لانه كان لا يأكل التمر ولا يرْغبُ فى اللبن . وكان سيدَ بنى العنبر فى زمانه وهم اذا افتخروا قالوا منا آكل الخبز ، ومنا مُجير الطير. فاما مجير الطير : فهو ثور بن شحمة العنبرى . وأما السبب فى تلقيبهم عبد الله ابن حبيب بآكل الخبز فلان الخبز نفسه عندهم ممدوح ، وذكر أبو عبيدة أن هَوْذَةَ بنَ على الحنفى دخل على كِسْرَى ابْرَوَيزَ ، فقال له : اىّ أولادك أحب اليك ؟ قال : الصغير حتى يكبر والغائب حتى يقدم والمريض حتى يبرأ . قال : ماغذاؤك ببلدك ؟ قال : الخبز . فقال كسرى : هذا عقل الخبز لا عقل اللبن والتمر . فصار الخبز عندهم ممدوحا كما صار مايناسبه بعض المناسبة ممدوحا وهو الفالوذَجَ لانه أشرف طعام وقع اليهم ولم يطعم الناس هذا الطعام أحد من العرب الا عبد الله ابن جُدْعان فمدحه أمية بن الصلت بذلك فقال :

الى رُدُحٍ من الشيزى مِلاَء لُبابَ البُرِّ يلبك بالشهاد (١)

ولهم الثريد وهو فى اشرافهم عام ، وغلب عليه هاشم حين هشم الخبز لقومه فَمدح به فى قول الشاعر :

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجالُ مكةَ مُسْنِتُونَ عِجافُ (٢)

قال حمزة فهذا المثل مع مايتلوه حكاه عمرو بن بحر الجاحظ فى كتابه الموسوم بكتابِ (أطعمة العرب) . ومنهم:

عبد الله بن جدعان التيمى

وقد كان من مشاهـير الاجواد ، وممن سارت بجوده الأمثال فى الاقطار والبلاد ، وكان يسمى بحاسى الذهب لانه كان يشرب فى إناء من الذهب ، وقالوا فى المثل : « اقرى من حاسى الذهب » وكان من قريش . وفيه قال أبو الصلت الثقفى .

له داعٍ بمكةَ مُشْمَعِلٌّ وآخَرُ فوقَ دارتِهِ يُنادى

(١) يأتى شرحه فى الاصل (٢) عمرو والعلا اسم هاشم بن عبد مناف ، والمسنتون الذين أصابتهم السنة المجدبة الشديدة ، والعجاف جمع أعجف وهو الذى ذهب سمنه والبيت لابن الزبعرى

إلى رُدُح من الشيزى مِلَاءٍ لُبَابَ البُرِّ يُلبك بالشهاد

الردحة سترة تكون فى مؤخر البيت أو قطعة تزاد فيه والرداح الخفيفة العظيمة . وروى الجوهرى البيت هكذا الى رُدُح من الشيزى عليها ففيه عليها بدل ملاء والشيز والشيزى خشب اسود يتخذ منه القِصاع ، وقوله لُباب البر : أى من لباب البر . وأخبارُ عبد الله بن جُدعان فى السخاء والكرم كثيرة ، وقد ذكر طرفاً منها الزبيرُ بنُ بكار فى كتابه الذى ألفه فى فضائل قريش . ومن خبره انه كان فى ابتداء أمره صُعلوكا [1] تَرِب اليَدَيْن وكان مع ذلك شريراً فاتكا لا يزال يجنى الجنايات فيعقل [2] عنه أبوه وقومه حتى أبغضه عشيرته ونفاه أبوه وحلف لا يُؤْوِيهِ أبداً فخرج فى شِعابِ مكةَ حائراً ثائراً يتمنى الموت أن ينزل به فرأى شقاً فى جبل فظن انّ فيه حية فتعرض للشق يريد أن يكون فيه ما يقتله فيستريح فلم يَرَ شيئاً فدخل فيه فاذا فيه ثُعبان عظيم له عينان تَقِدانِ كالسراجين فحمل عليه الثعبان فأفرج له فانساب [3] عنه مستديراً بدارة عند بيت ثم خطا خطوة أخرى فصفر به الثُعبان فأقبل اليه كالسهم فأفرج له فانساب عنه فوقف ينظر اليه يفكر فى أمره فوقع فى نفسه انه مصنوع فأمسكه بيديه فاذا هو مصنوع من ذهب وعيناه ياقوتتان فكسره وأخذ عينيه ودخل البيت فاذا جثث طوال على سُرُر لم يُرَ مثلهم طولا وعظماً وعند رؤسهم لوح من فضة فيه تاريخهم واذا هم رجال من ملوك جرهم وآخرهم موتا الحرث بن مُضاض صاحب الغدبة الطويلة واذا عليهم ثياب من وشى لا يمَسُّ منها شئٌ إلا انتثر كالهباء [4] من طول الزمان مكتوب فى اللوح عظات . قال ابن هشام كان اللوح من رخام [5] وكان فيه أنا نفيلة بن عبد المدان بن خشرم بن عبد ياليل بن جرهم بن قحطان ابن نبى الله هود عليه السلام عشت من العمر خمسمائة عام وقطعت غَوْرَ الأرض ظاهرها

(١) الصعلوك بالضم الفقير ، والترب الذي لا مال له (٢) عقل عنه أدى جنايته (٣) فانساب أى مشى مسرعاً (٤) الهباء بالمد دقاق التراب والشيء المنبث الذى يرى فى ضوء الشمس وليس له مس ولا يرى فى الظل (٥) حجر معروف الواحدة رخامة

وباطنها فى طلب الثروة والمجد والملك فلم يكن ذلك ينجينى من الموت . وتحته مكتوب :

قد قطعتُ البلادَ فى طلب الثر وة والمجد قالصَ الأثواب (١)
وسريتِ البلادَ قفراً لقفرٍ بقناةٍ وقوة واكتساب
فأصاب الردَى بناتَ فؤادى بسهامٍ من المنايا صيابِ
فانقضت مدتى واقصر جهلى واستراحت عواذلى من عتابى
ودفعت السفاه بالحلم لما نزل الشيب فى محل الشباب
صاح هل رت أو سمعتَ براعٍ ردَّفى الضَرْعِ ماقرى فى الحلاب (٢)

واذا فى وسط البيت كوم عظيم من الياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة والزبرجد فأخذ منه ما أخذ ثم علم على الشق بعلامة وأغلق بابه بالحجارة وأرسل الى أبيه بالمال الذى خرج به منه يسترضيه ويستعطفه ووصل عشيرته كلهم فسادهم وجعل ينفق من ذلك الكنز . ويطعم الناس ويفعل المعروف . وفى القاموس وربما كان يحضر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم طعامهُ . وكانت له جَفْنة يأكل منها القائم والراكب لعظمها ، بل كانت جفنته يأكل منها الراكب على البعير ، وسقط فيها صبى فغرق ومات . وفى غريب الحديث لابن قتيبة ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : كنت أستظل بظل جَفْنة عبد الله بن جُدْعان صكةَ عُمَيّ يعنى فى الهاجرة وسميت الهاجرة صكة عمى لخبر ذكره أبو حنيفة فى الانواء وهو ان عميا رجل من عَدْوان ، وقيل : من اياد ، وكان فقيه العرب فى الجاهلية فقدم فى قومه معتمراً أو حاجاً فلما كان على مرحلتين من مكة قال لقومه وهم فى وسط الظهيرة من أتى مكة غداً فى مثل هذا الوقت كان له أجر عمرتين فصكوا

---

(١) قوله قالص الاثواب أى قصير الثياب يقال قلص الثوب بعد الغسل أى انزوى
(٢) قوله رت أصله رأيت فخففت بحذف الهمزة ، والحلاب بالكسر اناء يحلب فيه ، ويروى فى العلاب جمع علبة والعلبة محلب من جلد ، والضرع لذات الظلف كالثدى للمرأة والجمع ضروع كفلس وفلوس ، وقرى : اجتمع

الابل صكة شديدة حتى أتوا مكة من الغداة وعمى تصغير أعمى على الترخيم فسميت الظهيرة صكة عمى

وعبد الله بن جدعان تيمى يكنى أبا زهير ، وهو ابن عم عائشة رضى الله تعالى عنها ، ولذلك قالت يارسول الله ان ابن جُدْعان كان يطعم الطعام ويقرى الضيف ويفعل المعروف فهل ينفعه ذلك يوم القيامة ؟ قال صلى الله تعالى عليه وسلم : لا إنه لم يقل يوماً رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين كذا قاله السهيلى فى الروض الانف [1] . وفى كتاب رى العاطش وأنس الواحش لاحمد بن عمار : ان ابن جُدْعان ممن حرم الخمر فى الجاهلية بعد أن كان بها مغرى . وذلك انه سَكِرَ ليلة فصار يمد يديه ويقبض على ضوء القمر ليأخذه فضحك منه جلساؤه فأخبر بذلك حين صحا فحلف أن لا يشربهَا أبداً . فلما كبر وهرم أراد بنو تيم أن يمنعوه من تبذير ماله ولاموه فى العطاء فكان يدعو الرجلَ فاذا دنا منه لطمه لطمة خفيفة ثم يقول له قم فأنشد لطمتك واطلب دِيَتَها فاذا فعل ذلك أعطته بنو تيم من مال ابن جُدْعان . ومنهم :

قيس بن سعد

وهو من أسخياء العرب وأجوادِهم المذكورين . قيل له يوماً هل رأيت قط أسخى منك ؟ قال : نعم نزلنا بالبادية على امرأة فحضرها زوجُها فقالت انه نزل بك ضيفان فجاء بناقة فنحرها ، وقال شأنكم فلما جاء الغد جاء بأخرى ونحرها ، وقال شأنكم فقلت ما أكلنا مِن التى نحرت البارحة إلا اليسير ، فقال : إنى لا أطعم

(١) هذا الكتاب شرح على السيرة الهاشمية وقد طبع بمصر سنة ١٣٣٢ ، وروضة أنف كعنق لم ترع ، قال الشاعر :

أو روضة أنف تضمن نبتها غيث قليل الدمن ليس بمعلم

وكذلك كأس أنف لم تشرب

أضيافى الغابّ [١] فأقمنا عنده أياماً والسماء تُمطر وهو يفعل كذلك . فلما أردنا الرحيل وضعنا فى بيته مائةَ دينار ، وقلنا للمرأة : اعتذرى لنا منه ومضينا فلما متَعَ النهار [٢] ، اذا رجل يصيح خلفنا قفوا أيها الركب اللئام أعطيتمونا ثمن القِرَى [٣] . ثم انه لحقنا وقال لتأخذُنّها والا طعنتكم برمحى فأخذناها وانصرف . ومنهم :

عبرة الكلبية

وهى امرأة من العرب كانت مذكورة بالسخاء . فقد روى أبو بكر بن دريد بسنده الى أبى عبيدة . قال مرّ رجل من أهل الشام بامرأة من كلب . فقال هل من لبن يباع فقالت : انك للئيم أو قريب عهد بقوم لئام ، هل يبيع الرِسل [٤] كريم ، أو يمنعه الا لئيم . انا لَنَدَعُ الكومَ [٥] لأضيافنا تكوس [٦] . اذا عكف الدهر الضروس . ونغلى اللحم غريضا [٧] . ونهينه نضيجا [٨] . ومنهم :

قتادة بن مسلمة الحنفى

كان هذا أيضاً من أسخياء العرب ومشاهيرهم فى الكرم وبه يضرب المثل فى الجود . وكان يسمى غيث الضريك . وقالوا هو « أقرى من غيث الضَريك » وهو الفقير . ومنهم :

مطاعيم الريح

زعم ابن الاعرابى أنهم أربعة أحدهم عم أبى مِحْجَن الثقَفِيّ ولم يسم الباقين.

(١) يقال غب الطعام والتمر يغب غباً وغباً وغبوباً وغبوبة فهو غابّ : بات ليلة فسد أولم يفسد وخص بعضهم اللحم ، وقيل غب الطعام تغيرت رائحته ، قال جرير يهجو الاخطل :

والتغلبية حين غبّ غبيبها   تهوى مشافرها بشر مشافر

أراد بقوله غب غبيبها ما انتن من لحوم ميتتها وخنازيرها (٢) أي ارتفع (٣) الضيافة (٤) اللبن (٥) القطعة من الابل (٦) يقال كاس البعير اذا مشى على ثلاث قوائم وهو معرقب (٧) أى طرياً (٨) يقال نضج اللحم كسمع نضجاً ونضجاً أدرك فهو نضيج وناضج

قال أبو النَدى : هم كِنانةُ بنُ عبد ياليل الثقفى عم أبى مِحْجَن . ولَبيد بن ربيعة وأبوه كانوا اذا هبت الصَّبا أطعموا الناس وخصُّوا الصَّبا لأنها لاتهبُّ الا فى جَدْب . قالت بنت لَبيد بن ربيعة العامرى :

اذا هَبَّتْ رِياحُ أبى عقيل ذكرنا عند هبتِها الوَليدا
أشمَّ الأنف أبيضَ عبشمياً أعان على مُروءته لبيدا [(١)]

وكانت العرب تضرب بهم الأمثال . لما جُبلوا عليه من سخاء الطبع وكريم الخصال . وخلدوا لهم الذكر الجميل . والثناء الجزيل . وهو أحسن ما يدخر . وأجلّ ما يُقتنى ويؤثر . ومنهم :

ازواد الركب

قال ابن بكار فى أنساب قريش : كان أزوادُ الركب من قريش ثلاثةً مسافر ابنُ أبى عمرو بن أميَّةَ بن عبد شمس . الثانى زَمعَة بن الاسود بن المطلب بن أسَد بن عبد العزُّى . الثالث أبو أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم . وانما قيل لهم أزواد الركب لانهم كانوا اذا سافروا لم يتزود معهم أحد ولم يسمَّ بذلك غيرُ هؤلاء الثلاثة . وكان عند أبى أمية بن المغيرة أربع عواتك عاتكة بنت عبد المطلب وهى أم زهير ، وعبد الله وهو الذى قال للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . وعاتكة بنت جذْل الطعان [(٢)] ، وهى أم أم سلمة والمهاجر . وعاتكة بنت عتبة بن ربيعة . وعاتكة بنت قيس من بنى نهشل بن دارم التميمية انتهى . وبهم كانت قريش تضرب المثل . قال الميدانى عند قولهم أقرى من زاد الركب : زعم ابن الاعرابى أن هذا المثل من أمثال قريش ضربوه لثلاثة من أجوادهم وعدد أسماءهم على الوجه

(١) الشمم ارتفاع فى قصبة الانف مع استواء أعلاه ، وقوله عبشمياً أى منسوباً الى عبد شمس

(٢) هو علقمة بن فراس من مشاهير العرب لقب بذلك لجوده يقال للرجل العالم بالامر القائم به المتابر عليه هو جذله

السابق . وأخبار هؤلاء كثيرةٌ . وما ورد فيهم من شعر المديح أكثر والمقام لا يسع ذلك ، وكان أبو أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم زوج اخته عاتكة بنت عبد المطلب نخرج تاجراً الى الشام فمات بموضع يقال له سَرْوُ سحيم ، فقال أبو طالب عم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هذه الأبيات يرثيه بها وهى :

الا إنَّ زادَ الركْبِ غير مدافَعٍ … بِسَرْوِ سُحَيْمٍ غَيبَتْهُ المقابِرُ
بِسَرْوِ سُحَيمٍ عارف ومنا كِرٌ … وفارسُ غاراتٍ خطيبٌ وياسِرُ (١)
تنادوا بان لاسيد الحى فيهم … وقد فجع الحيان كعب وعامر
فكانَ إذا يأتى من الشام قافلاً … بمقدمه تَسعى الينا البشائِرُ (٢)
فَيُصْبِح أهلُ اللهِ بيضاً كأنّما … كستهم حَبيراً رَيْدة ومَعافِرُ (٣)
ترى داره لايبرح الدهر عندها … مُجَعْجِعة كُومٌ سمانٌ وباقِرُ (٤)
اذا أكلت يوماً أتى الدهر مثلها … زواهق زهم أو مخاضٌ بهازِرُ (٥)
ضَرُوبٌ بنَصْلِ السيف سُوقَ سِمانِها … اذا عدِموا زاداً فانك عاقِرُ (٦)
والا يكن لحمٌ غريضٌ فانه … تكب على افواههن الغرائر (٧)

---

(١) سحيم بضم السين موضع فى طريق الشام من مكة ، وسروه أعلاه وحذف حرف العطف من خطيب ضرورة ، ومنا كر اسم فاعل من نا كره أى قاتله ، وياسر اللاعب بقداح الميسر ، والميسر قمار العرب بالازلام وهو مما يفتخر به عندهم كان يقامرون بها فى أيام الغلاء والقحط ويفرق الغالب لحم الجزور على الفقراء (٢) القافل : الراجع من السفر ، والبشائر جمع بشارة (٣) أراد بأهل الله قريشاً سموا بذلك لانهم أرباب مكة ، والحبير بفتح الحاء المهملة ثياب ناعمة كانت تصنع باليمن ، وريدة بفتح الراء وسكون المثناة التحتية بلدة من بلاد اليمن ، ومعافر بفتح الميم وكسر الفاء هى من همدان الى اليمن (٤) قوله مجعجعة اسم فاعل من جعجعت الابل اذا صوتت ، والباقر اسم لجماعة البقر كالجامل لجماعة الابل (٥) زواهق جمع زاهقة وهى السمينة ، والزهم : الكثيرات الشحم جمع زهمة بفتح فكسر وكلاهما بالزاى المعجمة ، والمخاض: الحوامل من الابل واحدها خلفة من غير لفظها ، والبهازر جمع بهزرة وهى الناقه الجسيمة (٦) قوله ضروب أى هو ضروب ، ونصل السيف شفرته فلذلك أضافه الى السيف وقد يسمى السيف كله نصلاً ، مدحه بأنه كان يعرقب الابل للضيفان عند عدم الازواد وكانوا اذا أرادوا نحر الناقة ضربوا ساقها بالسيف فخرت ثم نحروها ، وقوله فاذا عدموا الخ الجملة الشرطية التفات الى الخطاب من الغيبة ، والسوق جمع ساق (٧) الغريض : الطرى من اللحم ، والغرائر جمع غرارة وهى العدل يكون فيها الدقيق والحنطة وغيرها

فيالك من ناعٍ حبيت بألةٍ　　شراعيةٍ تصفرُ منها الاظافر [1]

ومن كان يضرب به المثل من أجواد عرب الجاهلية لا يمكننا ان نستوعبهم، ومن وقفَ على أخبارهم تبين لديه أن كلًّ واحد منهم كان يستحق أن يُضْرَبَ به المثل.

وأما بعد ظهور الاسلام فقد تأكد ذلك لديهم واستوجبته عليهم نصوصُ الشريعة فانضم هـذا الداعى الى الداعى الطبيعى فكان فيهم من أهل القرون الثلاثة من أنسى ذكر كعب بن مامةَ وابنِ سُعدى. قال ابن عبد ربه فى العقد الفريد: اجواد الحجاز ثلاثة فى عصر واحد عبيد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر وسعيد بن العاص. فمن جود عبيد الله بن العباس انه أول من فطر جيرانه، وأول من وضع الموائد على الطُرُق، وأول من حىّ على طعامه، وأول من انهبه، وفيه يقول شاعر المدينة:

وفى السنة الشهباء أطعمتَ حامضاً　　وحلواً ولحماً تامكا ومُمزَّعا [2]

وأنت ربيعٌ لليتامى وعصمة　　اذا المحل من جوِّ السماء تطلعا

أبوك أبو الفضل الذى كان رحمةً　　وغيثاً ونوراً للخلائق أجمعا

« ومن جوده » أنه أتاه رجل وهو بفناء داره فقال يا ابنَ عباس إن لى عندك يداً وقد احتجت اليها فصعَّد بصره وصوَّبه فلم يعرفْه، ثم قال: ما يدك عندنا؟ قال: رأيتك واقفا بزمزم وغلامك يمتح لك [3] من مائها والشمس قد صهرتْك [4] فظللتك بطرف كسائى حتى شربتَ. قال: إنى لأذكرُ ذلك وانه يتردد بين خاطرى وفكرى. ثم قال لقيّمه: ماعندك؟ قال: مائتا دينار وعشرة آلاف درهم. قال: ادفعها اليه وما أراها تفى بحق يده عندنا قال له الرجل:

(١) حبيت: خصصت من الحباء وهى العطية، والالة بفتح الهمزة واللام المشددة الحربة، وشراعية بالكسر الطويلة، وقوله تصفر منها الخ أى تموت منها لان الميت يصفر ظفره دعاء على من أخبر بموت أبى أمية بالقتل (٢) السنة الشهباء التى لا خضرة فيها أو لا مطر، وتامكا أى سمينا؛ ومزع اللحم تمزيعاً فتمزع أى فرقه فتفرق (٣) المتح: الاستقاء (٤) أى آلمت دماغك

والله لو لم يكن لاسمعيل ولد غيرك لكان فيه ما كفاه فكيف وقد ولد سيد الأولين والآخرين محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم ثم شفعه بك وبأبيك

« ومن جوده ايضا » ان معاوية حبس عن الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما صلاته حتى ضاقت عليه حاله فقيل لو وجهت الى ابن عمك عبيد الله فانه قدم بنحو من الف الف درهم فقال الحسين وأين تقع الف الف من عبيد الله فهو والله لهو أجود من الريح اذا عصفت (١) وأسخى من البحر اذا زخر (٢)، ثم وجه اليه مع رسوله بكتاب ذكر فيه حبس معاوية عنه صلاته وضيق حاله وانه يحتاج الى مائة ألف درهم ، فلما قرأ عبيد الله كتابه وكان من أرق الناس قلباً ، وألينهم عطفاً ، انهملت (٣) عيناه . ثم قال : ويلك يامعاوية مما اجترحت (٤) يداك من الاثم حين أصبحت لين المهاد ، رفيع العماد ، والحسين يشكو ضيق الحال ، وكثرة العيال ، ثم قال لقهرمانه (٥) : احمل الى الحسين نصف ما أملكه من فضة وذهب وثوب ودابة ، وأخبره انى شاطرته مالى ، فان أقنعه ذلك والا فارجع واحمل اليه الشطر الآخر . فقال له القيم : فهذه المؤن التى عليك من أين تقوم بها ؟ قال : اذا بلغنا ذلك دللتك على أمر تقيم به حالك . فلما اتى الرسول برسالته الى الحسين قال انا لله حملت والله على ابن عمى ، وماحسبته يتسع لنا بهذا كله فأخذ الشطر من ماله وهو أول من فعل ذلك فى الاسلام

« ومن جوده » أن معاوية أهدى اليه وهو عنده بالشام من هدايا النيروز حُللاً كثيرة ومسكا وآنيةً من ذهب وفضة ووجهها مع حاجبه فلما وضعها بين يديهِ نظر الى الحاجب وهو ينظرُ اليها ، فقال : هل فى نفسك منها شيء ؟ فقال : نعم والله إن فى نفسى منها ما كان فى نفس يعقوب من يوسف

(١) يقال عصفت الريح تعصف عصفاً وعصوفاً اشتدت فهي عاصفة وعاصف وعصوف وأعصفت فهي معصف ومعصفة (٢) أى طمى وتملأ (٣) أى فاضت (٤) أى اكتسبت (٥) هو المسيطر الحفيظ على ما تحت يديه قال ابن برى : القهرمان من أمناء الملك وخاصته فارسى معرب وقال أبو زيد يقال قهرمان وقرمان مقلوب بلغة الفرس القائم بأمور الرجل قاله ابن الاثير

عليهما السلام فضحك عبيد الله قال فشأنك بها فهى لك . قال جعلت فداك أخاف أن يبلغ ذلك معاوية فيجد على . قال : فاختمها بخاتمك وادفعها الى الخازن فاذا حان خروجنا حملها اليك ليلا ، فقال الحاجب : والله لهذه الحيلة فى الكرم أكثر من الكرم ، ولوددت أنى لا أموت حتى أراك مكانه يعنى معاوية ، فظن عبيد الله أنها مكيدة منه ، قال دع عنك هذا الكلام فانا قوم نفي بما وعدنا ولا ننقض ما أكدنا

« ومن جوده » انه أتاه سائل وهو لا يعرفه فقال له تصدق فانى نبئت ان عبيد الله بن عباس أعطى سائلا ألف درهم واعتذر اليه ؟ فقال له وأين أنا من عبيد الله ، فقال أين أنت منه فى الحسب أم كثرة المال قال فيهما . قال أما الحسب فى الرجل فمروءته وفعله ، واذا شئت فعلت واذا فعلت كنت حسيبا فأعطاه ألفى درهم واعتذر اليه من ضيق الحال فقال له السائل ان لم تكن عبيد الله بن عباس فأنت خير منه وان كنتَ هو فأنتَ اليوم خيرٌ منك امس فأعطاه ألفاً أخرى فقال السائل هذه هزة كريم حسيب والله لقد نقرت حبة قلبى فأفرغتها فى قلبك فما أخطأت الا باعتراض الشك من جوانحى

« ومن جوده أيضاً » أنه جاءه رجل من الانصار فقال يا ابن عم رسولِ الله أنه ولد لى فى هذه الليلة مولود وانى سميته باسمك تبركا منى به وان أمه ماتت ، فقال عبيد الله بارك الله لك فى الهبة ، وأجزل لك الأجر على المصيبة ، ثم دعا بوكيله وقال انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضنه وادفع اليه مائتي دينار للنفقة على تربيته ثم قال للأنصارىّ عُدْ إلينا بعد أيام فانك جئتنا وفى العيش يبس وفى المال قلة ، قال الأنصارى لو سبقتَ حاتماً بيوم واحد ماذكرتْهُ العرب أبداً ، ولكنه سبقك فصرت له تالياً ، وأنا أشهد أن عفوك أكثر من مجهوده ، وطَلّ كرمك أكثر من وابله انتهى مافى العقد من حديث عبيد الله . وروى أبو فرج الاصبهانى فى الأغانى بسنده ، قال : مرّ عبيدُ اللهِ بن العباس بن عبد المطلب بمَعنِ بن أوس المزَنىّ وقد كف بصره فقال له يامعن : كيف حالك ؟ فقال :

ضَعُفَ بصرى وكَثُر عيالى وغلبنى الدَّين . قال : وكم دينك ؟ قال : عشرة آلاف درهم فبعث بها اليه ، ثم مر به من الغد فقال كيف أصبحتَ يامعن ؟ قال :

أخذت بعين المال حتى نهكته　　وبالدَّين حتى ما أكاد أُدان (١)

وحتى سألتُ القرض عند ذوى الغنى　　وردَّ فلانٌ حاجتى وفلان

فقال له عبيد الله : اللهُ المستعانُ انا بعثنا اليك لقمةً فما لُكْتَها حتى انتزعت من يديك فاىَّ شىء للاهل والقرابة والجيران ، وبعث اليه بعشرة آلاف درهم أخرى فقال معن يمدحه :

إنك فرعٌ من قريشٍ وإنما　　يمجّ الندى منها البحور الفوارعُ (٢)

ثووا قادة للناس بطحاء مكة　　لهم فى سقاياتِ الحجيج الدوافعُ (٣)

فلما دُعوا للموت لم تبكِ منهم　　على حادث الدهر العيونُ الدوامعُ

ثم إن ابن عبد ربه ذكر نبذة من أخبار جود عبد الله بن جعفر ، وجود سعيد بن العاص ، وجود عبيدالله بن أبى بكرة . وجود عبيدالله بن معمر القُرَشى التيمى ، وذكر جود جماعة كثيرة من أهل الطبقة الثانية من الاجواد وأتى من ذلك بما يستغرب ويوجب العجب ولا بدع فان لهم أُسوةً بسيدهم بل سيد ولد عدْنان وقحطان ونورِ حدَقة عالم الامكان ، صلى الله تعالى عليه وسلم فانه قد منح من السخاء والجود ، ما فاق به حتى جاد بكل موجود ، وآثر بكل مطلوب ومحبوب . ومات ودرعه مرهونة عند يهودى على آصُع (٤) من شعير لطعام أهله ، وقد ملك جزيرة العرب ، وكان فيها ملوك واقيال (٥) لهم خزائن وأموال ، يقتنونها ذخرا ، ويتباهون بها فخرا ، ويستمتعون بها اشراً وبطرا ، وقد حاز ملك

---

(١) نهكته أى صرفته حتى فني (٢) هو مخروم ويروى وانك بالواو فلا خرم والفرع مستعار من فروع الشجرة وهى اغصانها والفوارع جمع فارع وهو العالى (٣) السقاية بالكسر الموضع يتخذ لسقى الناس ، والحجيج جمع حاج (٤) آصع جمع صاع وهو يذكر ويؤنث مكيال (٥) اقيال جمع قيل وهو الملك او من ملوك حمير يقول ماشاء فينفذ او هو دون الملك الاعلى

جميعهم ، فما اقتنى ديناراً ولا درهما ، لايأكل الا الجَشِب [1] ، ولا يلبس الا الخشن ، ويعطي الجزل الخطير ، ويَصِلُ الجم الغفير ، ويتجرَّع مرارةَ الاقلال ويصبر على سَغَب [2] الاختلال ، وقد حاز غنائم هوازن ، وهي من السَّبْي ستة آلاف رأس ، ومن الابل أربعة وعشرون ألف بعير ومن الغنم أربعون ألف شاة ، ومن الفضة أربعة آلاف أوقية ، فجاد بجميع حقه وعاد خلوا

روى أبو وائل عن مسروق عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : ما ترك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ديناراً ولا درهما ولا شاةً ولا بعيراً ولا أوصى بشيء . وروى عمرو بن مرة عن سويد بن الحارث عن أبي ذرّ قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : مايسرني أن لى أُحُدا ذهبا انفقه في سبيل الله أموت يوم أموت وعندي منه دينار الا أن أعده لغريم . وكان صلى الله تعالى عليه وسلم اذا سُئِل وهو مُعْدِم وَعَدَ ولم يَردّ وانتظر ما يفتح الله . روى حماد بن زيد عن المعلى بن زياد عن الحسن أن رجلا جاء الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يسأله فقال اجلس سيرزقك الله ثم جاء آخر ثم آخر فقال لهم اجلسوا فجاء رجل باربع أواقى فاعطاه اياها وقال يارسول الله هذه صدقة فدعا الاول فأعطاه اوقيةً ، ثم دعا الثانيَ فأعطاه أوقيةً ، ثم دعا الثالثَ فأعطاه اوقيةً ، وبقيت معه اوقيةٌ واحدة فعرض بها للقوم فما قام أحد فلما كان الليل وضعها تحت رأسه وفراشه عباؤه فجعل لا يأخذه النوم فيرجع فيصلي فقالت له عائشةُ يارسول الله حلّ بك شيء قال لا قالت فجاءك أمر من الله قال لا قالت إنك صنعت منذ الليلة شيئاً لم تكن تفعله فأخرجها وقال هذه التي فعلت بي ما ترينَ إني خشيت أن يحدث أمر من الله ولم أمضها ، وروى الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انه قال : أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن ترك دَيْناً فعليَّ ومن ترك مالاً فلورثته . فهل مثل هذا الكرم والجود كرماً وجودا ، أم هل لمثل هذا الاعراض والزهادة

(١) أي الغليظ من الطعام (٢) جوع

اعراضاً وزهداً ، هيهات هيهاتِ هل يُدرك شأوٌ (١) من هذه شذورٌ من فضائِلِه ، ويسيرٌ من محاسنِه ، وهى التى لا يُحصى لها عدد ، ولا يُدْرك لها أمد ، وحقيق لمن بلغ من الفضائل غايتها ، واستكمل لغايات الامور آلتها ، أن يكون لزعامة العالم مؤهلا ، وللقيام بمصالح الخلق موكلا .

واما كون العرب أقربَ للحلم من غيرهم

فَلأَنَّ الحلمَ إمساكُ النفس عن هَيَجان الغَضَب كما أن التحلُّمَ امساكها عن قضاء الوَطَر (٢) والحلم من آثار العقل وغير منفك عنه ، ولهذا يعبر به عن كل عقل ظهر فعلاً كقوله تعالى فى ذم من لم يذعن للحق على سبيل التعجب منهم : أم تأمرهم أحلامهم بهذا . ومتى استعمل الحلم فى البارى تعالى فانما يراد العمل بمقتضاه وهو العفو دون انفعال يعرض له . ثم إن العقل كلما كان أوفرَ كان تأثيرُهُ اتمَّ وأثرُه أقوى وأحكم ، وقد سبق ما كان عليه العرب من غزارة العقل وكماله ، فلاشك أن موثراته كذلك . وقد اشتهر العرب لازالت مآثرهم تتلى على مدى الدهور . وممر الأزمنة والعصور ، بكل مايتم الحلم به فان حلم الانسان لايتم الابامساك الجوارح كلها ، اليدِ عن البطش ، واللسان عن الفحش ، والعين عن فضولات النظر . ومن دقق النظر فى شعرهم وخطبهم ، ووقف على لغتهم ، تبينَ لديه كل ماذكرناه ، فقد كانوا يحرمون الظلم ويتحالفون على الكف عنه كما سيمر بك حلف الفضول ونحوه ، ويتناهون عن الفحشاء والمنكر ، ولغتهم تكنى عن كل مايستقبح التصريح به تحرزاً من التلفظ بكلمة تأباها مروءتهم . وقد افردَ الثعالبىُ كتاباً كبيراً فى كناياتهم عما تتنزه ألسنتهم عن التعبير به . وما زالوا يتمدحون بالحلم فى شعرهم . ولو لم يكونوا بالغينَ فيه مبلغاً ماتمدحوا به . قال خلف بن خليفة مولى قيس بن ثعلبة يذكر قوما من العرب ويمدحهم بالحلم ومكارم الاخلاق وكرم السجية :

---

(١) السبق (٢) أى الحاجة ، يقال قضيت وطرى اذا نلت بغيتك وحاجتك

عدلتُ الى فخر العشيرة والهوَى   اليهمْ وفى تَعداد مجدِهم شُغُلْ
الى هَضْبةٍ من آل شيبانَ أشرفت   لها الذِرْوة العلياء والكاهل العَبْلُ (١)
الى النفرِ البيض الأُلاَء كأنّهم   صفائحُ يوم الرَوْع أَخلَصها الصقْلُ (٢)
الى مَعْدِنِ العزّ المؤيَّدِ والندى   هناك هناك الفضلُ والُخلق الجَزْلُ
أحب بقاء القوم للناس أنهم   متى يظعنوا من مَصْرَع ساعة يخلو
عذابٌ على الافواه مالم يذقْهُمُ   عدوٌّ وبالافواه اسماؤهم تحلو (٣)
عليهم وقارُ الحلم حتى كأنّما   وليدُهُمُ من أَجل هيبته كَهْلُ (٤)
ان استجهلوا لم يعزب الحلمُ عنهُمُ   وإن آثروا أَنْ يجهلوا اعظم الجهل (٥)
هم الجبل الأعلى اذا ماتناكرت   ملوكُ الرجالِ أو تخاطرت البزْلُ (٦)
ألم ترَ أن القتلَ غالٍ اذا رَضُوا   وإنْ غَضِبوا فى موطنٍ رخص القتلُ
لنا فيهم حِصْنٌ حَصينٌ ومعقلٌ   اذا حرّك الناس المخاوفُ والأَزْلُ (٧)
لعمرى لَنِعْمَ الحىُّ يدعو صريخهم   اذا الجارُ والمأكولُ أَرْهقهُ الأَكْلُ (٨)
سعاة على افناء بكر بن وائلٍ   وتَبْلُ أقاصى قومهم لهمُ تَبْلُ (٩)
اذا طلبوا ذَحْلاً فلا الذحْلُ فائت   وان ظلموا اكفاءهم بطَلَ الذَحْلُ (١٠)
مواعيدُهم فِعْلٌ إذا ما تكلموا   بتلك التى إنْ سمّيتْ وجبَ الفعل (١١)

(١) الهضبة : الجبل من صخرة واحدة، والذروة : اعلى شىء ، والكاهل : مابين الكتفين ، والعبل : الضخم الممتلىء يعنى بذلك بنى شيبان وكنى عنهم بالهضبة لانهم ملجأ وحصن
(٢) النفر : البيض الانقياء الاعراض ، والالاء بمعنى الذين وما بعده صلة ، والصفائح : السيوف ، والروع : الفزع (٣) عذاب على الافواه يريد أن طعمهم حلو فى الافواه ، وقوله مالم يذقهم عدو معناه الاعلى أفواه الاعداء فان مذاقهم مر فيها وهذا كله كناية عن اللين والشدة وخشونة الجانب (٤) الكهل : من الرجال من جاوز الثلاثين (٥) لم يعزب : أى لم يبعد ، وآثروا اختارو وفضلوا (٦) قوله تخاطرت البزل قال فى التاج : يجوز أن يكون من الخطر الذى هو الوعيد ويجوز أن يكون من خطر البعير بذنبه اذا ضرب به انتهى ، والبزل جمع بازل وهو البعير الذى بلغ السنة التاسعة من عمره (٧) المعقل : الملجأ ، والازل : الضيق والشدة (٨) ارهقه : ضيق عليه وغشيه (٩) التبل : الذحل والثار ، والاقاصى الاباعد (١٠) الذحل : الثأر (١١) بتلك أى بلفظ نعم يصفهم بالوفاء فيقول اذا قالوا نعم وجب الفعل فلم يتأخر

بحورٌ تلاقيها بحورٌ غزيرة اذا زَخرت قيس واخوتها ذُهلُ

وكانت عندهم كلمة تقال فى مواطن الغضب والتشاجر فاذا سمعها أحدهم كف عما كان بصدده من التشفى وأخذ الانتقام . وهى اذا ملكتَ فأسْجِحْ ، يُقْصَدُ بها طلب العفو والحلم عند ثَوَران القوة الغضبية ولولم يكونوا أملكَ لنفوسهم ، وأقدرَ على مجاراة عقولهم ، لما تمكنوا على الارتداع ، اذا قارنت تلك الكلمة منهم السماع ، فهم أحلم فى النفار من كل حليم ، وأسلم فى الخصام من كل سليم ، واذا منوا بجفوة أحد لم يوجد منهم نادرة ، ولم يخفر عليهم بادرة (١) . ولا حليم غيرهم الا ذو عَثْرة ، ولا وقور سواهم الا ذو هَفْوة . يصبرون على الأذى والاقلال ، ويتحملون نغص العيش وضيق الحال ، وما كانت بينهم من الحروب والمشاجرات ، والتخاصم والمنازعات ، فهى محاماة لشرفهم ، وصيانة لعزهم ومنزلتهم ، ومحافظة على مجدهم أن يستذل ، وملاحظة على علوّ حسبهم أنْ يُسْتَرذل ، والحلم فى غير موطنه ذلة ، والصبر على ما لايُحْمَدُ زلة . هؤلاء رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم ، وهم أكملُ الخلق فى كل صفة محمودة ، واعذب المناهل المورودة ، قد انتصبوا لجهاد الأعداء ، وقاتلوا من زاغَ عن المحجّة (٢) البيضاء ، حتى زاد بهم من قل ، وعز بهم من ذل ، وصاروا باثخانهم فى الأعداء منصورين ، وبالرعب منهم محذورين ، وهذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد ضرب رِقاب بنى قَريظة صبراً فى يوم احد ، وهم نحو سبعمائة ، وانتقم منهم انتقامَ من لم يعطفه عليهم رحمة ، ولا داخلته لهم رقة ، وانما فعل ذلك فى حقوق الله تعالى . وقد كانت بنو قريظة رضوا بتحكيم سعدِ بن معاذ عليهم فحكم ان من جرت عليه المُوسَى قتل ومن لم تجر عليه استرق فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : هذا حكم الله فوق سبعة أرقعة . فلم يجز ان يعفو عن حق وجبَ لله تعالى عليهم ، وانما يختص عفوه بحق نفسه . روى أن قيس بن عاصم المنقرى وهو

(١) هى مايبدر من حدتك من قول أوفعل (٢) جادة الطريق

أحد من يضرب به المثل فى الحلم من العرب كان يحدث أصحابه يوما وهو محتبٍ اذ جاؤا بابنٍ له قتيل ، وابن عمٍ له كتيف . فقالوا : إن هذا قتلَ ابنكَ هـذا ، فلم يقطع حديثه ولا نقض حبوته حتى اذا فرغ من الحديث التفتَ اليهم فقال أين ابنى فلان ، فجاءه فقال يابني قم الى ابن عمك فأطْلِقهْ والى أخيك فادفنه والى أمّ القتيل فأعطها مائة ناقة فانها غريبة لعلها تسلو عنه . ثم اتكأ على شقه الايسر فانشأ يقول :

إنى امروٌ لايعترى خُلقى دَنَسٌ يُفَنِّدُهُ ولا أفَنُ
من مِنْقَرٍ فى بيت مَكْرُمَةٍ والغصن ينبتُ حولهُ الغصنُ
خطباء حين يقول قائلهم بيضُ الوجوه مصاقيعٌ لُسُنُ
لايفطنون لعيب جارهِم وهم لحفظ جِواره فطُنُ

وكان الأحنف حليما موصوفا بذلك ، فمن حلمه أنه أشرف عليه رجل وهو يعالج قدراً له يطبخها ، فقال الرجل قدر ككفّ القرد لامستعيرها يُعار ، ولا من يأتيها يتدسم ، فقيل ذلك للأحنف فقال : لوشاء لقال أحسن من هـذا . وقال ماأحب ان لى بنصيبى من الذل حمر النعم ، فقيل له أنت أعزُّ العرب . فقال : إن الناس يرونَ الحلم ذلاً وكان يقول رُبَّ غيظٍ قد جرعته مخافةَ ماهو أشدُّ منه . وكان يقول كثرةُ المُزاح [1] تذهب بالهيبة . ومن أكثر من شيء عُرِف به . والسودد كرم الأخلاق وحسن الفعل . وقال له رجل : ياأبا بحر دلّنى على مَحْمَدَةٍ بغير مَرْزِيَةٍ [2] . قال الخلق السجيح [3] . والكف عن القبيح . واعلم ان أدواء الدآء اللسانُ البذىء ، والخلق الردىء . وأبلغ رجل مصعباً عن رجل شيئاً فاتاه الرجل يعتذر ، فقال مصعب الذى بلغنيه ثقة . فقال الأحنف كلا أيها الأمير فان الثقة لايبلغ . وكان الأحنف من أفصح خطباء العرب . ومن خطبه ما رواه

(١) المداعبة (٢) المحمدة بفتح الميم نقيض المذمة ونص ابن السراج وجماعة على الكسر ، ومزرية مصدر زرى عليه أى عابه (٣) لين سهل

ابن دريد بسنده الى رجل من بنى تميم قال حضرت مجلس الأَحنف بن قيس وعنده قوم مجتمعون فى أمر لهم فحمِدَ الله وأثنى عليه ثم قال إن الكرم، منع الجرم، ماأقرب النقمة . من أهل البغى، لاخير فى لذة تعقب ندما، لن يهلك من قصد، ولن يفتقر من زهد، ربَّ هزل عاد جدّا . من أمِنَ الزمانَ خانه، ومن يعظم عليه اهانه . دعوا المزاح فانه يورث الضغائن (١) . وخير القول ماصدّقه الفعل . احتملوا لمن أدل عليكم . واقبلوا عذر من اعتذر اليكم . أَطِعْ أخاك وان عصاك . وَصِلْهُ وإنْ جفاك . أنصف من نفسك . قبل أن ينتصف منك . واياكم ومشاورة النساء . واعلموا ان كفرَ النعمة لؤم . وصحبةَ الجاهل شؤم . ومن الكرم الوفاء بالذمم . ما أقبحَ القطيعة بعد الصلة . والجفاء بعد اللطف . والعداوةَ بعد الود . ولا تكونن على الاساءة أقوى منك على الاحسان . ولا الى البخل اسرعَ منك الى البذل . واعلم أن لك من دنياك . ماأصلحت به مثواك . فانفق فى حق ولاتكونن خازناً لغيرك . واذا كان الغدر فى الناس موجودا . فالثقة بكل احد عجز . اعرفِ الحق لمن عرّفه لك، واعلم ان قطيعة الجاهل، تعدل منة العاقل . قال : فما رأيت كلاما أبلغ منه . فقمت وقد حفِظتُهُ . واخبار حلماء العرب والنوادر المروية عنهم بطرق صحيحة كثيرةٌ وهى فى كتب التواريخ والادب .

وأما كونُ العربِ اشجعَ من غيرهم

فلأنَّ الشجاعة من الصفات الغريزية، والسجايا الطبيعية، وقوة للنفس معنوية، لاتُدرك الاآثارها وغاياتها، ولاتعلم الا بمقتضياتها وعلاماتها، وهى الإقدام، فى مواضع الاحجام . وعدم المبالاة . بالحياة ولابالممات، وكلّما كانت هذه الآثار أعظم، كان مبدؤها أقوى وأتمَّ . والعرب لم تزل رماحهم متشابكة، وأعمارهم فى الحروب متهالكة، وسيوفهم متقارعة، وأبطالهم فى ميادين الغوغاء

(١) الاحقاد

منازعة . قد رغبوا عن الحياة . وطيب اللذات ، وزهدوا لتأبيه عزهم عن المقيل فى افياء الشهوات ، وهم كما قال القائل فيهم :

قومٌ اذا نزل الغريبُ بدارهم ... تركوه ربَّ صواهلٍ وقيان (١)
واذا دعوتهمُ ليوم كريهةٍ ... سدُّوا شعاعَ الشمس بالفرسان
لاينكتون الارض عند سؤالهم ... لتطلُّب العِلاّت بالعيدان (٢)
بل يسفرون وجوههمَ فترى لها ... عند السؤال كاحسن الالوان

كانوا يتمادحون بالموت قطعا ، ويتهاجون بالموت على الفراش ويقولون فيه مات فلان حتف أنفه . وعن بعضهم وقد بلغه قتل اخيه : إنْ يُقتَلْ فقد قُتِل ابوه وأخوه وعمه ، انا والله لانموت حتفا ولكن قطعاً باطراف الرماح ، وموتاً تحت ظلال السيوف .

وقال السموأل

وما ماتَ منا سيد حَتْفَ أنفه ... ولا طُلَّ منا حيثُ كان قتيل (٣)
تَسيل على حد الظباة نفوسُنا ... وليست على غير السيوف تسيلُ (٤)

وقال آخر

وانا لتستحلى المنايا نفوسنا ... ونترك أُخرى مرَّها فنذوقها

وقال الشَّنْفَرَى

فلا تدفنونى ان دفنى محرم ... عليكم ولكن خامرى امَّ عامر (٥)

---

(١) القيان جمع قينة وهي الامة المغنية او اعم (٢) النكت ان تضرب فى الارض بقضيب فيؤثر بطرفه فيها، وفى الحديث جعل ينكت بقضيب وفى المحكم النكت قرعك الارض بعود أو باصبع (٣) يقال مات فلان حتف انفه اذا مات من غير قتل ولا ضرب ، وقوله ولا طل منا الخ اى لم يطل دم قتيل منا يقال طل دمه اذا بطل ولم يطلب به وهو مطلول وقد طله فلان ابطله يقول انا لانموت ولكن نقتل ودم القتيل منا لايبطل (٤) الظباة جمع ظبة وهى حد السيف (٥) قوله خامرى اى استترى وتوارى ، وام عامر كنية الضبع ، قال فى فرائد اللآل : ام عامر وام عمرو وام عويمر الضبع يشبه بها الاحمق لانهم اذا ارادوا صيدها رموا فى حجرها بحجر فتحسبه شيئا تصيده فتخرج لتأخذه فتصاد عند ذلك ويقول الصائد لها خامرى أم عامر أى الجىء الى أقصى مغارك واستترى فتنقبض فيقول لها أم عامر ليست فى وجارها ثم يقول

اذا حملت رأسي وفي الرأس أكثري ... وغُودِرَ عنه الملتقى ثمَّ سائري (١)
هنالك لا أبغي حياة تسرني ... سجيسَ الليالي مُبْسَلا بالجرائر (٢)

وقال حسان بن ثابت

ولسنا على الاعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على اعقابنا تقطرُ الدما (٣)

وقال العلوى

محرمة أكفال خيلي على القنا ... ودامية لَبَّاتها ونُحورها (٤)
حرامٌ على ارماحنا طعن مدبر ... وتندقّ منها في الصدور صدورها

وقال آخر

وسائلةٍ بالغيب عنى ولو درتْ ... مقارعتى الابطالَ طال نحيبُها
اذا ما التقينا كنتُ أولَ فارسٍ ... يجود بنفس اثقلتها ذُنوبُها

وقال الحصين بن الحمام المرى

تأخرت استبقى الحياةَ فلم أجد ... لنفسي حياةً مثلَ أن أتقدَّما

وقال عمرو بن الاطنابة الانصارى

أبتْ لى شيمتى وأبى بلائى ... واخذى الحمدَ بالثمن الربيح

ابشري بجراد غطال وكر رجال فتمد يديها ورجليها فيوثقها ويشد عراقيبها فلا تتحرك ثم يجرها ويخرجها من قمر الوجار ، يضرب هذا المثل للذى يرتاع من كل شيء جبناً وقيل غير ذلك

(١) ثم ظرف (٢) سجيس الليالي امتداده وسلاسته فى الاتصال وهو اسم فاعل سجس والمبسل المسلم والجرائر : الجرائم (٣) الاعقاب جمع عقب وهو مؤخر القدم ، والكلوم الجراح ، يقول نحن لا نولى فنجرح في ظهورنا فتقطر دماؤنا على اعقابنا ولكن نستقبل السيوف فان اصابنا جراح قطرت على اقدامنا ، والبيت من أبيات ثلاث ذكرت فى الحماسة للحصين بن الحمام بن ربيعة المرى أحد شعراء الجاهلية وفرسانها المذكورين واوفيائها المعدودين وليس لحسان بن ثابت وهى

تأخرت استبقي الحياة فلم أجد ... لنفسى حياة مثل أن اتقدما

فلسنا على الاعقاب الخ تعلق هاماً من رجال أعزة علينا وهم كانوا اعق وأظلما وكان من خبر هذه الابيات أن بنى سهم رهط الحصين بن الحمام وعقيل بن علفة كان لهم جار يهودى فقتله بنو حوشن من غطفان وكانوا متقاربى المنازل وكان عقيل بن علفة غائباً بالشام فلما بلغه الخبر كتب بابيات الى بنى سهم يحرضهم على القتال فلما وردت الابيات عليهم تكفل بالحرب الحصين ابن الحمام وقال الي كتب وبى نوه ، خاطب اماثل سهم وانا من اماثلهم فابلى فى تلك الحرب بلاء شديداً فقال هذه الابيات من قصيدة طويلة وسيأتى طرف منها فى الصفحات التالية

(٤) الاكفال جمع كفل محركة العجز أو ردفه واللبات والنحور بمعنى

وأقدامى على المكروه نفسى ‏ ‏ وضربى هامةَ البَطَل المشيح (١)
وقولى كلما جشأتْ وجاشت ‏ ‏ مكانكِ تُحْمَدِى أو تَسْتَريحى (٢)
لأدفع عن مآثر صالحات ‏ ‏ وأحيا بعدُ عن عرضٍ صحيح

ونظير هذا قول قَطَرِىّ بن الفُجاءة

وقولى كلما جشأتْ لنفسى ‏ ‏ من الابطال وَيحكِ لاتراعى (٣)
فانكِ لوسألت حياةَ يومٍ ‏ ‏ سوى الاجلِ الذى لكِ لم تطاعى (٤)

وقال عنترة وهو مما يشجع الجبان

بكرتْ تخوفنى الُحتوفَ كأننى ‏ ‏ أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل (٥)

---

(١) قوله البطل المشيح أى المقبل عليك والمانع لما وراء ظهره (٢) هذا البيت من شواهد النحو يستشهد به على ان العرب جزمت بعد الظرف ، يعنى الواقع اسم فاعل وهذا معنى قول ابن مالك فى ألفيته

والامر ان كان بغير افعل فلا ‏ ‏ تنصب جوابه وجزمه أقبلا

قال فى التصريح فجزم تحمدى فى جواب اسم الفعل وهو مكانك فانه فى معنى اثبتى وقولى مصدر مبتدأ خبره مكانك تحمدى على حد قولى لا اله الا الله . وجشأت بالجيم والشين المعجمة والهمزة ارتفعت . وجاشت بالجيم والشين المعجمة غثت من الغثيان ، وقوله مبتدأ الاظهر انه عطف على وضربى الخ ، ويقال ان معاوية (رض) يوم صفين هم بالفرار فما منعه الا هذه الابيات (٣) يروى بدل هذا الشطر : (أقول لها وقد طارت شعاعا) أى أقول للنفس وقد طارت شعاعا أى متفرقة من الابطال ويحك لا تراعى من الروع وهو الفزع ولكن تشجعى واصبرى (٤) بقاء يوم أى زيادة يوم والمعنى ان النفس اذا طلبت أن يفسح لها فى أجلها زيادة عن الاجل المسمى لها يجاب طلبها ، وبعد هذين البيتين :

فصبراً فى مجال الموت صبراً ‏ ‏ فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عزّ ‏ ‏ فيطوى عن أخى الخنع اليراع

أخو الخنع الذليل ، واليراع هنا الرجل الجبان الذى لا قلب له كأنه لا جوف له فوضع اليراع مكان الجبان لانه بمعناه

سبيل الموت غاية كل حى ‏ ‏ فداعيه لاهل الارض داعى
ومن لا يعتبط يسأم ويهرم ‏ ‏ وتسلمه المنون الى انقطاع

الاعتباط أن يموت من غير علة

وما للمرء خير فى حياة ‏ ‏ اذا ماعدّ من سقط المتاع

(٥) كانت العرب من عادتها تشرب ليلا فتسكر فتعطى وتهب حالة سكرها فاذا أصبحوا لامهم البخلاء فهذا معنى بكرت الخ كما قال التبريزى ، والحتوف مصدر بمعنى الحتف وهو الموت ، وهو أيضاً جمع حتف

فاجبتها ان المنيةَ منْهَلٌ لابد أنْ أسقى بكأس المَنْهَلِ [١]
فاقْنَىْ حياءك لا ابا لك واعلمى أنى امرؤ سأموت إنْ لم أُقْتَلِ [٢]

وقد خص العرب من الشجاعة فى حروبهم ، والنجدة فى مصابرة عدوهم ، ماشهدت به تورايخ الامم ، واعترفت به السن العرب والعجم . ومن راجع الكتب المؤلفة فى أيامهم ، وسيرهم فى سالف أعوامهم ، تبين لديه أنهم لم يشهدوا حرباً فى فزاع ، الاصابروا حتى انجلت عن ظفر أودفاع ، وهم فى موقفهم لم يزولوا عنه هربا ، ولا حازوا فيه رغبا ، بل ثبتوا بقلب آمن ، وجاش ساكن ، وقيل لعنترة : كم كنتم يوم الفروق ؟ [٣] قال : كنا مائة كالذهب لم نكثر فنتكل [٤] ولم نقل فنذل . وحيث كان العرب لاتقدم شيئاً على العز وصيانة العرض ومحاماة الحريم ، هانت عليهم نفوسهم دون ذلك . وقد اختار الغالب منهم سكنى البوادى على الحضر لما كان فقد العز فيه . والجبن انما ينشأ من حب رغد العيش وطيب الحياة وعدم المبالاة بما يزرى بعلو الحسب وأين ذلك منهم ؟ وبهذا تعلم ما كانوا عليه من الشجاعة والاقدام على المهالك ، ولقد كابد منهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى تأليفهم واتحاد كلمتهم ماجاوز منه الحزام الطُبْيَين [٥] وسال منه عَرَقُ القِرْبة . [٦] وهذا شعرهم ينطقُ بما كانوا عليه من رسوخ القدم فى هـذا الميدان وعلو الهمة فى هذا الباب ، ولا بأس بايراد شىء منه ، فمن ذلك قول حيان بن ربيعة الطائى وهو أحد الشجعان المشهورين يفخر بقومه :

---

(١) المنهل بفتح الميم والهاء : المورد وهو عين ماء ترده الابل (٢) فني الحياء : لزمه وحفظه كاقنى واقتنى وقنى بالتشديد (٣) هو يوم من أيام العرب الشهيرة (٤) الجبن والتأخر (٥) أى اشتد الامر وتفاقم قال المبرد : فان السباع والخيل يقال لمواضع الاخلاف منها أطباء يافتى واحدها طبي كما يقال فى الظلف والخف خلف هذا مكان هذا فاذا بلغ الحزام الطبيين فقد انتهى فى المكروه (٦) كناية عن الشدة والمجهود والمشقة لان القربة اذا عرقت خبث ريحها أو لان القربة مالها عرق فكانه تجشم محالا أو عرق القربة منقعتها كانه مجسم حتى احتاج الى عرق القربة وهو ماؤها يعنى السفر اليها أو عرق القربة سفينة يجعلها حامل القربة على صدره أو معناه تكلف مشقة كمشقة حامل قربة يعرق تحتها من ثقلها ، كما فى القاموس

لقد عَلِمَ القبائلُ أن قومي ذوو جِدٍّ إذا لُبِسَ الحديد (١)
وإنا نِعْمَ أحلاسُ القوافي إذا استعر التنافُرُ والنشيد (٢)
وإنا نضرِبُ الملحاء حتى تولّى والسيوف لنا شهود (٣)

وقال يحيى بن منصور الحنفي

وجدنا أبانا كانَ حلَّ ببلْدَةٍ سِوًى بين قيسٍ قيسِ عَيْلانَ والفِزْرِ (٤)
فلما نأتْ عنّا العشيرة كلُّها أنَخْنا فحالَفْنا السيوفَ على الدهر
فما أسلمتنا عندَ يومِ كريهةٍ ولا نحن أغضَيْنا الجفونَ على وِتْرِ (٥)

وقال رجل من حمير في وقعة كانت لبني عبد مناة وكلب على حمير

مَنْ رأى يومَنا ويومَ بني التَّـ ـيْمِ إذِ الْتَفَّ صِيقُهُ بدَمِهْ (٦)
لمّا رأَوْا أن يومَهُمْ أشِبٌ شَدُّوا حيازيمَهُمْ على ألَمِهْ (٧)
كأنما الأسد في عرينهم ونحن كالليل جاشَ في قَتَمِهْ (٨)
لا يُسْلِمونَ الغداةَ جارَهُمُ حتى يَزِلَّ الشِّراكُ عن قَدَمِهْ (٩)
ولا يخيمُ اللقاءَ فارسُهُمْ حتى يشُقَّ الصفوفَ من كَرَمِهْ (١٠)
ما برحَ التيمُ يعتزُونَ وزُرْ قُ الخطِّ تشفي السقيمَ من سَقَمِهْ (١١)

(١) المراد بالحديد الدروع (٢) يقال فلان حلس كذا أى ملازم له أى ويشهدون أيضاً انا نعم أصحاب القوافى عند التفاخر والتناشد (٣) الملحاء : الكتيبة العظيمة
(٤) سوى بمعنى متوسطة فى موضع جر صفة لبلدة والفزر لقب سعد بن زيد مناة
(٥) الكريهة : الحرب ، أى فما خذلتنا فى يوم حرب ولا نحن أغضينا جفوننا على وتر وحقد يعنى انهم أدركوا كل ثأر (٦) من رأى على معنى يا من رأى وهو تمام الوزن لان البيت من المنسرح واليوم المراد به الوقعة والاستفهام الغرض منه التعجب ، والصيق : الغبار والتفافه كان برشاش الدم القاطر من الجراح (٧) أشب أى كثير الجلبة والاصوات ، والحيازيم : الصدور والمراد القلوب وهذا مثل لصبرهم على ما لحقهم (٨) كانما الاسد أى كانما هم الاسد فالاسد خبر لمبتدأ محذوف ، والعرين : مأوى الاسد ، والقتم : يطلق على الظلمة والغبار والمراد الظلمة (٩) حتى يزل الشراك فيه قلب والاصل زلت القدم عن الشراك وهذا مثل لموته لانه لا يلبسها بعده (١٠) ولا يخيم اللقاء أى لا يجبن عن اللقاء فحذف الجار تخفيفاً ووصل الفعل فعمل (١١) يعتزون أى ينتسبون ويدعون بالفلان ، وزرق الخط أى الرماح تشفي المتكبر من كبره وانما جعل الفعل للرماح على المجاز والسعة

حتى تولت جموعُ حِمْيَرَ والـــفَلُّ سريعاً يَهْوِى الى أَمَمِهْ (١)
وكم تركنا هناكَ من بَطَلٍ تَسْفِى عليه الرياح فى لِمَمِهْ (٢)

وقال حسان بن نَشْبَةَ العدوى فى ذلك (٣)

نحن أَجَرْنا الحىَّ كلباً وقد أَتَتْ لها حِميرٌ تُزْجى الوشيجَ المقوَّما (٤)
تركنا لهم شِقَّ الشِمال فأصبحوا جميعاً يُزَجُّون المَطِىَّ المُحَزَّما (٥)
فلما دَنَوْا صُلْنا ففرَّقَ جمْعَهمْ سَحابتنا تَنْدَى أَسِرَّتُها دَما (٦)
فغادَرْنَ قَيْلاً من مقاوِلِ حِمْيَرٍ كأنَّ بِخَدَّيْهِ من الدم عَنْدَما (٧)
أَمَرَّ على افواهِ مَنْ ذاق طعمها مطاعِمُنا يَمُجُّنَ صاباً وعَلْقَما (٨)

وقال فى ذلك أيضاً

انّى وانْ لم أفدِ حيّاً سواهُمُ فِداءٌ لِتَيْمٍ يومَ كلبٍ وحِميَرا (٩)
أَبَوْا أنْ يُبيحوا جارَهُمْ لعدوّهم وقد ثار نقعُ الموتِ حتى تكوثَرا (١٠)
سَمَوْا نحوَ قَيْلِ القومِ يَبْتَدِرونَهُ بأسيافِهِمْ حتى هوَى فتقطَّرا (١١)
وكانوا كأنفِ الليثِ لا شمّ مَرْغَماً ولا نالَ قطُّ الصيدَ حتى تعفّرا (١٢)

---

(١) الفل مصدر وضع موضع المفعول ، والامم : القرب (٢) موضع كم نصب على المفعولية من تركنا ويقال سفت الريح التراب حملته وذرته ، واللمم جمع لمة والمراد بها ما تشعث من شعر الرأس (٣) هو أخو بني عدى بن عبد مناة ، قال أبو محمد الاعرابى هذا الاسم تصحيف والصواب جساس بن نشبة التيمي والله أعلم (٤) أجرنا الحى أى أدخلنا فى جوارنا هذه القبيلة وكلباً من الحى قبله ، وتزجى الوشيج المقوما أى تسوق الرماح المثقفة (٥) شق الشمال أى جانب الشمال والعرب تجعل الشمال كناية عن الشؤم ، والحزم الشد والقطع يقال شراك مخزوم أي مقطوع (٦) يقال صال فلان على قرنه اذا اوقع بهواستطال عليه حتى يذل له ، وسحابتنا أى جيشنا الذى كانهسحابة ، وتندى أى ترشح ، والاسرة : الاوساط والطرائق وتستعمل فى بطون الاودية أيضاً (٧) قيلا من مقاولى حمير أى ملكا من ملوكهم ، والعندم : دم الاخوين وقيل البقم أىابتدروه بالسيوف حتى تركوه ساقطاً مضرجاً بدمه (٨) الصاب : عصارة شجر مر ، والعلقم شجر مر أيضاً وقيل الحنظل (٩) يقال فداه يفديه فداء وفدى أعطى شيئاً فأنقذه (١٠) الاباحة : التخلية بينك وبين الشيء ، والنقع : الغبار ، وتكوثرا : أى تراكم (١١) القيل : الملك ومر تفسيره قريباً ويقال بادره وابتدره عاجله ، والتقطر : السقوط على أحد القطرين أى علوا نحو الملك يعاجلونه حتى هوى أى سقط على أحد جانبيه وفي الكلام اختصار كانه قال ابتدروه بالاسياف وضربوه حتى سقط (١٢) كانف الليث ضرب ذلك مثلا للعزة

وقال فى ذلك هلال بن رزين أحد بنى نور بن عبد مناة بن ادّ

وبالبيداء لمّا أنْ تلاقتْ بها كابٌ وحلّ بها النذورُ (١)
فحانَتْ حميرٌ لما التقينا وكان لهم بها يومٌ عسيرُ (٢)
وأيقنت القبائلُ من جَنابٍ وعامرُ أنْ سيمنعُها نصيرُ (٣)
أجادتْ وبْلَ مدجنةٍ فدرّتْ عليهم صوبَ ساريةٍ درورُ (٤)
فولَّوْا تحت قِطقِطِها سِراعاً تكبهمُ المهنّدةُ الذكورُ (٥)

وقال حصين بن حُمام المرّى

فقلت لهم يا آلَ ذبيان مالكم تفاقدتمُ لا تقدمون مقدّما (٦)
مواليكمُ مولى الولادة منهمُ ومولى اليمين حابسٌ قد تقسّما (٧)
وقلتُ تبيّنْ هل ترى بَيْنَ ضارجٍ ونهْيِ الاكفّ صارخاً غير أعجما (٨)
من الصبح حتى تغرُبَ الشمس لا ترى من الخيل الا خارجيًّا مُسوّما (٩)

والاباء لان الاسد أحمى الحيوان أنفاً والشم مجاز عن النوال ، والمرغم : الذل ، وتمفر من العفر محركا وهو التراب (١) البيداء هنا موضع بعينه معروف وان زائدة يقول لما تلاقت قبيلة كاب وحمير بهذا المكان وحل به النذور أى سقطت الاقسام عن الحالفين لادراكهم الاوتاد ونقض ما كان بين القبيلتين من العهود وجواب لما فى البيت بعده (٢) فحانت حمير أى هلكت لان الدائرة أى الهزيمة كانت عليهم (٣) جناب وعامر بطون من بنى كلاب وان مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف والمراد بالنصير آخر البيت بنو التيم وانما نكره ليكون أبلغ فى تعظيم النصرة كانه أراد نصيراً من النصار أى كامل فى معناه (٤) أجادت : أرسلت ، والوبل : المطر الشديد العظيم القطر ، والمدجنة : المظلمة ، والصوب : نزول المطر ، والسارية : السحابة التى تأتى ليلا ، والدرور : الكثيرة الدر وهو فاعل درت (٥) القطقط : صغار البرد شبه النبل النافذ اليهم بالقطقط من السحاب ، وتكبهم : تصرعهم ، والمهندة : السيوف ، والذكور جمع ذكر وهو الصلب المتين (٦) جملة تفاقدتم معترضة بين مالكم وبين لا تقدمون وهى دعاء عليهم بأن يفقد بعضهم بعضاً والمقدم مصدر قدّم بمعنى تقدم وضع موضع الاقدام أى التقدم والفعلان اذا اتفقا فى المعنى جاز وضع مصدر أحدهما موضع مصدر الآخر (٧) المولى يطلق على معان كثيرة والشاعر فى هذا البيت قسم الموالى الى بنى عم وهم الذين سماهم مولى الولادة والى حليف وهو من انضم اليك معز بعزك وهو الذى سماه مولى اليمين لانه يقسم له عند الانضمام (٨) ضارج : ماء لبنى عبس ، ونهى الاكف : موضع ، والصارخ : المستغيث ، والاعجم : الذى لا يفصح (٩) معنى البيت انه لا ترى من الصبح الى وقت المساء الا خيلا مسومة والمسوم الذى عليه سمة أى علامة يعرف بها يريد بذلك كثرة الخيل والرجال حتى يضيق بهم الفضاء

عليهنَّ فتيانٌ كساهمْ مُحرِّق ... وكان اذا يكسو أجادَ وأ كرما (١)

صفائحَ بُصْرى أخلصتْها قيونُها ... ومُطَّرِداً من نسج داود مُبهما (٢)

ولما رأينا الصبر قد حيلَ دُونهُ ... وان كان يوماً ذا كواكبَ مُظلِما (٣)

صبَرْنا وكان الصبْرُ منا سَجيةً ... باسيافنا يَقْطَعْنَ كفاً ومِعْصَما (٤)

نُفَلِّق هاماً من رجال أعزة ... علينا وهم كانوا اعق وأظلما (٥)

ولما رأيتُ الوُدَّ ليس بنافعي ... عَمَدْتُ الى الامر الذى كان أحزَما (٦)

فلست بمبتاع الحياة بذلَّةٍ ... ولا مُرْتَقٍ من خشية الموت سلَّما (٧)

وقال بشامة بن حزن (٨)

ولقد غَضِبْتُ لخندِفٍ ولقيْسِها ... لماونَى عن نصرها خُذّالها (٩)

دافعتُ عن أعراضها فمنعتها ... ولدىً فى أمثالها أمثالُها (١٠)

انى امرؤ اسِمُ القصائد للعِدى ... إن القصائد شرُّها اغفالها (١١)

---

(١) محرق : هو أحد ملوك لخم حرّق قوماً فسمى محرقاً ولذلك خبر طويل لا يسعنا ايراده لضيق المقام ولكل مقام مقال (٢) الصفائح : السيوف وهو مفعول كساهم فى البيت قبله ، وبصرى : موضع بالشام تباع فيه السيوف ، والقيون جمع قين وهو الحداد ، والمطرد : المتتابع النسج ولم نجر العادة بقولهم كساه سيفاً وانما جاز ذلك وحسن لان السيوف وقعت فى صحبة الدروع والدروع تلبس كما تلبس الكسوة من الثياب : تدبر (٣) وان كان يوماً اسم كان يعود الى اليوم أى وان كان ذلك اليوم يوماً ذا كواكب مأخوذ من قولهم أراه الكواكب نهاراً وهو شيء نطقوا به في الدهر الاول يريدون بذلك شدة الامر وعظم الخطب

(٤) السجية : الطبيعة ، والمعصم : السوار من الساعد (٥) نفلق أى نشق ، والهام جمع هامة وهي الرأس والكتاب كثيراً مايغلطون في هذا من ذلك قول بعضهم «كلل هامه الشيب» أى رأسه ولا يخفى مافيه من الخطأ والعدول عن الصواب ، فتنبه ، والعقوق ضد البر واغلب مايستعمل فى الولد مع والده (٦) كان آخر ماجعل الحزم للامر كما جعل له العزم فى قوله تعالى «فاذا عزم الامر» (٧) بمبتاع الحياة أى بمشتريها (٨) هو أحد بنى نهشل بن دارم والظاهر انه اسلامى ، قال البغدادى ولم أرله ترجمة فى كتب الانساب (٩) خندف لقب ليلى امرأة الياس بن مضر بن نزار وقيس هو قيس عيلان بن مضر ، وونى : فتر (١٠) يقول دافعت عن عزهم ومجدهم ومنعت اعراضهم ان تبتذل ولدى فى امثال هذه القبائل امثال هذه النصرة

(١١) الاغفال جمع غفل بضم الغين المعجمة وهو الخالى من العلامة يريد انشر الشعر مالا يعرف ويشتهر

قومى بنو الحرب العوان بجمعهم　　والمشرفيّة والقنا اشعالها (١)
مازال معروفاً لمرّة فى الوغى　　علّ القنا وعليهم إنهالها (٢)
من عهد عادٍ كان معروفاً لنا　　أسْرُ العداة وقتلها وقتالها (٣)

وقال شريح بن قرواش العبسى وكان من أشهر الفرسان

لما رأيت النفسَ جاشت عكرْتها　　على مسحلٍ وايُّ ساعة مَعكر (٤)
عشية نازلتُ الفوارس عنده　　وزلَّ سنانى عن شُرَيْح بن مُسهر
وأقسمُ لولا درعُهُ لتركته　　عليه عوافٍ من ضباعٍ وانسُر (٥)
وما غمرات الموت الا نزالُك الـــكمىَّ على لحم الكمىّ المقطَّر (٦)

وقال عباس بن مرداس السلمى وهى من المنصفات

فلم أرَ مثل الحىّ حياً مُصبَّحا　　ولا مثلنا يوم التقيْنا فوارسا (٧)
أكرَّ وأحمى للحقيقة منهمُ　　واضربَ منا بالسيوف القوانسا (٨)
اذا ماشددنا شدَّةً نصبوا لنا　　صدور المذاكى والرماح المداعسا (٩)
اذا الخيل جالت عن صريعٍ نكرُّها　　عليهم فما يرجعن الا عوابسا (١٠)

---

(١) الحرب العوان التى قوتل فيها مرة بعد مرة ، والمشرفية : السيوف ، والقنا : الرماح ، والاشعال : الاضرام وهو على حذف مضاف أى والمشرفية والقنا ذوات اشعالها (٢) العل من عل اذا سقاه ثانياً والانهال من انهله اذا سقاه اولا وانما قال وعليهم انهالها كأنه يجعل ذلك واجباً عليهم والمراد بهذا الاثخان فى العدو والفتك به (٣) من هنا بمعنى مذ وانما وضعت موضع مذ لقوتها وكثرة تصرفها وتمكنها في باب الجر ، يقول ان ما اختص بنا من أسر الملوك وقتلهم ومحاربتهم امر معروف قديم من عهد عاد (٤) يقال عكر على الشىء كر وانصرف ، ومسحل اسم رجل ، وأى ساعة معكر برفع أى على انه مبتدأ والخبر محذوف والتقدير وأى ساعة معكر تلك الساعة والمراد بهذا التهويل ، وعشية ظرف لعكرتها وانما زل سنان رمحه عن شريح وسلم منه لان شريحاً كان لابساً درعاً تحت ثيابه (٥) العوافى جمع عاف وهو طالب المعروف وهو هنا مجاز عن تعرقها أى الطيور له ووقوعها عليه (٦) الغمرات الشدائد والكمى ، الشجاع ، والمقطر : الساقط على أحد قطريه الى جانبيه وقد مر تفسيره قريباً (٧) قوله مثل الحى يريد به قوماً معهودين وحياً مصبحاً تمييز له والمصبح الذى يغار عليه وقت الصباح (٨) النصف الاول من هذا البيت يرجع الى اعدائه وهم بنو أسد ، الثانى يرجع الى عشيرته ، والقونس اعلى بيضة الحديد (٩) المذاكى جمع مذك وهى الخيل التامة السن الكاملة القوة والمداعس من الدعس وهو فى الاصل الدفع ويستعمل فى الطعن (١٠) جالت عن

وقال أبو الابيض العبسى من أبيات

وذى أمل يرجو تُراثى وإنَّ ما   يصيرُ له منى غداً لَقليلُ (١)
ومالِىَ مالٌ غيرُ دِرعٍ ومِغفَرٍ   وأبيضُ من ماءِ الحديدِ صقيلِ (٢)
وأسمرُ خطِّىٌّ القناةِ مُثَقَّفٌ   وأجردُ عُريانُ السَّراةِ طويلِ (٣)
أقيهِ بنفسى فى الحروب واتَّقى   بهاديه إنى للخليلِ وَصُولُ (٤)

وقال عمرو بن كلثوم التغلبى

معاذَ الالهِ ان تَنوحَ نساؤنا   على هالكٍ أو أن نَضِجَّ من القتلِ (٥)
قِراعُ السيوفِ بالسيوفِ احلَّنا   بارضٍ براحٍ ذى أراكٍ وذى أثلِ (٦)
فما أبقتِ الايامُ مِلمالِ عندنا   سوى جذمِ إذوادٍ مُحذَّفَةِ النسلِ (٧)
ثلاثة اثلاثٍ فأثمانُ خيلِنا   واقواتنا وما نَسوق الى القتلِ (٨)

وقال بعض بنى قيس بن ثعلبة

دعوتُ بنى قيس الىَّ فشمّرت   خناذيذُ من سَعدٍ طوالُ السواعدِ (٩)
اذا ما قلوبُ القوم طارت مخافةً   من الموت أرسوْا بالنفوس المواجدِ (١٠)

صريع أي دارت عنه (١) وذى أمل أى ورب ذى أمل، والتراث : الميراث ، وما موصول بمعنى الذى فلذلك كتب مفصولا من ان ، تنبه (٢) المغفر زرد ينسج على قدر الرأس ، والابيض : السيف (٣) الاسمر : الرمح ، والاجرد من الخيل القصير الشعر ، والسراة : الظهر (٤) هادى الفرس صدره وعنقه (٥) قوله معاذ الآله أى أعوذ بالله معاذاً يضعف شدة صبرهم فى المصائب (٦) قراع السيوف على حذف مضاف أى قراع أصحاب السيوف والقارعة مضاربة القوم فى الحرب والاصل فى البراح الارض التى لابناء فيها ولاعمران ، والاراك والاثل : نوعان من الشجر ينبتان فى السهل اكثر ، ومعناه انهم نزلوا بارض لاهضاب فيها ولا جبال يتمنعون بها (٧) ملمال أى من المال ، والجذم : الاصل والاذواد جمع ذود يقع على مادون العشرة من الابل ، والمحذفة : المقطوعة (٨) ثلاثة أثلاث خبر لمبتدأ محذوف وما بعده تفسير له وتفصيل كأنه قال اموالنا ثلاثة اثلاث ثلث نشترى به الخيل وثلث نشترى به أقواتنا وثلث نعطيه فى الديات (٩) الخناذيذ : فحول الخيل ويستعمل فى الشجعان كما هنا (١٠) ارسوا : اثبتوا ومفعوله محذوف كأنه قال اثبتوا قلوبهم بالنفوس الكريمة ، والمواجد جمع ماجدة

وقال حجر بن خالد

وجدنا أبانا حلَّ فى المجد بيتَهُ ... واعيا رجالاً آخرين مطالعُه (١)

فمن يَسْعَ منا لاينَلْ مثل سَعْيهِ ... ولـكن متى ما يرتحل فهو تابعُهْ

يسُود ثُنانا من سوانا وبدؤنا ... يسُود معدّاً كلها لاتُدافعُه (٢)

ونحن الذينَ لا يُرَوَّعُ جارُنا ... وبعضُهُمُ للغدْر صُمٌّ مسامِعُهْ

نُدَهْدِقُ بَضْعَ اللحم للباع والندَى ... وبعضُهُمُ تغلى بذمٍّ مناقِعُهْ (٣)

ويَحْلُبُ ضِرْسُ الضيفِ فينااذاشتا ... سديفَ السنام تستَرِيه أصابعُهْ (٤)

منعنا حِمانا واستباحتْ رماحُنا ... حِمَى كلِّ قومٍ مُستجيرٍ مراتِعُهْ (٥)

وقال الرقاق بن المنذر بن ضرار الضبى

اذا المُهْرَةُ الشقْراءُ أُدركَ ظهرُها ... فشبَّ الالهُ الحربَ بين القبائلِ (٦)

وأوقدَ ناراً بينهم بِضِرامها ... لها وَهَجٌ للمُصطلى غيرُ طائلِ (٧)

اذا حملتنى والسلاحَ مُشيحةً ... الى الرَّوْعِ لم أُصبح على سِلْمِ وائلِ (٨)

فدىً لِفَتَى ألقَى الىَّ برأسها ... تِلادِى وأهلى من صديقٍ وجاملِ (٩)

وقال أبو الغول الطهَوِىّ فى قوم من العرب

فَدَت نفسى وما مَلَكتْ يمينى ... فوارسَ صدقتْ فيهم ظنونى

---

(١) البيت لايحل فى المجد وانما المجد يحل فيه ولـكنه رمى بالكلام على السعة والمجاز ، واعيا اعجز ، والمطالع : المذاهب والمسالك (٢) الثنى من يكون دون الرئيس لـكنه يليه فى الرتبة مثل ولى العهد فى الاسلام والبدء السيد المتقدم فى السيادة الغير المدفوع عنها

(٣) الدهدقة : صوت القدر عند غليانها ، والبضع جمع بضعة وهى القطعة من اللحم ، والباع مثل للشرف والعز ، والمناقع : قدور صغار من حجر (٤) قوله اذا شتا أى اذا دخل فى الشتاء وهو الجدب ، والسديف : شحم السنام ، تستريه أى تختاره (٥) الحمى ما يحميه الانسان ويدافع عنه ، والاستباحة هنا جعل الشىء مباحاً غير ممنوع والهاء فى مراتعه ترجع الى الحمى

(٦) المهرة : ولد الفرس ، والشقراء : الحمراء ، وأدرك ظهرها من أدرك الثمر اذا أمكن الانتفاع به ، فشب الاله الحرب أى أوقدها وهذا دعاء (٧) الضرام : دقاق الحطب ، والوهج : الاشتعال ، والطائل : النافع (٨) المشيحة : الفرس القوى الحذر ، والروع : الحرب (٩) ألقى الى برأسها أى وهبها لى ، والتلاد : المال القديم والصديق تفسير للاهل ، والجامل أى الجمال وهى الابل تفسير للمال القديم

فوارسَ لا يَمَلّونَ المَنايا ... اذا دارَتْ رَحَى الحربِ الزَّبونِ (١)
ولا يَجْزُونَ من حَسَنٍ بِسَيءٍ ... ولا يَجْزُونَ من غِلَظٍ بِلِينِ
ولا تَبْلَى بَسالَتُهم وإنْ هُمْ ... صَلُوا بالحَرْبِ حِيناً بَعْدَ حِينِ (٢)
هُمُ مَنَعوا حِمى الوَقَبى بِضَرْبٍ ... يُؤَلِّفُ بينَ أَشْتاتِ المَنونِ (٣)
فَنَكَّبَ عنهمُ دَرْءَ الاعادي ... وداوَوْا بالجُنونِ من الجُنونِ (٤)
ولا يَرْعَوْنَ اكنافَ الهُوَيْنَى ... اذا حَلُّوا ولا أَرضَ الهُدُونِ (٥)

وقال ربيعة بن مَقْروم الضبي

ولقد شَهِدتُ الخيلَ يومَ طِرادِها ... بِسليمِ أَوْظِفَةِ القوائمِ هَيْكَلِ (٦)
فَدَعَوْا نَزالِ فكنتُ أَوّلَ نازلٍ ... وعلامَ أَركَبُهُ اذا لم انزِلِ (٧)
وأَلَدَّ ذى حَنَقٍ عليَّ كأنما ... تَغْلى عداوةُ صَدْرِهِ فى مِرْجَلِ (٨)
أَرْجَيْتُهُ عنى فأَبصَرَ قصدَهُ ... وكَوَيْتُهُ فوقَ النواظِرِ من عَلِ (٩)

وقال بعض بنى قيس بن ثعلبة (١٠)

(١) رحى الحرب : حومتها ومعظمها وهذا على المجاز لان الحرب تحطم الرجال وتكسرهم كما تفعل الرحى . والزبون بفتح الزاى فى الاصل الناقة التى تزبن حالبها وتدفعه شبهت الحرب بها لانها تدفع الرجال لشدة هولها (٢) البسالة الشجاعة (٣) الوقبى كجمزى اسم ماء لبنى مازن ، والاشتات جمع شت وهو المتفرق ، والمنون : الموت (٤) قوله فنكب معناه نحى وحول ، والدرء أصله الدفع ثم استعمل فى الخلاف لان المختلفين يتدافعان يعنى ان الضرب نحى وحول عن هؤلاء القوم اعوجاج الاعادى وخلافهم ، وقوله وداووا بالجنون من الجنون أى داووا الشر بالشر كما قالوا ان الحديد بالحديد يفلح فالجنون كناية عن الشر (٥) الاكناف: النواحى ، والهوينى : الدعة والخفض تصغير الهونى مؤنث الاهون ، والهدون السكون والصلح (٦) الاوظفة جمع وظيف وهو مستدق الذراع والساق من الخيل وغيرها ، والقوائم : الارجل ، والهيكل العظيم وصف به الفرس (٧) نزال اسم فعل بمعنى انزل والمعنى انهم تنادوا عند الحرب وقالوا نزال فكنت أول النازلين ولاى شىء أركب فرسي اذا لم أنزل عند دعائى للنزال (٨) الالد الشديد الخصومة والجمع لد بضم اللام ، والحنق : الغيظ ، والمرجل : القدر بكسر الكاف تكون من نحاس (٩) أرجيته : أخرته وصرفته ، قال أبو الفتح أكثر من ترى يروى هذا البيت أرجيته بالراء فاذا تعالى شيئاً رواه أرجأته بالهمز وكلاهما تصحيف وانما هو أوجيته بالواو أى أذللته وقهرته ، فوق النواظر أى بين الجبين والنواظر (١٠) هو بشامة بن حزن النهشلى وليس له ترجمة في كتب الانساب التى بأيدينا والظاهر انه اسلامى

إنّا مُحيّوكِ ياسَلْمَى فَحَيِّينا ... وانْ سَقَيْتِ كِرامَ الناسِ فاسقينا (١)

وإن دَعَوْتِ الى جُلَّى ومَكْرُمَةٍ ... يوماً سَراةَ كِرامِ الناسِ فادعينا (٢)

إنّا بنى نَهْشَلٍ لانَدّعى لابٍ ... عنه ولا هو بالابناء يَشْرينا (٣)

ان تُبْتَدَرْ غايةٌ يوماً لِمَكْرُمَةٍ ... تَلْقَ السوابِقَ منا والمصَلّينا (٤)

وليس يَهْلِكُ منا سيد أبداً ... الا افتَلَيْنا غلاماً سيداً فينا (٥)

انا لَنُرْخِصُ يومَ الرَّوْعِ انفُسَنا ... ولو نُسامُ بها فى الأمن أُغلينا (٦)

بيضٌ مفارِقُنا تَغْلى مراجِلُنا ... نأسو باموالنا آثارَ أيدينا (٧)

إنّى لمن معشر أفنى أوائِلَهم ... قيلُ الكماة ألا أينَ المحامونا (٨)

لو كان فى الألف منا واحدٌ فدعوا ... مَنْ فارس ؟ خالَهم اياه يعنونا (٩)

اذا الكماة تَنَحَّوْا ان يُصيبَهمُ ... حدُّ الظُباة وصلناها بايدينا (١٠)

ولا تَراهم وان جَلَّت مصيبتُهم ... مع البُكاةِ على من مات يبكونا (١١)

ونركَبُ الكُرْهَ أحياناً فيَفْرِجُهُ ... عنّا الحفاظ وأسيافٌ تُواتينا (١٢)

وقال وَدّاكُ بن ثميل المازنى

رُوَيْدَ بنى شَيْبانَ بعضَ وعيدكم ... تُلاقوا غداً خَيلى على سَفَوان (١٣)

(١) فحيينا من التحية بمعنى السلام (٢) الجلى تأنيث الاجل ، والسراة : كرام الناس (٣) بني نهشل منصوب على الاختصاص ولو رفعه لقال انا بنو نهشل ، ومعنى لا ندعى لاب لا ننتسب لاب غير أبينا ، وقوله ولا هو الخ معناه انه راض بنا كما نحن راضون به ، وقوله بنى نهشل يعنى نهشل بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم (٤) يقال ابتدرنا الغاية والى الغاية أى استبقنا اليها ، وقوله لمكرمة أي لاكتساب مكرمة ، والمصلى من أسماء خيل الحلبة التى تخرج للسباق وهى عشرة على قول وقد ذكر ذلك المصنف فى الجزء الثانى مفصلا (٥) الافتلاء : الانتظام والاخذ عن الام (٦) الروع : الحرب ، والالف فى أغلينا للاشباع (٧) بياض المفارق كناية عن نقاء العرض وانتفاء الذم والعيب ، وتغلى مراجلنا أى حروبنا ، وقوله نأسو أى نداوى (٨) الكماة جمع كام كما يقال غاز وغزاة وذلك من قولهم كمى نفسه فى السلاح اذا توارى فيه (٩) خالهم أى ظنهم معناه انهم لشدة بأسهم وقوة حماستهم لا يعترفون بشجاعة غيرهم (١٠) الظباة جمع ظبة وهى حد السيف ، وقوله وصلناها بأيدينا هذا الكلام كناية عن علو همتهم فى الحرب وطول باعهم فيها (١١) البكاة جمع باك (١٢) الكره : المكروه وركوبه كناية عن وقوعهم فيه وقصدهم اليه ، والحفاظ : المحافظة والذب عن المحارم : وقوله وأسياف تواتينا أى توافقنا (١٣) رويد تصغير الرود بالضم أى التمهل والرفق ويكون لوجوه

تلاقوا جِياداً لاتَحيد عن الوَغَى ... اذا ما غدَت فى المأزِق المتدانى [١]

عليها الكماةُ الغرّ من آل مازنٍ ... ليوثُ طِعانٍ عند كل طِعان [٢]

تلاقوهمُ فتعرِفوا كيفَ صبرُهم ... على ما جنَتْ فيهم يدُ الحَدَثان [٣]

مقاديمُ وصّالون فى الرَّوْع خَطْوَهم ... بكل رقيق الشفرَتَيْنِ يمانِ [٤]

اذا استنجِدوا لم يسألوا من دعاهمُ ... لأيّةِ حَرْبٍ أم بأىّ مكان [٥]

وقال بعض بنى تَيْم اللهِ بن ثَعْلَبَة

ولقد شهِدتُ الخيلَ يومَ طِرادِها ... فطعنتُ تحتَ كنانةِ المتمطِر [٦]

ونطاعِنُ الابطالَ عن أبنائنا ... وعلى بصائرِنا وإن لم نُبْصِر

ولقد رأيتُ الخيلَ شلْنَ عليكمُ ... شَوْلَ المخاضِ أبَتْ على المتغبّر [٧]

وقال عامر بن الطفيل

طُلقتِ إنْ لم تسألى أىُّ فارسٍ ... حليلكِ اذ لاقى صُداءَ وخَثْعَمَا [٨]

أكرُّ عليهم دَعْلَجاً ولَبانُهُ ... اذا ما اشتكى وقع الرماح تحمْحَمَا [٩]

أربعة اسم فعل نحو رويد زيداً أى أمهله ، وصفة نحو ساروا سيراً رويداً : وحالا نحو سار القوم رويداً ، ومصدراً كما هنا نحو رويد بنى شيبان : وقوله بعض وعيدكم انتصب بفعل مضمر دل عليه رويد واستعمال الرفق فيه كف عن بعض الوعيد ، وسفوان : اسم ماء على أميال من البصرة

(١) تلاقوا بدل من تلاقوا فى البيت قبله، والجياد : الخيل ، والوغى : الحرب، والمأزق: المضيق

(٢) الغر : بيض الوجوه ، والليوث : الاسود (٣) الحدثان : الحوادث (٤) المقاديم جمع مقدام وهو الكثير الاقدام فى الحرب ، والروع هنا الحرب ومعنى رقيق الشفرتين ماضي الحدين ، واليمانى : السيف المطبوع من حديد اليمن (٥) الاستنجاد : الاستنصار

(٦) أراد بالخيل من عليها من الرجال ، والكنانة التى يجعل فيها السهام ولعله يريد ما تحتها حين حملها يشير بذلك الى مقتله (٧) شلن عليكم من شال الفرس بذنبه يشول شولا أى رفعه عند الجرى ، والمخاض : النوق الحوامل ، والغبر بالتشديد البقية من اللبن فى الضرع

(٨) طلقت يحتمل أن يكون دعاء أو اخباراً ، وحليل المرأة زوجها ، وصداء وخثعم قبيلتان كانا مع من أراد قتال بنى عامر فى ذلك اليوم (٩) دعلج اسم فرسه ، واللبان اسم لما جرى عليه اللبب من المصدر ، والتحمحم : التصويت دون الصهيل وهذا البيت معيب من جهة نصب اللبان ورفعه أما عيبه من جهة النصب فهو ذكر اللبان بعد قوله أكر عليهم دعلجا لانه اذا كره فقد كر جميع جسده وأما عيب الرفع فهو جعل التحمحم للبان وانما هو للفرس والصواب بدل هذا البيت

اقدم فيهم دعلجا واكره ... اذا أكرهوا فيه الرماح تحمحما

وقال حريث بن عناب النبهانى

تعالوا أفاخركم أأعيا وفقعس ... الى المجد أدنى أم عشيرة حاتم (١)

الى حكم من قيس عيلان فيصل ... وآخر من حىّ ربيعة عالم (٢)

ضربنا كمُ حتى اذا قام ميلكم ... ضربنا العدا عنكم ببيض صوارم (٣)

فحلوا بأكنافى وأكناف معشرى ... أكن حرزكم فى المأقط المتلاحم (٤)

فقد كان أوصانى أبى أن أضيفكم ... الىّ وأنهى عنكم كلّ ظالم (٥)

وأمثال هذا الشعر مما يدل على شجاعتهم وبسالتهم قد امتلأت منه بطون الكتب الادبية وغرضنا نقل شيء منه يؤيد ما ادعيناه فيهم وهو كافٍ فى المقصود وافٍ بالمرام

بعض من ضرب بشجاعته المثل من عرب الجاهلية

إن العرب كانوا فى الشجاعة على ما ذكرناه من المنزلة التى لا تطاول وقد قامت الدلائل الواضحة والبراهين الجلية على ذلك فاستحق كل منهم أن يُضرب به المثلُ ، وينوّه بشأنه فى القول والعمل ، غير أن كتب الامثال والوقائع اقتصر فيها على ذكر من شاع أمره على ألسنة الشعراء واشتهر بين القبائل . ونحن نذكر بعض ذلك ، حرصاً على تنشيط المطالعين . وتطرية لمسامع السامعين . منهم :

خالد بن جعفر بن كلاب العامرىّ

ومن حديثه أن هوازن كانت لا ترى زهير بن جذيمة الاربا وهوازن يومئذ لا خير فيها ولم تكثر عامر بن صعصعة بعد فهم « أذلُّ من يدٍ فى رَحِمٍ » (٦)

---

(١) بنو اعياء بن طريف بن عمرو أحد بنى أسد ، وفقعس حى من بنى أسد وأسد وطىء حليفتان يقول هل أماجدكم أأعياء وفقعس اقرب الى المجد أم عشيرة حاتم (٢) اراد بالحكم من قيس عيلان هرم بن قطبة وبالحكم من حى ربيعة دغفلا النسابة وحيا ربيعة ذهل بن شيبان وذهل بن ثعلبة (٣) قام ميلكم بمعنى تقوم فتركتم الخلاف ، والبيض الصوارم : السيوف القواطع (٤) المأقط : المضيق فى الحرب (٥) اضيفكم : اضمكم

(٦) يراد الضعف والهوان وقيل يد الجنين وقيل المعنى ان صاحبها يتوق ان يصيب شيئا

انما هم رعاء الشاء فى الجبال وكان زهير يَعشِرُهم (١) فكان اذا كان سوق عكاظ أتاها زهير فتأتى هوازن بالإتاوة (٢) التى فى أغنامهم فيأتونه بالسَّمْن والأقِط (٣) والغنم فجاءت عجوز من هوازن بِسَمْن فى نِحْىٍ (٤) واعتذرت اليه وشكت السنين التى تتابعت على الناس فذاقه فلم يرض طعمه فدفعها بقوس كانت فى يده فسقطت فبدت عورتها فغَضِبَتْ من ذلك هوازن وحقدته الى ما كان فى صدرها من الغيظ وكانت قد كثرت عامر . فآلى خالد بن جعفر فقال والله لاجعلنَّ ذراعى وراء عنقه حتى اقتل أو أقتل ، وفى ذلك قال :

أرِيغونى إراغتَكم فانى وحَذْفَةَ كالشجا تحتَ الوريدِ (٥)
مُقَرَّبةً أواسيها بنفسى وأُلحقها رِدَائى فى الجليدِ
لعلَّ الله يقدرنى عليها جِهاراً من زُهيرٍ أو أُسيدِ

واتفق نزول زهير بالقرب من أرض بنى عامر . وكانت تماضر بنت عمرو ابن الشريد امرأة زهير بن جذيمة وأم ولده فمر به أخوها الحرث بن عمرو فقال زهير لبنيه : إن هذا الحمارَ طليعةٌ عليكم فأوثقوه فقالت أخته لبنيها : أيزوركم خالكم فتوثقونه ، ثم حلبوا له وطبا (٦) من لبن وأخذوا منه يميناً أن لا يخبر عنهم فخرج حتى أتى بنى عامر فأخبرهم فركب خالد بن جعفر ، وحُندُج بن البكاء ، ومعاوية بن عباد ، وثلاثة من فوارس بنى عامر ، واقتصوا فرأوا ابلَ بنى جَذيمة

(١) يعشرهم من باب ضرب أخذ عشر أموالهم (٢) بالكسر الخراج (٣) يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك حتى يمصل وهو بفتح الهمزة وكسر القاف وقد تسكن القاف للتخفيف مع فتح الهمزة وكسرها مثل تخفيف كبد (٤) نحى بكسر النون وسكون الحاء سقاء السمن (٥) اريغونى اراغتكم أى أطلبونى طلبتكم وفى رواية اللسان فمن يك سائلا عنى فانى . وحذفة كالشجا الخ وحذفة فرس خالد بن جعفر بن كلاب من نسل مذهب اصابها من جده رياح ابن الاشل الغنوى وكانت امه خبيثة بنت رياح ، قال أبو عبيدة وهى الشقراء التى يقال فى المثل شيئاً مايريد السوط الى الشقراء ، والوريد أو حبل الوريد عرق تزعم العرب انه من الوتين وهما وريدان مكتنفان صفحتى العنق مما يلى مقدمه غليظان ، والجليد الضريب والسقيط وهو ندى يسقط من السماء فيجمد على الارض تقول منه جلدت الارض فهى مجلودة ، والشجا ما ينشب فى الحلق (٦) الوطب : سقاء اللبن وهو جلد الجذع فما فوقه

فنزلوا عن الخيل . فقالت النساء إنا لنرى غابةَ رماح بمكان ما كنا نرى به شيئاً ثم جاءت الرِعاء فخبرت بهم وأتى أسيد أخاه زهيراً فأخبره بالخبر وقال قد رأت راعيتى خيل بني عامر ورماحها فقال زهير « كل ازبٍّ نفور »[١] فذهبت مثلا . وكان أسيد كثير الشعر قال فتحمل عامة بنى رواحة وحلف زهير لا يبرح مكانه حتى يُصبح وتحمل من كان معه غير ابنيه ورقاء والحرث فلم يشعر الا والخيل أحاطت به قال زهير وظنهم أهل اليمن يا أسيد ماهؤلاء ؟ قال : هم القوم الذين تغضب فى شأنهم منذ الليلة ، قال : وركب أسيد فرسه ونجا ووثب زهير على فرسه القعساء ، وكانت متمردة فلحقه خالد راكباً فرسه حذْفَة . وهو يقول لا نجوت ان نجا زهير ، فاعتنق خالد زهيراً ، وخرَّا عن فرسيهما ووقع خالد فوق زهير واستغاث ببنيه ، فأقبل اليه ورقاء بن زهير فضرب خالداً ثلاثَ ضربات فلم يغن شيئاً ، وكان على خالد درعان . ثم ضرب حُنْدُج رأس زهير فقتله . وفى ذلك يقول ورقاء بن زهير :

رأيت زُهَيْرًا تحت كَلْكَلِ خالد ... فأقبلتُ أسعى كالعَجُول أبادِرُ[٢]
الى بَطَلَيْنِ يَنْهَضان كلاهما ... يريدان نَصْلَ السيف والسيف داثِرُ[٣]
فَشُلَّتْ يمِينى يوم أضربُ خالداً ... ويستره منى الحديد المظاهر
فياليتَ أنى قبلَ ضربةِ خالدٍ ... ويومِ زهير لم تَلِدْنى تماضِرُ

ومنهم مجمع بن هلال بن خالد بن مالك[٤]

---

(١) وذلك ان البعير الازب وهو الذى يكثر شعر حاجبه يكون نفوراً لان الريح تضربه فينفره ، يضرب فى عيب الجبان ، قال الميداني قاله زهير بن جذيمة لاخيه أسيد وكان أزب جباناً وكان خالد يطلبه بذحل أى ثار وكان زهير يوماً فى ابله يهنؤها ومعه أخوه أسيد فرأى أسيد خالد بن جعفر قد أقبل فى أصحابه فأخبر زهيراً بمكانهم فقال له المثل ، وكان أسيد أشعر ، قال النابغة :

أثرت الغى ثم نزعت عنه ... كما حاد الازب عن الطعان

(٢) الكلكل والكلكال : الصدر أو ما بين الترقوتين أو باطن الزور (٣) يقال دثر السيف صدىء فهو داثر (٤) هو أحد بنى تيم الله بن ثعلبة وهو شاعر جاهلى ذكره ابو حاتم فى المعمرين وقال عاش تسع عشرة ومائة سنة ١١٩

وكان هذا الرجل ممن يضرب بشجاعته المثل بين العرب ومن حديثه انه غزا مرة يزيد بن سعد بن زيد مناة فلم يصب شيئاً فرجع من غزاته فمر بماء لبني تيم وعليه ناس من بني مجاشع فقتل فيهم وأسر فقال في ذلك :

ان أمس ما شيخاً كبيراً فطالما ... عمرت ولكن لا أرى العمرَ ينفعُ (١)
مضت مائةٌ من مولدي فَنَضَيْتُها ... وخمسٌ تِباع بعد ذاك وأربعُ (٢)
وخيلٍ كأسراب القطا قد وزعتها ... لها سبَل فيه المنية تلمع (٣)
شهدتُ وغنم قد حويتُ ولذة ... أتيت وماذا العيش الا التمتعُ
وعائرةٍ يوم الهُيَيْمِي رأيتُها ... وقد ضمها من داخل الخلب مجزع (٤)
لها غَلَلٌ فالصدر ليس ببارح ... شجى نشب والعين بالماء تدمع (٥)
تقول وقد افردتُها من حليلها ... تعستَ كما أتعستَني يامُجَمِّع
فقلت لها بل تعسَ أخت مجاشع ... وقومك حتى خدكِ اليوم أضرع (٦)
عَبَأتُ له رمحاً طويلاً وألَّةً ... كأنْ قَبَس يعلى بها حين تشرع (٧)
وكائنْ تركت من كريمةِ مَعْشرٍ ... عليها الخموش ذات حزن تَفَجَّع (٨)

ومنهم عتيبة بن حارث ومنهم ربيعة بن مُكَدَّم وعنترة العَبْسي الشاعر الشهير وملاعب الأسنة وزيد الخيل وعامر بن الطفيل وعمرو بن معدى كرب وزيد

(١) ما زائدة ، وقوله لا أرى العمر أي اتصال العمر وطوله فحذف المضاف اليه

(٢) فنضوتها من قولهم نضا ثيابه اذا نزعها واستعاره لبقائه هذه المدة ومضيها عليه أي تجردت منها تجردي عن ثوبي ، وخمس تباع بكسر التاء أي تابعة للمائة فهو مصدر وصف به

(٣) الاسراب الجماعات مفرده سرب، والقطا : نوع من الطير لا يحب الانفراد ، قد وزعتها أي كففتها لتجتمع ، والسبل : المطر والمراد به هنا تتابع الخيل في الغارة كتتابع المطر وجواب رب أول البيت بعده وهو شهدت (٤) الهييمى ، موضع كانت فيه هذه الواقعة ، والمجزع ، الرعب

(٥) غلل أصل الغلل الماء الجاري بين الاشجار وجعله كناية عن الشجي وهو ما ينشب في الحلق من عظم وغيره ، والبارح : الزائل وشجى بدل من غلل ، ونشب من نشب بالشيء اذا علق به

(٦) انتصب تعس على المصدر ، وخدك أضرع من الضراعة وهي الذل والانقياد

(٧) عبأت له أي هيأت له ، والالة : الحربة العريضة النصل ، والقبس : النار

(٨) وكائن تركت أي وكاي تركت ، والخمش في البدن والوجه مثل الخدش ، وتفجع أي تتفجع

الفوارس وأمية بن حرثان وعمرو بن كلثوم وغيرهم ممن لا يحيط بهم الحصر . وسيأتى ان شاء الله تعالى ذكر شئ من أخبار هؤلاء فى أواخر هذا الجزء .

وأما كون العرب أوفى من غيرهم من الأمم

فاعلم أن الوفاء أخو الصدق والعدل ، والغَدْرَ أخو الكَذِبِ والجور ، وذلك أن الوفاء صدق باللسان والفعلِ معاً ، والغدرَ كذب بهما وفيه مع الكذب نقض العهد ، وقد جعل الله تعالى العهدَ من الايمان وصيره قَواماً لأمور الناس ، فالناس مضطرون الى التعاون ، ولا سيما العرب ، ولا يتم تعاونهم وتظاهرهم إِلاَّ بمراعاة العهد والوفاء ولولا ذلك لتنافرت القلوب وارتفعت المعائش ولذلك عظم الله تعالى أمره فقال تعالى: (وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم وإياي فارهبون) . وقال تعالى :(وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم) وقال (والموفونَ بعهدهم اذا عاهدوا) . وقال (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) وعظم حال السَمَوْأَل الشاعر الشهير فيما التزم به من الوفاء بدروع امرئ القيس على ماسنذكره ان شاء الله تعالى قريباً . ومن المعلوم حال العرب فى الصدق واعتناؤهم بشأنه ونفرتهم من الكذبِ وتقبيحه حتى قال الرضى عند الكلام على قولهم هو رجل صدق : المراد بالصدق فى مثل هذا المقام مطلق الجودة لا الصدق فى الحديث . وذلك لأن الصدق فى الحديث مستحسن جيد عندهم حتى صاروا يستعملونه فى مطلق الجودة فيقال ثوب صدق وخل صادق الحموضة كما أن الكذب مستهجن عندهم بحيث اذا قصدوا الاغراء بشئٍ قالوا كذب عليك . قال عمرو بن معدى كرب لمن شكى اليه المغصَ : كذب عليك العسل أى العسلان بمعنى عليك به والزمه ويجوز أن يريد به العسل المعروف . وقال الشاعر :

وذُبيـانيـةٍ أَوْصَتْ بنيها بأَنْ كذَبَ القراطِفُ والقُروفُ(١)

(١) البيت من قصيدة المعقر البارق مدح بها بنى نمير وذكر مافعلوا ببنى ذبيان بشعب جبلة وهو يوم كانت وقعت بين بنى ذبيان و بنى عامر فظهرت بنوعامر على بنى ذبيان . فى ذلك اليوم ، ونمير أبو قبيلة من قيس وهو نمير بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هو ازن وكان معقر حليفاً لهم وذكر مافعلوا ببنى ذبيان ، والقراطف جمع قرطف كجعفر وهو القطيفة أى

أى عليكم بهما ، والأمر كما ذكر الرضى نهم احفظ للعهد ، وأوفى بالوعد ، لأنهم مانقضوا لمحافظ عهداً ، ولا اخلفوا لمراقب وعدا ، يرون الغدر من كبائر الذنوب ، والأخلاف من مساوى الشيم وأقبح العيوب . أنظر الى قصة حاجب ابن زراره إذ رهن قوسه عند كسرى ، فانها تدلك على ما كانوا عليه من الصدق والوفاء ومراعاة العهود ، وذلك كما قال الامام المرزوقى ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان دعا على مُضَر وقال : اللهم اشدد وطأتك على مُضَر ، وابعث عليهم سنيناً كسنى يوسفَ فتوالت الجدوبة عليهم سبع سنين ، فلما رأى حاجب الجهد على قومه جمع بنى فزارة ، وقال : إنى أزمعت [1] على انى آتى الملكَ يعنى كسرى فاطلب أن يأذنَ لقومنا ، فيكونوا تحت هذا البحر حتى يحيوا فقالوا : رشدت فافعل غيرَ أنا نخاف عليك بكر بن وائل فقال مامنهم وجه الأولى عنده يد إلا ابن الطويلة التيمى وسأداويه ، ثم ارتحل فلم يزل ينتقل فى الأحياء والبر من الناس حتى انتهى الى الماء الذى عليه ابن الطويلة فنزل ليلا فلما أضاء الفجر ، دعا بنطع [2] ثم أمر فصب عليه التمر ثم نادى حى على الغداء ، فنظر ابن الطويلة فاذا هو بحاجب ، فقال لأهل المجلس : أجيبوه وأهدى اليه جزُراً ، ثم ارتحل . فلما بلغ كسرى شكا اليه الجهدَ فى أموالهم وأنفسهم وطلب أن يأذنَ لهم فيكونوا فى حد بلاده . فقال أنتم معشرَ العرب غُدُر فاذا اذِنتُ لهم عاثوا فى الرعية وأغاروا . قال حاجب : إنى ضامن للملك أن لا يفعلوا . قال فمن لى بأن تفى أنت ؟ قال أرهنك قوسى ، فلما جاء بها ضحك من حوله فقال الملك ما كان ليسلمها اقبضوها منه . ثم جاءت مُضَرُ الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد موت حاجب ، فدعا لهم

كساء محل ، والقروف جمع قرف بفتح فسكون وهو وعاء من جلد يدبغ بالقرفة بالكسر وهى قشور الرمان ويجعل فيه الخلم ويطبخ بتوابل فيفرغ فيه والخلم بفتح الخاء المعجمة وسكون اللام لحم يطبخ بالتوابل ثم يجعل فى القرف ويتزود به فى الاسفار والواو واو رب يقول رب امرأة ذبيانية أمرت بنيها أن يستكثروا من نهب هذين الشيئين ان ظفروا بعدوهم وغنموا وذلك لحاجتهم وقلة حالهم (١) يقال ازمعت الامر وعليه اجمعت أو ثبت عليه كزممت (٢) النطع بالكسر وبالفتح وبالتحريك وكعنب بساط من اديم والجمع أنطاع ونطوع

فخرج أصحابه الى بلادهم وارتحل عطارد بن حاجب الى كسرى يطلب قوس أبيه فقال ما أنت بالذى وضعها . قال : أَجَلْ أنه هلك ، وأنا ابنُهُ وفىّ للملك . قال ردوا عليه وكساه حُلّةً . فلما وفد الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أهداها اليه فلم يقبلها فباعها من يهودى بأربعة آلاف درهم . فصار ذلك فخراً ومَنْقبة لحاجب وعشيرته . وفى ذلك يقول أبو تمام من جملة أبيات :

اذا افتخرتْ يوما تميمٌ بقوسِها   فخاراً على ما وطدت من مناقب (١)
فانتم بذى قارٍ أمالتْ سيوفكم   عروشَ الذين استرهنوا قوسَ حاجبِ (٢)

وقد لمح بعضهم (٣) الى قوس حاجب بقوله فى مليح قلندرىّ قد حلق حاجبه فقال :

حبيبى بحقّ اللهِ قل لى ما الذى   دعاكَ الى هذا فقالَ مجاوبى :
وعدت بوصلِ العاشقينَ تعطُّفاً   فلم يثقوا واسترهنوا قوسَ حاجبى

والحكايات فى صدقهم ووفائهم واعتنائهم بأمر العهد وزجرهم عن الغدر قد شحن منها كتب التواريخ والأدب وما أحسن قولَ من يقول منهم :

واذا الأَمانةُ قسمت فى معشر   أوفى بأوفر حظنا قسامُها
فهم السُعاة اذا العشيرة أفظعتْ   وهُمُ فوارسها وهُمْ حكّامُها
وهُمُ ربيعٌ للمجاورِ فيهمِ   والمرْملاتِ اذا تطاولَ عامُها (٤)

---

(١) وطدت أى ثبتت (٢) يوم ذى قار يوم لبنى شيبان أول يوم انتصرت فيه العرب من العجم ، يقول اذا افتخرت تميم بذلك فأنتم قتلتم الذين كسبوهم هذا المجد مما ارتهنوه وهدمتم عزهم ، قال أبو نؤاس يهجو تميماً : وانها لا مجد لها ولا عز الا قوس حاجب الذى لا يساوى شسع نعل

أول مجد لها وآخره   ان ذكر الفخر قوس حاجبها

(٣) العلامة الصفدى وقبل البيتين :

بدا لى فى حلق الحواجب فتنة   فقلت بعقل ذاهل فيه ذاهب

(٤) المرمل الذى انقطع زاده

من اشتهر من العرب بالوفاء وضرب به المثل في ذلك ، منهم :

عوف بن محلم

كان من وفائه أن مروانَ القَرَظِ [١] بن زِنْباعٍ غزا بكر بن وائل فقصوا أثر جيشه فأسره رجل منهم وهو لا يعرِفه فأتى به أُمَّه فلما دخل عليها قالت له أمه : إنك لتختال بأسيرك كأنك جئت بمَرْوان القَرَظ . فقال لها مروان : وما ترتجين من مروان ؟ قالت : عظم فدائه . قال : وكم ترتجين من فدائه . قالت : مائةَ بعير . قال مروان : ذلك لكِ على أن تؤدّيني الى خُماعة بنت عَوْف بن مُحلّم . والسبب في ذلك أن لَيْثَ بن مالك المُسمّى بالمنزوف ضَرِطاً [٢] لما مات أخذت بنو عبس سَلَبَه وفرسه ، ثم مالوا الى خِبائه فأخذوا أهله وسلبوا امرأته خُماعةَ بنت عوفِ بن محلّم ، وكان الذى أصابها عمرو بن قاربٍ وذُؤاب بن أسماء فسألها مروان القَرَظ من أنت ؟ قالت : أنا خُماعة بنت عوف بن محلم . فانتزعها من عمرو وذُؤاب لانه كان رئيس القوم ، وقال لها : غطّي وجهكِ والله لا ينظر اليه عربى

(١) يضرب به المثل في العز فيقال أعز من مروان القرظ ، قال الميدانى : كان يحمى القرظ وقيل بل سمى بذلك لانه كان يغزو اليمن وبها منابت القرظ ، وصف مروان هذا للمنذر بن ماء السماء فاستوفده عليه فقال له أنت مع ما حييت به من العز في قومك كيف علمك بهم ؟ فقال أبيت اللعن إنى ان لم أعلمهم لم أعلم غيرهم ، قال : ما تقول في عبس ؟ قال : رمح حديد ان لم تطعن به يطعنك ، قال : ما تقول في فزارة ؟ قال : واد يحمى ويمنع ، قال : فما تقول في مرة ؟ قال: لا حرّ بوادى عوف ، قال : فما تقول في أشجع ؟ قال : ليسوا بداعيك ولا بمجيبك ، قال : فما تقول في عبد الله بن غطفان ؟ قال : صقور لا تصيد ، قال : فما تقول في ثعلبة بن سعد ؟ قال : أصوات ولا أنيس (٢) قال المجد في مادة ضرط وفي المثل اجبن من المنزوف ضرطا وذلك أن نسوة لم يكن لهن رجل فزوجن احداهن رجلا كان ينام الصبحة فاذا اتينه بصبوح قلن قم فاصطبح فيقول لو نبهتنني لعادية فلما رأين ذلك قال بعضهن ان صاحبنا لشجاع فتعالين حتى نجربه فأتينه كما كن يأتينه فقال لو لعادية نبهتنني فقلن هذه نواصي الخيل فجعل يقول : الخيل الخيل ويضرط حتى مات ، أو رجلان منهم خرجا في فلاة فلاحت لهما شجرة فقال أحدهما أرى ان قوماً قد رصدونا فقال رفيقه انما هي عشرة بضم العين فظنه يقول عشرة فجعل يقول وما غناء اثنين عن عشرة وضرط حتى نزف روحه فسمى المنزوف ضرطا ، أو هو دابة بين الكلب والسنور اذا صيح بها وقع عليها الضراط من الجبن ، وفي المثل أودى العير الا ضرطا ، يضرب للذليل وللشيخ ولفساد الشيء حتى لا يبقى منه الا ما لا ينتفع به أى لم يبق من قوته الا الضراط

حتى أَرُدَّكِ الى أبيك . ووقع بينه وبين بنى عبس شر بسببها . ويقال ان مروان قال لعمرو وذُؤاب حكمانى فى خُماعة . قالا قد حكّمناك ياأبا صهبان . قال : فانى اشتريتها منكما بمائة من الابل وضمّها الى أهله حتى اذا دخل الشهر الحرام أحسنَ كسوتها وأخدمها وأكرمها وحملها الى عُكاظَ . فلما انتهى بها الى منازل بنى شيبان ، قال لها : هل تعرفين منازل قومك ومنزل أبيك ؟ فقالت هذه منازل قومى وهذه قبةُ أبى . قال فانطلقى الى أبيكِ فانطلقت فخبرت بصنيع مروان ، فقال مروان فيما كان بينه وبين قومه فى أمر خُماعةَ وردها الى أبيها :

رَدَدْتُ على عَوْفٍ خماعةَ بعدما خلاها ذُؤابٌ غير خلوة خاطبِ
ولو غيرها كانت سبيئةَ رُمحِهِ لجاءَ بها مقْرونةً بالذوائبِ
ولكنَّه ألقى عليها حجابَهُ رجاء الثواب أو حذار العواقب
فدافعتُ عنها ناشباً وقبيلةً وفارسَ يَعْبوبٍ وعمرو بنَ قاربِ
ففاديتها لما تبين نصفُها بكُوم المتالى والعشار الضوارب
صهابيةٍ حمرِ العوانين والذُرَى مهارش أمثال الصخور مصاعب

فى أبيات مع هذه . قوله تبين نصفها : أى انصافها والكوم القطعة من الابل . والمتالى : الذى براسل المغنى بصوت رفيع . والاصهب من الابل الذى يخالط بياضه حمرة . وهو أن يحمر أعلى الوبر ويبيض أجوافه . وجمل صهابى أى أصهب اللون . والعوان النَصَف فى سنها من كل شيء . وذُرى الشيء بالضم أعاليه الواحدة ذروة . فكانت هذه يداً لمروانَ عند خُماعةَ فلهذا قال ذاك لكِ على أن تؤدّينى الى خُماعةَ بنت عوف بن مُحَلِّم . قالت المرأة : ومن لى بمائة من الابل فاخذ عوداً من الارض فقال هذا لكِ بها . فمضت به الى عوف بن محلم فبعث اليه عمرو بن هند أن يأتيه به . وكان عمرو وجد على مروانَ فى أمر فآلى أن لايعفوَ عنه حتى يَضَع يده فى يده . فقال عوف حين جاءه الرسول قد اجارته ابنتى وليس اليه سبيل . فقال عمرو بن هند قد آليت أن لاأعفوَ عنه أو يضع يده فى يدى قال عوف يضع

يده فى يدك على أن تكون يدى بينهما . فأجابه عمرو بن هند الى ذلك . فجاء عوف مروان فادخله عليه فوضع يده فى يده ووضع يده بين أيديهما فعفا عنه . فقال عمرو « لاحُرَّ بوادى عَوْفٍ » فارسلها مثلا أى لاسيدَ به يناويه . وانما سمى مَرْوانَ القَرَظلانه كان يغزو اليمن وهى منابت القَرَظ . ومنهم :

حنظلة بن عفراء

قال القالى فى ذيل اماليه : حدثنا أبو بكر بن دريد قال اخبرنا عبد الرحمن عن عمه قال قال لى عمى سمعت يونس بن حبيب يقول كان المنذر بن ماء السماء جد النعمان بن المنذر ينادمه رجلان من العرب خالد بن المضَلَّل . وعمرو بن مسعود الاسديان وهما اللذان عناهما الشاعر بقوله :

ألا بكر الناعى بخيرَىْ بنى أسد   بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

فشرِب ليلة معهما فراجعاه الكلام فاغضباه فامر بهما فقتلا وجُعلا فى تابوتين ودفنا بظاهر الكوفة . فلما أصبح وصحا سأل عنهما فأخبر بذلك فندم وركب حتى وقف عليهما وأمر ببناء الغرِيَّين (١) وجعل لنفسه فى كل سنة يومين يوم بؤس ويوم نعيم فى كل عام فكان يَضَع سريره بينهما . فاذا كان فى يوم نعيمه فاول من يطلع عليه وهو على سريره يعطيه مائة من ابل الملوك ، وأول من يطلع عليه فى يوم بؤسه يعطيه رأس ظَرِبان (٢) ويأمر به فيذبح

(١) الغريان : بناآن مشهوران بالكوفة عند الثوية حيث قبر على (رض) زعموا انهما بناهما بعض ملوك الحيرة قاله نصر ، وفيهما يقول الشاعر :

لو كان شيء له ان لايبيد على   طول الزمان لما باد الغريان

وقال الجوهرى : هما بناآن طويلان يقال هما قبرا مالك وعقيل نديمى جذيمة الابرش وسميا غريين لان النعمان بن المنذر كان يغريهما بدم من يقتله اذا خرج فى يوم بؤسه ، قال الزبيدى : بعد نقل ماتقدم . فسياق الجوهرى يقتضى أنهما سميا بالتغرية وهو الالصاق وسياق المصنف أنه من الحسن (٢) دويبة فوق جرو الكلب كريهة النتن وانتن خلق الله فسوا يضرب بفسوه المثل فى النتن وقد عرف ذلك من نفسه فجعله سلاحه كما عرفت الحبارى مافى برازها من السلاح على الصقر كذلك الظربان يدخل على الضب جحره وفيه بيضه وحسوله فيأتى أضيق موضع فى الجحر فيسده بيده ويحول دبره اليه فما يفسو ثلاث فسوات حتى يصرع الضب فيخر مغشيا عليه فيأكله ثم يقيم فى جحره حتى يأتى على آخر حسوله ، وتقول الاعراب ربما أنه دخل فى خلال الهجمة فيفسو فلا يتم له ثلاث فسوات حتى تتفرق الابل وتنفر كما تنفر عن مبرك فيه

ويُغَرّى[1] بدمه الغَرِيّان فلم يزل كذلك ماشاء الله فبينا هو ذات يوم من أيام بؤسه إذ طلع عليه عَبيد بن الابرص فقال له الملك الا كان الذِبْحُ غيرك ياعبيد ؟ فقال عبيد « أتتك بحائن رجلاه » فقال له الملك : « أو أجَل قد بَلَغ إناه » ثم قال ياعبيد انشدنى فقد كان يُعجبنى شعرك ، فقال « حال الجَرِيضُ دون القريض[2] » و « بلغ الحِزام الطبيَيْن » فقال انشدنى :

أقفر من أهله ملْحوبُ   فالقُطَّبياتُ فالذنوبُ[3]

فقال :

أقفرَ من أهله عبيدُ   فاليوم لا يُبْدِى ولا يُعيدُ

عنَّتْ له معنةٌ نكودُ   وحان له منها وُرود

فقال : انشد هبلتك أمُّك[4] . فقال : « المنايا ، على الحوايا » فقال بعض القوم انشد الملك هبلتك أمك فقال « لا يرْحَلُ رَحلُك ، من ليس معك » فقال له آخر ما أشدَّ جزعك من الموت فقال .

قردان فلا يردها الرامى الا بالجهد الشديد فمن أجل هذا سمت العرب الظربان مفرق النعم ويقال للرجلين يتشاتمان ويتفاحشان انهما ليتجاذبان جلد الظربان وانهما ليتماسان ظربا وقالوا للقوم اذا وقع بينهم الشر فتفارقوا فسا بينهم الظربان فلا يلتقى منهم انسان ، وقال الربيع بن ابى العقيق يهجو قوماً :

وانتم ظرابين اذا تجلو   ن وما أن لنا فيكم من تريد

وانتم تيوس وقد تعرفو   ن بريح التيوس ونتن الجلود

ونظر ابو عبد الله المواس الى قوم جيدى الاكل خبيثى الريح فقال .

أناس أ كلهم يربو   على أ كل الثعابين

ونتن رياحهم يربو   على نتن الظرابين

هذا ما ذكره الثعالبى فى المضاف والمنسوب (١) أى يطلى (٢) يضرب لامر يعوق دونه عائق قاله حوش الكلابى حين منعه أبوه من الشعر فمرض حزناً فرق له وقد أشرف فقال انطلق بما أحببت والجرض بحركة الريق جرض بريقه كفرح ابتلعه بالجهد على هم ، وقوله بلغ الحزام الطبيين مضى تفسيره (٣) هذا البيت مطلع قصيدته المشهورة التى عدها بعضهم من المعلقات ، ومعنى اقفر : خلا ، وملحوب بالفتح ثم السكون وحاء مهملة وواو ساكنة ماء لبنى اسد بن خزيمة وقيل قرية باليمامة لبنى عبد الله بن الدئل بن حنفية ، والقطبيات بالضم ثم التشديد وبعد الطاء باء موحدة وياء مشددة اسم جبل ، والذنوب : اسم موضع بعينه (٤) هبلته أمه كفرح ثكلته ، والثكل بالضم الموت والهلاك وفقدان الحبيب أو الولد ويحرك

لاغَرْوَ من عيشةٍ نافده وهل غيرُ ما مِيتةٍ واحده (١)
فابلغْ بنىَّ وأعمامهم بأنَّ المنايا هى الراصده
لها مدَّةٌ فنفوس العباد اليها وإنْ كرِهتْ قاصده
فلا تجزعوا لِحمامٍ دنا فللموت ما تلد الوالده (٢)

فقال له المنذر لابد من الموت ولو عرَض لى أبى فى هذا اليوم لم أجد بداً من ذبحه فاما اذا كنتَ لها وكانت لك فاختر من ثلاث خصال ان شئت من الأكل (٣) وان شئت من الأبْجَل (٤) وان شئت من الوَرِيد (٥) فقال « ثلاثُ خصال مقادُها شرُّ مقادٍ ، وحاديها شرُّ حادٍ ولا خير فيها لمرتاد فان كنتَ لابد قاتلى فاسقِنى الخمر حتى اذا ذهلتْ لها ذَوَاهِلى وماتتْ لها مفاصلى فشأنك وما تريد » فأمر المنذر له بحاجته من الخمر فلما أُخذت منه وقرِّب ليذبَح أنشأ يقول:

وخيَّرنى ذو البؤس فى يوم بؤسه خِلالاً أرى فى كلها الموتَ قد بَرَقْ
كما خيِّرتْ عادٌ من الدهر مرَّةً سحائب ما فيها لذى خِيرَةٍ أَنَقْ
سحائب ريحٍ لم تُوَكَّلْ ببلدة فتتْرُكَها الا كما ليلةِ الطَلَق

وأمر به ففُصِدَ فلما ماتَ طُلِىَ بدمه الغَرِيَّان ، وكذا روى هذه الحكاية اسمعيل بن هبة الله الموصلى فى كتاب الاوائل عن الشرقى بن القطامى وقد رجع المنذر عن هذه السنة السيئة ، روى الموصلى فى أوائله : ان المنذر استمر على ذلك زماناً حتى مر به رجل من طيِّئٍ يقال له حنظلة بن عفْرآء فقال له أبيت اللعنَ أتيتك زائراً . ولأهلى من خيرك مائراً . فلا تكن ميرتهم قتْلى ، فقال: لابد من ذلك . وسلنى حاجة قبله أقضها لك . قال : تؤجلنى سنةً ارجع فيها الى أهلى واحكم أمرهم ، ثم ارجع اليك فى حكمك . قال : ومن يتكفل بك

(١) لاغرو أى لاعجب ويقال لاغروى وما زائدة (٢) الحمام : قضاء الموت وقدره (٣) عرق فى اليد او هو عرق الحياة ولا تقل عرق الاكحل (٤) هو عرق غليظ فى الرجل اوفي اليد بازاء الاكحل (٥) عرق تزعم العرب انه من الوتين وهما وريدان مكتنفا صفحتى العنق مما يلى مقدمه غليظان

حتى تعود ؟ فنظر فى وجوه جلسائه فعرف منهم شريكَ بنَ عمرٍو وأبا الحوفزان . فأنشأ يقول :

ياشريكاً يا ابنَ عمرٍو	هل من الموتِ محاله
ياأخا كلِّ مصاب	ياأخا من لا أخاله
يا أخا شيبانَ فَكَّ الـ	ـيومَ رهناً قد أناله
إن شيبان قَبيلٌ	أكرمَ اللهُ رِجاله
وأبوك الخير عمرو	وشراحيل الحماله
وفتاك اليوم فى المجـ	ـدِ وفى حُسْن المقاله

فوثب شريك وقال : أَبَيْتَ اللعن يده بيدى ودمه بدمى إنْ لم يَعُدْ الى أجله فأطلقه المنذر . فلما كان القابل جلس فى مجلسه ، واذا ركب قد طلع عليهم فتأملوه فاذا هو حنظلة قد أقبل متكفِّناً متحنِّطاً (١) معه نادبتهُ وقد قامت نادبة شريك تندبه . فلما رآه المنذر عجب من وفائهما وكرمهما فأطلقهما وأبطل تلك السنَّة . وقد ذكر فى أبطال المنذر هذه السنة غير هذا . وقد أورده الموصلى ، والميدانى فى مثل . وهو : « إن غداً لناظره قَرِيبُ » وهو قطعة من بيت :

فَإِنْ يكُ صدر هذا اليوم وَلَّى   فانَّ غدًا لناظرِهِ قريب

قال : إن أولَ من قال ذلك قُراد بن أَجْدَع ، وذلك أن النعمان بن المنذر خرج يتصيَّدُ على فرسه اليَحْمُوم فأجراه على اثر عيرٍ فذهب به الفرس فى الأرض ولم يقدر عليه وانفرد عن أصحابه وأخذته السماء فطلب ملجا يلجأ إليه فدفع إلى بناء فاذا فيه رجلٌ من طيّئٍ يقال له حنظلة ومعه امرأة له ، فقال لهما : هل من مأوى؟ قال حنظلة : نعم نخرج إليه فأنزله ، ولم يكن للطائى غير شاةٍ وهو لا يعرف النعمان ، فقال لامرأته : أرى رجلا ذا هيئة وما أخلقه أن يكون شريفاً خطيراً فما الحيلة ؟

(١) أى متطيباً والحنوط كصبور وكتاب كل طيب يخلط للميت وقد حنطه يحنطه واحنطه فتحنط

قالت : عندى شىء من طَحينٍ كنت ادَّخرتُهُ فاذبح الشاة لِأتَّخذَ من الطحين مَلَّةً (١) . قال فأخرجتِ المرأة الدقيقَ فخبزتْ منـه مَلَّةً وقام الطائى الى شاتِهِ فاحتلبها ثم ذَبَحها فاتخذ من لحمها مرقة مضيرة (٢) وأطعمه من لحمها وسقاه من لبنها واحتال له شراباً فسقاه وجعل يحدثه بقيةَ ليلته . فلما أصبح النعمان لَبِس ثيابه وركب فرسه ، ثم قال يا أخا طيءٍ اطلب ثوابكَ أنا الملك النعمان . قال افعل ان شاء الله ثم لحقته الخيلُ فمضى نحو الحيرة . ومكث الطائى بعد ذلك زماناً حتى أصابته نكبةٌ وجهدٌ وساءت حاله ، فقالت له امرأته : لو أتيتَ الملكَ لأحسن اليك . فأقبل حتى انتهى الى الحيرة ، فوافقَ يوم بؤسِ النعمان فاذا هو واقف فى خيله فى السلاح ، فلما نظر اليه النعمان عرَفه وساءه مكانه . فقال الطائى المنزول به ؟ قال : نعم . قال أفلا جئت فى غير هذا اليوم ؟ قال : أبيتَ اللعن وما كان علمى بهذا اليوم . قال : والله لو سَنَحَ لى فى هذا اليوم قابوسُ ابنى لم أجد بُدًّا من قتله . فاطلب حاجتك من الدنيا وسل ما بدا لك فانك مقتول . قال : أبيتَ اللعن وما أصنعُ بالدنيا بعد نفسى . قال النعمان : إنه لا سبيلَ اليها . قال : فان كان لا بُدَّ فأجِّلْنى حتى ألمَّ بأهلى فأوصى اليهم وأهيئ حالَهم ثم أنْصَرِف اليك . قال النعمان : فأقِمْ لى كفيلا بموافاتك . فالتفت الطائى الى شريك بن عمرو بن قيس من بنى شيبان ، وكان يكنى أبا الحوفزان ، وكان صاحب الردافة (٣) وهو واقفٌ بجنب النعمان . فقال له :

يا شريكاً يا ابن عمرو   هل من الموت محاله
يا أخا كلِّ مُصابٍ   يا أخا من لا أخا له
يا أخا النعمان فُكَّ الـ   ـيوم ضيفاً قد أتى له

---

(١) الملة بالفتح قيل الحفرة التى تحفر للخبز وقيل التراب الحار والرماد وملت الخبز واللحم فى النار من باب قتل فهو مليل ومملول واطعمته خبز ملة بالاضافة وخبزة مليلا على الوصف مع الهاء (٢) مريقة تطبخ باللبن المضير أى الحامض وربما خلط بالحليب

(٣) الردافة بهاء فعل ردف الملك

طالما عالج كرب الـــموت لا ينعم باله

فأبى شريك أن يتكفل به فوثب اليه رجل من كلب يقال له قُراد بن أجدع . فقال للنعمان : أبيتَ اللعن هو عليّ . قال النعمان : أفعلت قال نعم فضمنه إياه . ثم أمر للطائى بخمسمائة ناقة فمشى الطائى الى أهله وجعل الأجَل حولاً من يومه ذلك الى مثل ذلك اليوم من قابل . فلما حال عليه الحول وبقى من الأجل يوم . قال النعمان لقُراد ما أراك الا هالكا غداً . فقال قراد :

فانْ يكُ صدرُ هذا اليوم وَلّى فإنَّ غداً لناظِرِهِ قريبُ

فلما أصبح النعمان ركب فى خيله ورجله متسلّحاً كما كان يفعل حتى أتى الغَرِيَّيْن فوقف بينهما وأخرج معه قُراداً وأمر بقتله . فقال له وزراؤه : ليس لك قتله حتى يستوفى يومه فتركه . وكان النعمان يشتهى أن يقتل قُراداً ليفلت الطائى من القتل . فلما كادت الشمس تجِبُ (١) وقُراد مجرد قائم فى أزار على النطْعِ والسيّافُ الى جنبه أقبلت امرأته وهى تقول :

أيا عينُ بكّى لى قُرادَ بنَ أجدعا رهيناً لقتلٍ لا رهيناً مُوَدَّعا
أتته المنايا بغتة دون قومِهِ فأمسى أسيراً حاضرَ البيت أضرَعا

فبيناهم كذلك اذ رفع لهم شخص من بعيد ، وقد أمر النعمان بقتل قُراد . فقيل له ليس لك أن تقتله حتى يأتيك الشخصُ فتعلَمَ من هو ، فكف حتى انتهى اليهم الرجلُ فاذا هو الطائى ، فلما نظر اليه النعمان شقّ عليه مجيئه . فقال له : ما حملك على الرجوع بعد إفلاتك من القتل ؟ قال : الوفاء . قال : وما دعاك الى الوفاء ؟ قال : دِينى . قال النعمان : وما دِينُك ؟ قال : النصرانية . قال النعمان : فاعرضها علىّ فعرضها عليه فتنصّر النعمانُ ، وأهلُ الحيرة أجمعون . وكان قبل ذلك على دينِ العرب ، فترك القتل منذ ذلك اليوم وأبطل تلك السُّنَّة ، وأمر بهدم الغَرِيَّيْن وعفا عن قُراد والطائى ، وقال : واللهِ ما أدرى أيهما أوفى وأ كرم .

(١) أى تغيب

أهذا الذى نجا من القتل فعاد . أم هذا الذى ضمنه والله لا أكون ألأمَ الثلاثة ، فأنشأ الطائى يقول :

ما كنتُ أُخلِفُ ظنَّهُ بعد الذى   أسدَى الىَّ من الفَعال الخالى
ولقد دَعَتْنِى للخلاف ضلالتى   فأبَيْتُ غيرَ تمجُّدِى وفعالى
إنى امرؤٌ منى الوفاء سجيةٌ   وجزاء كل مكارم بذالى

وقال أيضاً يمدح قُراداً :

ألا إنما يسمو الى المجد والعُلى   مخاريقُ أمثالِ القُراد بنِ أجْدَعا
مخاريقُ أمثال القراد وأهله   فانهمُ الأخيارُ من رَهْطِ تبعًا (١)

انتهى والله أعلم بحقيقة الحال . ومنهم :

الحارث بن ظالم المرى

كان من وفائه أنَّ عياضَ بنَ دَيْهَثٍ مرَّ برعاء الحارث وهم يسقون فسق فقصر رِشاؤه فاستعار من أرشية الحارث فوصل رِشاءه (٢) فأروى إبِلَهُ . فأغار عليه بعضُ حَشَمِ النعمان فأطردوا ابله فصاح ياحارِ ياجاراه ! فقال له الحارث : ومتى كنتُ جارَكَ ؟ قال : وصلت رشائى برشائك فسقيت ابلى ، فأغير عليها وذلك الماء فى بطونها ، قال: جوارٌ وربِّ الكعبة . فأتى النعمانَ . فقال : أبيتَ اللعنَ أغار حَشَمُكَ على جارى عياض بن دَيْهَث فأخذوا إبلَه ومالَهُ فاردد عليه . فقال له النعمان : أفلا تشد ما وهى من أديمك . يريد ان الحارث قتل خالد بن جعفر بن كلاب فى جوار اسود بن المنذر . فقال الحارث « هل تعدون الحلية الى نفسى »

(١) المخراق السيد والسخى ، والرهط قوم الرجل وقبيلته (٢) قال شارح رسالة ابن زيدون كان ربح العرب في رعاية الجوار ماهو أعجب العجب وذلك ان الانسان اذا لمس طنب بيته طنب بيت آخر لزمه حرمة الجوار والذمة واذا علق له دلو بدلو آخر فى بئر لزمه حرمة الجوار والذمة والى هاتين الفضيلتين اشار ابو تمام يخاطب ابن الزيات :

لي حرمة بك لولا مارعيت وما   اوجبت من حقهاماخلتها تجب
بلى لقد سلفت فى جاهليتهم   للحق ليس كحق نصره عجب
ان تعلق الدلو بالدلو الغريبة أو   يلامس الطنب المستحصد الطنب

فأرسلها مثلا . أى انك لا تهلك الا نفسى ان قتلتها . فتدبر النعمان كلمته فرد على عياض أهله وماله . وقال الفرزدق يضرب المثل لسليمان بن عبد الملك حين وفى ليزيد بن المهلب :

لعمرى لقد أوفى وزادَ وفاؤه على كل حالٍ جارَ آلِ المهلّبِ
كما كان أوفى إذ يُنادى ابن ديهث وصِرْمته كالمغنم المتنهَّبِ (١)
فقام أبو ليلى اليه ابن ظالم وكان متى مايَسْللِ السيفَ يَضربِ

هذا ما ذكره الميدانى فى أمثاله . وروى الاصبهانى بسنده فى الاغانى : ان الحارث بن ظالم المُرّىّ لما كان نزيلاً عند النعمان بن المنذر أخذ مصدق للنعمان ابلا لامرأة من بنى مرة يقال لها ديهث فاتت الحارث فعلقت دلوها بدلوه ومعها بنى لها . فقالت يا أبا ليلى انى أتيتك مُضامةً . فقال: اذا أورد القوم النعم فنادِ باعلى صوتك :

دعوت بالله ولم تراعى ذلك داعيك فنعم الداعى
وتلكَ ذَوْد الحارث الكساعى يمشى لها بصارم قطّاع
يشفى به مجامع الصداع

وخرج الحارث بن ظالم فى أثرها وهو يقول :

أنا أبو ليلى وسيفى المعلوب كم قد أجرنا من حريب محروب (٢)
وكم رددنا من سليب مسلوب وطعنة طعنتها بالمضبوب
ذاك جهيز الموت عند المكروب

ثم قال : لا يُرَدَّنَّ عليك ناقة ولا بعير تعرفينه الا أخذته ففعلت ورأت لُقُوحاً لها يحلبها حَبَشِىٌّ . فقالت : يا أبا ليلى هذه لى، قال الحبشى كذبتِ، فقال الحارث

(١) الصرمة بالكسر القطعة من الابل مابين العشرين الى الثلاثين او الى الخمسين و الاربعين او مابين العشرة الى الاربعين أومابين عشرة الى بضع عشرة (٢) قال فى القاموس: المعلوب سيف الحرث بن ظالم

« است الحالب أعلم »(١) فصارت مثلا . قال أبو عبيدة ففى ذلك يقول الفرزدق :

لعمرى لقد أوفى وزادَ وفاؤه ... على كلِّ جارٍ جارُ آلِ المهلّبِ
كما كان أوفى إذ يُنادى ابن دَيهث ... وصِرْمتُهُ كالمغنَمِ المتنهّبِ
فقام أبو ليلى اليه ابن ظالم ... وكان اذا ما يسللِ السيفَ يَضربِ
وما كان جارٌ غير دلوٍ تعلقت ... بحَبْلَينِ فى مُستَحْصَدِ القدِّ مكربِ

انتهى . والظاهر من الشعر ان روايةَ الاصبهانى أحقُّ بالاعتبار . ومنهم :

أبو حنبل الطائى

ومن حديثه : أن امرَأ القيس نزلَ به ومعه أهله وسلاحه وماله . ولأبى حنبل امرأتان جَدَليَّة وثَعْلبيَّة (٢) فقالت الجدلية رزق آتاك الله به لاذمةَ له عليك ولا عقدَ ولا جوارَ ، فارى لك أن تأكله وتطعمه قومَك . وقالت الثعْلبيَّة : رجل تحرَّم بك واستجارك واختارك فارى لك أن تحفظَهُ وتَفِيَ له . فقام أبو حنبل الى جذعة من الغنم فاحتلبها وشرب لبنها ثم مسح بطنه وحجل ثم قال :

لقد آليتُ أغدرُ فى جِذاعٍ ... وإن مُنّيتُ اماتِ الرِباعِ
لأن الغـدرَ فى الاقوام عارٌ ... وإنَّ الحر يجزى بالكراع

فقالت الجدلية ورأت ساقيه خميشتين تالله ما رأيتُ كاليوم ساقَ واقٍ فقال

(١) وورواية مجمع الامثال : أست البائن أعلم قال : البائن الذى يكون عند حلب الناقة من جانبها الايسر ويقال للذى يكون من الجانب الآخر المعلى والمستعلى وهو الذى يعلى العلبة الى الضرع والبائن الذى يحلب وقيل بخلاف هذا وهما الحالبان فى قولهم « خير حالبيك تنطحين » يروى هذا المثل عن الحارث بن ظالم وذلك ان الجميح وهو منقذ بن الطماح خرج فى طلب ابل له حتى وقع عليها فى قبيلة مرة فاستجار بالحارث بن ظالم المرى فنادى الحارث من كان عنده شىء من هذه الابل فليردها فردت جميعاً غير ناقة يقال لها اللفاع فانطلق يطوف حتى وجدها عند رجلين يحلبانها فقال لهما خليا عنها فليست لكما واهوى اليهما بالسيف فضرط البائن فقال المعلى والله ماهى لك ، فقال الحارث : « است البائن اعلم » فارسلها مثلا ، يضرب لمن ولى امراً وصلى به فهو أعلم به ممن لم يمارسه ولم يصل به ، وقيل يضرب لكل ما ينكر وشاهده حاضر

(٢) فى فرائد اللآل للشيخ ابراهيم الاحدب : وتغلبية بالتاء

أبو حنبل : « هما ساقا غادرٍ شر » فذهبت مثلا . قوله منيت أى ضعفت . والرباع جمع ربع كصرد وهو الفصيل ينتج فى الربيع وهو أول النتاج . ومنهم :

الحارثُ بن عباد

يقال انه كان أَسَرَ عدِيَّ بن ربيعة فى يوم قِضَّةَ ولم يعرفه فقال له دُلَّنى على عدى بن ربيعة . فقال له ان أنا دللتك على عدى اتؤمننى قال نعم . قال فليضمن ذلك عليك عَوْفُ بن محلِّم . فامره الحارث بن عباد فضمن له عوف أن يؤمنه الحارث اذا دله على عدى . فقال عدى أنا عدى نخلاّه . وقال الحارث فى ذلك :

لهفَ نفسى على عديّ وقد أشعب للموت واحتوته اليدانِ[1]

ومنهم :

السموأل بن حيان بن عادياء اليهودى الغسانى

وكان من وفائه ان امرأ القيس لما أراد الخروج الى قيصر استودع السموألَ دروعاً وأُحَيْحة بن الجُلاح أيضاً دروعا ، فلما مات امرؤ القيس غزاه ملك من ملوك الشام فتحرز منه السموأل فأخذ الملك ابناً له وكان خارجاً من الحصن . فصاح الملك بالسموأل فأشرف عليه فقال هذا ابنك فى يدى . وقد علمتَ أن امرأ القيس ابنُ عمى ومن عشيرتى وأنا أحق بميراثه فان دفعتَ الىَّ الدروعَ وإلا ذبحت ابنَكَ . قال أجلْنى فأجله فجمع أهلَ بيته ونساءه فشاورهم فكلٌّ أشار عليه أن يدفع الدروعَ ويستنقذَ ابنَه . فلما أصبح أشرف عليه فقال ليس الى دفع الدروع سبيلٌ فاصنع ما أنت صانعٌ . فذبح الملك ابنه ، وهو مشرف ينظر اليه . ثم انصرف الملك بالخيبة فوافى السموأل بالدروع الموسم فدفعها الى ورثة امرئ القيس . وقال فى ذلك :

وفَيْتُ بأَدْرُعِ الكِنْدِىِّ إنى اذا ما خانَ أقوامٌ وفيتُ

---

(١) أشعب للموت أى مات أو فارق فراقاً لا يرجع

وقالوا : إنه كنزٌ رَغيبٌ ولا واللهِ أغدر مامشيت
بنى لى عاديا حِصناً حَصيناً وبئراً كلما شئت استقيت

ويروى أنه ماسامنى ضيما أبيت . وقال الاعشى فى ذلك :

شريحُ لا تتركنى بعد ما علقت حبالُكَ اليوم بعد القدِّ أظفارى
كن كالسموأل اذ طافَ الهُمامُ بهِ فى جَحفَلٍ كسواد الليل جرّار (١)
خيّرهُ خطّتىْ خَسفٍ فقال له مهما يقله فانى سامع جارِ
فشكّ غيرَ طويل ثم قال له اذبحْ أسيركَ إنى مانعٌ جارى
إن له خلفاً إن كنتَ قاتِلَهُ وان قتلت كريماً غيرَ عوارِ

والسموأل هذا هو الذى يقول فى قصيدته الشهيرة :

اذا المرء لم يدنَسْ من اللؤم عِرضُهُ فكلُّ رِداءٍ يَرْتديه جميلُ
وانْ هو لم يحْمِلَ على النفس ضَيْمَها فليس الى حسن الثناء سبيل (٢)
تُعيّرُنا أنا قليلٌ عديدُنا فقلت لها : انَّ الكرامَ قليلُ
وما قلّ مَنْ كانت بقاياه مثلَنا شبابٌ تَسامى فى العُلى وكُهولُ (٣)
وما ضرّنا أنا قليلٌ وجارُنا عزيزٌ وجارُ الاكثرين ذليلُ (٤)
لنا جَبَلٌ يحتلُّه من نُجيرُهُ منيعٌ يردُّ الطرْفَ وهو كليلُ (٥)
رسا أصلُه تحتَ الثرَى وسما به الى النجم فرْعٌ لا يُنال طويلُ (٦)

(١) جحفل كجعفر الجيش الكثير (٢) أى ان لم يصبر النفس على مكارهها فلا سبيل الى اكتساب حسن الثناء وليس معنى الضيم ضيم الغير لهم لانهم يأنفون من ذلك ويعدونه تذللا (٣) قوله تسامى اراد تتسامى فحذف احدى التاءين ومثل هذا كثير فى كلامهم ، قال فى الخلاصة :

وما بتاءين ابتدى قد يقتصر فيه على تا كتبين العبر

والكهول جمع كهل وهو الذى جاوز الثلاثين ووخطه الشيب وقيل من بلغ الاربعين (٤) يجوز فى ما ان تكون نافية والمعنى لم يضرنا ويجوز أن تكون استفهامية على طريق التقرير والمعنى أى شئ ضرنا (٥) قيل انه اراد بذكر الجبل العز والسمو وقيل ان هذا الجبل هو حصن السموأل الذى يقال له الابلق الفرد يعنى من دخل فى جوارنا امتنع على طلابه (٦) يريد انه اثبت جبل فى الارض وأعلى طود عليها

وإنا لقومٌ ما نرى القتل سُبَّةً … اذا ما رأته عامرٌ وسلولُ (١)

يقرّب حبُّ الموتِ آجالَنا لنا … وتكرهُهُ آجالُهم فتطولُ

وما مات منا سيّدٌ حتفَ أنفِهِ … ولا طُلَّ منا حيثُ كان قتيلُ (٢)

تَسيلُ على حدِّ الظُباةِ نفوسُنا … وليست على غير الظُباة تسيلُ (٣)

صفَوْنا فلم نَكْدُرْ واخلص سِرَّنا … إناثٌ اطابتْ حملَنا وفحولُ (٤)

علَوْنا الى خير الظهور وحطّنا … لوقتٍ الى خير البُطون نزولُ (٥)

فنحن كماءِ المُزْنِ ما فى نِصابنا … كَهامٌ ولا فينا يُعَدُّ بخيلُ (٦)

ونُنْكِرُ ان شئنا على الناس قولَهم … ولا يُنْكِرون القولَ حين نقولُ

اذا سيّدٌ منّا خلا قامَ سيّدٌ … قَؤولٌ لما قالَ الكرامُ فعولُ

وما أُخمِدتْ نارٌ لنا دون طارقٍ … ولا ذَمَّنا فى النازلين نزيلُ (٧)

وأيامُنا مشهورةٌ فى عدوِّنا … لها غُرَرٌ معلومةٌ وحُجولُ

وأسيافنا فى كل غربٍ ومَشْرقٍ … بها من قِراعِ الدارعين فُلولُ (٨)

مُعَوَّدَةٌ ان لاتُسَلَّ نِصالُها … فتُغْمَدَ حتى يستباحَ قبيلُ (٩)

سَلِي إن جهِلْتِ الناسَ عنّا وعنهمُ … فليس سواءٌ عالمٌ وجهولُ

فانّ بنى الدَّيانِ قُطْبٌ لقومهم … تدورُ رحاهم حولَهم وتجولُ (١٠)

---

(١) السبة : العار ، وعامر وسلول قبيلتان ، يقول اذا حسب هؤلاء القتل عاراً عده عشيرتى فخراً (٢) يقال مات فلان حتف انفه اذا مات من غير قتل ولا ضرب ، ومعنى البيت انا لانموت على الفراش ولكن نقتل ودم القتيل منا لا يذهب هدراً (٣) الظبات جمع ظبة وهى حد السيف وقيل اراد بالظبات السيوف كلها فاضاف الحد اليها (٤) المراد بالسر هنا الاصل الجيد ومعنى ذلك صفت انسابنا فلم يشبها كدر (٥) يشير به الى صريح نسبهم وخلوصه مما يحط بشرفهم (٦) قوله كماء المزن يريد بذلك تشبيه صفاء انسابهم بصفاء ماء المطر ، والنصاب الاصل ومنه نصاب السكين ، والكهام الكليل الحد وهو مجاز عن الضعيف هنا (٧) يشير بذلك الى انهم لكثرة كرمهم يديمون ايقاد نار الضيافة ولا يطفؤنها دون طارق ليل وانهم يثنى عليهم كل نزيل (٨) القراع : المقارعة والمضاربة ، والدارعين : أصحاب الدروع ، والفلول جمع فل وهو الثلم فى حد السيف (٩) القبيل : الجماعة من آباء شتى وجمعه قبل والقبيلة الجماعة من اب واحد وجمعها قبائل (١٠) القطب الحديد الذى فى الطبق الاسفل من الرحى يدور عليه الطبق الاعلى منها ؛ والمعنى ان امر قبيلتهم لايستقيم ولا يتم الا بهم مثل الرحى لايتم امرها

ومنهم فُكَيْهَةُ بنت قتادة بن مَشْنُوء

كانت فُكَيْهَةُ هذه خالة طَرَفَةَ لِأَنَّ أُمَّ طَرَفَةَ وردة بنت قتادة وكان من وفائها أَنَّ السُلَيْكَ بن سُلَكَةَ غزا بكر بن وائل فأبطأ ولم يجد غفلةً يلتمسها. فرأى القوم أثر قدم على الماء لم يعرفوها فكمنوا له وأمهلوه حتى ورد وشرب فامتلأ فهاجوا به فعدا فاثقلهُ بطنه فولج قبةَ فُكَيْهة فاستجار بها فادخلته تحت دِرْعها فجاؤا فى اثره فوجدوه تحت ثوبها فانتزعوا خمارها، فنادت اخوتها وولدها فجاؤا عشرة فمنعتهم عنه. وكان سُلَيْك يقول بعد ذلك كأنى أجد خشونةَ استها على ظهرى حين أدخلتنى تحت درعها. وفيه قال سُلَيْك :

لَعَمْرُ أبيكَ والأنباء تنْمى ... لَنِعْمَ الجارُ أُختُ بنى عوارا
عَنَيْتُ بهافُكَيْهَةَ حين قامتْ ... لِنَصلِ السيفِ وانتزَعو الخمارا
من الخَفِرات لم تَفْضَحْ أخاها ... ولم تَرْفَعْ لوالِدِها شَنارا (1)

ومنهم :

ام جميل

وهى من رَهْط أبى هُرَيْرة من دُوسٍ وهم من أهل السراة وكان من وفائها أن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومى قتل أبا زهير الزهْرانى من ازد شَنوءَة وكان صهر أبى سفيان بن حرب . فلما بلغ ذلك قومه بالسراة وثبوا على ضِرار ابن الخطاب ليقتلوه فسعى حتى دخل بيت ام جميل وعاذَ بها فضربه رجل منهم فوقع ذُبابُ السيف على الباب. وقامت فى وجوههم فذبَّتْهم ونادت قومها فمنعوه لها فلما قام عُمَرُ بن الخطاب رضى الله عنه ظنت أنه أخوه فأتته بالمدينة وقد عرف القصة، فقال: انى لست بأخيه الاّ فى الاسلام وهو غازٍ وقد عَرفنا منتَّك عليه فأعطاها على أنها ابنةُ سبيل .

(1) يقال خفرت الرجل الا بالقطب، والديان هو يزيد بن قطن بن زياد بن الحرث الاصغر حميته واجرته من طالبه، والشنار اقبح العيب والعار والامر المشهور بالشنعة

وأما كونُ العربِ أغيرَ من غيرهم

فلأنهم كانوا أشدَّ الناس حاجةً الى حفظِ الإنساب ، ولذلك اعتنَوْا بضبطها غايةَ الاعتناء ، لما امتنعوا عن سلطانٍ يَقْهرُهم . ويكفُّ الأذى عنهم ليكونوا به متظافرينَ على من ناواهم متناصرين على من شاقهم وعاداهم حتى بلغوا بألفة الانساب تناصرهم على القوىّ . وتحكموا به تحكم المتسلط المتشطط . فان الرَحِمَ اذا تماسَّتْ تعاطفَتْ والغيرة أساسُ ذلك ومنها ينشأ ضبطُ الأنساب وحفظها كما لايخفى فانها ثَوَران الغضب حمايةً على اكرام الحرم . وجعل الله سبحانه هذه القوة فى الانسان سبباً لصيانة الماء وحفظاً للأنساب ولذلك قيل كل أمة وضعت الغيرة فى رجالها وضعت الصيانة فى نسائها . وقد وصل العرب فى الغيرة الى أن جاوزوا الحد ، حتى كانوا يَئِدُونَ البناتَ مخافةَ لحوق العار بهم من أجلهن أى يدفنونهن وهن أحياء . وسيجيء تفصيل مذهبهم فيها فى الاعمال التى أبطلها الاسلام

وأول قبيلة وَأَدت من العرب ربيعة . وذلك أنهم أُغير عليهم . فنهبت بنت لامير لهم فاستردّها بعد الصلح فخيّرت رضى منها بين أبيها ومَنْ هى عنده فاختارت مَنْ هى عنده وآثرتهُ على أبيها فغضِبَ وسَنّ لقومه الوأدَ ففعلوه غيرةً منهم ، ومخافةَ أنْ يَقَعَ لهم بعد ذلك مثلُ ماوقع وشاع فى العرب غيرهم . ومن نخوة العرب وغيرتهم أنهم يَكْنُونَ عن حرائر النساء بالبيض ، وقد جاء القرآن العزيز بذلك فقال سبحانه (كأنَّهنَّ بيض مكنون) وقال امرؤ القيس :

وبيضةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خِباؤها   تمتَّعْتُ عن لَهْوٍ بها غير معجل (١)

ويكنون عنهن أيضاً بالنخلة ، وعلى ذلك قول بعض العرب :

ألا يا نخلةً من ذاتِ عِرقٍ   عليكِ ورحمةُ اللهِ السلامُ (٢)

(١) أى رب أمرأة كبيضة الخدر فى حسنها وصيانتها لايرام سترها ، ومعجل اسم مفعول اعجله فهو معجل يعنى انه لعزه لايتعرضه من يغار عليها (٢) هذا البيت من شواهد النحو يستشهد به على ان النكرة الموصوفة تنصب فنخلة نكرة موصوفة بالجار والمجرور وفيه شاهد آخر وهو تقديم المعطوف بالواو على المعطوف عليه والاصل عليك السلام ورحمة الله

سألتُ الناسَ عنكِ فخبّرونى ... هنا من ذاكَ تكرهُهُ الكرامُ
وليس بما أحلَّ اللهُ بأسٌ ... اذا هو لم يُخالِطْهُ الحرامُ

فان هذا الشاعر كنى عن المرأةِ بالنخلة وبالهناة عن الرفث . فاما الهناة فمن عادة العربَ الكناية بها عن مثل ذلك . واما الكناية بالنخلة عن المرأة فمن طريف الكناية وغريبها ، وأنشد ابن الاعرابى لرجل من بنى مُرَّة بن عوف يكنى عن امرأتين :

أيا نخلتى اول اذا كان فيكما ... جنى فانظرا من تطعمان جنا كما
ويانخلتى اول اذا هبت الصبا ... وأمسيت مقروراً ذكرت ذرا كما

وقال وضاح اليمنى

أيا نخلتَىْ وادى بُوانَةَ حبذا ... اذا نام حرّاسُ النخيلِ جنًا كما

وبوانة بضم الباء الموحدة من أسفل : موضع . ويكنون عنهن بالسرحة[1] . قال حميد بن نور .

أبى الله الا أن سَرْحَةَ مالك ... على كل افنان العِضاه تروقُ[2]
فياطيبَ رياها ويابردَ ظلِّها ... اذا حانَ من شمسِ النهار شُروقَ
فهل أنا إنْ عللْتُ نفسى بسرحة ... من السَرْح مسدود علىَّ طريقُ
حمى ظلَّها شكسُ الخليقة طائفٌ ... عليها عُرام الطائفينَ شفيقُ[3]
فلا الظل من برد الضحى تستطيعه ... ولا الفيءُ من برد العشى تذوق

وقال أيضاً فى مثله

تجرم أهلوها لئن كنت مشعراً ... جنونا بها ياطول هذا التجرم
ومالىَ من ذنب اليهم علمته ... سوى انى قد قلت ياسرحة اسلمى[4]

(١) هى الشجرة العظيمة من العضاة (٢) العضاه وزان كتاب من شجر الشوك كالطلح والعوسج واستثنى بعضهم القتاد والسدر فلم يجعله من العضاه ؛ والهاء اصلية ، والافنان جمع فنن : الاغصان ، والسرحة : الشجرة العظيمة من العضاه (٣) قوله عرام بالضم أى سىء الخلق
(٤) السرحة مر تفسيرها . والمعنى لاذنب لى أعترف به غير انى قلت ياسرحة اسلمى وكأن هذا الشاعر لما قال ياسرحة اسلمى علم أهل المرأة انه يريد صاحبتهم فغضبوا لذلك

نعم فاسلمي ثم اسلمي ثمة اسلمي   ثلاث تحيات وان لم تكلمي [١]

ويكنون عنهن بشجرة اوشاة ونعجة وجؤذر . وهو ولد البقرة الوحشية وريم وما شاكل ذلك . قال المسيب بن علس :

دعا شجر الارض داعيهم   لينصره السدر والا ثأب [٢]

فكنى بالشجر عن النساء . وهم يقولون جاء فلان بالشوك والشجر اذا جاء بجيش عظيم . وقال عنترة :

ياشاة ماقنص لمن حلت له   حرمت على وليتها لم تحرم

وانما ذكر عبلة جارية أبيه فلذلك حرمها على نفسه . وكذلك قوله والشاة ممكنة لمن هو مرتم . والعرب تجعل المهاة شاة لانها عندهم ضائنة الظباء ولذلك يسمونها نعجة . وعلى هذا المتعارف فى الكناية جاء قول الله تعالى فى أخباره عن خصم داود عليه السلام «ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة» كنى بالنعجة عن المرأة . وروى ابن قتيبة ان رجلا [٣] كتب الى عمر رضى الله تعالى عنه :

قلائصنا هداك الله انا   شغلنا عنكم زمن الحصار [٤]

فما قلص وجدن معقلات   قفا سلع بمختلف التجار [٥]

---

(١) نعم فاسلمي نعم يجاب به فى الاستفهام المحض ويتوصل به الى بسط الكلام وصلته كما هنا وثلاث تحيات انتصب على المصدر من فعل محذوف تقديره احيي ، والمعنى حييتها ثلاثا بقولي اسلمي ولم ترد الجواب الى (٢) الاثأب ، شجر الواحدة أثأبة قال الكميت :

وغادرن المقاول فى مكر   كخشب الاثأب المتغطرسينا

(٣) هو على ماق التاج وغيره أبو المنهال بقيلة الأكبر وكان وجهه سيدنا عمر (رض) الى احدى الغزوات بنواحي فارس وكان ترك عياله بالمدينة فبلغه أن رجلا من بنى سلم اسمه جعدة يختلف الى النساء الغائبات أزواجهن فكتب الى سيدنا عمر (رض) يشكو منه (٤) قلائصنا منصوب بالاضمار أى احفظ قلائصنا وهى فى الاصل جمع قلوص للناقة الشابة واراد بها النساء (٥) قوله معقلات يعنى نساء معقلات لازواجهن كما تعقل — أى تشد — النوق للضراب ، وسلع جبل فى المدينة وجبل لهذيل وحصن بوادى موسى من عمل الشوبك بقرب بيت المقدس ، وتجار ككتاب موضع عن العمرانى ، وكغراب موضع ببلاد تميم وقيل من مياههم وماء بالقرب من صفينة حذاء جبل الستار فى ديار سليم عن نصر

يعقلهن جعد شيظمى وبئس معقل الذود الظؤار (١)

قال فانما كنى بالقلص وهى النوق الشواب عن النساء ففهم عمر ما أراده وجلد جعدة ونفاه . ومن نخوة العرب وغيرتهم انه كان من عادتهم اذا وردوا المياه أن يتقدم الرجال . ثم العضاريط (٢) والرعاء ثم النساء اذا صدرت كل فرقة عنه فكن يغسلن أنفسهن وثيابهن ويتطهرن آمنات مما يزعجهن فمن تأخر عن الماء حتى تصدر النساء فهو الغاية فى الذل . والى ذلك أشارت كبشة (٣) أخت عمرو بن معدى كرب . بقولها من أبيات :

ولا تردوا الا فضول نسائكم اذا ارتملت أعقابهن من الدم

وقد تستعمل الغيرة فى صيانة كل ما يلزم الانسان صيانته فى السياسات الثلاث التي هى سياسة الرجل نفسه . وسياسة أهله ومنزله . وسياسة مدينته

(١) الجعد الكريم من الرجال ، والشيظمى : الفتى الجسيم ، والظؤار جمع ظئر بالكسر الناقة العاطفة على ولد غيرها المرضعة له ، والذود : ثلاثة ابعرة الى التسعة وقيل الى العشرة أو العشرين وفوق ذلك وقيل غير ذلك ويروى بدل جعد

شيظمى أو جعدة من سليم معيداً يبتغى سقط العذارى

أراد انه يتعرض لهن فكنى بالعقل عن الجماع أى ان ازواجهن يعقلونهن وهو يعقلهن ايضا كان البدء للازواج والاعادة له (٢) جمع عضروط وهو الخادم على طعام بطنه والاجير (٣) كانت كبشة من النساء الشاعرات المتوسطات فى الشعر وكانت متزوجة فى بنى الحرث بن كعب وكان عبد الله اخاها لابيها وامها دون عمرو وهذا البيت من ابيات لها وهى :

ارسل عبد الله اذ حان يومه الى قومه لاتعقلوا لهم دمى
ولا تأخذوا منهم افالا وابكرا واترك فى بيت بصعدة مظلم
ودع عنك عمراً ان عمرا مسالم وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم
فان انتم لم تثأروا واتديتم فمشوا بآذان النعام المصلم
ولا تردوا الخ

والسبب فى هذا الشعر ان عبد الله بن معديكرب مر براع للمخزم بن سلمة من بنى مالك بن مازن ابن زيد فاستسقاه لبناً فأبى واعتل عليه فشتمه فقتله عبد الله فثارت بنو مازن بعبد الله فقتلوه وجاءوا الى عمرو فقالوا ان اخاك قتله رجل منا سفيه ونحن يدك وعضدك فنسألك الرحم الا أخذت الدية ما احببت وهم عمرو بذلك فغضبت كبشة وقالت هذه الابيات وذكر علماء الادب أيضا غير ذلك فى سبب هذا الشعر وقولها اذا ارتملت يقال ترمل وارتمل اذا تلطخ بالدم وجملت النساء متلطخات بدم الحيض تفظيعا للامر وكان من عادتهم اذا وردوا المياه أن تتأخر النساء حتى تصدر كل فرقة عنه الى آخر مابين فى الاصل ومعنى هذا الكلام انه لاشرف لكم بعد أخذكم الدية

وضيعته . ولذلك قيل ليست الغيرة ذبه عن كل ضعيف وتسمى كراهة النعمة عند من لا يستحقها غيرة . والغيرة وان كانت قوة انسانية يجب وجودها فى كل جيل قد كثرت فى العرب حتى ان من دخل دار أحدهم والتجأ الى فنائه عدوا فعله حرمة وجواراً وذماراً بل ان تعلق ذلك بالوحشيات والهوام . حتى انهم كانوا يسمون بذلك مجير الجراد ومجير الغزال ومجير الذئب ونحو ذلك . وفى الأمثال «أحمى من مجير الجراد» قالوا هو مدلج بن سويد الطائى . ومن حديثه فيما ذكر ابن الاعرابى عن ابن الكلبى انه خلا ذات يوم فى خيمته فاذا هو بقوم من طيّء ومعهم أوعيتهم ، فقال : ماخطبكم؟ قالوا جراد وقع بفِنائك فجئنا لنأخُذَه فَرَكِبَ فرسه وأخذ رمحه وقال : واللهِ لا يعرضنّ له أحد منكم الا قتلته ، إنكم رأيتموه فى جوارى ثم تريدون أخذه فلم يزل يحرسه حتى حَمِيَتْ عليه الشمس وطار فقال شأنكم الآن . وقد تحول عن جِوارى ، ويقال : إن المجير كان حارثة بن مر أبا حنبل . وفيه يقول شاعر طيّء :

ومنا ابنُ مرّ أبو حنبل   أجار من الناس رجل الجراد

وزيدٌ لنا ولنا حاتم   غياث الورى فى السنين الشداد

وفى الأمثال أيضاً : أحمى من مُجير الظُعُن وهو ربيعة بن مُكَدَّم الكِنانىّ ومن حديثه فيما ذكر أبو عبيدة بن نُبَيْشَةَ بن حبيب السُلَمىّ خرج غازيا فلقى ظعناً من كنانة بالكديد فاراد أن يحتويها فمانعه ربيعة بن مكدَّم فى فوارس . وكان غلاما له ذوابة فشد عليه نبيشة فطعنه فى عَضُده فأتى ربيعة امه فقال :

شُدّى علىّ العَصْبَ امَّ سيارْ   فقد رزئت فارساً كالدينار

فقالت له أمه

انا بنى ربيعة بن مالكِ   مرزؤا خيارنا كذلكِ

من بين مقتولٍ وبين هالكِ

ثم عصبته فاستسقاها ماء فقالت اذهب فقاتل القوم فان الماء لا يفوتك فرجع

وكرَّ على القوم فكشفهم ورجع الى الظعن وقال إنى هالك لما بى وسأحميكن ميتاً كما حميتكن حياً بأن أقِفَ بفرس على العقبة واتكئَ على رمحى فان فاضت نفسى كان الرمح عمادى فالنجاء النجاء فانى اردُّ بذلك وجوه القوم ساعةً من النهار فقطعن العقبة ووقف هو بإزاء القوم على فرسه متكئاً على رمحه ونزفه الدم ففاض أى مات ، والقوم بازائه يحجمون عن الاقدام عليه . فلما طال وقوفه فى مكانه ورأوه لايزول عنه رموا فرسه فقمص وخرَّ ربيعة لوجهه فطلبوا الظعن فلم يلحقوهن ، ثم ان حفصَ بنَ الاخيف الكنانى (١) مرَّ بجيفة ربيعة فعرفها فأمال عليها أحجاراً من الحرة ، وقال يبكيه :

لايبعدنَّ ربيعةُ بنُ مُكدَّمٍ ... وسقَى الغوادِى قبرَهُ بذَنُوبِ (٢)

نَفَرتْ قَلوصى من حجارةِ حرَّةٍ ... بُنِيَتْ على طَلْقِ اليدَيْنِ وَهُوبِ (٣)

لا تنفرِى ياناقُ منه فانه ... شرِّيبُ خمرٍ مِسْعَرٌ لِحُرُوبِ (٤)

لولا السفارُ وبعْدُ خَرْقٍ مهْمَهٍ ... لتركتُها تحبو على العُرْقوبِ (٥)

قال أبو عبيدة قال أبو عمرو بن العلاء : ما نعلم قتيلاً حمى ظعائن غير ربيعة ابن مكدم . وقصة مجير أم عامر شهيرة الى غير ذلك مما يطول ذكره . ويسمى الغضب المقتضى للغيرة الحفيظة فقالوا احفظنى فلان أى أغضبنى الغضب الذى أثار منى قوة الحفظ .

(١) قال محمد بن سلام : الصحيح ان هذه الابيات لعمرو بن شقيق أحد بنى فهر بن مالك ومن الناس من يرويها لكرز بن حفص بن الاخيف العامرى وعمرو بن شقيق أولى بها وهذا الشعر قيل فى قتل ربيعة بن مكدم الكنانى أحد فرسان مضر المعدودين وشجعانهم المشهورين قتله نبيشة بن حبيب السلمى فى يوم الكديد (٢) الغوادى جمع غادية وهى سحابة الصباح ، والذنوب : الدلو العظيمة استعير هنا للغيث يتفجع على ربيعة ويدعو له بالرحمة والرضوان

(٣) نفرت : فزعت ، والقلوص من النوق الشابة ، وقوله من حجارة حرة المراد بها قبر ربيعة والحرة أرض ذات حجارة سود (٤) مسعر على وزن مفعل آلة فى ايقاد الحرب

(٥) السفار : السفر ، والخرق : الارض الواسعة ، والمهمه : المفازة البعيدة الاطراف ، والحبو : المشى على اليدين والبطن ، وعرقوب الدابة فى رجلها بمنزلة الركبة فى يدها ، والمعنى لولا انى محتاج اليها فى السفر لطوله لنحرتها عند قبره لتأكلها الناس كما كانت عادتهم اذا اجتازوا بقبر كريم

والحاصل أن العرب لما كانوا أتم الناس عقولا وأحلاما ، وأطلقهم ألسنة وأوفرهم افهاما ، استتبع ذلك لهم كل فضيلة ، وأورثهم كل منقبة جليلة . فان العقل المشرق فى الانسان يحصل عنه العلم والمعرفة والدراية والحكمة والذكاء والذهن والفهم والفطنة وجودة الخاطر وجودة الفهم والتخيل والبداهة والكَيْس والخير وإصابة الظن والفراسة [1] والزكانة[2] والكهانة [3] والعرافة [4] والالهام ودقة النظر والرأى والتدبير وصحة الفكر وجودة الذكر وجودة الحفظ والبلاغة والفصاحة وسائر الأخلاق المحمودة والأعمال الممدوحة ، ولكن كانوا قبل الاسلام طبيعة قابلة للخير معطلة عن فعله ليس عندهم علم منزل من السماء ولا شريعة موروثة عن نبى ، ولاهم أيضاً مشتغلون ببعض العلوم العقلية المحضة ، كالطب والحساب ونحوهما انما علمهم ماسمحت به قرائحهم من الشعر والخطب ، أو ما حفظوه من أنسابهم وأيامهم ، أو ما احتاجوا اليه فى دنياهم من الأنواء [5] والنجوم ، أو من الحروب ونحو ذلك مما سيجئ تفصيله عند الكلام على علومهم ان شاء الله تعالى . فلما بعث الله تعالى محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم بالهدى الذى جعله علماً فى الأرض ولا يجعل أجلَّ منه وأعظمَ قدراً وتلقوه عنه بعد مجاهدته الشديدة لهم ومعالجتهم عن نقلهم عن تلك العادات الجاهلية . والظلمات الكفرية التي كانت قد أحالت قلوبهم عن فطرتها . فلما تلقوا عنه ذلك الهدى العظيم زالت تلك الريون واستنارت بهدايته فأخذوا هذا الهدى العظيم . لتلك الفطرة الحميدة فاجتمع لهم الكمال بالقوة المخلوقة فيهم ، والكمال الذى أنزله الله اليهم ، فهم بمنزلة أرضٍ جيّدة فى نفسها لكنها معطلة عن الحرث أو قد نبت فيها شجرة العِضاه

(١) الاستدلال بهيئة الانسان وأشكاله وألوانه وأقواله على أخلاقه وفضائله ورذائله
(٢) هي أن تزكن شيئاً بالظن فتصيب (٣) الكهانة بفتح الكاف ويجوز كسرها قيل هى ادعاء علم الغيب كالاخبار بما سيقع فى الارض مع الاستناد الى سبب (٤) قسيمة للكهانة عند كثير من العلماء وقال بعضهم الكهانة مختصة بالامور المستقبلة والعرافة بالامور الماضية
(٥) جمع نوء وهو النجم اذا مال للغروب أو سقوط النجم في المغرب مع الفجر وطلوع آخر يقابله من ساعته في المشرق

والعوسج ، وصارت مأوى الخنازير والسباع ، فاذا طهرت عن المؤذى من الشجر والدواب وازدرع فيها أفضل الحبوب والثمار جاء فيها من الحرث مالا يوصف مثله فصار السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضلَ خلق الله تعالى بعد الأنبياء وصار أفضل الناس بعدهم من اتبعهم باحسان من العرب والعجم بمقتضى الشريعة الغراء ، وورد فيها أيضاً أن قريشاً أفضلُ العرب ، وأن بنى هاشم أفضل من قريش وأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أفضلُ بنى هاشم ، فهو أفضل الخلق نفساً وأعلاهم نسباً وليس فضل العرب ثم قريش ثم بنى هاشم ، لمجرد كون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم منهم ، وان كان هذا من الفضل ، بل هم فى أنفسهم أفضل . وبذلك يثبت لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه أفضل نفساً ونسباً وإلا لزم الدور (١)

مناظرة جرت بين النعمان بن المنذر وكسرى ملك الفرس فى شأن العرب

ذكر كثير من المؤرخين ، ومنهم ابنُ عبدِ رَبِّهِ فى تاريخه مارواه ابن القطامى عن الكلبى ، قال : قَدِمَ النعمان بن المنذر على كسرى وعنده وفود الرومِ والهند والصين فذكروا من ملوكهم وبلادهم ماذكروا . فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم . ولم يستثن فارسَ ولا غيرها . فقال كسرى وأخذته عزة الملك: يانعمان لقد فكرت فى أمر العرب وغيرهم من الامم ونظرت فى حال من يقدم علىّ من وفود الامم ، فوجدت الروم لها حظ فى اجتماع الفتها وعظم سلطانها وكثرة مدائنها ووثيق بنيانها وان لها ديناً يبيّن حلالَها وحرامَها ويرد سفيهها ويقيم جاهِلَها . ورأيت الهند نحواً من ذلك فى حكمتها وطبها مع كثرة أنهار بلادها وثمارها وعجيب صناعاتها وطيب أشجارها ودقيق حسابها وكثرة عددها . وكذلك الصين

(١) توقف الشيء على نفسه

فى اجتماعها وكثرة صناعات أيديها وفروسيتها وهمتها فى آلة الحرب وصناعة الحديد وان لها ملكا يجمعها . والترك والخزر على ما بهم من سوء الحال فى المعاش وقلة الريف والثمار والحصون وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس لهم ملوك تضم قواصيهم وتدبر أمرهم . ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخير فى أمر دين ولا دنيا ولا حزم ولا قوة . ومع ان مما يدل على مهانتها وذلها وصغر همتها محلتهم التى هم بها مع الوحوش النافرة والطير الحائرة يقتلون أولادهم من الفاقة ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها ولذاتها فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الابل التى يعافها كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها . وان قَرَى أحدهم ضيفاً عدها مَكْرُمَةً . وان أطعم أكلة عدها غنيمة تَنْطِق بذلك أشعارهم ، وتفتخر بذلك رجالهم ، ما خلا هذه التنوخيةَ التى أسس جدى اجتماعها وشد مملكتها ومنعها من عدوها . فجرى لها ذلك الى يومنا هذا . وان لها مع ذلك آثاراً ولبوساً وقرى وحصوناً وأموراً تُشْبِه بعض أمور الناس يعنى اليمن ، ثم لا أراكم تستكينون على ما بكم من الذلة والقلة والفاقة والبؤس ، حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس .

قال النعمان

أصلح الله الملك حق لامة الملك منها أن يسمو فضلها ويعظم حظها وتعلو درجتها الا ان عندى جواباً فى كل ما نطق به الملك فى غير رد عليه ولا تكذيب له فان أمننى من غضبه نطقت به، قال كسرى : قل فأنت آمن . قال النعمان : أما أمتك أيها الملك فليست تنازع فى الفضل لموضعها الذى هى به من عقولها وأحلامها وبسطة محلها وبُحْبُوحَةِ عزها وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك . وأما الامم التى ذكرت فأى أمة تقرنها بالعرب الا فضلتها . قال كسرى : بماذا ؟ قال النعمان : بعزها ومَنَعَتِها وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وأنفتها ووفائها « فأما عزها ومَنَعَتُها » فانها لم تزل مجاورة لآبائك الذين

دوّخوا البلاد ، ووطّدوا الملك ، وقادوا الجند ، لم يطمع فيهم طامع ولم ينلهم نائل حصونهم ظهور خيلهم ، ومهادهم الارض ، وسقوفهم السماء ، وجنتهم السيوف وعدتهم الصبر اذ غيرها من الأمم انما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور « وأما حسن وجوهها وألوانها » فقد يعرف فضلهم فى ذلك على غيرهم من الهند المنحرفة ، والصين المنحفة ، والترك المشوهة ، والروم المقشرة . « وأما أنسابها وأحسابها » فليست أمةٌ من الامم الا وقد جَهِلت آباءها وأصولها وكثيراً من أولها حتى إن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه دنيا فلا ينسبه ولا يعرفه . وليس أحد من العرب الا يسمى آباءه أبا فأبا أحاطوا بذلك أحسابهم وحَفِظوا به أنسابهم . فلا يدخل رجل فى غير قومه ، ولا ينتسب الى غير نسبه ، ولا يدعى الى غير أبيه « وأما سخاؤها » فان أدناهم رجلا الذى تكون عنده البكرة والناب عليها بلاغه فى حموله وشبعه وريّه فيطرقه الطارق الذى يكتفى بالفِلْذة [1] ويجتزى بالشربة فيعقرها له ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسنَ الأُحدوثة وطيبَ الذكر . « وأما حكمة ألسنتهم » فان الله تعالى أعطاهم فى أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم بالاشياء وضربهم للامثال وابلاغهم فى الصفات ما ليس لشىء من ألسنة الاجناس . ثم خيلهم أفضل الخيل ، ونساؤهم أعف النساء ، ولباسهم أفضل اللباس ، ومعادنهم الذهب والفضة ، وحجارة جبالهم الجَزْعُ [2] ، ومطاياهم التى لا يبلغ على مثلها سفن ، ولا يقطع بمثلها بلد قفر . « وأما دينها وشريعتها » فانهم متمسكون به حتى يبلغ أحدهم من نسكه بدينه أن لهم أشهراً حُرُماً وبلداً محرماً وبيتاً محجوجاً ينسكون فيه مناسكهم ويذبحون فيه ذبائحهم فيلقى الرجل قاتلَ أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثاره وادراك رغمه منه فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بأذى . « وأما وفاؤها » فان أحدهم

---

(١) القطعة من الشىء والجمع فلذ مثل سدرة وسدر (٢) خرز فيه بياض وسواد الواحدة جزعة مثل تمر وتمرة

لمحظ اللحظة ويومئ الايماء، فهي وَكْث (١) وعقدة لا يحلها الا خروج نفسه، وإن أحدهم يرفع عوداً من الأرض فيكون رهناً بدينه فلا يُغْلَق (٢) رهنه ولا تُخْفَر ذمته (٣) وإن أحدهم ليبلغه أن رجلا استجار به وعسى أن يكون نائياً عن داره فيصاب فلا يرضى حتى يفنى تلك القبيلة التى أصابته أو تفنى قبيلته لما أخفر من جواره، وأنه ليَلْجَأ اليهم المجرِم المحدث من غير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم دون ماله. وأما قولك أيها الملك: يَئِدون أولادَهم، فانما يفعله من يفعله منهم بالاناث أنفةً من العار وغيرةً من الازواج. وأما قولك: إن أفضلَ طعامهم لحومُ الأبل على ما وصفت منها فما تركوا مادونها إلا احتقاراً له فعمدوا الى أجلها وأفضلها فكانت مراكبهم وطعامهم مع أنها أكثر البهائم شحوما، وأطيبها لحوما، وأرقها البانا، وأقلها غائلةً، واحلاها مضغةً، وإنه لا شئ من اللحمان يعالج ما يعالج به لحمها إلا استبان فضلها عليه « وأما تحاربهم » واكلُ بعضِهم بعضاً وتركهم الانقيادَ لرجل يسوسهم ويجمعهم فانما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أنست من نفسها ضعفاً وتخوفت نهوضَ عدوها اليها بالزحف وإنه انما يكون فى المملكة العظيمة أهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون اليهم أمورهم، وينقادون لهم بأزمتهم وأما العرب فان ذلك كثير فيهم حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكا أجمعين مع أنفتهم من أداء الخراج والوطف (٤) بالعسف وأما اليمن التى وصفها الملك فلما أتى جدُّ الملك اليها الذى أتاه عند غلبة الحبش له على ملك متسق وأمر مجتمع فأتاه مسلوبا طريداً مستصرخا قد تقاصر عن ايوانه، وصغر فى عينه ما شيد من بنائه ولولا

(١) العهد بين القوم وقيل العهد المحكم، وقيل الشيء اليسير من العهد وفى حديث ابن سيرين: انه كان يكره شراء سبي (زابل) — بلد بالسند — وقال ان عثمان ولث لهم ولثا أى أعطاهم شيئا من العهد، وقال الجوهرى الولث العهد بين القوم يقع من غير قصد ويكون غير مؤكد يقال ولث له عقداً (٢) غلق الرهن غلقاً من باب تعب استحقه المرتهن فترك فكاكه وفى حديث « لا يغلق الرهن بما فيه » أى لا يستحقه المرتهن بالدين الذى هو مرهون به (٣) يقال خفرت بالرجل اخفر من باب ضرب غدرت به (٤) إى استحصال المال منهم بالجبر والظلم يقال سحابة وطفاء أي مسترخية الجوانب بكثرة مائها

ماوتر (١) به من يليه من العرب لمال الى مجال ، ولوجد من يجيد الطعانَ ، ويغضب للأحرار ، من غلبة العبيد الأشرار . قال فعجب كسرى لما أجابه النعمان به . وقال : إنك لأهل لموضعك من الرياسة فى أهل إقليمك ولما هو أفضل ثم كساه من كسوته وسرحه الى موضعه من الحيرة . فلما قدم النعمان الحيرة وفى نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من تنقص العرب وتهجين أمرهم . بعث الى أكثم ابن صيفى ، وحاجب بن زُرارة التميميين . والى الحارث بن ظالم ، وقيس بن مسعود البكريين ، والى خالد بن جعفر ، وعلقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل العامريين ، والى عمرو بن الشريد السلمى ، وعمرو بن معديكرب الزبيدى ، والحارث ابن ظالم المرى ، فلما قدموا عليه فى الخورنق قال لهم : قد عرَفتم هذه الأعاجم وقربَ جوار العرب منها وقد سَمعتُ من كِسْرى مقالاتٍ تخوفت أن يكون لها غوراً ويكون انما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العرب خَولا (٢) كبعض طماطمته (٣) فى تأديتهم الخراجَ اليه كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله ، فاقتص عليهم مقالات كسرى وما رد عليه . فقالوا : أيها الملك وفقك الله ما أحسن مارددت وأبلغ ماحججته به فمرنا بأمرك وادعنا الى ما شئت . قال : إنما أنا رجل منكم وانما ملكت وعززت بمكانكم وما يتخوف من ناحيتكم ، وليس شئ أحب الىّ مما سدد الله به أمركم ، وأصلح به شأنكم وأدام به عزكم ، والرأى أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتَنْطَلِقوا الى كِسْرَى فاذا دخلتم نَطَق كل رجل منكم بما حضره ليعلم أن العرب على غير ماظن أو حدثته نفسه . ولا يَنْطِقْ رجل منكم بما يُغضبه فانه ملك عظيم السلطان كثير الأعوان مترف معجب بنفسه ولا تنخزلوا له انخزالَ الخاضع الذليل وليكن أمر بين ذلك تظهر به وثاقة حلومكم ، وفضل منزلتكم ، وعظيم اخطاركم ، وليكن أول من يبدأ منكم بالكلام أكثم بن صيفى لسنّ حاله ، ثم تتابعوا على الامر من منازلكم التى وضعتكم بها فانما دعانى الى التقدمة اليكم على

(١) أخذ ثاره والترة كذلك (٢) أى عبيداً (٣) جمع طمطم بالكسر الذى فى لسانه عجمة لا يفصح

بجميل كل رجل منكم على التقدم قبل صاحبه فلا يكونن ذلك منكم فيجد فى آدابكم مطعنا فانه ملك قادر مسلط . ثم دعا لهم بما فى خزائنه من طرائف حُلَلِ الملوك كل رجل منهم حُلَّة وعممه عمامة وختمه بياقوتة وأمر لكل رجل منهم بنجيبة مهرية وفرس نجيبة وكتب معهم كتابا : « أما بعد فان الملك ألقى الىّ من أمر العرب ماقد علم، واجبته بما قد فهم ، بما أحببت أن يكون منه على علمٍ ولا يتلجلج فى نفسه أن أمة من الامم التى احتجزت دونه بمملكتها وحمت مايليها بفضل قوتها تبلغها فى شيء من الأمور التى يتعزز بها ذوو الحزم والقوة والتدبير والمكيدة وقد أوفدت أيها الملك رهطاً من العرب لهم فضل فى أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم فليسمع الملك وايغامض عن جفاء ان ظهر من منطقهم وليكرمنى باكرامهم وتعجيل سراحهم . وقد نسبتهم فى أسفل كتابى هذا الى عشائرهم » ، فخرج القوم فى أُهْبَتِهم حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن ، فدفعوا اليه كتابَ النعمان فقرأه وأمر بانزالهم الى أن يجلس لهم مجلساً يسمع منهم فلما ان كان بعد ذلك بايام أمر مَرازِبَتَهُ (١) ووجوهَ أهل مملكته فحضروا وجلسوا على كراسى عن يمينه وشماله ، ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التى وصفهم النعمان بها فى كتابه وأقام الترجمان ليؤدى اليه كلامهم . ثم أذن لهم فى الكلام . فقام أكثم بن صيفى فقال :

إِن أفضلَ الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكُها ، وأفضلَ الملوك أعمها نفعاً ، وخيرَ الأزمنة أخصبُها ، وأفضلَ الخطباء أصدقها ، الصدق منجاة ، والكذب مهواة ، والشر لجاجة ، والحزم مركب صعب . والعجز مركب وطيء ،

(١) جمع مرزبان بضم الزاى وهو رئيس الفرس تكلموا به قديما ، كذا فى شفاء الغليل وفى لسان العرب : واما المرازبة من الفرس فمعرب ، وقال ابن برى حكى عن الاصمعى انه يقال للرئيس من العجم مرزبان ومزبران بالراء والزاى وأنشد فى المعجم لبعض الشعراء :

الدار داران ايوان وغمدان والملك ملكان ساسان وقحطان
والارض فارس والاقليم بابل وا لا اسلام مكة والدنيا خراسان

الى ان قال

قد رتب الناس جم فى مراتبهم فمرزبان وبطريق وطاخان

آفة الرأى الهوى ، والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر ، حسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة ، اصلاح فساد الرعية خير من اصلاح فساد الراعى ، من فسدت بطانته كان كالغاص بالمــاء ، شر البلاد بلاد لا أمير بها ، شر الملوك من خافه البرىء . المرء يعجز لا محالة ، أفضل من الأولاد البررة . خير الاعوان من لم يُرآء بالنصيحة ، أحق الجنود بالنصر من حُسُنت سريرته . يكفيك من الزاد ما بلغك المحل ، حَسْبُكَ من شر سماعه [1] ، الصمت حكم ، وقليل فاعله . البلاغة الايجاز ، من شدد نفّر ، ومن تراخى تألف . فتعجب كسرى من اكثم . ثم قال : ويحك يا اكثمُ ما أحكمك ، وأوثقَ كلامك ، لولا وضعك كلامك فى غير موضعه . قال اكثم : الصدق ينبىء عنك لا الوعيد . قال كسرى : لو لم يكن للعرب غيرك لكفى . قال اكثم : رُبَّ قول ، أنفذَ من صَوْل [2]

ثم قام حاجب بن زرارة التميمى فقال : وَرِى زندك ، وعلت يدك ، وهيب سلطانك . إنَّ العربَ أمة قد غلظت أكبادُها ، واستحصدت مِرَّتها ، [3] ومنعت درتها ، وهى لك وامقة [4] ماتألفتها ، مسترسلة مالاينتها ، سامعة ماسامحتها ، وهى العلقم مرارةً ، وهى الصابُ [5] غضاضةً ، والعسل حلاوةً ، والماء الزلال سلاسةً . نحن وفودها اليك ، وألسنتها لديك ، ذمتنا محفوظة ، وأحسابنا ممنوعة ، وعشائرنا فينا سامعة مطيعة ، إنْ نؤُبْ لك حامدين خيراً فلك بذلك عموم مَحْمَدَتِنا ، وان نذم لم نخص بالذم دونها . قال كسرى : ياحاجب ما أشبهَ حجرَ التلال بالوان صخرها . قال حاجب : بل زئير الاسد بصولتها . قال كسرى : وذلك .

---

(١) أى اكتف من الشر بسماعه ولا تعاينه ويجوز ان يريد يكفيك سماع الشر وان لم تقدم عليه ولم تنسب اليه مثل قالته فاطمة بنت الخرشب الانمارية ام الربيع بن زياد العبسى لما اراد قيس بن زهير اخذها براحلتها ليرتهنها بالدرع التى كان ابنها اخذها منه ، يضرب عند العار والمقالة السيئة ويخاف منها كما فى فرائد اللآل (٢) ويروى . رب قول أشد من صول ، الصول : الحملة والوثبة عند الخصومة والحرب — يضرب عند الكلام يؤثر فيمن يواجه به وقد يضرب فى ما يتقى منه ، وأشد نعت قول كما فى الفرائد للاحدب (٣) المرة بالكسر القوة والشدة ، واستحصدت : استحكمت (٤) أى محبة (٥) شجر مر

ثم قام الحارث بن عباد البكرى فقال : دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظها ، وعلو سنائها ، من طال رشاؤه [١] كثر متحه ، ومن ذهب ماله قل منحه [٢] تناقل الاقاويل يعرف اللب . وهذا مقام سيوجف [٣] بما تنطق به الركب وتعرف به كنه حالنا العجم والعرب ، ونحن جيرانك الادنون ، وأعوانك المعينون ، خيولنا جمة ، وجيوشنا فخمة . إنْ استنجدتنا فغير رُبض [٤] وإنْ استطرقتنا فغير جُهْض [٥] ، وإن طلبتنا فغير غُمّض ، لا ننثنى لِذُعر ، ولا نتنكر لِدهْر ، رماحنا طوال ، واعمارنا قصار ، قال كسرى : انفُس عزيزة والله ضعيفة . قال الحارث : أيها الملك وأنّى يكون لضعيف عزة أو لصغير مرة . قال كسرى : لو قصر عمرك لم تستولِ على لسانك نفسك . قال الحارث : أيها الملك إن الفارس اذا حمل نفسه على الكتيبة مغرراً بنفسه على الموت فهى منية استقبلها ، وجنان استدبرها ، والعرب تعلم أنى أبعث الحرب قدما وأحبسها ، وهى تصرف بها حتى اذا جاشت نارها ، وسعرت لظاها ، وكشفت عن ساقها ، جعلتُ مقادها رمحى ، وبرقها سيفى ، ورعدها زئيرى ، ولم أقصر عن خوض ضحضاحها [٦] . حتى انغمس فى غَمرات لججها ، وأكونَ فلكا لفرسانى الى بحبوحة كبشها [٧] . فاستمطرها دما وأترك حُماتها جزر السباع وكل نَسْرٍ قَشْعَم [٨] . ثم قال كسرى لمن حضره من العرب : أكذلك هو ؟ قالوا : فعاله انطق من لسانه . قال كسرى : مارأيتُ كاليوم وفداً احشد ، ولا شهوداً أوفد .

ثم قام عمرو بن الشريد السلمى فقال : أيها الملك نعم بالك ، ودام فى السرور حالك ، إنّ عاقبةَ الكلام متدبرة . واشكالَ الامورِ معتبرة ، وفى كثير ثقلة ، وفى قليل بُلْغة [٩] . وفى الملوك سَوْرَةُ العز ، وهذا منطقٌ له مابعده ، شرف فيه

(١) الرشاء : الحبل والجمع ارشية مثل كساء واكسية ، والمتح : الاستقاء (٢) المنح العطاء (٣) وجف يجف وجيفاً : اضطرب (٤) رجل ربض عن الحاجات والاسفار بوزن جنب لا ينهض فيها (٥) أى فغير مانعين (٦) الضحضاح من الماء الذى يظهر منه القعر (٧) بحبوحة المكان : وسطه (٨) قشعم كجعفر المسن من الرجال والنسور (٩) ما يتبلغ به من العيش

من شرف ، وخمل فيه من خمل ، لم نأت لضيمك ، ولم نفد لسخطك ، ولم نتعرض لرِفْدِك [١] إن فى أموالنا منتقداً ، وعلى عزنا معتمداً ، إنْ أَوْرَيْنا ناراً اثقبنا ، وإنْ أَرود [٢] دهر بنا اعتدلنا ، الا أنا مع هذا لجوارك حافظون ، ولمن رامك كافحون حتى يحمد الصدر ، ويستطاب الخبر .. قال كسرى : مايقوم قصد منطقك بافراطك ، ولا مدحك بذمك ، قال عمرو : كفى بقليل قصدى هاديا ، وبايسر أفراطى مخبرا ، ولم يلم من عزبت نفسه عما يعلم ، ورضى من القصد بما بلغ . قال كسرى : ما كل مايعرف المرء ينطق به ، اجلسْ .

ثم قام خالد بن جعفر الكلابى فقال أحضر الله الملك اسعاداً ، وأرشده ارشاداً ، إن لكل منطقٍ فرصةً ، ولكل حاجةٍ غصةً ، وعِىّ المنطق اشدُّ من عِىِّ السكوت . وعثار القول انكأ من عثار الوعث [٣] وما فرصة المنطق عندنا الآ بما نهوى ، وغصة المنطق بما لانهوى غير مستساغة ، وتركى ما أعلم من نفسى ويعلم من سمعى انى له مطيق احبُّ الىَّ من تكلفى ماأتخوف ويتخوف منى . وقد أوفدنا اليك ملكنا النعمان ، وهو لك من خير الاعوان ، ونِعْمَ حامل المعروف والاحسان ، انفسنا بالطاعة لك باخعة [٤] . ورقابنا بالنصيحة خاضعة ، وأيدينا لك بالوفاء رهينة . قال له كسرى : نطقت بعقل ، وسمرت بفضل . وعلوت بنُبْل .

ثم قام عَلْقمة بن علاثة العامرى فقال : نهجت لك سبل الرشاد ، وخضعت لك رقاب العباد ، إنَّ للأقاويل مناهجَ ، وللآراء موالج ، وللعويص مخارجَ ، وخير القول أصدقه ، وأفضل الطلب أنجحه ، إنا وان كانت المحبة أحضرتنا . والوفادة قربتنا ، فليس من حضرك منا بأفضل ممن عزب عنك . بل لو قستَ كل رجل منهم وعلمت

(١) الرفد : العطاء (٢) أى رفق والارواد الامهال وفى المثل : الدهر ارود مستبد أى لين المعاملة غالب على امره (٣) المكان السهل الدهس تغيب فيه الاقدام والطريق العسر ووعث الطريق كسمع وكرم تعسر سلوكه واوعث وقع في الوعث وأسرف فى المال (٤) يقال بخع نفسه بخعاً من باب نفع قتلها من وجد أو غيظ وبخع لى بالحق بخوعاً انقاد وبذله

منهم ما علمنا ، لوجدتَ له في آبائه دنياً انداداً واكفاء كلهم الى الفضل منسوب ، وبالشرف والسؤدد موصوف ، وبالرأى الفاضل والأدب النافذ معروف ، يَحمى حماه ، ويروى ندامَاه ، ويذود أعداه ، لا تخمد ناره ، ولا يحترز منه جاره ، أيها الملك من يبل العرب يعرف فضلهم فاصطنع العرب فانهما الجبال الرواسى عزا ، والبحور الزواخر طميا ، والنجوم الزواهر شرفا ، والحصى عدداً ، فان تعرف لهم فضلهم يعزّوك ، وان تستصرخهم لا يخذلوك ، قال كِسْرَى وَخشِىَ أن يأتى منه كلام يحمله على السخط عليه : حَسْبُكَ ، أبلغتَ وأحسَنْتَ .

ثم قام قيس بن مسعود الشيبانى فقال : اطاب الله بك المراشد ، وجنبك المصائب ، ووقاك مكروه الشصائب [1] ما أحقنا إذ أتيناك باسماعك مالا يحنق صدرك ، ولا يزرع لنا حِقداً فى قلبك ، لم نقدم أيها الملك لمساماة ، ولم ننتسب لمعاداة ، ولكن لتعلم أنتَ ورعيتك ومن حضرك من وفود الأمم أنا فى المنطق غيرُ محجمين ، وفى الناس غير مقصرين ، انْ جورينا فغير مسبوقين ، وإنْ سومينا فغير مغلوبين . قال كسرى : غيرَ أنكم إذا عاهدتم فغير وافين ، وهو يعرض به فى تركه الوفاء بضمانه السواد ، قال قيس : أيها الملك ما كنت فى ذلك الا كوافٍ غدر به أو كخافر أخفر بذمته . قال كسرى : ما يكون لضعيف ضمان ولا لذليل خفارة . قال قيس : أيها الملك ما أنا فيما أخفر من ذمتى أحق بالزامى العار منك فيما قتل من رعيتك ، وانتهك من حرمتك ، قال كسرى : ذلك من ائتمن الخانة ، واستنجد الأثمة . نالَه من الخطأ ما نالنى ، وليس كل الناس سواء ، كيف رأيت حاجب بن زُرارة لم يحكم قواه فيبرم ويعهد فيوفى ويعد فينجز . قال : وما أحقَه بذلك وما رأيته الا لى . قال كسرى : القوم بزل فأفضلها أشدها .

ثم قام عامر بن الطفيل العامرى فقال : كثر فنون المنطق وليس القول اعمى من حِنْدِس الظلماء ، وانما الفخر فى الفَعال ، والعجز فى النجدة ، والسؤدد مطاوعة

(١) أي الشدائد

القدرة ، وما أعلَمَكَ بقدرنا ، وأبصَرَكَ بفضلنا ، وبالحرى ان أدالت الأيام ، ونَابَتِ الأحلام ، أن تحدث لنا أموراً لها أعلام . قال كسرى : وما تلك الأحلام؟ قال مجتمع الأحياء من ربيعة ومضر ، على أمر يذكر ، قال كسرى : وما الأمر الذى يذكر ؟ قال : مالى علم بأكثر مما خبرنى به مخبر . قال كسرى : متى تكاهنت يا ابن الطفيل ؟ قال : لست بكاهن ، ولكنى بالرمح طاعن . قال كسرى : فان أتاك آتٍ من جهة عينك العوراء ما أنت صانع ؟ قال : ماهيبتى فى قفاى بدون هيبتى فى وجهى وما أذهب عينى فى عبث ولكن مطاوعة العبث .

ثم قام عمرو بن معد يكرب الزبيدى فقال : انما المرءُ بأصْغَرَيْه قلبِهِ ولسانِهِ ،[1] فبلاغ المنطق الصواب ، ومِلاك النجدة الارتياد ، وعفو الرأى خير من استكراه الفكرة ، وتوقيف الخبرة ، خير من اعتساف الحيرة ، فاجتبذ[2] طاعتنا بلفظك ، واكتظم بادرتنا بحلمك[3] وألِنْ لنا كَنَفَكَ[4] يسلس لنا قِيادنا ،[5] فانا أناس لم يوقس صفَاتنا قراع مناقيرِ مَنْ أراد لنا قضما ، ولكن منعنا حمانا من كل من رام لنا هضما .

ثم قام الحارث بن ظالم المرى فقال : إنّ من آفة المنطق الكذب ، ومن

---

(١) هما القلب واللسان لصغر حجمهما وقيل سميا بذلك لانهما أكبر ما فى الانسان معنى وفضلا من باب التصغير للتعظيم كأنه قيل المرء يقوم معانيه بهما أو يكمل بهما ، قاله شقة بن ضمرة حين قال له النعمان بن المنذر : لان تسمع بالمعيدى خير من ان تراه ، فقال ابيت اللعن ان الرجال ليسوا بجزر تراد منها الاجسام وانما المرء باصغريه قلبه ولسانه ان قال قال بلسان وان قاتل قاتل بجنان ، فلما رأى المنذر عقله وبيانه سماه باسم ابيه ضمرة فقيل ضمرة بن ضمرة

(٢) الجبذ والاجتباذ : الجذب (٣) يقال كظم غيظه يكظمه كظماً : اجترعه كما فى الصحاح وقيل رده وحبسه واحتمل سببه وصبر عليه وهو مجاز مأخوذ من كظم البعير الجرة ومنه قوله تعالى : «والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس» والبادره : مايبدر من حدتك فى الغضب بلغت الغاية فى الاسراع من قول أو فعل وبادرة الشر ما يبدرك منه يقال اخشى عليك بادرته وبدرت منه بوادر غضب أى خطأ وسقطات عند ما احتد وقال النابغة :

ولا خير فى حلم اذا لم تكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

(٤) الكنف بفتحتين : الجانب (٥) يقال فلان سلس القياد وصعبه وهو على المثل أى يتابعك على هواك كما فى الاساس ، وفى حديث على (رض) : فن اللهج باللذة السلس القياد

لؤم الأخلاق المَلَق ، ومن خطل الرأى خفة الملك السلط ؛ فانْ أعلمناك أنّ مواجهتنا لك عن ائتلاف ، وإيفادَنا لك عن تصاف ، ما أنت لقبول ذلك منا بخليق ، ولا للاعتماد عليه بحقيق ، ولكن الوفاء بالعهود ، وأحكام ولَث العقود ، والامر بيننا وبينك معتدل . مالم يأت من قبلك ميل أوزلل . قال كسرى : من أنت ؟ قال الحارث بن ظالم . قال : ان فى أسماء آبائك لدليلا على قلة وفائك ، وان تكون أولى بالغدر ، وأقرب من الوزر . قال الحارث : ان فى الحق مغضبة ، والسرو التغافل ، ولن يستوجب أحد الحلم الامع القدرة ، فلتشبه أفعالك مجلسك ، قال كسْرى : هذا فتى القوم . ثم قال كسرى : قد فهمتُ مانَطَقت به خطباؤكم : وتفنن فيه متكلموكم ، ولولا انى أعلم أن الادب لم يثقف أوَدَكم [(١)] ولم يحكم أمركم ، وانه ليس لكم ملك يجمعكم فتنطِقُون عنده منطق الرعية الخاضعة الباخعة . فنطقتم بما استولى على السنتكم ، وغلب على طباعكم ، لم اجزلكم كثيراً مما تكلمتم به ، وانى لاكره ان أُجبَهَ وفودى أو أحنقَ صدورَهم ، والذى أحب من اصلاح مدبركم ، وتألف شواذكم ، والاعذار الى الله فيما بيني وبينكم ، وقد قبلت فيما كان فى منطقكم من صواب ، وصفحت عما كان فيه من خلل ، فانصرفوا الى ملككم فاحسنوا موازرته ، والتزموا طاعته ، واردعوا اسفهاءكم ، واقيموا أوَدَهُم ، وأحسنوا أدبهم ، فان فى ذلك صلاحَ العامّة .

كلام لابن المقفع فى فضل العرب

روى أبو العيناء الهاشمى عن الفخدمى عن شبيب بن شبة قال : كنا وقوفا بالمِرْبد موضع بالبصرة وكان المربد مألف الاشراف ، اذ أقبل ابن المقفع فبشبشنا [(٢)] به وبدأناه بالسلام فرد علينا السلام ، ثم قال : لو مِلتُم الى نيروز

(١) يقال ثقفته بالتشديد أى اقمت المعوج منه ، والاود الاعوجاج (٢) قال يعقوب يقال لقيته فتبشبش بى واصلها تبشش بى فابدلوا من الشين الوسطى باء كما قالوا تجفف

وظلها الظليل ، وسُورها المديد ، ونسيمها العجيب ، فعودتم ابدانكم تمهيدَ الارض ، وارحتم دوابكم من جهد الثقل ، فان الذى تطلبونه لم تفلتوه ، ومهما قضى الله لكم من شيء تنالوه ، فقبلنا وملنا فلما استقربنا المكان ، قال لنا : أيُّ الامم أعقل ؟ فنظر بعضُنا الى بعض فقلنا : لعله أراد أصله من فارس فقلنا: فارس . فقال ليسوا بذلك إنهم ملكوا كثيراً من الارض ، ووجدوا عظيماً من الملك ، وغلبوا على كثير من الخلق ، ولبِث فيهم عقد الأمر ، فما استنبطوا شيئاً بعقولهم ، ولا ابتدعوا باقى حكم فى نفوسهم . قلنا : فالروم . قال:أصحاب صنعة . قلنا : فالصين. قال : أصحاب طرفة . قلنا : فالهند . قال : أصحاب فلسفة . قلنا : السودان . قال :شر خلق الله . قلنا الترك .قال : كلاب مختلسة . قلنا:الخزر . قال : بقر سائمة قلنا : فقل . قال : العرب. قال فضحكنا قال : أما انى ما أردت موافقتكم ، ولكن اذ فاتنى حظى من النسبة ، فلا يفوتنى حظى من المعرفة . اِنَّ العربَ حكمت على غيرِ مثال مثل لها ، ولا آثار أثرت ، أصحاب ابل وغنم ، وسكان شعر وأدم ، يجود أحدهم بقوته ، ويتفضل بمجهوده ، ويشارك فى ميسوره ومعسوره ، ويَصِفُ الشيء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويحسن ماشاء فيحسن ، ويقبح ما شاء فيقبح ، أدَّبتهم أنفسهم ورفعتهم هممهم وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم ، فلم يزل حباء الله فيهم ، وحباؤهم فى أنفسهم ، حتى رفع لهم الفخر ، وبلغ بهم أشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر ، وافتتح دينه وخلافته بهم الى الحشر على الخير فيهم ولهم ، فقال سبحانه «اِنَّ الأرضَ لله يُورِثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» ، فمن وضع حقهم خسِر ، ومن أنكر فضلهم خصم ، ودفع الحق باللسان ، اكبت للجنان

مذهب الشعوبية فى العرب وابطاله

الشُعوبية فرقة من الناس ذهبوا الى تصغير شأن العرب . وانهم لايرون لهم

فضلا على غيرهم سُمُّوا بذلك لانتصارهم للشعوب التى هى مغايرة للقبائل . فقد قال جمع من المفسرين فى قوله تعالى (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل) : إن القبائل للعرب ، والشعوبَ للعجم ، ومن الناس من قد يفضل بعضَ أنواع العجم على العرب ، ومنهم أبو عبيدة وكان يرى رأى الخوارج وقد ألف كتابا فى مثالب العرب وابن غَرَسية وله رسالة فصيحة فى تفضيل العجم على العرب وقد رد عليه علماء الاندلس بعدة رسائل . قال أبو عبيد البكرى فى شرح امالى القالى : كتابُ مثالب العرب أصله لزياد ابن أبيه فانه لما ادعى أبا سفيان اباً علم ان العرب لاتقر له بذلك مع علمهم بنسبه فعمل كتاب المثالب . وألصق بالعرب كل عيب وعار وباطل وافك وبهت . ثم ثنى على ذلك الهيثم بن عدى وكان دعياً فاراد أن يعر أهل الشرف تشفياً منهم ثم جدد ذلك أبو عبيدة معمر بن المثنى وزاد فيه لأن أصله كان يهوديا ، أسلم جده على يدى بعض آل أبى بكر فانتمى الى ولاء تيم ، ثم نشأ غيلان الشعوبى الوراق وكان زنديقاً ثنوياً لايوشك فيه فعمل لطاهر بن الحسين كتابا خارجا عن الاسلام بدأ فيه بمثالب بنى هاشم وذكر مناكحهم وامهاتهم ثم بطون قريش ثم سائر العرب ونسب اليهم كل كذب وزور ووضع عليهم كل أفك وبهتان ووصله عليه طاهر بثلاثين ألفا . وأما كتاب المثالب والمناقب الذى بايدى الناس اليوم فانما هو للنضر بن شميل الحميرى ، وخالد بن سلمة المخزومى ، وكانا أنسبَ أهلِ زمانهما أمرهما هشام بن عبد الملك أن يبينا مثالب العرب ومناقبها ، وقال لهما ولمن انضم اليهما : دعوا قريشاً بما لها وما عليها فليس لقرشى فى ذلك الكتاب ذكر انتهى . وكثير من الاعاجم يرى هذا الرأى ، روى عن بديع الزمان الهمذانى انه قال : كنت عند الصاحب كافى الكفاة أبى القاسم اسمعيل بن عباد يوما وقد دخل عليه شاعر من شعراء العجم ، فانشده قصيدةً يفضل فيها قومه على العرب ويذمهم وهى :

غنينـا بالطبولِ عن الطـلُولِ ... وعن عَنَس عذافرة ذمولِ [١]
واذهلنى عقـارٌ عن عقـارِ ... فنى است ام القضاة مع العدولِ
فلستُ بتـاركٍ إيوانَ كسرى ... لتوضحَ أو لِحَوْمَلَ فالدّخُـولِ [٢]
وضبٍ بالفـلا ساعٍ وذئبٍ ... بها يَعْوِى وليثٍ وسطَ غيلِ [٣]
يسلّون السيوفَ لرأس ضَبٍّ ... حِراشـاً بالغَداة وبالأَصيـلِ [٤]
اذا ذَبَحوا فذلك يومُ عيـدٍ ... وان نَحَروا ففى عرسٍ جليلِ
أما لو لم يكن للفرس إلا ... نجارُ الصاحبِ القَرْمِ النبيلِ [٥]
لـكان لهم بذلك خـيرُ فخرٍ ... وجيلُهُمُ بذلك خـير جيل

فلما وصل الى هذا الموضع من انشاده قال له الصاحب : فداك . ثم اشرأبَّ [٦] ينظر الى الزوايا وأهل المجلس وكنت جالساً فى زاوية من البَهْوِ [٧] فلم يَرَنى فقال : ابن أبى الفضل . فقمت وقبّلتُ الأرضَ وقلت : أمرك . وقال : أجب عن ثلاثتك قلت : وما هى ؟ قال : أدبك ونسبك ومذهبك . فقلت : لا فسحةَ للقول ولا راحةَ للطبع إلا السرد كما تسمع . ثم انشدت أقول :

أراكَ على شفـا خطرٍ مهُولِ ... بما أودعتَ لفظكَ من فُضولِ
تُريد على مـكارِمنا دليلاً ... متى احتاجَ النهارُ الى دليلِ ؟
ألسنا الضاربينَ جزى عليكم ... وإن الجزى أولى بالذّليـلِ
متى قـرعَ المنـابرَ فارسىّ ... متى عَرَف الأَغرَّ من الُحجولِ

(١) العذافر كعلابط الاسد والعظيم الشديد من الابل، والذمول الناقة التى تذمل في سيرها والذميل السير اللين ما كان اوفوق العنق (٢) يشير بهذا الى ما قاله امرؤ القيس فى معلقته وهو :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها ... لما نسجتها من جنوب وشمأل

وكل هذه أسماء مواضع (٣) الفلا جمع فلاة وهى القفر ، والغيل : موضع الاسد (٤) حرش الضب : صاده ، والاصيل : المشي (٥) النجار بالكسر الاصل ، والقرم : السيد (٦) يقال اشرأب اليه مد عنقه لينظر أو ارتفع والاسم الشرأبيبة كالطمأنينة (٧) البهو البيت المقدم امام البيوت

متى عرفتْ — وأنت بها زعيم — أكفُّ الفُرس أعرافَ الخيولِ

فخرتَ بملءِ ما ضغنيكَ هُجْراً على قحطانَ والبيتِ الأصيلِ (١)

وتفخر أنَّ مأكولاً ولبساً وذلك فخرُ ربَّاتِ الحجولِ

ففاخرهن فى خدٍّ أسيلٍ وفرعٍ فى مفارقها رسيلِ

وأمجدُ من أبيك اذا تزيّا عُراةٌ كالليوثِ على الخيول

قال : فلما أتممتُ انشادى التفتَ اليه الصاحب وقال له : كيف رأيت ؟ قال لو سمعتُ به ما صدقت . قال : فاذاً جائزتك جوازك ان رأيتك بعد هذا ضربت عنقك . ثم قال : لا أدرى أحداً يفضل العجم إلا وفيه عرق من المجوسية يَنزِع اليه . (٢) والغالب أن مثل هذا الكلام لا يصدر إلا عن نوعِ نفاقٍ إما فى الاعتقاد وإما فى العمل المنبعث عن هوى النفس مع شبهات اقتضت ذلك ، ولهذا جاء فى الحديث « حب العرب إيمان وبغضهم نفاق » ، مع أن الكلام فى هذه المسائل لا يكاد يخلو عن هوى النفس من الطرفين ، وهذا فى الشريعة محرم فى جميع المسائل ، فان الله تعالى قد أمَرَ المؤمنين بالاعتصام بحبل الله ونهاهم عن التفرق والاختلاف وأمرهم باصلاح ذات البين . وفى الحديث : مَثَلُ المؤمنين فى توادّهم وتراحُمِهم وتعاطفهم كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهرِ والحُمّى . وفى حديثٍ آخر : لا تقاطعُوا ولا تدابَرُوا ولا تباغضُوا ولا تحاسدُوا وكونوا عبادَ اللهِ اخوانا كما أمركم الله تعالى . وإنى لا أعجب من غير المسلمين اذا نازع فى هذه المسألة ، وإنما العجبُ ممن يلتزم أمْرَ الشريعة ويخالف فيما سمعت من فضل العرب مع ما ورد من النصوص الصريحة فى ذلك . فقد روى الامام احمد بن حنبل فى مسنده عن العباس رضى الله تعالى عنه ، قال : بلغ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعضُ ما يقول الناس ، قال فصعِدَ المنبرَ فقال :

(١) الماضغان اصول اللحيين عند منبت الاضراس ، والهجر بالضم القبيح من الكلام

(٢) أى يميل اليه

من أنا ؟ قالوا : أنت رسول الله . فقال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إنَّ اللهَ خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه ، وجعلهم فرقتين ، فجعلنى فى خير فرقة ، وخلق القبائل فجعلنى فى خير قبيلة ، وجعلهم بيوتاً فجعلني فى خيرهم بيتاً ، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً . فأخبر صلى الله تعالى عليه وسلم أنه ما انقسم الخلق فريقين الا كان هو فى خير الفريقين . وقوله فى الحديث خلق الخلق فجعلنى فى خيرهم ثم جعلهم فرقتين فجعلنى فى خير فرقة يحتمل شيئين . أحدهما : أن الخلق هم الثقلان أى الجن والانس أو هم جميع ما خلق فى الأرض وبنو آدم خيرهم . وان قيل بعموم الخلق حتى تدخل فيه الملائكة ففيه تفضيل جنس بنى آدم على جنس الملائكة وله وجه صحيح ، ثم جعل بنى آدم فرقتين وهما العرب والعجم ، ثم جعل العرب قبائل ، فكانت قريشٌ أفضلَ قبائلِ العرب ، ثم جعل قريشاً بيوتاً ، فكانت بنو هاشم أفضلَ البيوت . ويحتمل انه أراد بالخلق بنى آدم ، فكان فى خيرهم — أى فى ولد ابراهيم أو فى العرب — ثم جعل بنى ابراهيم فرقتين ، بنى اسمعيل ، وبنى اسحق ، وجعل العرب عدنان وقحطان ، فجعلنى فى بنى اسمعيل فى بنى عدنان ، ثم جعل بنى اسمعيل وبنى عدنان قبائل ، فجعلنى فى خيرهم قبيلة وهم قريش . وعلى كل تقديرٍ فالحديث صَريح بتفضيل العرب على غيرهم ، ولهذا وردت أخبار صحيحة فى محبتهم والاعتناء بشأنهم منها : ان حب العرب ايمان وبغضهم كفر . من أحب العرب فقد أحبنى ، ومن أبغض العرب فقد أبغضنى . ومنها : من غش العرب لم يدخل فى شفاعتي ولم تنله مودتى . وذلك لأن الغش للنوع لا يكون مع محبتهم بل لا يكون الا مع استخفافٍ أو بُغْض . ومنها : أحبوا العرب لثلاثٍ لأنى عربى ، والقرآن عربى ، ولسان أهل الجنة عربى . وروى الترمذى عن سلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه انه قال : فضلتمونا يا معشرَ العرب باثنتين لا نؤمكم ولا ننكح نساءكم . وهذا مما احتج به أكثر الفقهاء الذين جعلوا العربيةَ من الكفاءة بالنسبة الى العجمى ، واحتج

به احمد فى احدى الروايتين على ان الكفاءة ليست حقاً لواحد معين بل هى من الحقوق المطلقة فى النكاح حتى إنه يفرق بينهما عند عدمها . واحتج أصحاب الشافعى بهذا على أن الشرف مما يوجب التقديم فى الصلاة . وذكر ابو محمد حرب ابن اسمعيل الكرمانى صاحبُ الامام احمد فى وصفه للسنة التى قال فيها هذا مذهب أئمة العلم وأصحاب الأثر وأهل السنة المعروفين بها المقتدى بهم فيها وأدركت من أدركت من علماء أهل العراق والشام وغيرهم عليها ، فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها فهو مبتدع خارج عن الجماعة زائل عن منهج السنة وسبيل الحق . وهو مذهب احمد واسحق بن ابراهيم بن مخلد وعبد الله بن الزبير الحميدى وسعيد بن منصور وغيرهم ممن جالسنا وأخذنا عنهم العلم . وكان من قولهم : إن الايمان قولٌ وعملٌ ونية وساق كلاما طويلا الى ان قال : ونعرف للعرب حقها وفضلها وسابقتها ونحبهم لحديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : حبُّ العرب ايمان وبغضهم نفاق ، ولا نقول بقول الشعوبية وارذال الموالى الذين لايحبون العربَ ولا يقرون بفضلهم ، فان قولهم بدعة وضلال عند ذوى الفضل والكمال . انتهى . والاحاديث فى هذا الباب كثيرة ، وللحافظ العراقى رسالةٌ فى ذلك سماها (القُرَب فى محبة العرَب) . وكذا لغيره من العلماء المتقدمين .

شُبَه الشعوبية وإبطالها

قالت الشعوبية : إنا ذهبنا الى العدل والتسوية وان الناس كلهم من طينة واحدةٍ وسُلالةِ رجلٍ واحد ، واحتججنا بقول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : المؤمنون اخوة تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم . وهم يد على من سواهم. وقوله فى حجة الوداع وهى خطبته التى ودع فيها أمته وختم نبوته : أيها الناس إن الله تعالى أذهب عنكم نَخوة الجاهلية وفخرها بالآباء كلكم لآدم ، وآدم من تراب ،

ليس لعربى على عجمى فضـل الا بالتقوى . وهذا القول من النبى عليه الصلاة والسلام موافق لقوله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فأبيتم إلاّ فَخْراً وقلتم لا تساوينا العجم وإن تقدمتنا الى الاسلام ثم صلت حتى تصير كالحَنِىّ وصامت حتى تصير كالاوتار . ونحن نسامحكم ونجيبكم الى الفخر بالآباء الذى نهاكم عنه نبيكم صلى الله تعالى عليـه وسلم اذ أبيتم إلاّ خلافه وانما نجيبكم الى ذلك لاتباع حديثه وما أمر به صلى الله تعالى عليه وسلم فنرد عليكم حجتكم فى المفاخرة ونقول: أخبرونا ان قالت لكم العجم هل تعـدون الفخر كله أن يكون ملكا أو نبوة ؟ فان زعمتم أنه ملك ، قالت لكم : وإن لنا ملوكَ الارض كلها من الفراعنة والنماردة والعمالقة والا كاسرة والقياصرة ، وهل ينبغى لاحد أن يكون له مثل ملك سليمان عليه الصلاة والسلام الذى سخرت له الانس والجن والطير والريح وانما هو رجل منا ؟ أم هل كان لاحد مثل ملك الاسكندر الذى ملك الارض كلها وبلغ مطلع الشمس ومغربهـا وبنى رَدْماً (١) من حديد ساوى به بين الصَدَفَيْن (٢) وسجن وراءه خلقاً من الناس تربى على خلق الارض كلها كثرة ؟ يقول الله عز وجل : (حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كُلّ حَدَب ينسلون) (٣) ، فليس شئ على كثرة عددهم من هذا وليس لاحد من ولد آدم مثل آثاره فى الأرض ولو لم يكن الا منارة اسكندرية التى أسسها فى قعر البحر وجعل فى رأسها مرآة يظهر البحر كله فى زجاجتها . وكيف ومنا ملوك الهند الذين كتب أحدهم الى عمر بن عبد العزيز من ملك الأملاك الذى هو ابن الف ملك ، والذى تحته بنت الف ملك ، والذى فى مربطه الف فيل ، والذى له نهران ينبتان العود والفُوَّة والجوز والكافور الذى يوجد ريحه على اثنى عشر ميلا ، الى

---

(١) هو السد بين يأجوج ومأجوج (٢) الصدفان : ناحيتا الجبل وقوله عز وجل ساوى بين الصدفين أى مابين الناحيتين من الجبل (٣) الحدب بفتحتين ما ارتفع من الارض ، وينسلون أى يسرعون من النسلان وهو مقاربة الخطو مع الاسراع كمشى الذئب اذا اسرع يقال مر الذئب ينسل ويعسل

ملك العرب الذى لا يشرك بالله شيئاً . أما بعد فانى أردتُ أن تبعثَ إلىَّ رجلا يعلمنى الاسلامَ ويوقفنى على حدوده والسلام...وإنْ زعمتم أنه لا يكون الفخر إلا بنبوة فان منّا الأنبياء والمرسلين قاطبةً من لَدُنْ آدم ماخلا أربعةً هوداً وصالحاً واسماعيلَ ومحمداً عليهم الصلوة والسلام . ومنا المُصْطَفَوْنَ من العالمين آدم ونوح وهما العنصران اللذان تفرع منهما البشر فنحن الأصل وأنتم الفرع ، وانما أنتم غصن من أغصاننا فقولوا بعد هذا ما شئتم وادعوا . ولم تزل الأمم كلها من الأعاجم فى كل شق من الأرض لها ملوك تجمعها ومدائن تضمها وأحكام تدين بها وفلسفة تنتجها وبدائعُ تفتقها فى الأدوات والصِناعات ، مثل صنعة الديباج وهى أبدع صنعة ، ولعب الشطرنج وهى أشرف لعبة ، ورمانة القبان التى يوزن بها رطل واحد ومائة رطل ، ومثل فلسفة الروم فى ذات الخلق والقانون والاصطرلاب الذى يعدل به النجوم ويدرك به علم الأبعاد ودَوَران الأفلاك وعلم الكسوف وغير ذلك من الآثار المتقنة ، ولم يكن للعرب مَلِكٌ يجمع سوادها ويضم قواصيها ، ويقمع ظالمها وينهى سفيهَا ، ولا كان لها قط نتيجة فى صناعة ولا أثر فى فلسفة إلا ما كان من الشعر . وقد شاركتها فيها العجم ، وذلك أن للروم أشعاراً عجيبةً قائمةَ الوزن والعروض فما الذى تفتخر به العرب على العجم فانما هى كالذئاب العادية ، والوحوش النافرة ، يأكل بعضها بعضاً ويغير بعضها على بعض . فرجالها موثقون فى حلَق الأسر ، ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الابل ، فاذا أدركهن الصريخ استنقذن بالعشىّ ، وقد وطئن كما توطأ الطريق المَهْيَع ،(١) فخر بذاك شاعر فقال: وأوثق عند المردفات عشيةً (٢) فقيل له : ويحك وأيُّ فخر ان تلحق بالعشى وقد نكحن وامتهنَّ . وقال جرير يعير بنى دارم بغلبة قيس عليهم يوم رحرحان :

وبرحرحانَ غداةَ كُبِّلَ معبد نُكِحَتْ نساؤُكُمُ بغيرِ مُهورِ

(١) الواسع الواضح (٢) تمامه : لحاقا اذ ماجرد السيف مانع

وقال عنترة لامرأته :

إن الرجالَ لهم إليكِ وَسيلةٌ ... إنْ يأخذوكِ تكحَّلى وتخضَّبى
وأنا امرؤٌ إنْ يأخذونى عَنْوةً ... اقرنْ الى شدِّ الركابِ واجنبِ
ويكون مركبكِ القعود ورحله ... وابنُ النعامة عندَ ذلك مركبى

أراد بابن النعامة ، باطنَ القدم . وسبى ابن هبولة الغسانىُّ امرأةَ الحارث بن عمرو الكِنْدِىِّ فلحقه الحارث فقتله وارتجع المرأة ، وقد كان نال منها فقال لها : هل كان أصابك ؟ قالت : نعم واللهِ فما اشتملت النساء على مثله . فأوثقها بين فرسين ، ثم استحضرهما حتى قطعاها ، وقال فى ذلك :

كل أُنثى وإنْ بدا لكَ منها ... آيةُ الود حبها خَيْتَعُورُ (١)
إنَّ من غرَّهُ النساء بودٍّ ... بعدَ هندٍ لجاهلٌ مغْرُورُ

وسبت بنو سليم ريحانةَ أخت عمرو بن معديكرب فارس العرب ، فقال فيها عمرو :

أمِنْ (ريحانة) الداعى السميع ... يُؤرِّقُنى وأصحابى هجوع

وفيها يقول :

اذا لم تَستَطِعْ أمراً فدَعْهُ ... وجاوِزْهُ الى ماتَستَطِيعُ (٢)

وأغار الحوفزان على بنى منقذ بن زيد مناة فاحتمل الزرقاءَ من بنى ربيع بن الحارث فأعجبته وأعجبها فوقع بها ، ثم لحقه قيس بن عاصم فاستنقذَها وردَّها الى أهلها بعد أن وقع بها . . فهذا كان شأن العرب والعجم فى جاهليتها ، فلما أتى الله بالاسلام كان للعجم شطر الاسلام . وذلك ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بُعِثَ الى الاحمر والاسود من بنى آدم ، وكان أول من تبعه حر وعبد ، واختلف الناس

(١) الخيتعور : السيئة الخلق وكل مالا يدوم على حالة (٢) قال الدماميني : يحكى أن شخصاً سأل الخليل أن يقرأ عليه علم العروض فاقام مدة يختلف اليه للقراءة ولم يحصل شيئاً فأعيا الخليل أمره ولم ير أن يواجهه بالمنع حياء منه فقال له يوماً وقد حضر للقراءة قطع قول الشاعر اذا لم تستطع البيت ففطن الرجل الى ما اراده الخليل فانصرف ولم يعد ، وانا أعجب ممن تفطن لمثل هذا كيف يصعب عليه فن العروض مع سهولته والله مقدر الامور

فيهما فقال قوم : ابو بكر ، وبلال . وقال قوم : عليٌّ وصُهَيب . ولما احتضر عُمَرُ ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه قدّم صهيباً على المهاجرين والانصار فصلى بالناس وقال له : استخلف . وقال : ما إخالنى ممن استخلف ، فذكر له الستة من أهل حراء فكلهم طعن عليه ، ثم قال لو أدرك سالماً مولى أبى حذيفة حياً لما شككت فيه ، فقال فى ذلك شاعر العرب :

هذا صُهَيبٌ أمَّ كلَّ مُهاجرٍ — وعلا جميعَ قبائلِ الأنصارِ
لم يرض منهم واحداً لصلاتنا — وهُمُ الهُداةُ وقادةُ الأخيارِ
هـذا ولو كان المثرم سالمٌ — حيًّا لنال خِلافَةَ الأمصارِ
ما زال هذى العجم تحيا دوننَا — ان العريب لفى عَمىً وخَسارِ

وقال بجير يعيّر العرب باختلافها فى النسب واستلحاقها للأدعياء :

زعمتم بأن الهند أولادُ خِندِفٍ — وبينَكمُ قربى وبين البرابرِ
وديلمُ من نَسْلِ ابن ضبّةَ باسل — وبرجان من أولاد عمرو بن عامرِ
فقد صار كلُّ الناس أولادَ واحدٍ — وصاروا سواء فى أصولِ العناصر
بنو الاصفرِ الاملاكُ أكرمُ منكمُ — وأولى بقربانا ملوكُ الاكاسِرِ
أتطمع فى صهرى دَعِيًّا مجاهراً — ولم تر ستراً من دعيٍّ مُجاهرِ
وتشتم لؤماً رهطَه وقبيلَه — وتمدح جهلا طاهراً وابنَ طاهر

وقال الحسن بن هانئ على مذهب الشعوبية :

وجاورتُ قَوْماً ليس بينى وبينهم — أواصِرُ الاَّ دعوةٌ وبطونُ
اذا ما دعى باسمى العَرِيفُ أجبتهُ — الى دعوةٍ مما علىَّ يهونُ
لازد عمـان بن المهلّب بزوة — اذا افتخر الاقوام ثم تلين
وبكر يرى أن النبوة أنزلت — على مسمع فى البطن وهو جنين
وقالت تميم : لا نَرَى أن واحداً — كأحنفنا حتى المماة يكونُ

فلا لمت قيسا بعـدها فى قتيبةٍ اذا افتخروا ان الحديث شجون[١]

ردّ ابن قُتَيْبَةَ على الشعوبية

قال ابن قتيبة فى كتاب تفضيل العرب : وأما أهل التسوية فان منهم قوماً أخذوا ظاهر بعض الكتاب والحديث فقضوا به ولم يفتشوا عن معناه ، فذهبو الى قوله عز وجل (يا أيها الناسُ إنا خلقنا كم من ذكرٍ وانثى وجعلنا كم شعوبا وقبائل لِتعارَفُوا إن أكرمَكُمْ عِنْدَ اللهِ اتقاكم) . وقوله : (إنما المؤمنونَ إخوةٌ فأَصْلحوا بينَ اخوَيْكم) . والى قول النبى صلى الله تعالى عليـه وسلم فى خطبته فى حجة الوداع : (أيها الناس إن الله قد أَذْهَبَ عنكم نخوةَ الجاهلية وتفاخُرَها بالآباء ليس لعربيٍّ على عجمى فخرٌ إلاّ بالتقوى ، كلُّكم لآدم وآدم من تراب) . وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم (المؤمنون تتكافأُ دِماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يدٌ على من سواهم) . وانما المعنى فى هذا أن الناس كلهم من المؤمنين سواء فى طريق الأحكام والمنزلةِ عند الله تعالى والدار الآخرة ، لو كان الناسُ كلُّهم سواءً فى أُمور الدنيا ليس لِأحَدٍ فضلٌ الا بأمر الآخرة لم يكن فى الدنيا شريف ولا مشروفٌ ، ولا فاضل ولا مفضول ، فما معنى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : (اذا أتاكم كريمُ قومٍ فأَكْرِمُوه) . وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : (أَقيلوا ذوى الهيآت عثراتِهم) . وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم فى قيس ابن عاصم : (هذا سيد الوَبَرِ) . وكانت العرب تقول : (لا يزال الناس بخير ما تَبَاينوا فاذا تساوَوْا هلكوا) . تقول: لا يزالون بخير ما كان فيهم أشراف وأخيار فاذا جملوا كلهم جملة واحدة هلكوا . وإذا ذمت العرب قوماً قالوا : « سَوَاسِية كأسنان الحمار » .[٢] وكيف يستوى الناس فى فضائلهم والرجل الواحد لا يستوى

(١) هذا مثل ولفظه : الحديث ذو شجون أي ذو طرق الواحد شجن بسكون الجيم ، يضرب هذا المثل فى الحديث يتذكر به غيره ، وأول من قاله ضبة بن اد بن طابخة بن الياس ابن مضر ، وقصته مذكورة فى كتب الامثال فلتراجع (٢) قال فى الصحاح هما فى هذا الامر سواء ، وإن شئت سواآن وهم سواء للجمع وهم اسوآء وهم سواسية مثل يمانية على

فى نفسه أعضاؤه ولا تتكافأ مفاصله ، ولكن لبعضها الفضل على بعض ، وللرأس الفضل على جميع البدن بالعقل والحواس الخمس وقالوا : القلب أمير الجسد ، ومن الأعضاء خادمة ومنها مخدومة ، ثم قال : ومن أعظم ما ادعت الشعوبية فخرهم على العرب بآدم عليه السلام ، وبقول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « ولا تفضلونى عليه فانما أنا حسنة من حسناته » . ثم فخرهم بالأنبياء أجمعين وانهم من العجم غير أربعة هود وصالح واسمعيل ومحمد عليهم الصلوة والسلام ، واحتجوا بقول الله عز وجل : (إِنَّ اللهَ اصطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ ابراهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العالمين ذريةً بعضها من بعض والله سميع عليم) . ثم فخروا باسحق بن ابراهيم وانه لسارة : وان اسمعيل لأمة تسمى هاجر . وقال شاعرهم :

فى بلدة لم تصل عُكْلٌ بها طُنُباً ... ولا خِباءٌ ولا عَكٌّ وهَمْدانُ (١)
ولا لِجَرْمٍ ولا نَهْدٍ بهـا وطن ... لكنها لبنى الأحرار أوطان (٢)
أرض تبنى بها كسرى مساكنه ... فما بها من بنى اللخناء انسان

فبنو الأحرار عندهم العجم ، وبنو اللخناء عندهم العرب ، لأنهم من ولد هاجر وهى أمة . وقد غلطوا فى هذا التأويل ، وليس كل أمة يقال لها اللخناء ،

غير قياس ، وفى التهذيب : قال الفراء هم سواسية يستوون فى الشر ولا اقول فى الخير ولا واحد له وحكى عن ابى القمقام سواسية اراد سواء ثم قال سية ، وروى عن ابى عمرو انه قال ما أشد ماهجا القائل :

سواسية كاسنان الحمار

وذلك ان اسنانه مستوية انتهى ، وفى الفرائد : سواسية كاسنان الحمار ، ويقال سواسية المشط ، قيل لايعرف للسواسية مفرد وانما هى كلمة موضوعة موضع سواء فى الشر والمكروه وقيل جمع سواء على غير قياس ، والمراد فى المثل فى الشر واول من تكلم به النبى صلى الله عليه وسلم

(١) عكل على مافى نهاية الارب للقلقشندى بطن من طابخة من العدنانية وهم بنو عوف بن عبد مناة بن اد بن طابخة ، والطنب بضمتين حبل طويل يشد به سرادق البيت أو الوتد والجمع اطناب وطنبة ، وعك : بطن من الازد من القحطانية ، وهمدان : بطن من كهلان من القحطانية قال فى العبر : وديار همدان لم تزل باليمن من شرقيه ولما جاء الاسلام تفرق من تفرق وبقى من بقى باليمن ، وكانت همدان شيعة أمير المؤمنين على بن ابى طالب (رض) عند وقوع الفتن بين الصحابة (رض) (٢) قال المجد : جرم بطن فى طيئ وابن زبان بطن فى قضاعة انتهى والتفصيل فى نهاية الارب للقلقشندى ، ونهد : بطن من قضاعة من القحطانية

وانما اللخناء من الاماء الممتهنة فى رَعْىِ الابل وسقيها وجمع الحطب ، وانما أخذ من اللخن وهو نتن الريح يقال لخن السقاء اذا تغير ريحه . فاما مثل هاجر التى طهرها الله تعالى من كل دنس وارتضاها للخليل فراشاً وللطيبين اسمعيلَ ومحمدٍ عليهما السلام أمّاً ، وجعلها سلالة فهل يجوز للمحد فضلاً عن مسلم أن يسميها لخناء ؟

رد الشعوبية على ابن قتيبة

قال بعض من يرى رأى الشعوبية فيما يرد به على ابن قتيبةَ فى تباين الناس وتفاضلهم والسيد منهم والمَسود : انا لا ننكر تباينَ الناس ولا تفاضلهم ولا السيد منهم والمسود والشريف والمشروف ، ولكنا نزعم أن تفاضلَ الناس فيما بينهم ليس بآبائهم ولا بأحسابهم ولكنهم بأفعالهم ، وأخلاقهم ، وشرف أنفسهم ، وبعد هممهم ، ألا ترى أنه من كان دنىَّ الهمة ، ساقطَ المروة ، لم يشرف وان كان من بنى هاشم فى ذُؤابتها [1] ومن أميّة فى أرومتها [2] ومن قيس فى أشرف بطن منها . إن الكريمَ من كَرُمَتْ حاله ، والشريفَ من شرفت همته . وهو معنى حديث النبي عليه الصلاة والسلام : (اذا أتاكم كريمُ قوم فأكرموه) . وقوله فى قيس بن عاصم : (هذا سيد أهل الوبر) انما قال فيه لسؤدده فى قومه بالذب عن حريمهم وبذل رِفْدِه لهم ، ألا ترى أن عامرَ بنَ الطُفَيْل كان فى أشرف بطن فى قيس يقول :

وانى وان كنتُ ابنَ سيد عامرٍ ... وفارسَها المشهورَ فى كل موكب [3]
فما سوَّدَتْنى عامرٌ عن وراثةٍ ... أبى اللهُ أن أسمُوَ بأمٍ ولا أبِ
ولكننى أحمى حماها واتقى ... أذاها وارمى من رماها بمنكبِ

(١) الذؤابة من العز والشرف وكل شىء اعلاه (٢) الارومة بالفتح وتضم الاصل
(٣) يستشهد النحويون بهذا البيت على تسكين واو اسمو مع الناصب لاجل الضرورة .. والمعنى انه وان كان كريم الاصل شريف المحتد الا انه لم يرث السيادة عن آبائه وانما سيادته من نفسه لحملها على معالى الامور ثم قال ابى الله ان اسمو بام ولا اب أى لايكون ذلك ابداً — والموكب : الجماعة ركباناً او مشاة او ركاب الابل للزينة

وقال الآخر

إِنّا وإنْ كرمت أوائِلُنا لسنا على الأحساب نَتَّـكِلُ

نَبْني كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل مثلَ ما فعلوا

وقال قُسُّ بن ساعدة « لاقضينّ بين العرب بقضية لم يقضِ بها أحد قبلى ولا يردُّها أحد بعدى ، أيّما رجل رمى رجلا بملامة دونها كرم فلا لوم عليـه ، وأيما رجل ادعى كرماً دونه لؤم فلا كرم له » . ومثله قول عائشة أم المؤمنين « كل كرم دونه لؤم فاللؤم أولى به ، وكل لؤم دونه كرم فالكرم أولى به » . تعنى بقولها ان أولى الاشياء بالانسان طبائع نفسه وخصالها ، فاذا كرمت فلا يضره لؤم أوليته . وان لؤمت فلا ينفعه كرم أوليته . وقال الشاعر :

نفسُ عِصامٍ سَوَّدَتْ عِصاما وعلّمته الكَرَّ والإِقداما (١)

وجعلته مَلِـكاً هُماما (٢)

وقال آخر :

مالى عقلى وهمتى حسبى ما أنا مولى ولا أنا عربى

ان انتمى مُنْتَمٍ الى أحد فاننى منتمٍ الى أدبى (٣)

وتكلم رجل عند عبدالملك بن مروان بكلام ذهب فيه كلَّ مذهبٍ فأعجب عبد الملك ماسمع منـه ، فقال : ابن من أنت ياغلام ؟ قال : ابنُ نفسى يا أمير المؤمنين التي نلت بهـا هذا المقعد منك . قال : صدقتَ قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : حَسَبُ الرجل ماله وكرمه دينه . وقال عمر بن الخطاب

(١) قيل عصام هو ابن شهبر حاجب النعمان بن المنذر الذى قال له النابغة حين حجبه عن عيادة النعمان من قصيدة له :

فانى لا ألومك فى دخولى ولـكن ماوراءك ياعصام

يضرب فى نباهة الرجل من غير قديم ، ويسمى الخارجى أى خرج بنفسه من غير اولية كانت له ، وفى المثل : كن عصامياً ولا تكن عظامياً ، الكر العطف والرجوع ، واقدم على الامر اقداما شجع (٢) الهمام بالضم الملك العظيم الهمة والسيد الشجاع السخى خاص بالرجال (٣) الانتماء الانتساب

رضى الله تعالى عنه : ان كان لك مال فلك حسب ، وان كان لك دين فلك كرم .
وقد تعجب شهاب الدين الاندلسى فى كتابه العقد حيث قال بعد ذكر ما سبق من الكلام : وما رأيت أعجبَ من ابن قتيبةَ فى كتاب تفضيل العرب إنه ذهب فيه كل مذهب من فضائل العرب ، ثم ختم كتابه بمذهب الشعوبية . فنقض فى آخره كل ما بنى فى أوله ، فقال فى آخر كلامه : وأعدل القول عندى أن الناس كلهم لأبٍ وأمّ خلقوا من تراب وأعيدوا الى التراب ، وجروا فى مجرى البول ، وطرأ عليهم الأقذار ، فهذا نسبهم الأعلى الذى يردع به أهل العقول عن التعظيم والكبرياء ، والفخر بالآباء ، ثم الى الله مرجعهم فتنقطع الانساب وتبطل الاحساب ، إلا من كان حسبه التقوى ، أو كانت ماتته طاعة الله .

قول الشعوبية فى مناكح العرب

إنما كانت العرب فى الجاهلية ينكح بعضهم نساء بعض فى غاراتهم بلا عقد نكاح ولا استبراء من طَمْث أى الحيض فكيف يدرى أحدهم من أبوه ، وقد فَخَرَ الفرزدق ببني ضَبّةَ حين يبتزون العيال فى حروبهم فى سبية سبوها من بنى عامر بن صعصعة :

فظلّتْ وظلوا يرْكبونَ هَبيرَهَا ... وليسَ لهم إلا عَوالِيَها سِتْرُ

والهَبير : المطمئن من الأرض . وانما أراد ههنا فرجها ، وهو القائل فى بعض ما يفخر به :

ومنا التميميُّ الذى قامَ أيْرُهُ ... ثلاثين يوماً ثم زادهُمُ عشرا

الرد عليهم فى ذلك

إن جميع ماذكره الشعوبية فى شأن مناكح العرب ، وما أوردوه فى باب الطعن على انسابهم بما كانوا يتعاطونه فى الغارات من سبى النساء واسترقاقهم ووطئهم من غير استبراء من طمث ونحو ذلك لا أصل له ، وكتب التواريخ

صادحةٌ بتبرئتهم مما رماهم به خصومهُم وأعداؤهم ، وقد نطق الشعر الجاهلى بما كانوا عليه من الحمية والغيرة ومزيد الاعتناء بانسابهم وحفظ حريمهم والذب عن احسابهم وعشائرهم ، ولم يكن من مذاهب العرب وعوائدها قديماً وحديثاً التعرض بسوء للنساء والأهل فى الغارات والمنازعات . بل كان ذلك من أكبر الكبائر لديهم . وما روته الشعوبية من الأبيات الشعرية ان صحت عن قائلها وأنه كان من صميم العرب فلا مطعن فيه فان ما يصدر عن شخص من قوم لا يسوغ عند ذوى العقول والآراء الصائبة أن يؤاخذ به جميع أفراد نوعه (ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى) . ولم يدَّعِ أحد أن كل فرد من أفراد العرب معصوم من كل خطيئة وعيب ، وأن كل فرد منهم أفضلُ من كل فرد من غيرهم فى جميع صفات الفضائل ، هيهات ذلك فان هذا بديهيّ البطلان . ألا ترى ان جميع أهل العقول السليمة قائلون بفضل جنس الرجال على جنس النساء مع ان بعض أفرادهن لا يعادلهن فى الكمالات النفسية والفضائل الانسانية ألوف مؤلفة من الرجال العارين عن ذلك . وما أحسن قول الشاعر :

ولو أنَّ النساء كمن فقدْنا لَفَضَّلْنا النِساءَ على الرجالِ(١)

فما كان من شخصٍ أو شخصين من أمة العرب من المنكر لا يزرى بعلو شأنهم ورفيع مجدهم سيما اذا كان ذلك المنكر ليس بمقطوع الصحة أو انه مما له وجه ، فان السبي عند غزو بعضهم بعضاً كان فى حكم الرقيق بمقتضى دياناتهم

(١) البيت للمتنبي من قصيدة يرثى بها والدة سيف الدولة وقد توفيت بميافارقين وجاءه الخبر بموتها الى حلب سنة تسع وثلاثين وثلثمائة واولها :

نعد المشرفية والعوالى وتقتلنا المنون بلا قتال
ونرتبط السوابق مقربات وما ينجين من خبب الليالى
ومن لم يعشق الدنيا قديماً ولكن لا سبيل الى الوصال
نصيبك فى حياتك من حبيب نصيبك فى منامك من خيال

وهى طويلة وكلها فرائد ودرر ، ومعنى البيت يقول لو ان نساء العالم كهذه المفقودة فى الكمال والعفاف لفضلن على الرجال ، قال ابن وكيع ينظر الى قول على ابن الجهم

اذا ما عد مثلكم رجالا فما فضل الرجال على النساء

وعوائدهم ، ووطء ملك اليمين من غير عقد ليس بزنى عند كافة أهل الاديان . هذا مع ان الامر كما ذكرناه سابقاً ، ثم نقول أيّ أمة من الامم غير العرب كانت معصومة من السبي والغارات ، وهكذا ديدن الخليقة من أولها الى آخرها ، ولو ذكرنا حالَ مناكح سائر الامم غير العرب فى الأيام الخالية لاسودّ وجه القرطاس . وما قالته الشعوبية من أن العرب كانوا يقربون النساء من غير استبراء من طمث فهو بهتانٌ عظيم ، وشعر العرب وتواريخهم ناطقة بخلافه ، وأنهم كانوا يحترزون عن الجماع فى الحيض ، وسيأتى بيان ذلك فى الكلام على عوائدهم وعباداتهم ان شاء الله تعالى .

مجمل القول فى جميع ما قالته الشعوبية فى العرب

اِعلم أن جميع ما قالته الشعوبية فى مقام الاستدلال على مُدَّعاهم واقع فى غير موقعه وقائم فى غير محله ، فان المدعى انما هو فضيلة الجنس فيما هو مناط الفضيلة بين أنواع بنى آدم ، وهو أن سبب فضل جنس العرب ما اختصوا به فى عقولهم وألسنتهم وأخلاقهم وأعمالهم وغير ذلك مما أسلفناه وأوضحناه بأتم وجه وأبسطه . وليس المدعى أن الفضيلة بنبوّة حتى يقال إن أنبياء غير العرب أكثر من أنبيائهم ، فان جميع الأنبياء كما ذكر وهب بن منبه مائة ألف نبى وأربعة وعشرون ألف نبى ، الرسلُ منهم ثلاثمائة نبى وخمسة عشر نبياً ، منهم خمسة عبرانيون : آدم وشيث وادريس ونوح وابراهيم . وخمسة من العرب : هود وصالح واسمعيل وشعيب ومحمد صلوات الله تعالى عليهم أجمعين . وروى أبو صالح عن ابن عباس [1] قال : بعث الله الى أهل الرسّ — والرس : البئر — نبياً منهم يقال له حنظلة بن صفوان فكذبوه وقتلوه ، فأوحى الله تعالى الى نبى كان مع بخت نُصَّر يقال له ارميا بن برخيا : مُرْ بخت نصر يغزو العرب الذين لا اغلاق لبيوتهم

(١) اقول ان ابا صالح لم ير ابن عباس (رض) على ما ذكر رجال الجرح والتعديل منهم الامام الذهبي في الميزان

فيقتلهم بما صنعوا بنبيهم ، وخالد بن سنان كان أيضاً من أنبياء العرب كما ورد الحديث فى شأنه ، وهو قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : ذاك نبى اضاعه قومه ، وباقى الأنبياء من سائر الأمم المختلفة . فليس فضل العرب ثم قريش ثم بنى هاشم لمجرد كون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم منهم وان كان هذا من الفضل ، بل هم فى أنفسهم أفضلُ وبذلك يثبت لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه أفضل نفساً ونسباً وإلا لزِم الدور ، مع أنه لو ادعى خصوم الشعوبية أن منشأ الفضيلة ذلك لأمكنهم أن يقولوا إن أنبياء العرب على قلتهم يساوون غيرهم من الأنبياء والرسل فى الفضل أو يرجحونهم ، وليس ذلك ببِدْعٍ فان التفاوت ما بين انسان وانسان ، ظاهر لدى العيان ، فانك قد ترى واحداً كعشرة وعشرةً كمائة بل واحداً كمائة وعشرة أخرى هَدَرَة[1] دون واحد . وقيل لامرأة : أعشرة هَدَرَة أحب اليك أم واحد كعشرة ؟ فقالت : بل واحد كعشرة . قال الشاعر :

ولم أرَ أمثالَ الرجال تفاوُتاً لدى المجد حتى عُدَّ ألفٌ بواحدِ

بل نرى واحداً كعشرة آلاف ، ونرى عشرة آلاف دون واحد ، كما قال عليه الصلاة والسلام وهو أصدق قيلا : الناس كابلٍ مائةٍ لا تكاد تجد فيها راحلة . والابل فى تعارفهم اسم لمائة بعير ، فمائة ابل هى عشرة آلاف بعير ، بل لو قيل قد نرى واحداً كعالم وعالماً كواحد لجاز ، كما قال عليه السلام : وزنت بأمتى فرجحتهم ، وعلى هذا قول الشاعر :

ليس على اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أنْ يَجْمَعَ العالَمَ فى واحِدِ

وليس المدعى أيضاً ان الفضيلة بملك وثروة وكثرة عَدَدٍ وعُدَد ، فانها ليست أيضاً مما تستوجب الفضيلة ، وتقتضى الصفات الجميلة

---

(١) هدرة محركة وكمنبة وهمزة ساقطون ليسوا بشىء والفتح اقيس لانه جمع هادر مثل كافر وكفرة وكذا الواحد والانثى يقال رجل هدرة مثل همزة ساقط قال الحصين بن بكير الربعى :

انى اذا حار الجبان الهدره ركبت من قصد السبيل شجره

كم عاقلٍ عاقل أعيت مذاهبه وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مرزوقا (١)

وفى معنى ذلك يقول السموأل من أبيات مر ذكرها :

وما ضرَّنا انا قليلٌ وجارُنا عزيزٌ وجارُ الاكثرينَ ذليلُ

مع أنه قد بلغت مدنيّة العرب فى الايام الخالية الى ما لم يبلغها أحد اذ ذاك ، وان انقطع عنا أخبارهم ، هذه آثار مبانيهم العظيمة ، وبقايا مدنهم الجسيمة تشهد لنا بذلك ، ومدينة تَدْمُرَ كانت احدى مدن العرب ومبانيها كما فى القاموس وغيره ، وما يشاهد من بقاياها من أعاجيب الاكوان التى تعجز أهل العصور المتأخرة عن مطاولتها فى رصانتها . وتبابعة اليمن واذواؤها بلغ تسلطهم على البلاد واستيلاؤهم على الاقطار الى ما يكل القلم عن وصفه . ومنهم الذى ساوى بين الصَدَفَيْن ، وطاف بلاد الارض ما بين المشرقين والمغربين ، وهو الذى كان يلقب بذى القرنين على خلاف ما يزعمه الشعوبية وغيرهم ، وهم بعض أهل العلم من انه اسكندر الرومى ، فان الشعر القديم شاهدٌ لما قلناه بل هو أقوى دليل على ذلك ، قال أعشى بن ثعلبة :

والصعب ذو القرنين أمسى ثاوياً بالحِنْو فى جدثٍ هناك مقيم

والحِنْو بكسر المهملة وسكون النون فى ناحية المشرق . وقال الربيع بن ضبيع :

والصعب ذو القرنين عمَّر ملكه ألفين أمسى بعد ذاك رَميا

---

(١) البيت لابن الراوندى الملحد الزنديق المشهور ، وقبله :

سبحان من وضع الاشياء موضعها وفرق العز والاذلال تفريقا

وبعده :

هذا الذى ترك الاوهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا

وعاقل الثانى صفة لعاقل الاول بمعنى كامل العقل متناه فيه كما يقال مررت برجل رجل أى كامل فى الرجولية ومعنى اعيت مذاهبه اعجزته وصعبت عليه طرق معايشه ، والنحرير بكسر النون الحاذق الماهر العاقل المجرب المتقن الفطن البصير بكل شىء لانه ينحر العلم نحراً والزنديق بكسر الزاى من الثنوية أو القائل بالنور والظلمة أو من يبطن الكفر ويظهر الايمان أو من لا يؤمن بالآخرة وبالربوبية

وقال قُسّ بن ساعدة الايادى :

والصعبُ ذو القرنين أصبحَ ثاوياً بالّلحْدِ بين ملاعبِ الارياحِ

وقال تُبَّع الحميرى :

قد كان ذو القرنين قبلى مُسْلِماً مَلِكاً تَدين له الملوكُ وتحشدُ

من بعده بِلقيسُ كانت عمتى ملكتهم حتى أتاها الهُدْهُدُ

وقال بعض الحارثيين يفتخر بكون ذى القرنين من اليمن يخاطب قوماً من مضر :

سَمُّوا لنا واحِداً منكم فنعرفه فى الجاهليةِ لاسمِ الملك محتملا

كالتُّبَّعَيْن وذو القرنين يقبله أهل الحجى وأحق القول ما قبلا

وقال النعمان بن بشير الانصارى الصحابى بن الصحابى :

ومن ذا يعادينا من الناس معشر كرام وذو القرنين منا وحاتِمُ

ويؤخذ من أكثر هذه الشواهد ان الراجح فى اسمه الصعب . ووقع ذكر ذى القرنين أيضاً فى شعر امرئ القيس وأوْس بن حَجَر وطَرَفَة بن العبد وغيرهم ، وفى كتاب نشر المحاسن اليمانية شئ كثير من مآثرهم بحيث يطول نقله ، وفى وصف القحطانيين يقول الكلاعى :

ورتبنا مراتِبَ كلِّ ملك فكانَ لنا الخلائقُ مُقتفينا

سَنَنّا للبريةِ كلّ فعل جميلٍ من فعال الأكرمينا

فهم يتشبّهون بما فعلنا وفى آثارنا يتتبعونا

وليسوا مُدْركين لنا لِأنّا جعلنا السابقينَ الاولينا

وقال فى شرح هذه الابيات أيضاً : ان أول من لبس التاج ورتب وظائف الملك وعهد عهداً الى عامل بلد وأمره بالعدل والانصاف ودون الدواوين وبعث الامراء الى الثغور حمير بن سبا الاكبر ، وأول من علّق السلسلة على باب قصره ليتعلق بها المتظلمون عبد شمس بن وائل ، وأول من نظر فى أمر الشاكى وعزل

عامل البلد بسبب أمر الشكاية سعد الكامل ، وأول من شفع وأفدى فى الاسارى تبع الاصغر ، ولذلك سمى ماء السماء . وأول من اتخذ الخط العربى على ابجد مُرَّة ابن مُرامِر [1] . وأول من قام بالضيافة عامر بن حارثة الازدى من طيّئ . وأول من حكم فى الخنثى باتباع المبال عمرو بن حُمَمَة الدوسى [2] . وأول من طيب الميت بالحنوط مقسم بن بهر القضاعى . وأول من قسم للذكر مثل حظ الانثيين عامر ابن جشم الجهمى . وأول من صلى على الميت عطيرة بن صعب السكسكى . وأول من أعان مستوفداً فى حمل دية جعاد بن عبد التيمى من همدان . فهذه أمور سبقت اليها بنو قحطان فى الجاهلية ، وجاء الاسلام بمثل ذاك ، وهذه غاية من ذكاء فطنهم . . ومن ذكائهم أيضاً أنهم أول من ربط الخيل وراضها ووصفها بما يليق بها وعمل لها السروج واللجم ، وفى ذلك يقول مالك بن ملالة بن أرحب الهمدانى :

أمرت بإيتاء اللجام فأبدعت وأنعلت خيلى فى المسير حديدا
وأرحبُ جدى أحدثَ السَّرجَ قبلَنا ولو نَطَقَتْ كانت بذاك شهودا

وهم أول من أبدع جميع أنواع السلاح من سيف ورمح وقوس وسهم ودرع وغير ذلك . ولأصناف الخيل وأنواع السلاح عندهم أسماء معروفة يطول ذكرها ،

---

(١) اقول هذا وهم صراح مخالف لما ورد فى كتب الانساب وغيرها والصحيح مرامر بن مرة أو مروة وهو أول من وضع الخط العربي على مايقال . قال شرقى بن القطامى : ان اول من وضع خطنا هذا رجال من طىء منهم مرامر بن مرة . قال الشاعر :

تعلمت باجاد وآل مرامر وسودت أثوابى ولست بكاتب

قال وانما قال وآل مرامر لانه قد سمى كل واحد من اولاده بكلمة من (ابجد) وهى ثمانية قال ابن برى الذى ذكره ابن النحاس وغيره عن المدائنى انه مرامر بن مروة . قال المدائنى أول من كتب بالعربية مرامر بن مروة من أهل الانبار ويقال من أهل الحيرة قال وقال سمرة ابن جندب نظرت فى كتاب العربية فاذا هو قد مر بالانبار قبل أن يمر بالحيرة ويقال انه سئل المهاجرون : من اين تعلمتم الخط ؟ فقالوا : من الحيرة وسئل أهل الحيرة : من اين تعلمتم الخط فقالوا : من الانبار . قال الزبيدى وذكر ابن خلكان فى ترجمة (على بن هلال) مايقرب من ذلك وذكر المجد فى (ج د ر) ان أول من كتب بالعربية عامر بن جدرة ولعل الجمع بينهما اما بالترجيح أو بالعموم والخصوص أو غير ذلك مما يظهر بالتامل كما حققه شيخنا

(٢) تأتى ترجمته فى باب الحكام

ولم يكن لاحد بصر بالخيل ولا بالقِسِيّ والنبل والاصابة بالرمى مثل ما للقحطانية . ومنهم رماة تبع أسعد المعروفون بالقارَة كانوا يرمون فيصيبون ما يقصدون ، وبهم يضرب المثل فيقال « قد أنصف القارة من راماها » . (١) فهذا كله ونحوه مما يدلك على ما كانوا عليه من التمدن والثروة ، وحب التآلف والترقى فى الكمالات ، وليس المدعى أيضاً أن الفضيلة بمعرفة الصنائع والحرف حتى يرجح غير العرب عليهم فى ذلك ، فان العرب كانوا يأنفون من تعاطيها ويعدون أصحابها من الأسافل ، حيث كان التفاخر والتفاضل بينهم يومئذ بالشجاعة والفروسية والفصاحة وغير ذلك مما هو منشأ الفضيلة فى نفس الأمر ، مع أن العرب أكثر استعداداً من غيرهم لتعلم الصناعات وسائر الفنون العقلية . ألا ترى أنهم بعد ظهور الاسلام قد بلغوا منها مبلغاً تقدموا به على غيرهم وسبقوا به من سواهم . ففى تاريخ دردى وزير المعارف العمومية بفرانسا ما معناه : بينما أهل أوربا تائهون فى دُجَى الجهالة لا يرون الضوء إلا من سُمّ الخِياطِ إذ سطع نور قوىٌّ من جانب الأُمة الاسلامية من علوم أدب وفلسفة وصناعات وأعمال يدٍ وغير ذلك حيث كانت مدينة بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان ومصر وفارس وغرناطة وقرطبة مراكز عظيمة لدائرة المعارف ، ومنها انتشرت فى الأمم واغتنم منها أهل أوربا فى القرون

---

(١) فى كتب الامثال : القارة قبيلة وهم عضل والديش ابنا الهون بن خزيمة وانما سموا قارة لاجتماعهم والتفافهم لما اراد الشداخ ان يفرقهم فى بنى كنانة فقال شاعرهم :

دعونا قارة لا تنفرونا فنجفل مثل اجفال الظليم

وهم رماة الحدق فى الجاهلية وهم اليوم فى اليمن قيل ان رجلين التقيا احدهما قارىّ فقال القارىّ ان شئت صارعتك وان شئت سابقتك وان شئت راميتك ، فقال الاخر قد اخترت المراماة فقال قد انصفتنى وانشد :

قد انصف القارة من راماها انا اذا مافئة نلقاها
نرد اولاها على أخراها

وقيل ان المثل قيل فى حرب كانت بين قريش وبين بكر بن عبد مناف بن كنانة وكانت القارة مع قريش وهم قوم رماة فلما التقى الفريقان رماهم الآخرون فقيل قد انصفهم هؤلاء اذ ساووهم فى العمل الذى هو شأنهم وصناعتهم يضرب مثلا لمساواة الرجل صاحبه فيما يدعوه اليه

المتوسطة مكتشفات وصناعات وفنونا علمية يأتى بيانها . وفيه يقول : كانت الآداب قبل انتشار العرب من جزيرتهم متأصلة فيهم مؤداة بلغتين الحميرية فى اليمن والقُرَشية فى الحجاز وبالأخيرة جاء القرآن ، ولا يخفى عليك أن الذى يقابل الحميريةَ هو المضرية وإنْ وقع الاجماع فى القراءة على خصوص القرشية ولذلك اشتهرت واستمر خلوصها الى وقتنا هذا باستمرار كتب العلم والديانة ، الى أن قال : ولم يكن للعرب فى أول الأمر إلا تلك الآداب ، ثم لما اتسعت لهم دوائر الفتوحات واختلطوا بالأمم الذين سبقوهم فى الحضارة اتسع لهم نطاق المعارف فأخذوا من اليونان تآليف ارسطو وشرحوها بامعان نظر لكنهم لم يأخذوا الفلسفة من كتب اليونان الأصلية وانما تعلموها من الكتب المترجَمَة بلغة أهل الشام فهم ترجموا المترجمة ، فلذلك لما نقلها الفيلسوف العربى حفيد بن رشد الى آوربا فى القرون المتوسطة وَجَدَ بها من التحريف أكثرَ مما وقع فيها أولاً

وأما العلوم الرياضية فقد صادف فيها العرب المرمى والفضل فى ذلك للعلماء الذين جلبهم الخليفة المأمون من القسطنطينية ، وفى أوائل القرن التاسع المسيحى أمر الخليفة المشار اليه عالمينْ من فلكية بغداد أن يَقِيسا مسافةَ درجة واحدة من خط الطول بصحراء سنجار وَيزِناها ليثبتَ بذلك تكوير الأرض بالمشاهدة ، وقد تبين ذلك باختلاف ارتفاع القطب الشمالى عن طرفى الخط المقيس . وقد شرح العرب كتاب اقليدس ، وهذبوا زيج بطليموس ، وحرروا حسابَ تعريج منطقة البروج كما حرروا الفرق بين أوقات الاعتدال ، والفرق بين السنين الشمسية والزمنية ، فوجدوا بينهما عدة دقائق ، واخترعوا للتحريرات آلات جديدةً الى غير ذلك مما يدل على ما للعرب من قابلية العلوم الرياضية . ومنهم حازت مدينة سمرقند قبل آوربا بكثير محل رصد عجيب . قال : وأما ما ينسب من اختراع الجبر والمقابلة والارقام الحسابية المسماة عندنا بالارقام العربية فلم يثبت ، بل انما تعلموا ذلك مع فلسفة أرسطو بالتلقى من غيرهم وهى من العلوم التى وجدوها بالاسكندرية ،

ويمكن أنهم نقلوا الينا على ذلك الوجه (البوصلة) أى بيت الابرة والبارود الذى تعلموه من أهل الصين كما يعترف لهم أهل آوربا بمزية اختراع الكاغد من القماش، وبذلك كثرت الكتب ودنت أسعارها وسهل الطبع وتوفرت نتائجه بعد وجوده

وقد اشتهرت العرب أيضاً بمعرفة الطب الذى كان تلقوه من كتب اليونان ، ولابن رشد تعليقات عديدة على كتب جالينوس شاهدة بما ذكر . ومن فلاسفتهم عدة أشخاص صاروا فى وقت واحد حكماء وأطباء مشاهير مثل أبى على ابن سينا المتوفى سنة ست وعشرين وأربعماية وابن رشد المذكور ، وقد بلغا من الشهرة الى حيث صار أعداؤهم فى ذلك الوقت يرغبون فى معالجتهم اياهم ، كما يحكى أن بعض ملوك قسطلية كان اعتراه مرض الاستسقاء فاشتهى ان تكون معالجته على يد أطباء العرب ، وحصل من لطف الخليفة على الاذن فى أن يذهب ويداويه المسلمون . ومن مآثر حكماء العرب كيفية تقطير المياه واستعمال الراوند وادوية كثيرة

ومن العلوم التى لهم الفضل فيها الجغرافيا ، وسبب تقدمهم فيها أن اتساع فتوحاتهم ورغبتهم فى الأسفار الخطيرة لافتراض الحج عليهم انتجت لهم المعرفة بكثير من البلدان الشاسعة التى لم يصل اليها أهل آوربا أو نسوها بعد ما كانت معروفة لهم . ومن مشاهيرهم فى هذا الفن أبو الفداء والمسعودى والادريسى ، وهذا الاخير هو الذى استدعاه روجير ملك صقلية ، والف عنده كتابه الغريب الذى سماه نزهة المشتاق . ثم قال بعد ذكر ما كان لهم من علم التاريخ : وأما صناعة هندسة البناء فى اصطناع الهيئآت فلم يشتغل العرب منها الا بما يرجع الى اتقان الأبنية حيث كانت شريعتهم تمنع التصوير ، على أن البناء نفسه لم تظهر لهم فيه اختراعات غريبة فالأصل عندهم فى الأقواس المرفوعة على الاصطوانات أن تكون أكبر من نصف دائرة ، وهذا الشكل أخذوه من ابنية البزنتيين وهم أمة من اليونان ، واعتاض العرب عن الصور الذهنية والمجسدة التزيين بالنقش

المسمى عندهم بنقش حديدة ، وكان فى الأصل رسوما لها مدلولات . ثم صار مجرد خطوط متقاطعة شبيهة بالحروف العربيـة التى يمكن أن يصور منها أشكال جيدة ظريفة ، وكثيراً ماتتعجب من اتقان تلك الحروف حين تراها على الزرابى والأقمشة الشرقية .

ومن مآثر العرب اصطناع الجوابى والفوارات والتزويق بالذهب والأحجار الثمينة كالمرمر الذى يجلبونه من المشرق ومن مقاطع اسبانيا الجنوبية . ومن أشهر أبنيتهم الجامع العظيم الذى بناه عبد الرحمن الأول بقرطبة ، وكان به ألف وثلاث وتسعون اسطوانة وأربعة آلاف وسبعمائة قنديل . ثم قصر الزهراء الذى لا يتأخر عن الجامع المذكور فى العظم ، وقد بناه عبد الرحمن الثالث على شاطىء الوادى الـكبير ، وبه ينبوع عظيم يفور منه شبه باقة من الزيبق ثم ينعكس فى قصعة من المرمر . ومن بديع أبنيتهم حمراء غرناطة التى هى فى آنٍ واحد قصر وحصن وبها عدة أمور تصلح أن تكون مثالا للطافة البناء وحسنه خصوصاً وسـطها المسمى ببطحاء الاسود . وأما التجارة فقد كان للعرب حسن رغبة فيها فى سائر الاوقات ، ثم لما امتدت سلطنتهم من البرينى وهى جبال بين فرانسا واسبانيا الى جبال هملاى التى باقصى شمال الهند صاروا أكبر تجار الأرض يومئذ

وأما الفلاحة فقد كان للعرب حسن رغبة فيهـا اذ ليس لغيرهم ماهم من الاقتدار على جلب الميـاه وتوزيعها بلطف فى مزارعهم الواسـعة تحت شمسهم المحرقة . انتهى مانقل من مقدمة أقوم المسالك . وبجميع ماذكرناه يتبين أن كلام الشعوبية ساقط عن أصله ، ولا يلتفت ذو انصاف لمثله ، ومع ذلك ان الشريعة حاكمة أن فضل الجنس لا يستلزم فضل الشخص فَرُبَّ حبشىٍ أفضل عند الله من ألف قرشى ، فان المرء كثير بفضله لا باهله ، ومنظور اليه بكرم أخلاقه لا بكرم أصله ، فاذا اجتمعا له كان مقابلا من طرفيه وكملت له أُبَّهَة شرفيه ، ولا ينكر أن للاصول تأثيراً فى الفروع عظيما فلا تكاد ترى ذا أصل زكىّ الا وتتوهم فيـه

خلقاً وسيما ، وشأناً كريماً ، فاذا اجتمع الأصل وحسن الأفعال ، كان ذلك غاية الكمال ، فلا ينبغي لعاقل أن يفخر بنسبه ، ويتكبر على الناس بحسبه ، ففي صحيح مسلم عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انه قال : أوحى إلىّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد ، فنهى سبحانه على لسان رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم عن نوعى الاستطالة على الخلق وهى الفخر والبغى لأن المستطيل ان استطال بحق فقد افتخر ، وان كان بغير حق فقد بغى فلا يحل لا هذا ولا هذا ، فان الرجل من الطائفة الفاضلة مثل أن يذكر فضل بنى هاشم أو قريش أو العرب أو الفرس أو بعضهم ، فلا يكون حظه استشعار فضل نفسه ، والنظر الى ذلك فانه مخطئ في هذا كما لا يخفى . ثم هذا النظر يوجب نقصه وخروجه عن الفضل فضلا عن أن يستعلى بهذا أو يستطيل ، وان كان من الطائفة الأخرى فليعلم أن اتصافه بالصفات المحمودة يوجب له أن يكون أفضل من جمهور الطائفة المفضلة العارين عنها ، فليفتخر المرء بجده واجتهاده ، وبعدته وعتاده وكسبه واعداده ، لا بآبائه وأجداده ، وقد أتينا في مقام المشاجرة مع الشعوبية بقدر ما يطاق

الكلام على مساكن العرب في الجاهلية

اعلم أن غالب مساكن العرب القديمة التى درجوا منها الى سائر الاقطار كانت بجزيرة العرب الواقعة فى أوساط المعمور ، وأعدل أماكنه وأفضل بقاعه حيث الكعبة المعظمة ، والمدينة المنورة ، وما حول ذلك من الاماكن . وهذه الجزيرة متسعة الارجاء ، ممتدة الاطراف يُحيط بها من جهة الغرب بعض بادية الشام حيث البلقاء الى ايلة ثم بحر القُلْزُم الآخذ من أيلة حيث العقبة الموجودة بطريق حجاج مصر الى الحجاز الى أطراف اليمن حيث طيئ وزبيد وما داناها . ومن جهة الجنوب بحر الهند المتصل به بحر القُلْزم المتقدم ذكره من جهة الجنوب الى عدن الى أطراف اليمن حيث بلاد مهرة من ظَفَارِ وما حولها . ومن جهة الشرق بحر فارس

الخارج من بحر الهند الى جهة الشمال الى بلاد البحرين ثم الى البصرة ثم الى الكوفة من بلاد العراق . ومن جهة الشمال الفرات أخذا من الكوفة على حدود العراق الى عانة الى بالس من بلاد الجزيرة الفراتية الى البلقاء من برية الشام حيث وقع الابتداء . والحاصل أن السائر على حدود جزيرة العرب يسير من أطراف برية الشام من البلقاء جنوبا الى أيلة ثم يسير على شاطئ بحر القلزم وهو مستقبل الجنوب ، والبحر على يمينه الى مدين الى الينبع الى البروة الى جدة أول اليمن الى زبيد الى أطراف اليمن من جهة الجنوب . ثم يعطف مشرقا ويسير على ساحل اليمن وبحر الهند على يمينه حتى يمر على عدن ويجاوزها حتى يصل الى سواحل ظَفَارِ من مشاريف اليمن الى سواحل مهرة ، ثم يعطف شمالا ويسير على سواحل اليمن وبحر فارس على يمينه ويتجاوز سواحل مهرة الى عُمَان من بلاد البحرين الى جزيرة أوال الى القطيف الى كاظمة الى البصرة الى الكوفة . ثم يعطف الى الغرب ويفارق بحر فارس ويسير والفرات على يمينه الى سلمية الى البلقاء حيث بدأ كذا فى نهاية الارب . وقال أبو عبيدة : جزيرة العرب فى الطول مابين حفر ابى موسى الى أقصى اليمن ، وفى العرض مابين يبرين الى السماوة . وقال الاصمعى : هى مابين نجران والعُذَيب حكاه ابن قتيبة عن الرياشى عنه . قال : وحكى عنه أبو عبيدة أنها فى الطول من أقصى عدن الى ريف العراق ، والعرض من جُدَّة وما والاها من طراز البحر الى طراز الشام . وانت تعلم أن هـذه الاقوال كلها متقاربة .

مساحة دوْر جزيرة العرب

دور هذه الجزيرة على ماذكره السلطان عماد الدين صاحب حَماة فى تقويم البلدان سبعة أشهر وأَحَدَ عشرَ يوما تقريباً بسير الانقال . فمن البلقاء الى الشراة نحو ثلاثة أيام ، ومن الشراة الى ايلة نحو ثلاثة أيام ، ومن ايلة الى الجار وهى فرضة

المدينة النبوية نحو عشرين يوما ، ومن الجار الى ساحل الجُحفة نحو ثلاثة أيام ، ومن ساحل الجحفة الى جُدّة وهى فرضة مكة المشرفة ثلاثة أيام ، ومن جدة الى عدن نحو من شهر ، ومن عدن الى سواحل مهرة نحو من شهر ، ومن مهرة الى عُمان من البحرين نحو من شهر ، ومن عمان الى هجر من البحرين نحو من شهر ، ومن هجر الى عبادان من العراق نحو خمسة عشر يوماً ، ومن عبادان الى البصرة نحو يومين ، ومن البصرة الى الكوفة نحو اثنتى عشرة مرحلة ، ومن الكوفة الى بالس نحو عشرين يوماً ، ومن بالس الى سلمية نحو سبعة أيام ، ومن سلمية الى مشاريف غُوطة دمشق (١) نحو أربعة أيام ، ومن مشاريف غوطة دمشق الى مشاريف حوران نحو ثلاثة أيام ، ومن مشاريف حوران الى البلقاء نحو ستة أيام ، فهذا هو الدور المحيط بجزيرة العرب .

(١) غوطة دمشق احدى نزه الدنيا وهى الاربع : غوطة دمشق ، ونهر الابلة ، وشعب بوان ، وصغد سمر قند — يضرب بكل منها المثل فى الطيب ، قال الثعالبي : وكان الخوارزمى يقول قد رأيتها كلها فكانت غوطة دمشق أطيبها واحسنها ولم امیز بين رياضها المزخرفة بالانوار والازاهر وبين غدرانها المعمورة بطيور الماء التى هى احسن من الدوارج والطواويس ولم اشبهها وصورتها منقوشة على وجه الارض

واما نهر الابلة فهو بالبصرة وحواليه من ميادين النخل والاترج والنارنج وسائر الاشجار وفيها من اصناف الزرع وانواع الخضروات مالا ينظر احسن منه وعليه من القصور المتناظرة والابنية الرائقة ماتحار فيه العيون وتهش له النفوس وفيه يقول ابن عيينة :

ويا حبذا نهر الابلة منظراً   اذا مد فى اثنائه الماء اوجزر

واما شعب بوان من فارس فهو الذى يقول فيه القائل :

اذا اشرف المكروب من رأس تلعة   على شعب بوان افاق من الكرب
والهاه بطن كالحريرة مسه   ومطرد يجرى من البارق العذب
فبالله ياريح الجنوب تحملى   الى شعب بوان سلام فتى صب

وفيه يقول المتنبي

مغانى طيبات فى المغانى   كايام الربيع من الزمان

ولما نزله عضد الدولة متوجهاً الى العراق ومعه ابو الحسن السلامى قال له : قل فى الشعب فقد سمعت ماقاله المتنبي فيه فعاد الى خيمته وكتب

اشرف على الشعب وانزل روضه الانفا   قد زاد فى حسنه فازدد به شغفا
اذ البس الهيف من أغصانه حللا   ولقن العجم من اطياره نتفا
وانظر اليه تر الاغصان مثمرة   من قارع قرطا او لابس شنفا

وجه تسمية هذه الجزيرة بجزيرة العرب

إعلم أنَّ الجزيرةَ فى أصل اللغة ما ارتفع عنه الماء أخذاً من الجزر الذى هو ضد المد ثم توسع فيه فأُطلق على كل ما دار عليه الماء . ولما كان هذا القطر يحيط به بحر القُلْزُم من جهة الغرب ، وبحر الهند من جهة الجنوب ، وبحر فارس من جهة الشرق ، والفرات من جهة الشمال . أُطلق عليه جزيرة وان كان له اتصال بالبر ، وذلك على سبيل التشبيه والمجاز المشحون منه كلام الفصحاء لا ان العرب لم يفرقوا بين الجزيرة وشبهها كما زعمه بعضُ المؤلفين الذين لم يقفوا على أسرار كلامهم ، وأضيفت الى العرب لنزولهم بها ابتداء وسكناهم فيها .

ما اشتمل عليه جزيرة العرب من الأقسام والنواحى

قال المدائنى جزيرة العرب هذه تشتمل على خمسة أقسام : تِهامة ونجد والحجاز وعروض ويمن . فتهامة هى الناحية الجنوبية عن الحجاز . ونجد هى الناحية التى بين الحجاز والعراق . والحجاز هو ما بين نجد وتهامة وهو جبل يقبل من اليمن حتى يتصل بالشام وسمى حجازاً لحجزه بين نجد وتهامة . والعروض هى اليمامة الى البحرين وقال أبو عبيدة : الحجاز هو ما بين الجُحفة وجبل طيء وانما سمى حجازاً لأنه حجز ما بين نجد والغور ، وحكى ابن قتيبة عن الرياشى عن الاصمعى انه قال : اذا خلفت عجلزاً صعداً فقد أنجدت ، فلا تزال منجداً حتى تنحدر من ثنايا ذات عرق ، فاذا فعلت فقد اتهمت الى البحر ، واذا عرضت لك

والماء يثنى على اعطافها ازرا والريح تعقد فى اطرافه شرفا

وهى قصيدة طويلة

واما صغد سمرقند فان قتيبة بن مسلم لما اشرف من الجبل قال لاصحابه شبهوه فلم يأتوا بشىء فقال قتيبة كأنه السماء فى الخضرة وكأن قصوره النجوم الزاهرة وكأن انهاره المجرة فاستحسنوا هذا التشبيه وتعجبوا من اصابته

الجِرارُ (١) وأنت مُنجدٌ فتلك الحجاز ، واذا تصوبت من ثنايا (العرج) واستقبلك المرخ والأراك (٢) فقد اتهمت وسمى حجاز لما مر . وقال محمد بن عبد الملك الاسدى : حد الحجاز ، الاول بطن نخلة وظهر حرة ليلى . والحد الثانى مما يلى الشام شعب وبدا ، والحد الثالث مما يلى تهامة بدر والسقيا ورهاط وعُكاظ ، والحد الرابع شابة وودّان ثم ينحدر الى الحد الأول ، وأما الشام واليمن فمن اليد اليمنى واليد الشومى وهى الشمال لان الذى يستقبل الشمس تكون اليمن عن يمينه والشمال الشام .

ما كان فى هذه الأقطار من البلاد والمبانى المشهورة وغير ذلك

اعلم ان فى كل قطر من هذه الاقطار مدناً وبلاداً مشهورةً ومياهاً ومعادنَ مختلفةً ونباتاتٍ متنوعةً قد استقصاها المؤرخون فى كتبهم المؤلّفة فى هذه الجزيرة وأقسامها كتاريخ جزيرة العرب لعدة أناس من أفاضل المتقدمين ، وتاريخ مكة للامام الأزرقى ، وتاريخ المدينة للامام السمهودى ، وتواريخ اليمن ونجد وغير ذلك مما لا يسعها الحصر وفيها الغنى عن التعرض لما حوته من المطالب فانه من تحصيل الحاصل ، ومع ذلك نشير اشارة مجملة الى ما كانت عليه هذه الأقطار ، تنشيطاً للقارئين الأخيار (فاما الحجاز) ففيه من البلاد المشهورة المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلوة وأكمل السلام . وقيل هى من نجد وهى بلدة طيبة مباركة كثيرة الخيرات عذبة المياه وافرة النخيل والثمار أهلها وسكنتها يودون الغرباء ويحبون من هاجر اليهم ، ولها أسماء كثيرة نظمها بعض الأفاضل بقوله :

خُذْ جملةً ياصاحِ من أسماءِ ... مدينةِ الهادى من الأسواءِ
(مُحمَّدٍ) نبينا المشرَّفِ ... الهاشمىِّ المصطفَى البَرِّ الوَفِى
فَطَيْبَةٌ طَيِّبَةٌ ووَطَابَهْ ... وطائب تعرفُ بالاطابه

(١) هى ارض ذات حجارة نخرة سود (٢) المرخ : شجر سريع الورى ، والاراك : شجر من الحمض يستاك به

حبيبة بيت الرسول والحرم   وحرم الرسول فاحفَظْ ما انتظم
ودار الايمانِ ودار السنة   ودار فتح مع دار الهجرة
دار السلامة ودار الابرار   ودار الأخيار لنفى الأشرار
حسنة مختارة مرزوقة   مؤمنة مسكينة محفوظة
مدخل صدق قُبَّة الاسلام   شافية من جملة الآلام
أكّالة القرى مع المقدسه   وهى المباركة خذ ماقبسه
من نور أسماء مكان المصطفى   نظم به أرجو موارد الصفا

وهى من البلاد القديمة الوضع والتأسيس ، ففى كتاب نشر المحاسن اليمانية كانت مدينة يثرب للعرب فخرج اليها قوم من بنى اسرائيل فى زمن موسى بن عمران عليه الصلوة والسلام ففتحوها من العرب العاربة وقتلوا ملكا لهم يسمى الأرقم وأقاموا فيها ما شاء الله تعالى حتى افترقت الازد من مأرب فى حادثة سيل العَرِم ، فنزل الأوس والخزرج يَثْرِبَ على الاسرائيليين ، ولهم ملك يقال له القيطون فقتلوه ، وكان قاتله سيد الحيين اعنى الأوس والخزرج ، واسمه مالك بن العجلان وهو ابن عم سالم بن عوف الخزرجى . فلما قتل الملك وقعت الصيحة باليهود فقتلوهم أبرح القتل وأبقوا منهم بعض القوم لعمارة الأراضى ، وملك الأوس والخزرج يثرب حتى بعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فهداهم الله تعالى لطاعته ولم يسلم قبلهم بطن من العرب ، فصارت تلك فضيلة لهم من أحسن الفضائل والمآثر . ثم خرج من يثرب سبعون رجلا وامرأة واحدة مهاجرين الى مكة فبايعوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على جمرة العقبة جهراً ثم قالوا يا رسول الله قد اتبعناك تصديقاً لقولك وايماناً بخالقك فاشترط لربك ولنفسك . فقال : اشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، ولنفسى ما تمنعون منه نفوسكم وأبناءكم ونساءكم . قالوا : فاذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : الجنة . قالوا : رضينا . فبايعوه بذلك على رؤس الاشهاد ، وجميع الحيين من ربيعة ومضر حاضرون اذ ذاك بمِنى ،

ثم قالوا أتأمرنا يارسول الله أن نميل بأسيافنا على من فى هذه الشعاب ؟ فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : ما أمرت بذلك . فلما رأت قريش ما كان من فعل الاوس والخزرج جاء اليهم بنو عمه الاقربين ، منهم أبو جهل وعتبة وأبو سفيان وشيبة وأبىّ وأمية وسهيل وبنوه ومنبه والنضر بن الحارث وعمرو بن العاص ، فقالوا لهم : ياأهل يثرب انا أولى منكم به لانا صلته ولحمته . فقالهم الاوس والخزرج : بل نحن أولى به منكم لانّا وإياه نعبد ربّاً واحداً . فلما رأت قريش منهم صدق الهمة وقوة العزم خافوا حدوث الشر فدافعوهم بالتي هى أحسن ، وقالوا : خلوا بيننا وبينه على ان له الامان والذمام فلا يعرض له الا الخير ولا لمن تبعه ، ومن أحب منهم أن يلحق بكم لم نمنعه يريدون بذلك المهاجرين ، فكرهت الأوس والخزرج . فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أجيبوهم يامعشرَ الأوس والخزرج فان الله تعالى بالغ أمره ومنجز وعده فقالوا تطيب عن نفسك يا رسول الله أن نفعل ذلك ؟ قال : نعم . قالوا : فالسمع والطاعة وضربوا بينهم أجلا أربعة أشهر ثم رجعوا الى يثرب ، فلما افترقوا همَّت قريش بالغدر فكفى الله تعالى نبيه شرَّهم ، وخرج من مكة بالوحى الذى أنزل عليه خائفاً يترقب حتى ورد المدينة عن أمر الله تعالى له بذلك ، فلما وصل اليهم صلى الله تعالى عليه وسلم هو وأصحابه المهاجرون معه سمحوا له ولجميع من وصل معه بمشاطرة الاموال ، ومن كان له زوجتان من الاوس والخزرج طلق احداهما وزوجها بعض المهاجرين ، فأثنى الله تعالى عليهم بذلك فقال : (وَيُؤثِرُونَ على أَنْفُسِهِمْ ولو كانَ بهم خَصاصةٌ ومن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولئك هم المفلحون)[1] .

(١) قوله يؤثرون على انفسهم اى يقدمون المهاجرين على انفسهم فى كل شيء من الطيبات حتى ان من كان عنده امرأتان كان ينزل عن احداهما ويزوجها واحداً منهم ويجوز أن لا يعتبر مفعول يؤثرون خصوص المهاجرين ، والخصاصة : الحاجة، والشح : اللؤم وهو أن تكون النفس كزة حريصة على المنع واضيف الى النفس لانه غريزة فيها واما البخل فهو المنع نفسه ، والمفلحون الفائزون بكل مطلوب الناجون من كل مكروه

ثم نصروا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى جميع المواطن ولم يكن لهم عسكر حتى صار بينهم فسماهم الانصار فصار ذلك الزمَ لهم من النسب والاسم ، فهذه فضائل خصهم الله تعالى بها ، ثم انه كان منهم ما كان من غزو المشركين وجهاد الكافرين ما هو مشهور ومذكور فى سيرة ابن هشام وغيرها من كتب المبعث مما لا يحتمل بسطه هذا المختصر . وقام بينهم حتى توفى صلى الله تعالى عليه وسلم بالمدينة وهى دار الأوس والخزرج وهم أكثر الناس بها عدداً ، وأعلاهم فيها يداً . (وفى الحجاز) أيضاً من البلاد : (الطائف) وهو بطن من جبل غزوان بشرقى مكة وهو شديد البرد كثير الفواكه لما فيه من كثرة البساتين التى تسقيها العيون والجداول المنحدرة من الجبال وأهلها من ثقيف وهم من قيس عيلان وقيل من اياد ، وقيل هم من بقايا ثمود . ومن بلاد الطائف (وَج) وهو واديها الذى يقول فيها الثقفى :

سقياً لِوَجٍّ وجنوبِ وَجِّ واحتله غيثُ دِراكُ الثجِّ (١)

وواد يقال له (النَّخِب) وهو من الطائف على ساعة . وواد يقال له (العرج) وهذا غير العرج الذى بين مكة والمدينة . وواد يقال له (لية) أعلاه لثقيف وأسفله لنصر ، وبين لية وبسل بلد يقال له (جلدان) تسكنه بنو نصر ، وبجلدان هضبة سوداء يقال لها (تبعة) ، وبها نقب كل نقب قدر ساعة كانت تلتقط فيه السيوف العادية والخرز ويزعمون ان فيه قبوراً لعاد ، وكانوا يعظمون ذلك الجبل . ومن بلاد الطائف (الشديق) وهو واد . و (الهدّة) بينها وبين السرّاة وقرية لبنى نصر يقال لها (الفتق) و (عكاظ) نخل فى وادٍ بينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكة زادها الله تعالى شرفا ثلاث ليال ، وبه كانت تقوم سوق العرب بالابتداء ، وبه كانت أيام الفجار . وكانوا يطوفون بصخرة هناك ويحجون اليها ، وذو المجاز ماء من أصل كبكب وهو لهذيل . وقال أبو عبد الله الواقدى عكاظ

(١) الدراك ككتاب اتباع الشىء بعضه على بعض ، والثج : الصب الكثير

بين نخلة والطائف . وذو المجاز خلف عرفة ومجنة بمر الظهران . وهـذه أسواق قريش والعرب ولم يكن فيها شيء أعظم من عكاظ . وسيأتى تفصيل ذلك عند ذكر أسواقهم (وفى الحجاز) أيضاً من البلاد (خيبر) بمعجمة وتحتانية وموحدة بوزن جعفر ، وهى مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على ثمانية برد من المدينة الى جهة الشام . وذكر أبو عبيد البكرى : انها سميت باسم رجل من العماليق نزلها وقد خربت بعد استيلاء المسلمين عليها بقرون وكان فيها قبائل من اليهود المتعربة ، وكانوا يوصفون بالمكر والخبث ، وكان السموأل بن عاديا اليهودى ساكناً فيها . قيل كانت للعمالقة ثم صارت لبنى عنزة بن أسد بن ربيعة . وكانت ردية الهواء ، كثيرة الوخامة دائمة الوباء ، تولد الحميات وحماها شديدة ، قال بعض الشعراء فى ذلك :

ومن يكُ أمسى فى بلاد مقامه ... يسائل أطلالا بها لا تجاوب
وقفت بها أبكى وأشعر سخنة ... كما اعتاد محموما (بخيبر) صالب

وخيبر هذه كانت كثيرة النخل يحمل منها التمر الى الجهات القصوى وفى ذلك يقول خارجة بن ضرار المرى :

أخالدُ هلاّ اذ سفِهتَ عشيرةً ... كففْتَ لسانَ السوء أن يتدعَّرا (١)
فانك واستبضاعكَ الشعرَ نحونا ... كمستبضع تمراً الى أرضِ خيبرا (٢)

وفيها اليوم بقايا من النخيل والبساتين يسكنها على خرابها بعض الفلاحين والعبيد السود . و (فَدَك) قرية من قراها كان بها نخيل وصوافى للسلطان وزروع . قال الشاعر :

من عجوة الشق تطوف بالودك ... ليست من الوادى ولكن من (فدك)

وأما (الجار) فهى الى الجنوب الشرقى من المدينة المنورة على نحو يوم وليلة

(١) نصب عشيرة على التمييز أى سفهت عشيرتك ، والدعارة : الخبث وتأتى بمعنى الشراسة فى الخلق أيضاً (٢) استبضع الشيء جعله بضاعة وهذا مثل وخص خيبر بالذكر لكثرة نخلها

وهى فرضة المدينة واليها ينسب جماعة ، منهم عبد الملك بن الحسن الجارى الاحول ،
والى الجنوب الشرقى منها على نحو مرحلة ماء يقال له (بدر) وبقربه قرية (بدر) .
وفى كتاب فتح البارى : هى قرية مشهورة نسبت الى بدر بن مخلد بن النضر بن
كنانة كان نزلها ، ويقال (بدر) اسم البئر التى بها سميت بذلك لاستدارتها
أو لصفاء مائها فكأن البدر يرى فيها . وحكى الواقدى انكارَ ذلك كله عن غير
واحد من شيوخ بنى غفار ، وانما هى مأوانا ومنازلنا وما ملكها أحد قط يقال له
بدر وانما هو علم عليها كغيرها من البلاد انتهى . وفيها كان يوم بدر وهو اليوم
الذى انتصر فيه المسلمون على المشركين من قريش ، وكان ممن قتل فى ذلك
اليوم بدر بن الاسود بن زَمَعة بن المطلب بن نوفل القرشى وكان من المشركين ،
فرثاه أبوه بقوله :

أتبكى أن يضلَّ لها بعير ... ويمنعها من النوم السهودُ
فلا تبكِ على بكر ولكن ... على بدرٍ تقاصرتِ الجدودُ

وعلى نحو منتصف الطريق بين الجحفة التى هى الآن خراب وبين مكة
عُسفان ويقال لها مدرج عثمان وهى المعنية بقول عنترة العبسى :

كأنها يومَ صَدَّتْ ما تُكلِّمُنا ... ظبيٌ بِعُسْفان ساجى الطرف مطروف

والى شرقى المدينة جبلا طيٍّ وهما (اجا وسلمى) ذكروا انهما اسما شخصين
من العرب كان أحدهما اجا يعشق سلمى ، وكانت العوجاء تجمع بينهما فصلبوهما
على هذه الجبال فسميت باسمائهم ، وهى المرادة بقول جابر بن رالان السنبسى :

ونحن غلبنا بالجبال وعزها ... ونحن وَرِثنا غيثاً وبدينا

أراد بالجبال أجا وسلمى وهضابهما . وبقول حسان بن حنظلة الطائى :

غضبتْ علىَّ ان اتصلتُ بطيِّ ... وانا امرؤٌ من طيِّ الاجبال

أى اجا وسلمى وعوارض ، وفى الحجاز جبال كثيرة وأودية وبلاد وقرى
وعيون وآبار لايمكننا استقصاؤها فى هذا المقام .

وأما تهامة

ففيها من البلاد مكة المكرمة شرفها الله تعالى ، والقول بانها من الحجاز مردود . وسيأتى تفصيل الكلام عليها ان شاء الله تعالى قريباً ، وكانت تسمى (أمَّ القُرَى) لكثرة القرى التى حولها ، وكان من بلاد هذيل فى طريق مكة على ليلتين نخلتان نخلة اليمانية يصب فيها (يَدَعان) [١] وهو وادٍ به مسجد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وبه عسكرت هوازن يوم حنين ، و (نخلة الشامية) ومجتمعها بطن مرّ . و (سَبُوحة) وهو وادٍ يصب فى نخلة اليمانية و (ابام) و (ابيّم) ، وكانا لهذيل وهما شعبان بينهما جبل مسيرة ساعة من النهار ، وقد قال فيهما السعدى من سعد بن بكر :

وان بهذا الشعب بين أبيّم ... وبين ابام شعبة من فؤاديا

ثم فوق ذلك شعب يقال له (نحا) وكان لهذيل أيضاً . ثم (المراخ) وهى لهذيل وهى ثلاثة شعاب تصب من (دآءة) . ودآءة هى الجبل الذى يحجز بين نخلتين ، ثم (عشر) وهو شعب لهذيل يصب من دآءة أيضاً . وقبالة عشر من شق نخلة الاخرى شعبان يقال لهما (الصيهاتان) يجيئان من السراة وبينهما وبين (بسوم) جبل يقال له (المرقبة) كان مرقبة لهذيل تكون رقباؤهم فيه . وشعب يقال له (هلال) يجىء من السراة أيضاً من بسوم . ثم شعب مثل هذا أيضاً يقال له (خيص) وبسوم جبل لهذيل وشعبان يقال لهما (الكفوان) الكفو الابيض والكفو الاسود وهما طريقان مختصران يصعدان الى الطائف . وهما مغان لا تطلع عليهما الشمس الا ساعة من نهار وهما شعبا سار وهما بلاد مهائف تهاف الغنم من المرعى الذى فى التِار ولا يرعيان الا فى الصيف وهذه كلها أعلى نخلة اليمانية . ثم تصير الى (البوبات) وهى صحراء ، وهى بلاد سعد بن بكر ،

---

(١) بالياء المثناة

وقرن وهو بين المناقب والبوبات هو أقصى البوبات ، وهى وادٍ يجىء من السراة لسعد بن بكر ولبعض قريش وبقرن منبر . قال الشاعر :

لاتقمرنَّ على قرن وليلته لا ان رضيت ولا ان كنت مغتضبا

ثم نجلس الى نجد تطلع (المناقب) والمناقب جبل معترض يقال له المناقب لان فيه ثنايا طُرُقٍ الى اليمن والى (التهامة) والى أعالى (نجد) والى (الطائف) ففيه ثلاث معاقب ، عقبة يقال لها (الزلّالة) ، وعقبة يقال لها (قرين) . وأخرى يقال لها (البيضاء) . وبالزلّالة صخرة وهى التى أقحم منها (العقيلى) ناقته فاقتحمت من شق وذاك انهم خاطروه ، ومن جبال مكة وشعابها جبل يقال له (الخندمة) وفيه بنيان مكة منها شعب بن عامر . ومنها (اجيادان) اجياد الصغير واجياد الكبير . ومنها (أبو قبيس) . ومن جبال مكة (ثور) وهو بالمفجر من خلف مكة على طريق اليمن ، و(ثبيران) وهما جبلان مفترقان يصب بينهما (افاعية) وهو واد يصب فى (منى) . قال الاصمعى (قُزَح) هو القرن الذى يقف عنده الامام (بالمزدلفة) قال : و(ثبير غيناء) و(ثبير الاعرج) وهما حراء . و(ثبير) و(أبو قبيس) و(الخندمة) جبال مكة وما حولها وابناء طمر واحد وعير والجماء وذباب بالمدينة وقربها . والقموص بخيبر ، الى غير ذلك مما يطول ذكره « ومن تهامة ينبع » وهى مدينة قريبة من البحر كانت منزلا لبنى الحسن بن علىّ بن أبى طالب ولها فُرْضَة (١) على البحر نحو مرحلة منها وبقربها جبل (رضوى) الذى يحمل منه حجر المسن الى الآفاق « وأما جُدَّة » فهى على البحر الاحمر وهى فُرضة مكة « والحديبية » قيل بعضها فى الحل وبعضها فى الحرم « وتَبوك » على نصف المسافة بين المدينة ودمشق ، وفيها كانت الواقعة العظيمة بين المسلمين والروم ، وفى تهامة كثير من البلاد ، منها ما قد خرب ، ومنها ما بقى على وضعه الاول ، ومنها ماحدث فى الازمنة الأخيرة . وبيانها على وجه التفصيل فى كتب معدَّةٍ لذلك .

---

(١) محط السفن

وأما العَرُوض

فقد اشتمل على ناحيتين ، الاولى « اليمامة » وهى مدينةدون مدينة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فى المقدار ، كان بينها وبين البصرة ست عشرةَ مرحلةً وبينها وبين الكوفة مثل ذلك ، وهى أكثر نخلاً من بلاد الحجاز وفيها مياه كثيرة ، ومنهـا كان (مُسَيْلَمة الكذّاب)[1] الذى ادعى النبوةَ فى زمن النبى

(١) هو ابو ثمامة مسيلمة بن حبيب الحنفي من أهل اليمامة كان صاحب اسجاع ومخاريق وتمويهات وادعى النبوة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة فمازال يخفي ويظهر ويقوى ويضعف وأهل اليمامة فرقتان احداهما تعظمه وتؤمن به والاخرى تسخفه وتضحك منه ، وكان يقول : انا شريك محمد فى النبوة وجبريل عليه السلام ينزل عليّ كما ينزل عليه وكان يقول يابنى حنيفة ماجعل الله قريشاً أحق بالنبوة منكم وبلادكم اوسع من بلادهم وسوادكم أكثر من سوادهم وجبريل ينزل على صاحبكم مثل ما ينزل على صاحبهم ولما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وجد الناس يتذاكرونه ومايبلغهم عنه من قوله وقول بني حنيفة فيه فقام يوماً خطيبا فقال بعد حمد الله والثناء عليه : اما بعدفاما هذا الرجل الذى تكثرون فى شأنه فكذاب بثلاثين كذاباً قبل الدجال فسماه المسلمون مسيلمة الكذاب واظهروا شتمه وعيبه وتصغيره وهو باليمامة يركب الصعب والذلول فى تقوية أمره ويعتضد برجال ابن عنفوه وهو ينصره ويذب عنه ويصدق اكاذيبه ويقرأ اقاويله التي منها :

والشمس وضحاها ، فى ضوئها ومجلاها ، والليل اذا عداها ، يطلبها ليغشاها ، فادركها حتى اتاها ، واطفأ نورها فمحاها ، ومنها : سبح اسم ربك الاعلى ، الذى يسر على الحبلى ، فاخرج منها نسمة تسعى ، من بين احشاء ومعى ، فمنهم من يموت ويدس فى الثرى ، ومنهم من يعيش ويبقى الى اجل ومنتهى ، والله يعلم السر واخفى ولا تخفى عليه الآخرة والاولى ،

وكتب مسيلمة الكذاب الى النبى صلى الله عليه وسلم كتابا قال فيه : الى النبى محمد رسول الله من مسيلمة رسول الله اما بعد فانى قد اشركت فى الامر معك وان لنا نصف الارض ولقريش نصفها ولكن قريش قوم يعتدون ولا يعدلون ، وختم الكتاب وانفذه مع رسولين فلما قرىء الكتاب على النبى صلى الله عليه وسلم قال لهما ما تقولون ؟ قالا نقول كما قال ابو ثمامة ، فقال اما والله لولا ان الرسل لا يقتلون لقتلتكما ، واملى فى الجواب : من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب سلام على من اتبع الهدى امابعد فان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، ولما صدر الرسولان الى مسيلمة الكذاب افتعل كتابا يذكر فيه انه جعل له الامر من بعده فصدقه بنى حنيفة وبلغ من تبركهم به انهم كانوا يسألونه ان يدعو لمريضهم ويبرك لمولودهم وجاءه قوم بمولودهم فمسح رأسه فقرع وجاءه رجل يسأله أن يدعو لمولود له بطول العمر فمات من يومه ولما انتقل النبى صلى الله عليه وسلم الى جوار ربه وارتدت العرب بعث ابو بكر رضى الله عنه خالد ابن الوليد الى حرب أهل الردة فاوقع بهم وانتصف منهم ثم أمره ابوبكر (رض) بقصد اليمامة

صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقتل فى زمن أبى بكر رضى الله عنه . ومنها أيضاً (زَرْقاء اليمامة)[١] وكانت مشهورة بحدّة البصر ومزيد الفطنة والذكاء ، ويقال : إنها كانت تبصر من مسيرة أيام ولها قصص شهيرة . وفى اليمامة أيضاً بلاد أُخَر هى اليوم خراب . الناحية الثانية بلاد البحرين ، وهو قطر متسع مجاور لبحر فارس كثير النخل والثمار والمشهور فيه من البلاد « هَجَر » بفتح الهاء والجيم ، وكانت هذه البلدة قاعدة البحرين وخربها القرامطة عند استيلائهم على البحرين ، وبنوا مدينة (الاحساء) ونزلوها وصارت إذ ذاك قاعدة البحرين ، وهى مدينة كثيرة المياه والنخيل والفواكه . وبينها وبين (اليمامة) نحو أربعة أيام ، وفيها غير ذلك من البلاد المتسعة والقُرى والمياه .

وأما نجد

فهى أطيبُ ارضٍ فى جزيرة العرب ، ولذلك ترى الشعراء قديماً وحديثاً يلهجون بذكرها ويترنمون بِرُباها وريّا عِطْرِها قال قائلهم :

ومقارعة مسيلمة ففعل وزحف اليها فى وجوه المهاجرين والانصار وتلقاه مسيلمة فى خيله ورجله ولما كان يوم اليمامة حمى الوطيس واشتدت الواقعة والتجأ بنو حنيفة وفيهم مسيلمة الى حديقة سميت من بعده حديقة الموت فاقتحمها خالد رضي الله عنه والمسلمون ووضعوا فيهم السيوف وقتل الله مسيلمة فاشترك فى قتله وحشىّ بحربته وعبد الله بن الزبير بسيفه وفتح الله تعالى اليمامة على المسلمين وافاء عليهم الغنيمة

(١) العرب تضرب المثل بها في جودة البصر وحدة النظر ويقال أن اليمامة اسمها وبها سميت بلدها اليمامة ثم أضيفت الى البلدة فقيل زرقاء اليمامة واسم البلدة جو وربما قيل زرقاء الجو كما قال ابو الطيب المتنبى :

وابصر من زرقاء جو لانني اذا نظرت عيناى شاءهما علمى

وهى امرأة من جديس كانت تبصر الشىء من مسيرة ثلاثة أيام على ما يذكر أهل الاخبار والقصص ، والنفس تنفر من تصديق مايذكرون ، قالوا : ولماقتلت جديس طسما خرج رجل من طسم الى حسان بن تبع فاستجاشه وارغبه ، فخرج فى جيش جرار فلما كانوا من جو على مسافة ثلاثة ايام صعدت الزرقاء السطح فنظرت الى الجيش وقد امروا أن يحمل كل رجل منهم شجرة يستتر بها ليلبسوا عليها فقالت ياقوم قد اتتكم الشجرة أو اتتكم حمير وقد اخذت أشياء تجرر أي تسحب فلم يصدقوها فقالت : احلف بالله لقد أرى رجلا ينهش كتفاً أو يخصف نعلا فلم يصدقوها ولم يستعدوا حتى صبحهم حسان فاجتاحهم وأخذ الزرقاء فشق عينيها فاذا فيها عروق سود من الاثمد والله أعلم

أقولُ لِصاحبي والعيسُ تَهْوِي ... بِنا بينَ المُنيفةِ فالضِمارِ (١)
تَمَتَّعْ من شَميمِ عَرارِ نَجْدٍ ... فما بعدَ العشيّةِ من عَرارِ (٢)
الا يا حبّذا نفحاتُ نجدٍ ... وريّا روضهِ بعد القِطارِ (٣)
وأهلُكَ اذ يحلُّ الحيُّ نجداً ... وأنت على زمانِكَ غير زاري (٤)
شُهورٌ ينقضينَ وما شعَرنا ... بأنصافٍ لهنّ ولا سِرارِ (٥)

وقال عبد الله بن الدمينة الخثعمي (٦)

الا يا صبا نجدٍ متى هِجتِ من نجْدِ ... لقد زادني مسراكِ وجداً على وَجْدِ (٧)
أإنْ هتفتْ ورقاء في رَوْنَقِ الضحى ... على فَنَنٍ غضِّ النباتِ من الرَنْدِ (٨)
بكيتَ كما يَبكي الوليدُ ولم تكن ... جليداً وأبديتَ الذي لم تكن تُبدي (٩)
وقد زعموا أن المحبَّ اذا دنا ... يَملُّ وأنَّ النأيَ يَشفي من الوَجْدِ
بكلٍّ تداوينا فلم يَشفِ ما بنا ... على ذاكَ قربُ الدار خيرٌ من البُعْدِ
على أنَّ قُرْبَ الدارِ ليسَ بنافعٍ ... اذا كان مَنْ تهواه ليس بذي وِدِّ

وقال الصمة بن عبد الله

حَنَنتَ الى ريّا ونفسُكَ باعدت ... مزارك من ريّا وشعبا كما معًا (١٠)

---

(١) المنيفة : ماء لبني تميم ، والضمار : اسم موضع ، وقوله فالضمار كان حق العطف ان يكون بالواو لان بين لاتدخل الا بين شيئين متباينين أو الاشياء الا اذا اريد بين اجزاء المنيفة فيصير المنيفة كاسم الجمع نحو القوم والعشيرة (٢) الشميم مصدر ويقال تمتع بكذا ومن كذا والعرار : وردة ناعمة صفراء طيبة الرائحة ، وقوله من عرار من لاستغراق الجنس (٣) النفح تضوع الرياح بالنسيم الطيب ، والريا : الرائحة هنا ، والقطار جمع قطر وهو المطر (٤) زرى عليه : عابه وأزرى به قصر به (٥) سرار الشهر آخره والمعنى أن الزمان المذكور شهور مضت وما علمنا بانصافها ولا باواخرها لما كان فيه من اللذة وطيب العيش (٦) الدمينة امه وهو أحد بني عامر بن تيم الله ويكنى ابا السري وهو شاعر اسلامي مجيد محسن وعده جرجي زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » من شعراء الجاهلية وهو خطأ بين لايخفى على ذي بصيرة فليحذر من سقطاته وزلاته ، بل ودسائسه (٧) الصبا ريح القبول، وهاجت : ثارت والمعنى الا ياصبا نجد متى كان هبوبك من نجد التي هي أرض المحبوب فلقد زادني مسراك حزناً على حزن أي ما كان منك هبوب الا كان مني وجد (٨) الورقاء : الحمامة التي مال سوادها الى البياض ، والرونق : الضياء، والرند : نوع من الطيب ، والفنن : الغصن الناعم والغض : الطري (٩) الجليد : القوي، والنأي : البعد (١٠) الحنين : تألم من الشوق، وريا اسم امرأة ،

فما حَسَنٌ أنْ تأتِيَ الامرَ طائعاً ... وتَجزَعَ أنْ داعي الصبابةِ أسمعا
قِفَا وَدِّعا نجداً ومن حلَّ بالحِمى ... وقلَّ لنجدٍ عندنا أن يُوَدَّعا (١)
بنفسي تلكَ الارضُ ماأطيبَ الرُبا ... وما أحسنَ المصْطافَ والمَتربَّعا (٢)
وليست عشياتُ الحِمى برواجعٍ ... عليك ولكن خلِّ عينيْكَ تدمعا
ولما رأيت البِشْر اعرضَ دوننا ... وحالت بناتُ الشوقِ يحْنِنَ نُزَّعا (٣)
بكتْ عيْنِيَ اليُسرى فلما زجرتُها ... عن الجهل بعد الحلم اسبلتا معا (٤)
تَلَفَّتُ نحوَ الحيِّ حتى وجدتُني ... وجِعتُ من الاصغاء ليتاً وأخْدَعا (٥)
واذكرُ أيامَ الحِمى ثم انثني ... على كَبِدي من خشيةٍ أنْ تَصدَّعا

وفي نجد بلاد كثيرة ، وفيها أرض العالية التي كان يحميها كُلَيب بن وائل وأفضى بذلك الى قتله وانتشابِ حرب البَسوس التي استقامت مدة مديدة وأعواما عديدة ، وقد الف أبو لغدة الاصفهاني كتاباً فيما كان في نجد من البلاد والقُرى والجبال

وباعدت ابعدت والواو في الموضعين من البيت واو الحال ، والمزار الزيارة ، والشعب : الحي

(١) الحمى : موضع فيه ماء وكلاء يمنع الناس منه ، والنجد كل ما ارتفع من تهامة الى ارض العراق (٢) الالف واللام في الربا عوض عن المضاف اليه والربا جمع ربوة وهي ما ارتفع من الارض ، والمصطاف : مكان الصيف ، والمتربع : مكان الربيع والمعنى افدي بنفسي تلك الارض لطيب رباها العجيب وحسن فصلها صيفاً وربيعاً (٣) البشر جبل بالجزيرة ، واعرض : ابدى عرضه وجانبه ، وحالت : تحركت ، وبنات الشوق : نوازع الحنين كاطفال الحب وهذه استعارة لطيفة جميلة واراد بها مسببات الشوق وآثاره ، والنزع جمع نازع أي مشتاق (٤) بكت عيني جواب لما في البيت قبله ، والعجب كل العجب من بعض ائمة اللغة المتقدمين فانه لما تكلم على هذا البيت قال « واختلف في معناه والصحيح انه كان اعور والعين العوراء لا تدمع » فهلا نظر الى قوله واسبلتا معاً ، والذي اراه انه لما رأى البشر اعرض دونه وتحركت مسببات الشوق بالحنين مشتاقة الى نجد دمعت عينه اليسرى والانسان كثيراً ما اذا اشتاق الى الشيء هو مغرم به وحظي برؤيته تدمع أحدى عينيه فتطاوعها الاخرى ، وقوله فلما زجرتها الخ يريد انه لما منعها من البكاء الذي يشعر بالجهل بعد الحلم وتيقن ان البكاء لا يفيد مع اليأس من القرب طاوعتها اليمنى فدمعتا معاً ، والظاهر أن المراد بالجهل بعد الحلم الجزع بعد الصبر (٥) تلفت التفت ، والليت : صفحة العنق ، والاخدع عرق فيها ، والاصغاء الميل وليتا واخدعا منصوباً على التمييز ، والمعنى لما حان الفراق صرت أكثر من الالتفاتات جهة الحي حتى وجدت نفسي وجع الليت والاخدع لدوام التفاتي تحسراً في اثر الفائت من احبابي وديارهم

والمعادن والمياه ومن ملكها من قبائل العرب فى سالف الأيام ، ومن جملة ما ذكر فى كتابه ؛ قال ابن الأعرابى : نجد اسمان السافلة والعالية ، فالسافلة ماولى العراق . والعالية ماولى الحجاز وتهامة . وقال الأصمعى : اذاجزْتَ ذاتعِرْق الى البحر فأنت فى تهامة ، وإذا جزْتَ وَجْرَةَ وغَمْرَةَ فأنت فى نجد الى أن تبلغ العُذَيْب ، وغَمْرَةُ فى طريق الكوفة . ووجرة فى طريق البصرة الى هنا ذكر نجد . قال : يقول بعض الناس : اذا بلغتَ العُذَيْب من ناحية الكوفة وهى من الكوفة على مرحلة فأنت فى نجد الى أن تبلغ حدّ تهامة . وقال الأصمعى : اذا جاوزتَ عجلز من ناحية البصرة فقد انجدتَ ، وإذا بلغتَ من ناحية الكوفة سميراء أو دونها فقد انجدتَ الى أن تبلغ ذات عرق ، فاذا تصوبت فى ثنايا ذات عرق فقد اتهمت ، ويقال اذا خرجت من المدينة على مُشرّفها أفضل الصلوة وأكمل السلام فأنت منجدٍ ان تتصوّبَ فى مدارج العرج فاذا تصوبت فيها فقد اتهمتَ الى مكة المكرمة. قال : ويقول أهل المدينة أخذت التهامية أم النجدية ؛ فالتهامية التى على عُسْفان والجحفة ، والنجدية التى على طريق الرَّبَذَةِ . قال : وللبصرة الى مكة طريقان أما أحدهما فالصحراء عن يسارك وأنت مُصْعِدٌ الى مكة ليالى ، فاذا ارتفعت فخرجت من فلج فأنت فى الرمل فاذا جاوزتَ النِباجَ والقريتين فقد انجدتَ ، وإذا أخذتَ طريق المُنْكَدِرِ الى كاظمةَ فثلاث الى كاظمة ، وثلاث فى الدوّ . وثلاث فى الصمان ، وثلاث فى الدهناء . وعن غيره قال بعضهم : إذا جاوزت الحفر حفر أبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنـه ، وهو حفر بنى العنبر كان أبوموسى احتفر فيه ركيّةً فأنتَ فى نجد . وقال بعضهم : حدُّ نجد من النِباج وهو لبنى عبد الله بن عامر ابن كريز . ويقول بعضهم : اذا جزْتَ القَصيم فأنت فى نجد الى أن تبلغ ذات عرق ثم تتهم ، والقصيم موضع كان ذا غضى فيه مياه كثيرة ، وقرى منها القريتان قريتا ابن عامر أحدهما يقال لها العسكران . قال : وكان أهل القصيم يسكنون فى خيام الخوص ، وهى منازل بنى عبس وغيرهم وفيه نخل كثير وهو من عمل

المدينة ويقال حد القصيم قاع بولان وهى مفازة . قال : والقصيم رمل وبالقصيم ماء لبنى أسد فى الرمل عليه خيام من الخوص كثيرة يقال له الحويرثية . قال الشاعر :

عَلى الرَّبْعِ الذى بحُوَيْرِثاتٍ   من اللهِ التحيةُ والسلامُ

وبالقصيم عجلز [1] وهى ماءة لبنى مازن وهى المنصف بين البصرة ومكة قال الراجز :

اللهُ نجّاكَ من العجالِزِ   ومن جبال طَخْفَةَ النواشز [2]

والعجالز رحب ، وعجلز وما حولها من المياه ورحب ماء لبنى مازن بالقصيم أيضاً . وقد ذكر هذا المؤلف رحمه الله جميع القرى والجبال والمياه والمعادن وما ورد عن الشعر فى ذلك . قال بعض شعراء العرب يذكر بعض منازل نجد ويتشوّقها ، وهو قائد بن حكيم الربعى :

خليليَّ إنْ حانت بمصرَ منيّتى   وأزمعتما ان تحفرا لى بها قبرا [3]

فلا تنسيا أن تقرآ لى على الغَضَى   ونجدٍ سلاماً لاقليلاً ولانزرا [4]

وان سرت ياسبحان ربى بالغضى   أو المَرْتِ من نجد مخيسة صعرا [5]

---

(١) ورد فى القاموس وشرحه التاج : عجلزة بالكسر رملة بالبادية بازاء حفر ابى موسى وتجمع على عجالز ذكرها ذو الرمة فقال :

مررن على العجالز نصف يوم   وادين الاواصر والخلالا

قال الصاغانى ولم اجد البيت فى شعر ذي الرمة فى قصيدته التى أولها :

اناخ فريق جيرتك الجمالا   كانهم يريدون احتمالا

فى نسختى من ديوانه التى قابلتها وصححتها باليمن والعراق ولكنه يقطر منه قطرات عذوبة انفاسه وسلاسة الفاظه وانما هو لابن احمر والروايه وقضين وقد وقع ذكر العجالز فى رجز اهاب بن عمير العبسى :

قاظ القريات الى العجالز   يرد شعب الجمح الجوامز

وهى جمع عجلزة التى ذكرها الجوهرى بعينها ، قال الزبيدى ومما يستدرك عليه برملة عجلزة ضخمة صلبة وكثيب عجلز ضخم صلب والعجالز مياه بضة بنجد هكذا ذكره فى مختصر البلدان ويمكن أن يكون المراد فى الرجز فتأمل (٢) طخفة جبل أحمر حذاؤه أبار ومنهل ومنه يوم طخفة لبنى يربوع على قابوس بن المنذر بن ماء السماء ، والنواشز : المرتفعة (٣) يقال ازمعت الامر وعليه اجمعت أو ثبت عليه كزمعت (٤) الغضى : شجر وخشبه من اصلب الخشب ولهذا يكون فى فحمه صلابة (٥) المرت : المفازة بلانبات أو الارض لايجف ثراها ولا ينبت مرعاها

وقال أيضاً

متى العيسُ من مِصْر بنا رافعاتنا ... الى نجد أو باد لعينى قلالها
ومزج اليها الطرف حتى يرده ... قموس القرى فى البعد يخفق آلها
على متن عادىّ كأن أماره ... رجال تنادى افلتها جمالها

وقوله ومزج أى يسوق نحوها الطرف ينظر اليها ويعني بقموس القرى هضبة . وقال عباس بن خليل النصرى ينوح بنى جَذِيمَةَ بن مالك بن نصر، ويقال إن القائل مرار الفقعسى :

ولقد أرى الثَلَبُوتَ يأنف نبته ... حتىّ كأنهم أولو سلطان (١)
ولهم بلاد طالما عرفت بهم ... صحر الملا ومدافع السبعان
ومن الحوادث لا أبا لابيكم ... ان الاجيفرَ قسمة شطران
طردت مخاضَ بنى أُنيفَ عنوةً ... سبحانك اللهمَّ ذا السبحان
طردوه ان لاقوا غلاماً واحداً ... ونَسُوا مواثقَ معقد الايمان
فلوا الهديم لقوا أو ابنى دهمج ... عرفوا التملُّكَ أسرع العرفان
سكنوا شُبَيْثاً والأَحَصَّ وأصبحت ... نزلت منازلهم بنو ذُبيان (٢)
واذا يقال اتيتمُ لم يبرحوا ... حتى تُقِيمَ الخيلُ سوقَ طِعانِ
واذا فلان مات عن أُكْرومة ... رقعوا معاوزَ فقدِهِ بفلان

وقد أحلنا استيفاء بلاد نجد وقراها وجبالها ومعادنها وغير ذلك على كتاب الاصبهانى السابق ذكره .

وأما اليمن

فهذا إقليم عظيم متسع الارجاء ، متباعد الاطراف والأنحاء ، لم تزل محمودة

(١) الثلبوت كجبربوت واد أو ارض بين طي وذبيان (٢) شبيث والاحص موضعان بتهامة وموضعان بحلب وفى المثل : تخطى الىّ شبيثا والاحص ، قال فى الفرائد : شبيث ماء لبنى الاضبط ببطن الجريب فى موضع يقال له دارة شبيث ، والاحص : موضع هناك ، قاله جساس لكليب حين طعنه فقال أغثنى بشربة ماء فقال تجاوزت شبيثا والاحص ، يعنى ايس حين طلب الماء يضرب لمن يطلب شيئاً فى غير وقته

على ألسنة الاصفياء ، لما أودع الله فيها من البركة فى جميع الاشياء ، وكانت تسمى الخضراء لكثرة مزارعها ونخيلها وأشجارها وأثمارها ومراعيها وريعها . قال الكلاعى فى قصيدته :

هى الخضراء فاسأل عن رُباها   يُخبِرك اليقينَ المخبرونا
ويُمطِرها المهيمنُ فى زمان   به كل البرية يَظْمَؤُنا
وفى اجبالها عزّ عزيز   يظل له الورى متقاصرينا
وأشجارٌ منوَّرَة وزرع   وفاكهة تروقُ الآكلينا

وأرض اليمن مقسومة ثلاثة أقسام : قسم برارى سهلة ، وقسم جبال وعرة ، وقسم بحر . فعدّ أبو الحسن الكلاعى من البرارى السهلة مواضع شرقية ، ومواضع غربية ، فمن الشرقية مارب ونجران وحضرموت وجوف همدان والشحر وبيجان . وعدّ من الغربية زبيداً وعلافقة وعسيراً وسردد وموراً وأرض حكم وهى من المبيضة الى جلى ، قال : وفى هذه البرارى والسهول من المنافع والفضائل والخير الطائل ما لا يحصى له عدد ، ولا يبلغ له أمد ، وعدّ من قسم الجبال . جبال اليمن المشهورة بالشُموخ والسعَة ، والخِصْبِ والمَنَعَةِ ، والجناب والرفعة ، وهى صبر ومخلاف جعفر ودخر وبعدان ووصاب وعتمة واريمة وبرع وحفاش وملحان وحضور وتيس ومسور والشرف وجبل هنوم ، وذكر أن فيها من الخيرات والفضائل ما لا يخفى الاّ على جاهلٍ أو متجاهل ، وكم فيها من البساتين والعيون الجارية والفواكه والروعات ، والاشجار والثمرات ، والمعاقل المنيعة ، والحصون القاهرة ، مما لا يوجد فى كثير من الديار مثله ، ولا يوصف شكله . وعدّ أيضاً جزء البحر وما يخرج منه الى اليمن فقال : يخرج منه اللؤلؤ والمَرْجان والعنبر الذكىّ . قال : وأما الذى كان يصل الى اليمن من البلدان البعيدة بواسطة البحر فالدرّ والياقوت وأصناف من المسك والكافور والعود الرطب وأنواع العطر والفُلْفُل والحديد ، هذا كله من بلاد الهند . وأما الذى كان يَصِلُ من الصين فالحرير

والقصب . وأما الذى كان يَصِلُ من عمان وأرض فارس فكثير من التُحف التى يطول ذكرها .

بعض ما كان فى اليمن من المعادن

ذكر فى كتاب نشر المحاسن اليمانية ان فى اليمن كثيراً من المعادن ، منها مَعْدِنُ عُشَم ومَعْدِنُ ضنكان وهما معدنا ذهب جليلان . ومعدن القفاعة من أرض حكم وهو دونهما . ومعدن فى أرض بنى محيد وهو دونه . وأما معادن الفضة فان فيها مَعْدِن الرصاص وهو موضع بين فهم بطن من همْدان وبين خولان العالية وبين مراد ، وهو معدن جليل كان اعتماد أهل اليمن عليه فلما ضعفت السلطنة تقالت العرب عليه وخربت قرية الرصاص وكان أهلها من العُرَنيين [1] فانتقلوا الى صنعاء . وأما معادن الجزع واليفران والعقيق فهما جميعاً بأرض مقرى من مخاليف اليمن الشرقية . وأما حجارة الحديد فان فى اليمن جبالا كثيرة يصلح منها الحديد بعضها بعدن أبْيَن و بعضها بأرض وادعة بين صعدة والحجاز ، وفى نجران أيضاً جبل من حديد . ومنها بيجان ضرب من حديده سيوف كثيرة كانت مع ولد سبا بمأرب لم يكن لها فى السيوف قياس ولا مثيل .

ما كان فى اليمن من القصور والمبانى الشهيرة

كان فى اليمن حصون كثيرة ، ومساكن عامرة ، وقصور عجيبة فاخرة ، منها : قصر غُمْدَانَ الذى كان بصنعاء وهو قصر عجيب فاخر أُسُسه — كما فى كتاب نشر المحاسن اليمانية — أزالُ بنُ قَحطان بأمر أخيه يعرب بناه عشرين طبقةً بعشرين سقفاً بين كل سقفين عشرين ذراعاً وجعل فيه مائةَ مسكنٍ ، وكان أعلى غُرَفه مُمَرَّداً بالقوارير . وذكر بعض المؤرخين : أن قصر غمدان هو بظاهر صنعاء اليمن وله غرف شهيرة يسمونها المحاريب وهو محكم البناء عجيب

(١) عرنية بالضم اسم قبيلة ورهط من العرنيين ارتدوا فقتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا فى الصحاح

الارتفاع لأنه سبع طبقات وفيه ما لا يوصف من الزخارف والصنائع الغريبة . بناه الملك شُرَحْبِيل بن عمرو بن غالب بن المنتاف بن زيد بن يعفر بن السكسك ابن وائل بن حمير ، وأقام فيه مدة ملكه ثم صار بعد ذلك دار الملك للتبابعة . وذكر بعضهم : أن غُمْدان قصر باليمن بناه يَشْرُحُ بأربعة وجوهٍ أحمرَ وأصفرَ وأبيضَ وأخضرَ ، وبنى داخِلَهُ قصراً بسبعة سُقوف بَيْنَ كل سقفين أربعون ذِراعاً . وعلى كل قول من هذه الأقوال ان قصر غُمْدان كان من أعاجيب المبانى فى وقته فلذلك أكْثَرَ شعراء الجاهلية من ذكره فى شعرهم ونوهوا بشأنه . ومنها : ظفارِ وهو قصر الملك أبرهة ، وقد كان أيضاً من الأبنية العظيمة . ومنها : سَلْحِيْنُ وهو قصر بناه الحارث الرائش بين صنعاء ومأرب . ومنها : ناعِظ قصر ملوك همدان . ومنها : ينون قصر بناه تُبَّعُ الذائد بأرض عنتر . ومنها : صرواح لسعد ابن خولان . ومنها : قصر العشب . ومنها : قصر العنقاء . ومنها : موكل قصر فى المشرق بناه أبرهة ذو المنار بن الحارث الرائش . ومنها : براقين ومعين قصران مقتبلان بالجوف . ومنها : تلعم قصر همدان بريدة . ومنها : هكر والاهجر قصران فى أرض عبس . ومنها : دورم لصهر أبرهة بن الصباح . ومنها : أعماد لسنام بذى شان ، وهو من ولد سبا الاصغر .

ومن المدن الشهيرة باليمن « صنعاء » وكانت من أحسن البلاد مساكنَ وأطيبها وأصحها هواء ، يقال إن شتاءها فى غاية البرودة . ومع ذلك لا يحصل منه ضرر لأحد . وكانت هذه المدينة من أشهر بلاد العرب وأنزهها وكانت تحاكى دِمَشْق الشام لكثرة مياهها وأشجارها وهى معتدلة الهواء حسنةُ الاسواق واسعة التجارة . وكانت كرسىَّ ملوك اليمن فى الزمان القديم ، وهى شرقىّ عدن فى الجبال ، وكانت فى الزمن القديم تسمى أزَالَ . ولما كانت هى وما حولها فى الازمنة الاخيرة تحت حَوْزة امام الزيدية استحدث عليها حصن تعز ، فصارت اذ ذاك منزلا لبنى رسول ملوك اليمن وهو حصن فى الجبال مُطِلٌّ على التهائم وأرض زبيد وفوقه متنزه

كان يقال له (صهلة) قد ساق اليه صاحب اليمن المياه التى فوقه وبنى فيه أبنية عظيمة فى وسط بستان هناك . ومنها « زبيد » وهى قصبة التهائم وموضعها فى مستوى من الارض والبحر عنها أقل من يوم ، وفيها نخل كثير وكان عليها سور دائر فيه ثمانية أبواب ، وهى الى الغرب من صنعاء ولها فُرْضَةٌ على البحر تسمى (علافقة) وبينها وبين البحر خمسة عشر ميلا ، والى الجنوب منها على شط البحر أيضاً « مدينة المخا » التى يجلب منها البنّ وعلى أربع مراحل من المخا بيت الفقيه وهى من الاراضى التى ينبت فيها البن أيضاً . ومنها « عدن » ويقال لها عدن أَبْيَن سميت باسم بانيها وهى مدينة على ساحل البحر أعنى بحر الهند جنوبى باب المندب بميلة الى الشرق ، وكانت مورد حط واقلاع لمراكب الهند ومصر وغيرها ، وهى فى ذيل جبل وتمامه سور الى البحر ، وكان لها باب الى البر وآخر الى البحر ، وأرضها مُجْدِبة تنقل اليها المياه فى الغالب على ظهور الدواب ، وهى اليوم بيد الافرنج وهى فُرْضَة اليمن . ومنها : (نَجْران) بفتح النون وسكون الجيم ، وهى قطعة عظيمة من أرض اليمن ذات نخيل وأشجار على القرب من صنعاء ، وهى بين عدن وحضرموت ، ويقال : هى على جبال من شمال اليمن الى شمال صعدة تبعد عن صنعاء نحو عشرة مراحل ، وكانت من بلاد همدان بين قرى ومدائن وعمائر ومياه . وبها كان أفعى الجرهمىّ الذى تحاكم اليه مضر وربيعة وإياد وأنمار أولاد نزار بوصية من أبيهم ، على ما سيجئ ان شاء الله تعالى بيانه فى الكلام على الفراسة . ومن مشاهير بلاده « ظفار » بالظاء المشالة والفاء وهى مدينة على ساحل (جون) يخرج من بحر الهند ويطعن فى الشمال نحو مائة ميل ، وهى على طرفه بينها وبين صنعاء أربعة وعشرون فرسخاً وعلى شمالها رمال الأحقاف التى كان بها عاد ، وهى قاعدة بلاد (الشحر) ويوجد فى أرضها كثير من النبات الهندى كالنارجيل والتنبل [1] ، وفيها بساتين على سواقى ، وفى سواحلها يوجد العنبر .

---

(١) قال فى القاموس والتامول التانبول وهو ضرب من اليقطين طعم ورقة كالقرنفل يمضغونه

ومن البلاد التي كانت فى اليمن — مأرب

وتسمى سبأ باسم بانيها ، وهو سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان أول ملوك اليمن فى قول واسمه عبد شمس وانما سمى سبأ لأنه أول من سبى السبى من ولد قحطان . وكان ملكه أربعمائة وأربعا وثمانين سنة ثم سمى به الحى ثم سمى به مسكنهم ، وكانت هذه البلدة من أحسن بلاد اليمن بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ، وهى الى الجنوب الشرقىّ من صنعاء لم يكن يومئذ فى بلاد العرب أعْمَرَ منها . قال عبد الملك فى شرح قصيدة ابن عبدون : إنَّ أرضَ سبأ من اليمن كانت العمارة فيها أزيد من مسيرة شهرين للراكب المُجِدِّ وكان أهلها يقتبسون النار بعضهم من بعض مسيرة أربعة أشهر فمزقوا كل ممزق . وذكر غيره من المؤرخين الثقاة : أن (مأرب) كانت لطيفةَ الهواء ، حسنةَ التربة ، لا تحدث فيها عاهة ، ولا يكون فيها هامة ، حتى إن الغريبَ إذا دخلها وفى ثيابه قمل أو براغيث ماتت ولذلك نطق القرآن فى شأنها أنها بلدة طيبة . وقيل : المراد بطيبها صحة هوائها وعذوبة مائها ، ووفور نزهتها ، وانه ليس فيها حرّ يؤذى فى الصيف ولا برد يؤذى فى الشتاء وكان عن يمين البلدة وشمالها بساتين كثيرة ، ويقال : إن لكل منزل من منازل البلد جنةً عن اليمين واُخرى عن الشمال ، وذلك بسبب ما كان من كثرة المياه فى أرضها . فقد روى أن بلقيسَ لما ملكت اقتتل قومها على ماء واديهم فتركت ملكها وسكنت قصرها وراودوها على أن ترجع فأبت ، فقالوا : لترجعِنَّ أو لنقتلنك . فقالت لهم : أنتم لا عقولَ لكم ولا تطيعونى . فقالوا : نطيعك . فرجعت الى واديهم ، وكانوا اذا مطروا أتاهم السيل من مسيرة ثلاثة أيام فأمرت فسدّ ما بين الجبلين بمسناة بالصخر والقار وحبست الماء من وراء السدّ ، وجعلت له أبوابا بعضها فوق بعض ، وبنتْ من دونه بركة منها اثنا عشر مخرجا على عدة

بقليل من كلس وهو مشهّ مطرب باهىّ مقوّ للثة والمعدة والكبد وهو خمر الهند يمازج العقل قليلا وهو ينبت كاللوبياء ويرتقى فى الشجر

انهارهم ، وكان الماء يخرج لهم بالسوية الى ان كان من شأنها مع سليمان عليه السلام ما كان . وقيل : إن الذى بناه هو حمير أبو القبائل اليمنية . وقيل : بناه لقمان الاكبر ابن عاد ورصف احجاره بالرصاص والحديد ، وكان فرسخاً فى فرسخ ولم يزالوا فى ارغد عيش ، وأخصب أرض ، حتى إن المرأة تخرج وعلى رأسها المِكْتَلُ (١) فتعمل بيديها وتسير فيمتلىء المكتل مما يتساقط من أشجار بساتينهم الى أن اعرضوا عن الشكر وكذبوا الانبياء عليهم السلام ، فسلط الله تعالى على سدّهم الخُلْدَ (٢) فوالد فيه نخرقه ، فارسل سبحانه سيلاً عظيما فحمل السد وذهب بالجنان وكثير من الناس ، وكان ذلك السيل على ماقيل فى ملك ذى الاذعار ابن حسان فى الفترة ، وكان أول من أحس بحادثة (سيل العَرِم) قبل وقوعها بزمن طويل نخرج من اليمن عمرو بن عامر مُزَيْقِيَا لما انذرته بذلك طريفة الكاهنة ، وسيأتى ذكر ماقالته من الاسجاع عند الكلام على الكهانة ان شاء الله تعالى مع بيان من تفرق من القبائل والمواضع التى سكنوها . وفى أرض (مأرب) اليوم بقايا من آثارهم وكتابات كثيرة منقوشة بالخط الحميرى قد اهتدى الى معرفتها بعض السياحين من الافرنج الذين طافوا انحاء هذه البلاد بواسطة مقابلتهم مانقش منه على الآثار التى اكتشفوها بالخط الحبشى والكوفى والفينيقى والعبرانى ، وعرف بذلك ما كان للقوم من المدنية والمعارف الكلية

وفى اليمن بلاد أخرى كثيرة لا يمكننا استيعابها فى أقسام اليمن الخمسة ، وهى : حضر موت ومهرة وعُمان وشحر ونجران ، ولذلك كتب معدة . وكان اليمن منازل العرب العاربة من عادٍ وطَسْم وجَدِيس وأميم وجرهم وحضرموت ومَنْ فى معناهم . ثم انتقلت ثمود الى الحجر من أرض الشام ، فكانوا بها حتى هلكوا وهلك أيضاً من هلك من بقايا العرب العاربة باليمن من عاد وغيرهم ، وخلفهم فيه بنو قحطان بن

(١) بكسر الميم الزنبيل وهو مايعمل من الخوص يحمل فيه التمر وغيره والجمع مكاتل مثل مقود ومقاود (٢) الخلد بالضم ويفتح الفارة العمياء

عامر على قول فعرفوا بعرب اليمن وبقوا فيه الى أن خرج منه عمرو فى حادثة السيل ، ثم خرج منه بقاياهم وتفرقوا فى الحجاز والشام وغيرها . وكانت الحجاز أرض بنى عدنان الى أن غزاهم بختنصر ، ونقل من نقل منهم الى الأنبار من بلاد العراق ، ولم تزل العرب بعد ذلك تنتشر فى الأقطار الى أن كان الفتح الاسلامى فوغلوا فى البلاد حتى وصلوا الى بلاد الترك وما داناها وصاروا الى أقصى المغرب وجزيرة الاندلس وبلاد المشرق وملؤوا الآفاق ، وصار بعض عرب اليمن الى الحجاز ، فاقاموا به وربما صار بعض عرب الحجاز الى اليمن فأقاموا به وبقى من بقى منهم فى الحجاز واليمن الى يومنا هذا

ومن بلاد العرب ومبانيها فى بوادى الشام — تَدْمُرُ

وهى بلدة قديمة ببادية الشام من أعمال حِمْص وهى على شرقيها وأرضها سباخ ، وكان فيها شجر ونخيل وزيتون ، وفيها آثار عظيمة قديمة من أعمدة وصخور ، وكان لها سور وقلعة وبينها وبين حِمْص نحو ثلاث مراحل . وكذلك بين سلمية وبينها وبين دمشق تسعة وخمسون ميلا ، وبينها وبين الرحبة مائة ميل وميلان ، وكانت منزل آل ربيعة ملوك الشام . واختلف فى بانيها فقال بعض المؤرخين : إِنه سليمان عليه السلام فان هذه البلدة كانت مستقره وان الجن قد بنتها له بالصُفَّاحِ والعَمَد والرُخام الأبيض والأشقر ، وفى ذلك يقول النابغة الذبيانى فى مدح النعمان ابن المنذر :

ولا أرى فاعلاً فى الناس يُشْبِهُهُ ... وما أُحاشى من الاقوام من أَحَدِ (١)
الا سليمان اذ قال الاَلهُ له ... قُمْ فى البرية فاصدُدْها عن الفَنَدِ (٢)

(١) ولا ارى فاعلا الخ أى لا ارى أحداً يفعل الخير يشبهه ، ولا احاشى أى لا استثنى ، ومن فى قوله من أحد زائدة (٢) يريد بسليمان ابن داود عليهما السلام وهو فى موضع نصب على البدل من موضع أحد وان شئت على استثناء ويروى اذ قال المليك له ، والفند الخطأ

وخيِّس الجن انى قد أذنت لهم … يبنون تَدْمُرَ بالصُفَّاحِ والعَمَدِ (١)
فمن أطاع فاعقبه بطاعته … كما أطاعك وادلله على الرشد
ومن عصاك فعاقبه معاقبةً … تَنْهى الظلوم ولا تقعد على ضمد (٢)
الاّ لمثلك أو من أنت سابقهُ … سبقَ الجواد اذا استولى على الامد (٣)

ذكر ذلك الثعالبى فى تفسيره ، وهذا من مذاهب العرب على سبيل المبالغة لا الحقيقة كما كانوا يزعمون أن عَبْقَراً اسم بلد الجن فينسبون اليه كل شىء عجيب ، فزعموا أن (تدمر) من بناء الجن لما يرون من قوتها الباهرة وصنعها العجيب . وقال بعضهم : إنها من أبنية العرب الاقدمين ، ففى القاموس تَدْمُرُ كتَنْصُر بنت حسّان بن أُذَيْنة بها سميت مدينتها وهذا هو المعول عليه ، ولعل مراد من قال : إن بانيهَا سليمان عليه السلام انه حسنها وزاد فى أبنيتها والله أعلم « ومنها تيماء » وهى حاضرة طيّ وبها الحصن المعروف (بالابلق الفرد) المنسوب الى السموأل ابن عاديا ، وكانت بلدة عظيمة بين الحجر أرض ثمود وبين الشام ، وفيها عين ماء ونخيل . ويقال : إن أصحاب الأَيْكَة الذين بعث الله تعالى شعيباً اليهم أيضاً سكنوها ، وفى ذلك الحصن يقول السموأل فى قصيدته الشهيرة :

لنا جبلٌ يحتلُّهُ من نُجيرهُ … منيعٌ يردُّ الطَرْفَ وهو كليلُ
هو الابلق الفرد الذى شاع ذكره … يَعِزُّ على من رامَهُ ويطولُ
رسا أصلهُ تحتَ الثرَى وسما بهِ … الى النجم فرعٌ لا يُنالُ طويلُ

ومنها « مدين » وهى قريبة من البحر الى غربى (الحجْر) مائلا الى الجنوب وهى التى قال فيها كثيِّر عَزَّة :

رُهْبانُ (مَدْيَنَ) والذين عَهِدْتهم … يبكون من حذر العذاب قُعودا
لو يسمعون كما سَمِعتُ كلامها … خرّوا لِعَزَّةَ رُكَّعاً وسُجودا

(١) الصفاح : الحجارة كالصفائح عراض ومعنى خيس اذلل ويروى وخبر الجن انى قد أمرتهم الخ (٢) الضمد : الحقد (٣) أى لا تنقم على الحقد الا لمن يماثلك فى حالك أو من فضلك عليه كفضل السابق على المصلى يعنى أو من يباريك ، والامد : الغاية

وقد خربت هذه البلدة من أمد بعيد ، وزمان مديد ، وقد عفت طلولها ورسومها . ومنها « دُومة الجندل » كان رجل اسمه الا كَيْدِر فى بلدة قرب عين التمر فى العراق تسمى (دومة) وكان يزور اخوالاً له من بنى كلب فى اطراف الشام فبينما هو يسير فى بعض الطريق ، اذ ظهرت له مدينة منهدمة لم يبق منها الا بعض حيطانها ، وكانت مبنية بارض تسمى الجندل فاعاد (الأ كَيْدِر) بناءها وغرس فيها الشجر وسماها (دومة الجندل) تفرقة بينها وبين (دومة العراق) وكان بنو كلب ينزلونها ، ومنهم زهير بن جناب الكلبى ، وهو القائل فى غزوهم لبنى بكر وتغلب على ماء الحَنَىّ :

أينَ أينَ الفرارُ من حَذَرِ المو ت واذ تتقون بالاسلاب
اذ أسَرْنا مُهَلْهِلا وأخاه وابنَ عمرو فى القيد وابن شهاب
وسبينا من تغلب كل بيضا ء رَقُود الضحى بَرُود الرُضاب

ومنهم زهير بن شريك الكلبى ، وهو القائل لاسماء زوجته :

الا أصبحتْ أسماء فى الخمر تعذل وتزعم أنى بالسِفاهِ موكَّلُ
فقلت لها : كفى عتابك اصْطَبِحْ والا فَبِينِى فالتغرُّبُ أمْثَلُ

« والحِجْر » بكسر الحاء المهملة هى الى الجنوب من (دومة الجندل) وبها كانت ديار ثمود . وأما الحجر بالفتح فهى فى اليمامة بقرب مدينة اليمامة وهما منازل بنى حَنِيفة وبعض مضر ، وبنو حنيفة هؤلاء من بكر بن وائل . ومنهم مسيلمة الكذاب وهم من العرب المستعربة من قبيلة ربيعة الفرس ، وكان فى دومة الجندل من المبانى العظيمة (مارد) وهو حصن للسموأل بن عاديا الغسانى ، كما أن (الأ بلق) له أيضاً غير أن (مارداً) فى دومة وكان مبنياً من حجارة سود ، والأ بلق كان فى أرض تيماء كما سبق وقد بنى من حجارة سود وبيض ، وقد قصدتهما (هند) ملكة الجزيرة المعروفة بالزباء وعجزت عنهما فقالت : تمرَّدَ مارد وعز الأ بلق ، فذهب هذا القول مثلاً . ومن مبانى العرب فى بادية الشام (صرح الغدير) وهو

من أبنية ملوك غسان فى أطراف (حوران) مما يلى (البلقاء) بناه ثعلبة بن عمرو ابن جفنة الغسانى ، ومنها (القناطر) و (اذرح) و (القسطل) وهى من ابنية جبلة ابن الحارث بن ثعلبة المذكور . ومنها (الحفير) و (مصنعة) و (قصر ابير) و (معان) وهى من ابنية الحارث بن جبلة المذكور وكان يسكن فى البلقاء . ومنها قصر (الفضا) و (صفات العجلات) و (قصر منار) وهى من ابنية عمرو بن الحارث المذكور فانه انشأ فى دمشق وضواحيها عدة من القصور الشامخة منها هذه الأبنية . ومنها (قصر السويداء) و (قصر حارب) بناهما النعمان بن عمرو الذى مر ذكره . ومنها (قصر برقع) بنى فى البرية لجبلة بن الحارث أخى عمرو المذكور سابقاً ، وكان صاحب تدمر . و (قصر بركة) و (ذات انمار) بناه له عامله القين . ومنها (جَبَلَة الايهمية) وهى بلدة بناها جَبَلَة بن الأيهم آخر ملوك غسان ، وهو الذى أسلم فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، ثم لحق بقيصر ملك الروم فتنصر وأقام عنده والقصة مشهورة [1] ، وكان يضرب به المثل فى عزة الملك فيقال أعز ملكا من جَبَلَة بن الأيهم .

ما جاور العراق من بلاد جزيرة العرب

اعلم أن كثيراً من العرب فى حدود العراق من أرض جزيرة العرب والبعض منهم كان فى العراق أيضاً ، واختلف المؤرخون فى سبب ذلك فذهب ابن خلدون فى تاريخه عند الكلام على الطبقة الثالثة من العرب وهم العرب التابعة للعرب أن بخت نصر ملك بابل هو الذى أسكن بعضهم فى الحيرة بسبب ما كان له مع التبابعة وغيرهم من الوقائع والحروب ، وبعد موته انتقلوا منها الى الأنبار فانتشروا بعد

(١) حدثنا استاذنا المؤلف انه رأى ابن الشجرى فى كتابه « المختلف والمؤتلف » المخطوط ينكر على من يدعى تنصر جبلة انكاراً شديداً ويبالغ فى الرد على من يقول بذلك فأحببت أن اقف على هذه المسألة الغامضة فاخبرنى انه ارسل نسخة الكتاب — وهى قديمة وحيدة فى العالم — إلى بعض الوراقين فى مصر للطبع والنشر فتجرأ ذلك الحوؤن الاثيم على بيعها الى بعض المستشرقين فهى اليوم فى خزائن كتب الافرنج والامر لله

ذلك بأرض العراق . وقال الهمدانى فى كتاب جزيرة العرب : سار تُبَّع أبو كرب فى غزوته الثانية فلما أتى موضع الحيرة خلف هناك مالك بن فهم بن غُنم بن دُوس على أثقاله وتخلف معه من ثقل من أصحابه فى نحو اثنى عشر الفا ، وقال : تحيروا هذا الموضع فسمى الموضع الحيرة ، وهو من قولهم تحير الماء اذا اجتمع وزاد ، وتحير المكان بالماء اذا امتلأ ، فمالك أول ملوك الحيرة وأبوهم . وكانوا يملكون ما بين الحيرة والأنبار وهيت ونواحيها وعين التمر وأطراف البرارى الغمير والقطقطانة وحفية . وكان مكان الحيرة أطيب البلاد ، وأرقه هواء ، وأخفه ماء ، وأعذبه تربة ، وأصفاه جوًّا ، قد تعالى عن عمق الأرياف واتضع عن حزونة الغائط واتصل بالمزارع والجنان والمتاجر العظام ، لأنها كانت من ظهر البرية على مرفأ سفن البحر من الهند والصين وغيرهما ، والحيرة أرض فى العراق فيها بلدة كانت قريبة من الكوفة . وغير الهمدانى يقول : إن الحيرةَ بلدة على حافية البادية وحافة سواد العراق وان تُبَّعاً لما سار من اليمن الى خراسان وانتهى الى موضعها ليلاً تحير فنزل وأمر ببنائها فسميت الحيرة وصارت مقام الملوك اللخميين من آل النعمان بن المنذر ، وبها تنصر المنذر بن امرىء القيس وبَنى بها الكنائس العظيمة ، وأقام قصراً سماه (الزوراء) وهو المعنىّ بقول النابغة الذبيانى :

وتسقى اذا ماشئت غير مصرد ... بزوراء فى أكنافها المسك كارع

« والانبار » مدينة كانت فى العراق أيضاً على شرقىّ نهر الفرات بينها وبين بغداد نحو عشرة فراسخ ، سميت بهذا الاسم لان الاكاسرة كانوا يخزنون فيها الطعام وبعد الفتح الاسلامى ظهر فيها جماعة من أهل العلم ، وبعد أنْ مصَّرَ سعد ابن ابى وقاص الكوفةَ نقل اليها أهل الحيرة فخربت . وكان فيها من مبانى العرب الجاهليين قصور عظيمة ، منها قصر (الخَوَرْنق) وكان فى الحيرة بظهر الكوفة بناه رجل من الروم يقال له سنمار للملك النعمان الاكبر بن امرئ القيس اللخمى الملقب بالمحرّق فى مدة عشرين سنة ، فلما فرغ من بنائه القاه الملك المذكور من

اعلاه فقتله لئلا يبنى مثله لغيره ، فضربت العرب بذلك المثل فقالوا جزاه جزاء سنمار .

جزانى جزاه الله شر جزائه　　جزاء سنمار وما كان ذا ذنب
سوى رضه البنيان عشرين حجة　　يعلى عليه بالقراميد والسكب (١)
فلما رأى البنيان تم سحوقه　　وآض كمثل الطود والباذخ الصعب (٢)
وظن سنمار به كل خيرة　　وفاز لديه بالمودة والقرب
رمى بسنمار على ام رأسه　　وذاك لعمر الله من اعظم الخطب (٣)

وقال سليط بن سعد :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر　　وحسن فعل كما يجزى سنمار

ويروى ان السبب فى قتل سنمار غير ذلك ، وقصة قصر (الخورنق) مفصلة فى ترجمة (عدى بن زيد) من كتاب الاغانى لابى الفرج الاصبهانى وهناك أيضاً ترجمة سليط بن سعد ، ويقال : إن هذا الملك بعد ان مكث فى الملك ثلاثين سنة كان جالساً يوماً فى هذا القصر فتأمل فى الملك الذى له والاموال والذخائر التى عنده وكانت على جانب عظيم ، فقال لاخير فى هذا الذى ملكته اليوم ويملكه غيرى غداً ، ومن ثم زهد فى الملك وأمر حجابه ان يعتزلوا عن بابه ، ولما جن الليل التحف بكساء وخرج سائحاً فى الارض فلم يره أحد بعد ذلك . ومنها (السدير) وهو قصر آخر من مبانى النعمان الاكبر أيضاً . ومنها (الصنبر) وهو حصن من مبانى امرئ القيس بن النعمان الاعور . ويقال ان ما وقع لسنمار كان مع هذا الملك بعد أن بنى له هذا الحصن . وقد لهجت الشعراء بذكر هذه القصور وغيرها من مبانى العرب القديمة . قال الاسود بن يعفر :

أهل الخورنق والسدير وبارق　　والقصر ذى الشرفات من سنداد

(١) القراميد جمع قرميد وهو آجر أو شىء يشبهه وقيل شىء كالجص يطلى به وقيل حجارة محرقة او خزف مطبوخ ، والسكب : النحاس أو الرصاص (٢) آض أى صار ، والطود : الجبل ، والباذخ : العالى ، وقوله سحوقه أى ارتفاعه (٣) أم رأسه أى دماغه

وقال المنخّل اليشكرى من أبيات كانت سبب عزل عمر رضى الله تعالى عنه له عن العمل :

ولقد شَرِبْت من المُدا مة بالصغير وبالكبيرِ
واذا سكرت فانني رب الخورْنق والسديرِ
واذا صحوتُ فاننى رب الشُوَيْهة والبعير

وهذه الابيات من قصيدة طويلة ، والمنخل هذا كان من شعراء الجاهلية ، وكان ينادم النعمان بن المنذر وهو الذى سعى بالنابغة الذبيانى الى النعمان فى أمر المتجردة امرأة النعمان فلحق بآل جفنة الغسانيين ، وقال أبو العتاهية :

لَهْفي على الزَمَن القَصير بينَ الخَوَرْنق والسَدِيرِ

والشعر فى ذلك كثير ، وقد تركنا ذكر كثير من مبانى العرب القديمة فى العراق ، وقد ذكرت فى كتاب معجم البلدان وغيره من الكتب المؤلفة فى هذا الباب ، واعلم ان العراق ليس من جزيرة العرب ، والسواد سواد كسرى الذى فتحه المسلمون على عهد عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، وهو من أرض العراق سمى سواداً لسواده بالزرع والاشجار لانه حين تاخم جزيرة العرب التى قل الزرع فيها والشجر كانوا اذا خرجوا من أرضهم اليه ظهرت لهم خضرة الزرع والاشجار ، وهم يجمعون بين الخضرة والسواد فى الاسامى كما قال الفضل ابن العباس بن عتبة ابن ابى لهب ، وكان أسود اللون :

وأنا الأخضرُ مَنْ يعرفنى اخضر الجلدة من نَسْلِ العَرَبْ

فسموا خضرة العراق سواداً ، وسمى عراقاً لاستواء أرضه حين خلت من جبال تعلو واودية تنخفض ، والعراق فى كلام العرب هو الاستواء ، قال الشاعر :

سقتم الى الحقّ لهم وساقوا سِياقَ من ليس له عِراقُ

أى ليس له استواء وبعضهم يقول : انما سمى بهذا الاسم تشبيهاً له بعراق المزادة وهو موضع الخرز المستطيل فى أسفلها . وبعضهم يقول : هو جمع عرق

لاشتباك عروق النخل والشجر فى تلك الارض . وحد السواد طولاً من (حديثة الموصل) الى (عبادان) وعرضاً من عُذَيب القادسية الى حلوان ، فطوله مائة وستون فرسخاً ، وعرضه ثمانون فرسخاً : فاما العراق فهو العرض مستوعباً لارض السواد عرفا ، ويقصر عن طوله فى العرف لان أوله من شرقيّ دجلة العلث . وفى غربيها حربى ، ثم يمتد الى آخر أعمال البصرة من جزيرة عبادان فيكون طوله مئة وخمسة وعشرين فرسخاً يقصر عن طول السواد بخمسة وثلاثين فرسخاً ، وعرضه مع تبعه فى العرف ثمانون فرساً كالسواد . قال قدامة بن جعفر : يكون ذلك مكسراً عشرة آلاف فرسخ وطول الفرسخ اثنا عشر الف ذراع بالذراع المرسلة ، ويكون بذراع المساحة وهى الذراع الهاشمية تسعة الاف ذراع ، فيكون ذلك اذا ضرب فى مثله وهو تكسير فرسخ فى فرسخ اثنين وعشرينَ الف جريب وخمسمائة جريب ، فاذا ضرب ذلك فى عدد الفراسخ وهى عشرة الاف فرسخ — بلغ مائتى ألف ألف وخمسة وعشرين ألف ألف جريب وخمسمائة جريب ، يسقط منها بالتخمين مواضع التلال والآكام والسباخ والآجام ومداس الطرق والمحاج ومجارى الأنهار وعراص المُدُن والقرى ومواضع الارحاء والبريدات والقناطر والشاذروانات والبنادر ومطارح القصب واتاتين [1] الآجرّ وغير ذلك الثلث وهو خمسة وسبعون ألف ألف جريب يراح منها النصف ويكون النصف مزروعاً مع ما فى الجميع من النخل والكرم والاشجار . فاذا أضيف الى ما ذكره قدامة فى مساحة العراق ما زاد عليها من بقية السواد ، وهو خمسة وثلاثون فرسخاً . كانت الزيادة على تلك المساحة قدر ربعها ، فيصير ذلك مساحة جميع ما يصلح للزرع والغرس من أرض السواد ، وفى المتعذر ان يستوعب زرع جميعه وقد يتعطل منه بالعوارض والحوادث ما لا ينحصر . وقد قيل : انه بلغت مساحة السواد فى أيام كسرى بن قباد مائة الف وخمسين الف الف جريب ، فكان مبلغ ارتفاعه

---

(١) جمع اتون بالتشديد موقد النار مولد وتردد فيه الجوهرى

مائتى الف الف وسبعة وثمانين الف الف درهم بوزن سبعة ، لانه كان يأخذ على كل جريب درهماً وقفيزاً ثمنه ثلاثة دراهم بوزن المثقال . وان مساحة ما كان يزرع منه على عهد عمر رضى الله تعالى عنه من اثنين وثلاثين الف الف جريب الى ستة وثلاثين الف الف جريب ، والكثير من اراضى العراق اليوم مَوَات وغالب البلاد خراب .

ديار بكر بن وائل وربيعة ومضر

ذكر بعض المؤرخين : أن ثلاثَ قبائل من عرب اليمن وهم بكر وربيعة ومضر هاجروا عن اليمن عند حادثة سيل العَرِم ، وسكنوا شمال ما بين نهرَىْ دجلة والفرات وهو المسمى بالجزيرة . فسميت حينئذ تلك النواحى ديار بكر وديار ربيعة وديار مضر ، وفيها يجرى نهر (الخابور) وقد قتل فى هـذا المحل الوليد ابن طريف التغلبى ، فرثته أخته ليلى بابيات منها قولها :

أيا شَجَرَ الخابُورِ مالكَ مورقاً   كأنك لم تَحْزَنْ على ابن طَرِيف

وصحارى هذه الديار مملوءة كلأً وأزهاراً ، ولذا اتخذها آل بكر بن وائل من بين الديار داراً ، وطيرها كثير جداً ، لا تكاد تستطيع له عدًّا . فما من زهر تنشقه عرانين السمع الا وهو مزهر فى رياضها ، وما من طير يقع فى شباك الوهم الا وهو حائم على غياضها . ولم يكن فيها اليوم ممن كان فى الاعصر الخالية من اولئك القوم بل سكنها أناس مختلفوا الملل والأجناس ، ليس فيهم مزايا من سلف ، ولا فصاحة من مضى وانصرف ، وسبحان من أخلى ديار بكر ممن يرعى زهر الأدب وربيعه ، وجعلها بلاقع لاتجد فيها من يتخذ لفهم كلام العرب ذريعه ، وكم كان فيها من أديب حلا نظمه ونثره ، وأريب رمى عن قسىّ الاصابة لاشلّ عشره ، فنثرهم ريب المنون من كنانتها نثر السهام ، ونظمهم على الرغم منهم فى ديوان القبور تحت اطباق الرَّغام (١) ، سقى الله تعالى ثراهم ، ما يوجب فى دار

(١) التراب

الاقامة ثراهم ، وهناك بلد أحدث بعد الزمن الجاهلى اسمه اليوم (آمد) هواؤه لايهواه جسد أحد ، اسرق للصحة من شِظاظ ، [١] وأسرى فى الاعصاب من سريان المعانى فى الالفاظ ، ولذا ترى حُمّاه فى حِماه عاكفه ، والامراض فى كل بيت من بيوته طائفه ، فلما تمرّ السنة على رضيع درّها ، ولم تهزه أم ملدم [٢] فى مهد حجرها ، فاغلب أهلها حتى الاحداث ، صفر الوجوه كأنما خرجوا من الاجداث ، ولا ترى منهم من يرد من ماء شبيبته ظمأى العين ، اللهم الا أن يكون ذلك واحداً أو اثنين ، وربما يتفق من غلط الزمان ، واحدة من النساء عليها مسحة جمال كنساء سائر البلدان ، وقبل أن تضحك تبكيها الاسقام ، وتطمثها [٣] على فراش الامراض الآلام ، هكذا وصفه (الجدّ) عندمروره على هذه الديار . ثم قال بعد كلام : وسبب تغير الهواء بزعم ساكنيها ، مزيد تعفن فى أرجائها مما فيها ، فترى فى أحيائها مياهاً انتنَ من صديد الاموات ، وأوحالاً تغيرت أحوالها مما جرى على رأسها من القاذورات ، وفى طرقاتها أيضاً مايجرى على نحو هذا الطريق . ويسرى برفيق من الجيف أمامه ألف فريق ، وكذا يزعمون ان ارتفاع السور ، أحد أسباب تلك الامور ، وهو فى بادى النظر كلام منحط عن القبول ، وآسِن [٤] لاتشربه أفواه العقول ، ولا يبعد ان الارتفاع ، يكون سبباً لاحتباس الهواء فى تلك البقاع ، فيزداد تعفنا ، ويعظم العنَا . ثم قال : ويقابل (آمد) من

---

(١) شظاظ ككتاب لص من بنى ضبة كان يصيب الطريق مع مالك بن الريب المازنى ، قيل انه مر بامرأة من بنى نمير وهى تعقل بعيراً لها وتتعوذ من سر شظاظ وكان بعيرها مسناً وكان هو على حاشية من الابل وهى الصغير فنزل وقال لها أتخافين على بعيرك هذا شظاظاً فقالت ماآمنه عليه فجعل يشغلها وجعلت تراعى جمله بعينها فاغفلت بعيرها فاستوى شظاظ عليه وذهب به وهو يقول :

رب عجوز من نمير شهبره علمتها الانقاض بعد القرقرة

الانقاض : صوت صغار الابل ، والقرقرة : صوت مسانها ، فهو يقول علمتها استماع صوت بعيرى الصغير بعد استماعها قرقرة بعيرها الكبير (٢) هى الحمى قال أصحاب الاشتقاق هى مأخوذة من اللدم وهو ضرب الوجه حتى يحمر ، وقال بعضهم ملذم بالذال من قولهم لذم به إذا لزمه (٣) أى تمسها والطمث النكاح بالتدمية ومنه قيل للحائض طامث (٤) أى متغير الريح والطعم

الشمال قرية نصارى تسمى (بقطر بل) [1] ونهر دجلة بينهما يشبه وربَ الفلك الدوار دائرة المعدل ، وهذه غير قطربل بغداد ، التى جاءت فى حديث ضعيف الاسناد ، وكان حانا لكل خمرة تنسب اليـه ، وتنقل الى ماحواليـه ، فتقادم الزمان ، وتغير ما كان ، واستولى الحين على الحان ، ويبس الكرم وتكسرت الدنان ، فلم يبق بمحتسب الليالى والأيام ، إلا حديثاً تدور به فى حانات الكتب سقاة الأقلام فى كاسات الأرقام :

زمان بما فيه انقضى فهو ما ترى ۝ أحاديث نجلوه على السمع أفواه

انتهى ماهو المقصود . ويوجد فى بعض النواحى من هذه الديار بعض بنى مضر وهم العرب الطائيون ، ومن المدن التي كانت فيها (سروج) و (الرقة) و (رحبة مالك بن طوق) أحد قوّاد هارون الرشيد ، و (قرقيسيا) وكانت مدينة هند بنت الريان التى قتلت جَذِيمَةُ الأبرش ، وكانت هذه البلدة من ديار مضر . ومن مدن هذه الجزيرة (دارا) التى أدار الاسكندر عليها فى فنائها من كؤس الفناء ما أدارا ، قال فيها بعض الشعراء :

ولقـد قلتُ لِرَحْلى ۝ بين حَرَّانَ ودارا
اصبِرى يارحلُ حتى ۝ يرزقَ اللهُ حِمـارا

ومنها مدينة (نصيبين) وهى من ديار ربيعة ، وكانت مختصة بالورد الأبيض وليس فيها وردة حمراء ، ومنها كان يجلب الى الآفاق ويجرى الى القرية نهران أسود وأبيض ثم انهما يتحدان وبعد ذلك يتشعبان ، ويكون منهما منافع غزيرة للحرّاث وغيرهم . وعليهما معاً قنطرة نحو مائة ذراع وغاية ارتفاعها عن وجه الماء نحو ستة أذرع أو أكثر والماء يجرى من تحتها بشدة ثم ينصب ما يبقى منه بعد سقى المزارع فى (الخابور) ويختلط آخر الأمر بماء الفرات ولرداءة مائها ، وفساد هوائها ، كثرت فيها الحمى حتى يقال إنه شُوهِدَ أن عصافيرها تتساقط

(١) قال فى شفاء الغليل أعجمية لم تسمع فى شعر قديم وهو اسم بلدة

ميتة من أعالى الأشجار ، ولولا ذلك لغدت من أوسع البلاد ولعدّت متنزهاً أبهى من غُوطة دمشق الشام ، لما أن ترابها ينبت مالا يكاد ينبت بمكان ، واشتهر أنها كانت قبل بلدة واسعة فضيقتها كأمثالها جيوش البلاء وحوادث الأيام والليالى وهى اليوم تشتمل من البيوت على نحو ثلاثمائة وخمسين بيتاً . وعلى غربىّ دجلة قرية صغيرة تسمى « جزيرة ابن عمر » ومنها ابن الأثير الجزرى وغيره من الأفاضل الاعلام ، الذين تزينت بمؤلفاتهم نحور الأيام ، وليس هذا مقام ذكرهم . وهى بلدة هلالية الشكل ، ولكن لانور فيها ولا فضل ، وذلك لوخامة هوائها ، ودَمامة أرجائها ، ولولا أن تكون دجلة عليها شفيقة ، لجعلتها بمجازها جزيرة على الحقيقة ، وابن عمر الذى تنسب اليه ، وتعوّل فى الشهرة عليه ، قيل : هو يوسف ابن عمر الثقفى ، وفى معجم البلدان : جزيرة ابن عمر أحسب أن أول من عمرها الحسن بن عمر بن خطاب التغلبى ، وكان له إِمرة بها سنة ماتين وخمسين انتهى وفى تاريخ ابن المستوفى : ابنا عمرها أوس وكامل ابنا عمر بن أوس التغلبى ، واليهما تنسب الجزيرة المشهورة انتهى . وفى تاريخ ابن خلكان ما يتعلق بذلك . والمعول عليه مافى معجم البلدان ، ويبعد مافى تاريخ ابن المستوفى فى الجملة أفراد ابن دون تثنيته والله أعلم .

ومن مساكن العرب فى الجزيرة التى بين دجلة والفرات « الموصل » كان يسكن فيها وفى نواحيها كثير من قبائل العرب من أبناء ربيعة ومضر . قال فى اللباب : هى بفتح الميم وسكون الواو وكسر الصاد المهملة وفى آخرها لام ، مدينة من الرابع من الجزيرة ، وهى على دجلة فى جانبها الغربى انتهى . وفاتحها فى زمن الفاروق رضى الله تعالى عنه قيل : عياض بن غنم الاشعرى ، وقيـل : خالد بن الوليد فتحها عنْوةً . وسميت بالموصل على ماهو المشهور لان نوحاً عليه السلام سبر الماء هناك وهو فى السفينة فوصل المسبار الارض . وفى المراصد : سميت بذلك لانها وصلت بين الجزيرة والفرات ، وقيل : وصلت بين دجلة والفرات .

وقيل : لانها وصلت بين (بلد) و(الحديثة) . وقيل : إن الملك الذى أحدثها كان يسمى الموصل انتهى ، ولا جزم بشىء مما ذكر والله أعلم . وقريب من الموصل المعمورة اليوم محل يسمى الموصل القديمة ، وهـذا ظاهر فى أن المعمورة حديثة وفى معجم البلدان ما يدل على أن تلك القديمة هى حديثة الموصل فوصفها بالقديمة لعله لخرابها اليوم . وقد وصفها الجد فى كتابه غرائب الاغتراب اذ مر على هـذه البلدة باوصاف جميلة . فقال : هى عذبة الماء ، طيبة التربة والهواء ، طعامها هنى ، وشرابها مرى ، واسطة البلاد وسرتها ، ووجهها الصبيح وغرتها ، تَلِدُ الربيعَ فى السنة مرتين ، فهى بين البلاد أم الربيعين ، فاراضيها فى فصلين قد علا جنسها ، وتجرد عن عوارض الكدر انسها ، وهى كالعرائس فى حليها وزخارفها ، والقيان[١] فى وشيها[٢] ومطارفها[٣] ، باسطة زرابِيّها[٤] وانماطها[٥] ناشرة حبرها[٦] ورياطها[٧] :

كأنَّ نسيمَ الريحِ فى جَنَباتها نسيمُ حبيبٍ أو لقاء مؤمّلِ

لاعيبَ فيها سوى انها أيام الربيع ، تسرق العمائم الخضر من السادة فتنشرها على سُطوح دورها وتبيع ، وتقول : لابأس على أم الربيعين ، لو سرقت عمائم أبناء الريحانتين ، ولعمرى إنَّ من اختبر وامتحن ، حكم بان كلّ روضة بالنسبة الى رياضها خضراء الدِمَن ، وانها تنبت العلماء المحققين ، كما تنبت الأقحوان[٨] والنِسْرِين[٩] ، وتخرج الاخيار ، كما تخرج الازهار ، وهذا أظهر من الشمس ، وأقوى تحققاً من الأمس ، فلا حاجة الى التطويل ، باقامة الدليل :

(١) جمع قينة وهى المغنية (٢) الوشى نوع من الثياب الموشية تسمية بالمصدر (٣) جمع مطرف ثوب من خزله أعلام ويقال ثوب مربع من خز واطرفته اطرافاً جعلت فى طرفيه علمين فهو مطرف وربما جعل اسما برأسه غير جار على فعله وكسرت الميم تشبيهاً بالآلة (٤) الزرابى الطنافس المحملة واحدتها زربية (٥) جمع نمط بفتحتين ثوب من صوف ذو لون من الالوان ولا يكاد يقال للابيض نمط (٦) الحبر على وزن عنب جمع حبرة على وزن عنبة ثوب يمانى من قطن أو كتان مخطط (٧) جمع ريط وهو ثوب رقيق (٨) بالضم : البابونج كالقحوان بالضم والجمع اقاحى واقاح (٩) مشموم معروف فارسى معرب وهو فعليل بكسر الفاء فالنون اصلية أو فعلين فالنون زائدة مثل غسلين ، قال الازهرى ولا أدرى أعربى هو أم لا ؟

وليس يَصِحُّ فى الأعيانِ شىء   متى احتاجَ النهار إلى دليل

و(نفحة الشمامة) تهدى من ليس له زُكام ، الى حِمى بعض اولئك العلماء الأعلام ، وفى (الروض النضر) أريج فضلاء منهم ارتدوا رداء أحسن عصر ، ولا يكاد يحيط نطاق ، بجميع من فاق منهم علماء الآفاق ، والامر من البديهيات الاولية عند منصفى علماء العراق ، فهيهات أن يكون فيه بين اثنين فيهم نزاع وشقاق .. ومن مدن الجزيرة « عانات » وهى بلدة على شاطىء الفرات كثيرة النخيل والاشجار عذبة الماء والهواء ، وكانت فى الازمنة المتقدمة موصوفة بجودة الخمر ، كما يدل على ذلك قول الشاعر :

أمن بابلٍ أم من لواحظك السحرُ   ومن (عانة) أم من مراشفك الخمر ؟
وهل ما أراه الموت أم حادث النوى   وهل هو شوق بين جنبيَّ ام جمر ؟

واليوم قد كسرت أهلَها حوادثُ الدهر ، وتركتهم لا يميزون بين الجمر والخمر ، وجرى عليها من المصائب ماجرى ، حتى غدت عاناتهم عورةً بين القرى ، هذا وفى هذه الجزيرة كثير من البلاد والقرى القديمة التى كانت تسكنها العرب أيام الجاهلية ، قد استوعبها أبو عبيد البكرى فى معجم مااستعجم ، والحموى فى كتاب معجم البلدان ، وغيرهما فى كتب كثيرة الفت فى هـذا الباب ، والله الموفق .

بعض ما كان دائراً على ألسنة الشعراء من المواضع

اِن كثيراً من شعراء الجاهلية وغيرهم يذكرون فى بعض اشعارهم مواضع كانت تطيب بها نفوسهم ، وتهتز من بهجتها قدودهم ورؤسهم ، كالبُرَقِ والدارات ، والرياض والمتنزهات ، وقد الف فيها بعض أهل الادب كتباً مخصوصة بهذا المطلب . ولنذكر شيئاً منها فى هذا المقام ، ليكون كالمثال لذوى الافهام ، أما الدارات فهى جمع دارة وهى الدار غير انها أخص فكل دارة دار وليس كل دارٍ يقال لها دارة ، ودارات العرب مخصوصة فى جزيرتهم كلها سهول بِيض تنبت النِصِىَّ والصليل ، وما

طاب ريحه من النبات ، وانهاها صاحب القاموس الى مايزيد على المائة ، وادعى انها لم تجتمع لغيره مع بحثهم وتنقيرهم عنها [١] . ثم ذكر ما أضيف اليه الدارات مرتبة على الحروف فراجعها . وقد ألف الشيخ أبو الحسين احمد بن فارس كتابا فى المواضع المعروفة بهذا الاسم . وقد أحببت أن أذكر منها بعض ماوجدته فى شعرهم ، وهى (دارة جُلْجُل) قال امرؤ القيس :

الا رُبَّ يومٍ لكَ منهنَّ صالحٍ ولا سيما يوم بدارةِ جُلْجُل

ودارة (صُلْصُلٍ) قال جرير :

ولما حلَّ اهلكِ ياسُلَيْمى بدارةِ صُلصُلٍ شَحَطوا المزارا

ودارة (مأسَل) قال عمرو بن لجأ :

لا تَبْهَجُ ضبطةَ ياجريرُ فَإنْ هُمُ قتلوا من الرؤساء مالم يقتلِ
قتلوا شتيراً وابن غولٍ وابنَه وابني هتيم يوم دارة مأسَلِ

ودارة (السَلَم) قال الكاه بن كعب :

ما كنت أوَّلَ من تفرَّقَ شملهُ ورأى الغداةَ من الفراق يقينا

(١) اقول : وقد ذكر الاصمعى وعدة من العلماء عشرين دارة واوصلها العلم السخاوى فى شرح سفر السعادة الى نيف واربعين دارة واستدل على أكثرها بالشواهد لاهلها فيها ، وذكر المبرد فى اماليه دارات كثيرة وكذا ياقوت فى المعجم والمشترك واورد الصغانى فى تكملته احدى وسبعين دارة كما فى التاج ، قال السيد العلامة عبد القادر بن احمد الحسينى في فلك القاموس المحيط: راجعت وجزءاً من أصله — أعني العباب — من نسخة محفوظة فى خزائن آبائنا (رض) وقد جرى عليها قلم مؤلفها ثم قلم المجد (رح) فرأيت تلك الدارات جميعها معدودة فى العباب وقد سها المجد عن سبع فاهملها من قاموسه عند النسخ ولكنه زاد المجد فى هامش العباب سبع دارات فزادها فى القاموس فلا ادرى هل زادها من (المجمل) أو من غيره فلو عد مافى العباب وذلك مائة دارة ونيف ثم قال وقد وقفت على سبع دارات غير ذلك ولله الحمد — لكان أولى ، والدارات التى سها عن نقلها هى دارة احاد والذيب والديبان وغور ومحلف والمزد وموقوع ، وظاهر مافى خطبة القاموس انه لم يجمع معانى أصلية بعبارة وجيزة وزاد عليها فانظر ما أهمله فى هذا الموضع وقس عليه غيره ، قال فى العباب واما دارة بغير أضافة فى قول خلف الاحمر : دويرات برد بين باب ودارة الخ ودارة ابن العمر ودارة بنجران ودارة الكلبي ودارة العبد ودارة المقطم فهذه ليست من دارات العرب وانما هي دورهم التى تختص بهم وهذه اسامي أصحاب الدور ، ودارات العرب مضافات الى جبال ومياه وامكنة

وبدارة (السَلِمِ) التى شوقتها　　دِمَن يظلُّ حمامه يبكينا

وبهذا الشعر سمى هذا الشاعر البكّاءَ . فان كثيراً من الشعراء كان يسمى ببعض ألفاظ شعره . ودارة (وَشْحَى) وقد تضم الواو . قال الشاعر :

لَعَمْرُكَ انى يوم أسفل عاقلٍ　　ودارة (وَشْحى) للهوى لَتَبُوعُ

ودارة (خَنزَر) بفتح الخاء والزاى وسكون النون ، ويقال : خنزِر بكسر الخاء والزاى . قال الجعدى :

أَلَمَّ خيال من أُمَيْمَةَ مَوْهِناً　　طُروقاً وأَصحابى بدارة (خَنْزَرِ)

ودارة (الجأْبِ) قال جرير :

أصاح ايس اليوم منتظرى صبحى　　نحَيِّى ديارَ الحىَّ من دارة الجاب

ودارة (مَكْمَن) قال الراعى :

عرفت بها منازلَ كل حىٍّ　　فلم تملك من الطرَبِ العيونا

بدارة مَكْمَن ساقت اليها　　رياحُ الصيف آراماً وعِينا

ودارة (يَمْعون) ويقال أيضاً يمعوز بالزاى . قال الشاعر :

بدارة يَمْعونٍ الى جَنْبِ حشرم

ودارة (رَهْبَى) قال جرير :

بها كلُّ ذيّالِ الاصيل كأنهُ　　بدارة رَهْبَى ذو سواد بن رآئح

ودارة (الآرام) قال الشاعر :

فابرق وارعد ان العيس خلفت　　بنا دارة الآرام ذات الشقائق

ودارة (الرُّهَى) قال الشاعر :

بَرِئْت من المنازل غير شوق　　الى الدار التى بلوى أبان

ومن وادى القنان واين منّى　　بدارات (الرُّهَى) وادى القنان

ودارة الصفائح) قال الافوه :

وتبكيها الأرامل بالمآلى　　بدارات الصفائح والنصيل

ودارة (هَضْب القليب) قال جميل :

اشاقل عاقل فالى الكثيب الى الدارات من هَضْبِ القليبِ

ودارة (رُمْح) قال الشاعر :

كأنَّ النميْرىَّ الذى يتبعنه بدارة رُمْحٍ ضالعُ الرجل احنَفُ

ودارة (مِحْصَن) ويقال محضر . قال دُرَيْد بن الصِمَّة .

ودارة مِحْصَن من ذى طلوح فسرداح المثامن فالضَواحى

ودارة (واسط) قال الشاعر :

ماقدارى الدارات دارات واسطٍ فما قابلت ذات الصليل فجُلْجُلِ

ودارة (الجُمْد) قال الشاعر :

الا ياديار الحىّ من دارة الجمد سلمتِ على ما كان من قِدَم العهْدِ

ودارة (الرِمْرِم) قال الشاعر :

أعد نظراً هل ترى ظعنهم وقد جاوزت دارة رِمْرِم

ودارة (قُرْح) قال الشاعر :

حبسنَ فى قُرْحٍ وفى داراتها سبعَ ليال غير معلوفاتها

ودارة (اليَعْضيد) قال آخر :

أو ما ترى أضعانها مخروة بين الدَخُول فدارةِ اليعضيدِ

ودارة (الخَرْج) قال الشاعر :

مخيسة فى دارة الخَرْج لم تذق بلالاً ولم يسمح لها ببخيل

ودارة (الرَدْم) قال قائلهم :

لعن سخط من خالق أو لقسوة تبدلت قرقياء من دارة الرَدْم

وأما البِرَق فهى جمع برقة بالضم غلظ كالابرق ، وفى القاموس : وبُرَقُ ديار العرب تُنيفُ على مائة . منها : بُرْقة الأَثْمادِ والأَجاولِ والأَجْداد والأَجْوَل

وأحجار وأحذب واحواذ واخرم وازمام واروى واظلم واغيار وأفعى والأمالح والأمهار وانقد والأوجر وذى الأوداث واير بالكسر وبارق وثادق وثمثم والثور وثهمد والجبا وحارب والحرض وحسلة وحسى أو حسنى والحصاء وحليت والحمى وحوزة وخاخ والخال والخبيبة والخرجاء وخنزير وخو وخينف والذات ودمخ ورامتين ورخرحان ورعم والركاء ورواوة والروحان وسعد وسعر وسلمانين وسمنان وشماء والشواجن وصادر والصراة والصفا وضاحك وضارج وطحال وعاذب وعاقل وعالج وعسعس وذى علقى والعناب كغراب وعوهق والعيرات وعيهل وعيهم وذى غان والغضى وغضور وقادم وذى قار والقلاخ والكبوان ولعلع ولفلف والسكيك واللوى ومأسل ومجول ومرورات ومكتل ومنشد وملحوب والنجد ونعمى والنير وواحف وواسط وواكف والوداء وهارب وهجين وهولى ويثرب واليمامة . هذه برق العرب ، وتعيين مواضعها فى شروح القاموس وكذا ماورد من الشعر فى ذلك كقول النعمان ابن المنذر :

وما اعتذارك منه بعد ماجزعت　　أيدى المطى به برقاء شمليلا

وقال طرفة بن العبد البكرى فى معلقته :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد　　تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

وقال الكميت :

وقد فاض غرب عند برقاء جندب　　لعينيك من عرفان ماأنت تعرف

وقال ابن مقبل :

طربت الى الحى الذين تحملوا　　ببرقة أحواذ وأنت طروب

وقال آخر :

لمن الديار ببرقة الأجداد　　عفت سوار رسمها وغوادى

وقد ذكر فى معجم البلدان كثير من أسماء المواضع المشتركة ، وكذا

فى كتاب المشترك مما يطول الكتاب باستقصائه ، وما ذكرناه نبذة يسيرة بالنسبة الى ما هنالك . والله الموفق لما هو الأولى فى الآخرة والأولى .

بيان حال مكة شرفها الله تعالى وما كانت عليه فى الجاهلية

اعلم أن الله تعالى قد ذكر مكة فى كتابه الكريم باسمين مكة وبكة فذكر مكةَ فى قوله عزّ وجلّ : (وهو الذى كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكةَ من بعد أن أظفركم عليهم) . ولفظ مكة مأخوذ من قولهم تمككتُ المخ من العظم تمككا اذا استخرجتَهُ منه لأنها تمك الفاجر عنها وتخرجه منها على ما حكاه الأصمعى ، وأنشد قول الراجز فى تلبيته :

يامكةُ الفاجرَ مُكي مَكّا　　ولا تَمُكّي مَذْحِجاً وعَكّا[1]

وذكر بكة فى قوله عز وجل : (إن أول بيت وُضِع للناس للذى ببكَّةَ مباركا وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام ابراهيمَ ومن دخله كان آمنا) . قال الأصمعى وسميت بَكّةَ لأن الناس يبكّ بعضهم بعضاً فيها أى يدفع ، وأنشد قول الراجز :

اذا الشَرِيبُ أخذتْه أَكّه　　فخلِّهِ حتى يبكُّ بكّهْ[2]

واختلف الناس فى هذين الاسمين فقال قوم : هى لغتان والمسمى بهما واحد ، لأن العرب تبدل الميم بالباء فتقول ضربة لازم وضربة لازب لقرب المخرجين ،

---

(١) عك بن عدنان أخو معد وهو فى اليمن وقال بعض النسابين انما هو معد بن عدنان فاما عك فهو ابن عدثان من ولد قحطان وعدنان بالنون من ولد اسمعيل ، ومذحج كمسجد ابو قبيلة من اليمن وهو مذحج بن يحابر بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبا ، قال سيبويه : الميم من نفس الكلمة ، وفى القاموس : مذحج كمجلس أكمة ولدت مالكا وطيئا أمهما عندها فسموا مذحجا ، وذكر الجوهرى اياه فى الميم غلط وان احاله على سيبويه ، انتهى ، فتدبر

(٢) الشريب الذى يسقى ابله مع ابلك ، يقول فخله يورد ابله الحوض فتباك عليه أى تزدحم فيسقي ابله سقيه ، والاكة : الضيق والزحمة وآكه يؤكه اكا زاحمه وائتك الورد ازدحم معنى الورد جماعة الابل الواردة ، والمعنى : اذا ضجر الذى يورد ابله مع ابلك لشدة الحر انتظاراً فخله حتى يزاحمك

وهذا قول مجاهد . وقال آخرون : بل هما اسمان والمسمى بهما شيئان لان اختلاف الاسماء موضوع لاختلاف المسمى . ومن قال بهذا اختلف فى المسمى بهما على قولين ، أحدهما : ان مكةَ اسم البلد كله وبكة البيت ، وهذا قول ابراهيم النخعى ويحيى بن أبى أيوب ، والثانى : أن مكةَ الحرم كله وبكة المسجد ، وهذا قول الزهرى وزيد بن أسلم . وحكى مصعب بن عبد الله الزبيرى قال : كانت مكة فى الجاهلية تسمى (صلاحا) لِامنها ، وأنشد قول أبى سفيان بن حرب بن أمية :

أبا مَطَرٍ هَلُمَّ الى (صلاحٍ) فيكفيكَ الندامَى من قريش [1]
وتنزل بلدةً عزت قديماً وتأمنُ أنْ يزورَكَ رب جيش

وحكى مجاهد : أن من أسماء مكة (أم رحم) و(الباسة) فأما أم رحم فلِأنَّ الناس يتراحمون فيها ، ويروى أم زحم بالزاى من المزاحمة . وأما الباسة فلأنها تبسّ من الحد فيها أى تحطمه وتهلكه ، ومنه قول الله تعالى «وبسَّت الجبال بساً» ويروى (الناسة) بالنون . ومعناه انها تنس من الحد فيها أى تطرده وتنفيه ، ولها أسماء أخر يطول شرحها . وأصل مكة وحرمتها ما عظمه الله سبحانه من حرمة بيته حتى جعلها لاجل البيت الذى أمر برفع قواعده وجعله قبلة عباده أم القرى ، كما قال تعالى (لتنذر أم القرى ومن حولها) . وحكى جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن على رضى الله تعالى عنهم ان سبب وضع البيت والطواف به ان الله تعالى قال للملائكة : (إنى جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء [2] ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إنى أعلم ما لا تعلمون) . فغضب عليهم فعادوا للعرش فطافوا حوله سبعةَ أشواطٍ [3] يسترضون

(١) هلم أى تعال مركبة من ها التنبيه ومن لم أى ضم نفسك الينا واستعملت استعمال البسيطة يستوى فيه الواحد والجمع والتذكير والتأنيث عند الحجازيين وتميم تجريها مجرى رد وأهل نجد يصرفونها ، والندامى : جمع نديم و نادمه منادمة ونداما جالسه على الشراب

(٢) سفك الدم يسفكه فهو مسفوك وسفيك صبه فانسفك (٣) جمع شوط وهو الجرى مرة الى الغاية وفي القاموس كره جماعة من الفقهاء ان يقال لطوفان الطواف اشواط

ربهم فرضى عنهم ، وقال لهم : ابنوا لى فى الارض بيتاً يعوذ به من سخطت عليه من بنى آدم ويطوف حوله كما فعلتم بعرشى فأرضى عنهم . فبنوا له هذا البيتَ فكان أولَ بيتٍ وُضِعَ للناس . قال الله تعالى (ان أول بيت وضع للناس لَلَّذِى ببكة مباركا وهدى للعالمين) الآيَةَ ، فلم يختلف أهل العلم أنه أول بيت وضع للناس للعبادة ، وانما اختلفوا هل كان أول بيت وضع لغيرها ؟ فقال الحسن وطائفة : قد كان قبله بيوت كثيرة . وقال مجاهد وقتادة : لم يكن قبله بيت . والقول الاول مرجح عند الجمهور ، وعليه أ كثر المؤرخين وجمع من المفسرين . وفى قوله تبارك وتعالى (مباركا) تأويلان ، أحدهما : ان بركته ما يستحق من ثواب القصد اليـه . والثانى انه أمن لمن دخله حتى الوحش فيجتمع فيـه الظبى والذئب . (وهدى للعالمين) يحتمل تأويلين ، أحدهما : هدى لهم الى توحيده . والثانى : الى عبادته فى الحج والصلاة . (فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً) . وكانت الاية فى مقام ابراهيم تأثير قدميه فيه وهو حجر صَلْد [1] ، والآية فى غير المقام أمْنُ الخائف وهيبة البيت عند مشاهدته وامتناع الطير من العلو عليـه وتعجيل العقوبة لمن عتا [2] فيه ، وما كان فى الجاهلية من أصحاب الفيل ، وماعطف عليه قلوب العرب فى الجاهلية من تعظيمه ، وان من دخله من الجبابرة وهم غير أهل كتاب ولا متبعى شرع يلتزم أحكامه ، حتى إنَّ الرجل منهم كان يرى قاتلَ أخيه وأبيه ولا يطلبه بثأره فيه ، وكل ذلك آيات الله تعالى ألقاها على قلوب عباده . وأما أمْنُهُ فى الاسلام ففى قوله سبحانه وتعالى (ومن دخله كان آمناً) تأويلان أحدهما : أمْنٌ من النار ، وهذا قول يحيى بن جعدة . والثانى : أمْنٌ من القتل لان الله تعالى أوجب الاحرام على داخله وحظر عليـه أن يدخله محلا . وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حين دخل مكة يوم الفتح حلالا : (أحلت لى ساعة من نهار ولم تحلَّ لِأحدٍ من قبلى ولا تحلّ لأحد من بعدى) . ثم قال تعالى : (ولله

(١) صلد : الصلب الاملس كالصلودد كسفرجل (٢) استكبر وجاوز الحد

على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا) فجعل حجه فرضا بعد أنْ صار فى الصلوة قبلة لان استقبالَ الكعبةِ فى الصلاة فُرِض فى السنة الثانية من الهجرة ، والحج فرِضَ فى السنة السادسة .

صفة الكعبة شرفها الله تعالى

اعلم ان أول من تولى بناءها بعد الطُوفان ابراهيم عليه السلام فانه سبحانه قال : (واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم) فدل ماسألاه من القبول على انهما كانا ببنائها مأمورَيْن . وسميت كعبة لعلوها من قولهم كعبت المرأة اذا علا ثديها ، ومنه سمى الكعب كعباً لعلوه وكانت الكعبة بعد ابراهيم عليه السلام مع جُرْهُم والعمالقة الى أن انقرضوا حتى قال فيهم عامر بن الحارث بن مضاض (١) ، ويروى ان اسمه عمرو :

وقائلةٍ والدمعُ سكْبٌ مبادِرُ وقد شرقت بالدمع منها المحاجرُ

كأن لم يكن بين الحجُونِ الى الصفَا أنيسٌ ولم يسمر بمكةَ سامر (٢)

فقلتُ لها والقلبُ منى كانما يُلَجلِجُهُ بين الجناحَيْن طائر

بلى نحنُ كنّا أهلَها فأزالنا صُروف الليالى والجدود العواثر (٣)

وكنا ولاة البيت من بعد نابتٍ بعزٍ فما يحظى لدينا المكاثر (٤)

---

(١) كان الحرث بن مضاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن هى بن نبت بن جرهم الجرهمى قد نزل بقنونا من ارض الحجاز فضلت له ابل فبغاها حتى اتى الحرم فاراد دخوله ليأخذ ابله فنادى عمرو بن لحى من وجد جرهمياً فلم يقتله قطعت يده فسمع بذلك الحرث واشرف على جبل من جبال مكة فرأى ابله تنحر ويتوزع لحمها فانصرف يائساً خائفاً ذليلا وابعد فى الارض وهى غربة الحرث بن مضاض التى يضرب بها المثل حتى قال الطائى

غربة تقتدى بغربة قيس بن زيد والحرث بن مضاض

وحينئذ قال الحرث هذا الشعر وهو قوله : وقائلةٍ والدمع سكب مبادر الخ (٢) الحجون بفتح الحاء اسم موضع على فرسخ وثلث من مكة وهو والصفا جبلان بها ، والسامر اسم الجماعة يتحدثون بالليل وفى التنزيل سامرا تهجرون (٣) يقال عثر جده يعثر ويعثر تعس على المثل وأعثره الله اتعسه (٤) نابت من ابناء اسماعيل (ع)

ملكنا فعزّزنا فاعظمْ بملكِنا ... فليس لحيٍّ غيرنا ثَمَّ فاخر (١)

ألم تنكحوا من غير شخص علمته ... فابناؤه منّا ونحنُ الاصاهِرُ (٢)

فَإِنْ تَنْثَن الدنيا علينا بحالها ... فإنّ لها حالاً وفيها التشاجُرُ

فَأَخْرَجَنَا منها المليكُ بقدرةٍ ... كذلك يا للناس تجرى المقادرُ (٣)

أقول اذا نام الخلى ولم أنَمْ : ... اذا العرش لا يبعد سهيلٌ وعامرُ (٤)

وبدلت منها أوجهاً لا أحبها ... قبائل منها حمير ويحابر (٥)

وصرنا أحاديثاً وكنا بغبطةٍ ... بذلك عضّتْنا السنون الغوابرُ (٦)

فسحّت دموع العين تبكى لبلدة ... بها حرم أَمْنٌ وفيها المشاعِرُ

وتبكى لبيتٍ ليس يؤذى حمامه ... يَظَلُّ به أمنا وفيه العصافِرُ (٧)

وفيه وحوشٌ لاتُرابُ أنيسةٌ ... اذا خرجت منه فليست تغادِرُ (٨)

وقال أيضاً يذكر ساكنى مكةَ الذين خلفوا فيها بعدهم من بكر وغُبشان :

يا أيها الناسُ سيروا إن قصركم ... أنْ تُصبحوا ذات يوم لا تسيرونا (٩)

حثوا المطىَّ وأرخُوا من أزمّتها ... قبل الممات وقضّوا ما تقضونا

كنا أناساً كما كنتم فغيّرنا ... دهرٌ فأنتم كما كنّا تكونونا

وخلفهم فيها قريش بعد استيلائهم على الحرم لكثرتهم بعد القلة ، وعزتهم

(١) أى كانت لنا العظمة على غيرنا فلا أحد يفخر علينا (٢) يريد بذلك مصاهرة اسماعيل لهم وهو خير شخص فأبناؤه منا ونحن الاصاهر ومعناه معلوم (٣) يحتمل ان يريد بالمليك الله عز اسمه فهو الذى سلط عليهم من أخرجهم لما عصوه ويحتمل أن يريد عمرو بن لحى ملك خزاعة ورئيسهم (٤) اذا العرش الهمزة للنداء وذا العرش هو الله ، وعامر جبل من جبال مكة (٥) أى وبدلت من مكة أو اهلها ، ويحابر قبيلة لحمير (٦) أى حكايات بين الناس بما جرى علينا كما قال تعالى فى أهل سبا وجعلناهم احاديث الآية ، والسنون الغوابر المقحطة لان الارض تغبر اذا اجدبت وسنون الجدب تسمى غبراً لاغبرار آفاقها من قلة الامطار (٧) وتظل به امناً أى ذات أمن ويجوز أن يكون أمناً جمع آمن مثل ركب جمع راكب وأراد بالعصافر العصافير وحذف الياء ضرورة ورفع العصافير على المعنى أى وتأمن فيه العصافير (٨) لاتراب أى لا تخوف من الريب ، وقوله انيسة أى لا تنفر من احد ، وقوله اذا خرجت الخ أى اذا تجاوزت حدود الحرم لاتغادر ولا تترك بل تصاد (٩) ان قصركم أى غايتكم

بعد الذلة ، تأسيساً لما يظهره الله تعالى فيهم من النبوة ، فكان أول من جدّد بناء الكعبة من قريش بعد ابراهيم عليه الصلوة والسلام قصىّ بن كلاب وسقفها بخشب الدَّوْم (١) وجريد النخل . قال الأعشى :

حلفتُ بثوبَىْ راهب الشام والذى بناه قُصىّ جده وابن جُرْهم
لئن شبّ نيرانَ العداوة بيننا ليرتحلن منى على ظهر شَيْهم (٢)

ثم بناها قريش بعده ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ابنَ خمس وعشرين سنة وشَهِدَ بناءها ، وكان بابها فى الارض فقال أبو حذيفة بن المغيرة : ارفعوا بابَ الكعبة حتى لايدخل الا بسلم فانه لا يدخلها حينئذ الا من أردتم ، فان جاء أحد ممن تكرهون رميتم به فيسقط فكان نكالا لمن رآه ففعلت قريش ذلك . وسبب بنائها أن الكعبة استهدمت ، وكانت فوق القامة فاراد تعليتها ، وكان البحر قد ألقى سفينة لرجل من تجار الروم الى جُدَّةَ فاخذوا خشبها ، وكان فى الكعبة حية تخافها الناس فخرجت فوق جدار الكعبة فنزل طائر فاختطفها ، فقالت قريش : إنا لنرجو أن يكون الله سبحانه قد رضى ما أردنا فهدموها وبنوها بخشب السفينة . وكانت على بنائها الى أن حُوصِرَ ابن الزبير بالمسجد من الحصين بن نمير وعسكر الشام حين حاربوه سنة أربع وستين فى زمن يزيد بن معاوية . فاخذ رجل من أصحابه ناراً فى ليفة على رأس رمح وكانت الريح عاصفة فطارت شرارة فتعلقت باستار الكعبة فاحرقتها فتصدعت حيطانها واسودت وتناثرت أحجارها ، فلما مات يزيد وانصرف الحصين بن نمير شاور عبد الله بن الزبير أصحابه فى هدمها وبنائها فاشار به جابر بن عبد الله وعبيد بن عمير وأباه عبد الله بن عباس ، وقال : لا تهدم بيت الله تعالى . فقال ابن الزبير : أما ترى الحمام يقع على حيطان البيت فتتناثر حجارته ويظل أحدكم يبنى بيته ولا يبني بيت الله الا انى هادمه بالغداة فقد بلغنى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : لو كانت لنا سعة لبنيته على اسّ (٣)

(١) هو شجر المقل والنبق وضخام الشجر ما كان (٢) شيهم هو الفرس السريع النشيط القوى
(٣) الاس مثلثة أصل البناء كالاساس

ابراهيم وجعلت له بابين شرقياً وغربياً . وسأل الاسود هل سمعت من عائشة رضى الله تعالى عنها شيئاً فى ذلك ؟ فقال : نعم اخبرتنى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال لها : « ان النفقة قصرت بقومك فاقتصروا ، ولولا حدثان عهدهم بالكفر لهدمته واعدت فيه ما تركوا » . فاستقر رأى ابن الزبير على هدمه فلما أصبح أرسل الى عبيد بن عمير فقيل هو نائم فارسل اليه وايقظه وقال له : أما بلغك ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : ان الارض لتصيح الى الله تعالى من نومة العلماء فى الضحى فهدمها ، ، فارسل اليه ابن عباس ان كنت هادمها فلا تدع الناس بلا قبلة ، فلما هدمت قال الناس : كيف نصلى بلا قبلة . فقال جابر وزيد صلوا الى موضعها فهو القبلة ، وأمر ابن الزبير بموضعها فستر ووضع الحجر فى تابوت فى خرقة حرير . قال عكرمة : رأيته فاذا هو ذراع أو يزيد وكان جوفه أبيض مثل الفضة ، وجعل حلىّ الكعبة عند الحجبة فى خزانة الكعبة ، فلما اراد بناءها حفر من قبل الحطيم حتى استخرج اسّ ابراهيم عليه الصلاة والسلام فجمع الناس ، ثم قال : هل تعلمون ان هذا اسّ ابراهيم ؟ قالوا : نعم فبناها على اس ابراهيم صلى الله تعالى عليه وسلم وادخل فيها من الحجر ستة اذرع وترك منها اربعا . وقيل : ادخل سبعة اذرع وترك ثلاثا وجعل لها بابين ملصوقين بالارض شرقياً وغربياً ، يدخل من واحد ويخرج من الاخر ، وجعل على بابها صفائح الذهب ، وجعل مفاتيحها من ذهب . وكان ممن حضر بناءها من رجال قريش أبو الجهم بن حذيفة العدىّ ، فقال : عملت فى بناء الكعبة مرتين واحدة فى الجاهلية بقوة غلام يافع (١) ، واخرى فى الاسلام بقوة كبير فان . وذكر الزبير ابن بكار ان عبد الله بن الزبير وجد فى الحجر صفائح حجارة خضر قد اطبق بها على قبر ، فقال له عبد الله بن صفوان : هذا قبر نبى الله اسماعيل عليه الصلاة والسلام ؛ فكف عن تحريك تلك الحجارة

ثم بقيت الكعبة فى أيام ابن الزبير على حالها الى ان حاربه الحجاج وحصره

(١) يفع الغلام راهق العشرين كايفع وهو يافع لاموفع وهو من النوادر

فى المسجد ونصب عليه المنجنيقات الى أن ظَفِرَ به . وقد تصدعت الكعبة باحجار المنجنيق فهدمها الحجاج وبناها بامر عبد الملك بن مروان واخرج الحجر منها ، وأعادها الى بناء قريش على ماهى عليه اليوم فكان عبد الملك بن مروان يقول : وددت انى كنت حملت ابن الزبير من أمر الكعبة وبنائها ماتحمله

« وأما كسوة الكعبة » فقد روى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ان أول من كسى الكعبة سعد اليمانى ، ثم كساها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الثياب اليمانية . ثم كساها عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعثمان رضى الله عنه القباطى [1] ، ثم كساها يزيد بن معاوية الديباج الخُسْرَوانى [2] وحكى محارب بن زياد أن أول من كسى الكعبة الديباج خالد بن جعفر بن كلاب أصاب نطمة فى الجاهلية وفيها نَمَط ديباج فناطه بالكعبة ، ثم كساها ابن الزبير والحجاج الديباج . ثم كساها بنو أمية فى بعض أيامهم الحلل التى كانت على أهل نجران فى حربهم وفوقها الديباج ، ثم جدد المتوكل رخام الكعبة وازرها بالفضة وألبس سائر حيطانها وسقفها بالذهب ، ثم كسا اساطينها الديباج ، ثم لم يزل الديباج كسوتها

« واما المسجد الحرام » فقد كان فناء حول الكعبة وفضاء للطائفين ، ولم يكن له على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وابى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه جدار يحيط به ، فلما استخلف عمر رضى الله تعالى عنه وكثر الناس وسع المسجد واشترى دوراً هدمها وزادها فيه ، وهدم على قوم من جيران المسجد دوراً أبوا أن يبيعوا ، ووضع لهم الاثمان حتى أخذوها بعد ذلك ، واتخذ للمسجد جداراً قصيراً دون القامة وكانت المصابيح توضع عليه ، فكان عمر رضى الله تعالى عنه أول من اتخذ جداراً للمسجد . فلما استخلف عثمان رضى الله تعالى عنه ابتاع منازلَ فوسع بها المسجد واخذ منازل أقوام ووضع لهم اثمانها فضجوا عند البيت

(١) جمع قبطى وهو ثوب من كتان رقيق يعمل بمصر نسبة الى القبط على غير قياس فرقاً بينه وبين الانسان كما فى المصباح (٢) نوع من الثياب

فقال انما جرأكم عَلَيَّ حلمي عنكم فقد فعل بكم عمر رضى الله تعالى عنه هذا فاقررتم ورضيتم . ثم أمر بهم الى الحبس حتى كلمه فيهم عبدالله بن خالد بن اسيد نخلى سبيلهم وبنى المسجد الأَرْوِقَةَ حين وسعه ، فكان عثمان رضى الله تعالى عنه أول من اتخذ للمسجد الاروقة ، ثم ان الوليد بن عبد الملك وسع المسجد وحمل اليه أعمدة الحجارة والرخام . ثم ان المنصور زاد فى المسجد وبناه وزاد فيه المهدى بعده وعليه استقر بناؤه الى زمن طويل

« وأما مكة » فلم تكن ذات منازل وكانت قريشٌ بعد جُرْهم والعمالقة ينتجعون جبالها واوديتها ولا يخرجون من حرمها انتساباً الى الكعبة لاستيلائهم عليها وتخصيصاً بالحرم لحلولهم فيه ويرون انه سيكون لهم بذلك شأن ، ولما كثر فيهم العدد ، ونشأت فيهم الرياسة قوى أملهم وعلموا أنهم سيتقدمون على العرب ، وكان فضلاؤهم وذوو الرأى والتجربة يتخيلون أن ذلك لرياسة فى الدين ، وتأسيس لنبوة ستكون ، لانهم تمسكوا من أمور الكعبة بما هو بالدين أخص ، فاول من شعر بذلك منهم والهمه كعب بن لؤى بن غالب . وكانت قريش تجتمع اليه فى كل جمعة ، وكان يوم الجمعة يسمى فى الجاهلية عَرُوبة فسماه كعب يوم الجمعة وكان يخطب فيه على قريش . ويخبرهم ببعثة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم . وهذا من فطن الالهامات التى تخيلتها العقول فصدقت ، وتصورتها النفوس فتحققت . وسنستوفى الكلام على هذا ان شاء الله فى المجتمعات . ثم انتقلت الرياسة بعده الى قصى بن كلاب فبنى بمكة دار الندوة ليحكم فيها بين قريش ، ثم صارت لتشاورهم وعقد الالوية فى حروبهم . قال الكلبى فكانت أول دار بنيت بمكة ثم تتابع الناس فبنوا من الدور مااستوطنوه وكلما قربوا من عصر الاسلام ازدادوا قوة وكثرة عددٍ حتى دانت لهم العرب فصدقت المخيلة الاولى فى الرياسة عليهم ، ثم بعث الله سبحانه نبيه رسولا فصدقت المخيلة الثانية فى حدوث النبوة فيهم فآمن به من هدى وجحد من عاند ، وهاجر عنهم صلى الله تعالى عليه وسلم حين اشتد به الأذى حتى عاد ظافراً بعد ثمان سنين من هجرته عنهم .

واختلف الناس فى دخوله صلى الله تعالى عليه وسلم مكةَ عام الفتح هل دخلها عنوةً أو صلحاً مع اجماعهم على انه لم يغنم منها مالاً ولم يسب فيها ذرية . فذهب أبو حنيفة ومالك الى انه دخلها عنوة فعفا عن الغنائم ومنَّ على السبى ، وان الامام اذا فتح بلداً عنوة فله أن يعفو عن غنائمه ويمنَّ على سبيه ، وذهب الشافعى رضى الله عنه الى انه دخلها صلحاً عقده مع أبى سفيان ، وكان الشرط فيه ان من أغلق بابه كان آمناً ، ومن تعلق بأستار الكعبة فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن إلا ستة أنفس استثنى قتلهم ، ولو تعلقوا بأستار الكعبة وهم : « عبد الله بن سعد » أخو بنى عامر بن لؤىّ لانه قد كان أسلم . وكان يكتب لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الوحى فارتدَّ مشركا راجعاً الى قريش « وعبدالله بن خطل » رجل من بنى تميم بن غالب ، فانه كان مسلماً فبعثه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مصدقاً وبعث معه رجلا من الانصار ، وكان معه مولى له يخدمه وكان مسلماً فنزل منزلا ، وأمر المولى أن يذبح له تيساً فيصنع له طعاماً فنام فاستيقظ ولم يصنع له شيئاً ، فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركا ، وكانت له قينتان وكانتا تغنيان بهجاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقتلها معه « والحويرث بن نفيذ » بن وهب بن عبد قصىّ ، وكان ممن يؤذيه بمكة . « ومقيس بن صبابة » وانما أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقتله قتل الانصارىّ الذى كان قتل أخاه خطأ ورجوعه إلى قريش مشركا « وسارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب » وكانت ممن تؤذى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة . « وعكرمة ابن أبى جهل » ثم ان من هؤلاء من عفا عنه بعد حين . ومنهم من ظفر به بعد الهزيمة فقتله ، ولاجل انه صلى الله تعالى عليه وسلم دخلها صلحاً لم يغنم ولم يسب . وليس للامام اذا فتح بلداً عنوة أن يعفو عن غنائمه ولا أن يمنّ على سبيه لما فيها من حقوق الله تعالى وحقوق الغانمين . فصارت مكة وحرمها حين لم تغنم أرض عشر ان زرعت لا يجوز أن يوضع عليها خراج .

واختلف الفقهاء فى بيع دور مكة واجارتها فمنع أبو حنيفة من بيعها وأجاز اجارتها فى غير أيام الحج ؛ ومنع منهما فى أيام الحج لرواية الاعمش عن مجاهد ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال مكة حرام لا يحل بيع رباعها ولا أجور بيوتها . وذهب الشافعى رحمه الله تعالى الى جواز بيعها واجارتها ، لان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أقرهم عليها بعد الاسلام على ما كانت عليه قبله ، ولم يغنمها ولم يعارضهم فيها . وكذلك بعده « هذه دار الندوة » وهى أول دار بنيت بمكة صارت بعد قصى لعبد الدار بن قصى ، وابتاعها معاوية فى الاسلام من عكرمة ابن عامر بن هشام بن عبد الدار بن قصى وجعلها دار الامارة ، وكانت من أشهر دار ابتيعت ذكرا ، وأنشرها فى الناس خبرا ، فما أنكر بيعها أحد من الصحابة . وابتاع عمر وعثمان رضى الله تعالى عنهما ما زاداه فى المسجد من دور مكة وتملك أهلها أثمانها ، ولو حرم ذلك لما بذلاه من أموال المسلمين ، ثم جرى به العمل الى وقتنا هذا فكان اجماعاً متبوعا ، وتحمل رواية مجاهد مع ارسالها على انه لا يحل بيع رباعها على أهلها تنبيهاً على انها لم تغنم فتملك عليهم فلذلك لم تبع وكذلك حكم الاجارة .

« وأما الحرم » فهو ما أطاف بمكة من جوانبها ، وحده من طريق المدينة دون التنعيم عند بيوت بنى نفار على ثلاثة أميال ، ومن طريق العراق على ثنية جبل بالمنقطع على سبعة أميال . ومن طريق الجعرانة بشعب أبى عبد الله بن خالد على تسعة أميال ، ومن طريق الطائف على عرفة ومن بطن نمرة على سبعة أميال . ومن طريق جدة منقطع العشائر (١) على عشرة أميال . فهذا حد ما جعله الله

(١) ونظم ذلك بعضهم فقال :

وللحرم التحديد من أرض طيبة ثلاثة أميال أذا رمت اتقانه
وسبعة أميال عراق وطائف وجدة عشر ثم تسع جعرانه

وزاد الدميرى فقال :

ومن يمن سبع وكرر لها اهتدى فلم يعد سبل الحل اذ جاء تبيانه

تعالى حرماً لما اختص به من التحريم وباين بحكمه سائر البلاد . قال الله عز وجل : (واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً (يعنى مكة وحرمها) وارزق أهله من الثمرات) لأنه كان وادياً غير ذى زرع ، فسأل الله تعالى أن يجمع لأهله الامن والخِصْبَ ليكونوا بهما فى رغد من العيش ، فأجابه الله تعالى الى ما سأل فجعله حرماً آمناً يتخطف الناس من حوله . وجبى اليه ثمرات كل بلد حتى جمعها فيه . واختلف الناس فى مكة وما حولها هل صارت حرماً آمناً بسؤال ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، أو كانت قبله كذلك على قولين . أحدهما : أنها لم تزل حرماً آمناً من الجبابرة والمتسلطين ومن الخسوف والزلازل ، وانما سأل ابراهيم عليه السلام ربه سبحانه أن يجعل حرمه آمناً من الجدب والقحط ، وأن يرزق أهله من الثمرات لرواية سعيد بن أبى سعيد . قال : سمعت أبا شريح الخزاعى يقول ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لما افتتح مكة قام خطيباً فقال : (أيها الناس ان الله سبحانه حرم مكة يوم خلق السموات والارض فهى حرام الى يوم القيامة لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما ، أو يَعْضِدَ (1) بها شجراً ، وانها لا تحل لاحد بعدى ، ولم تحل لى الا هذه الساعة غضباً على أهلها ، الا وهى قد رجعت على حالها بالامس ألا ليبلغ الشاهد الغائب ، فمن قال رسول الله قتل بها فقولوا ان الله تعالى قد أحلها لرسوله ولم يحلها لك) . والقول الثانى : ان مكة كانت حلالا قبل دعوة ابراهيم عليه السلام كسائر البلاد ، وانها صارت بدعوته حرماً آمناً حين حرمها كما صارت المدينة بتحريم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حرماً بعد أن كانت حلالا ، لرواية الاشعث عن نافع عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : (ان ابراهيم عليه السلام كان عبدَ الله وخليله ، وإنى عبد الله ورسوله ، وان ابراهيم حرم مكة ، وانى حرمت المدينة مابين لابَتَيْها (2) عِضَاها وصيدها ، ولا يحمل بها سلاح

---

(1) عضد الشجرة عضداً من باب ضرب : قطعها (2) تثنية لابة وهى الحرة والحرة أرض

لقتال ، ولا يقطع بها شجر الا لعلف بعير) . وأما « مروة » فجبل بمكة يعطف على الصفا يميل الى الحمرة ، وأما « مزدلفة » فهو مبيت الحاج ومجمع الصلوة اذا صدروا من عرفات ، وهو مكان بين بطن محسر والمازمين واذا أفضت من عرفات فانت فيه حتى تبلغ القرن الاحمر دون محسر « وقزح » هو الجبل الذى عند الموقف ومزدلفة على فرسخ من منى بها مصلى وسقاية ومنارة وعدة برك الى جنب جبل يثرب . وأما « منى » فهى بليدة على فرسخ من مكة ، طولها ميلان تعمر أيام الموسم وتخلو بقية السنة الا ممن يحفظها ، وقل أن يكون فى الاسلام بلد مذكور الا ولاهله بمنى مضرب ، وعلى رأس منى من نحو مكة عقبة ترمى عليها الجمرة يوم النحر . والمسجد فى الشارع الايمن ومسجد الكبش بقرب العقبة . وبها مصانع وآبار وهى بين جبلين مطلين عليها . قال الاصمعى وهو يذكر الجبال التى حول حمى ضَرِيَّة ومنى جبل ، وأنشد :

أتبعتهم مقلةً إنسانها غَرِقٌ كالفص فى رفرفِ الدمعِ مغمورُ [1]
حتى تواروا الشعف والجمال بهم من هضبتيها وعن جنبي منى زُورُ

وعرفات والصفا ونحو ذلك . كلها مواضع تؤدى الحجاج فيها المناسك وهى مفصلة أتم تفصيل ، فى الكتب المعدة لهذا القبيل .

نبذة مما ورد فى فضل مكة

وذكر شيء من حال رؤسائها واشرافها

قد سبق ان لها عدة أسماء ، وقد سماها الله تعالى (البلد الامين) أيضاً فقال : (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الامين) . وفى هداية الحيارى قوله (والتين والزيتون) : هما فى الارض المقدسة التى بعث منها المسيح عليه السلام

ذات حجارة سود وللمدينة لابتان شرقية وغربية وهى بينهما فحرمها ما بينهما عرضاً وما بين جبليها طولا وهى عير وثور ، وعضاها بكسر العين وتخفيف الضاد كل شجر فيه شوك (١) المقلة وزان غرفة : شحمة العين التى يجمع سوادها وبياضها ، وإنسان العين حدقتها

وانزل فيها الانجيل ، وطور سينين هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى تكليما وناداه من واديه الايمن من البقعة المباركة من الشجرة التى فيه ؛ وأقسم بالبلد الامين وهو مكة التى أسكن ابراهيم اسمعيل وأمه فيه ، وهذا مثل ماورد فى التوراة : (تجلى الله من طور سيناء وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران) . قال ابن قتيبة : ليس بهذا خفاء على من تدبره ولا غموض لان مجيء الله من طور سيناء انزاله التوراة على موسى من طور سيناء كالذى هو عند أهل الكتاب وعندنا ، وكذلك يجب أن يكون اشراقه من ساعير انزاله الانجيل على المسيح من ساعير أرض الخليل بقرية تدعى (ناصرة) [1] وباسمها تسمى من اتبعه نصارى . وكما وجب أن يكون اشراقه من ساعير بالمسيح ، فكذلك يجب أن يكون استعلاؤه من جبال (فاران) انزاله القرآن على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وجبال فاران هى جبال مكة ، ولما كان مافى التوراة خبراً عن ذلك أخبر به على الترتيب الزمانى فقدم الاسبق ثم الذى يليه . وأما القرآن فانه أَقسمَ بها تعظيماً لشأنها وأظهاراً لقدرته وآياته وكتبه ورسله ، فاقسم بها على وجه التدريج درجة بعد درجة ، فبدأ بالعالى ثم انتقل الى أعلى منه ثم الى أعلى منهما ، فان أشرف الكتب القرآن ، ثم التوراة ، ثم الانجيل وكذلك الانبياء الثلاثة انتهى بتلخيص . وقال تعالى (لااقسم بهذا البلد وأنت حلّ بهذا البلد) . وقال تعالى (وليطوّفوا بالبيت العتيق) . وقال سبحانه (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس وأمنا) . وكذلك قول ابراهيم عليه السلام (ربنا انى أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرم فاجعل أفئدةً من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات) . ولما خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من مكة وقف على الحزورة [2] وقال : انى لاعلم انك أحب البلاد

(١) هي قرية بالشام ويقال لها نصرانة ونصورية ينسب اليها النصارى أوجمع نصران كالندامى جمع ندمان أو جمع نصرى كمهرى ومهارى (٢) قال ابن الاثير: هو موضع عند باب الحناطين وهو بوزن قسورة ، قال الامام الشافعي (رض) الناس يشددون الحزورة والحديبية وهما مخففتان وفى روض السهيلى : هو اسم سوق كانت بمكة وأُدخلت فى المسجد لما زيد فيه ونقل بعضهم عن

الىّ وانك أحب أرض الله الى الله الحديث . وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها : (لولا الهجرة لسكنت مكة فانى لم أر السماء بمكان أقرب الى الارض منها بمكة ولم يطمئن قلبى ببلدة قط ما أطمأن بمكة ولم أر القمر بمكان أحسن منه بمكة) . تريد بقرب السماء منها قرب الرحمة ونحوها ، والا فجميع اجزاء الارض بالنسبة الى بعدها عن السماء سواء كما حُقق فى محله . وقال ابن أم مكتوم رضى الله تعالى عنه وهو آخذ بزمام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الطواف :

ياحبذا مكةُ من وادى … ارضٌ بها أهلى وأولادى
أرضٌ بهـا ترسخ أوتادى … أرضٌ بها أمشى بلا هادى

ولما قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة وُعِكَ [1] أبو بكر وبلال رضى الله تعالى عنهما فكان أبو بكر اذا أخذته الحُمى يقول :

كلُّ امرئٍ مُصبَّحٌ فى أهله … والموتُ أدنى من شِراكِ نَعْلِهِ [2]

وكان بلال إذا أقْشَعتْ عنه الحمى رفع عقيرته وقال :

ألا ليتَ شعرى هل أبيتنَّ ليلةً … وعندىَ منها إذْخرٌ وجليل [3]
وهل أرِدَنْ يوماً مياهَ مجنة … وهل يبدون لى شامةٌ وطفيل

اللهم العن شيبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، وأمية بن خلف ، كما أخرجونا من مكة . ووقف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عام الفتح على جمرة العقبة ، وقال : (والله انك لخير أرض ، وانك لاحب أرض الله الىّ ، ولولم أخرج منك ماخرجت انها لم تحل لاحد كان قبلى ، ولا تحل لاحد بعدى ، وما أحلت لى

مشارق عياض مثل ذلك وفيه عن الدار قطنى مثل قول الشافعى ونسب التشديد للمحدثين قال وهو تصحيف ، ونسبه صاحب المراصد الى العامة وزاد أنهم يقولون عزورة بالعين بدل الحاء ، وقال القاضى عياض وقد ضبطنا هذا الحرف على ابن السراج بالوجهين (١) أى أخذته الحمى

(٢) شراك النعل سيرها الذى على ظهر القدم (٣) الاذخر بكسر الهمزة والخاء نبات معروف ذكى الريح واذا جف ابيض ، والجليل الثمام وهو نبت ضعيف يحشى به خصاص البيوت الواحدة جليلة والجمع جلائل ، قال الشاعر :

يلوذ بجنبى مرخة وجلائل

الا ساعة من نهار ثم هى حرام لا يُعضَدُ شجرها ولا يختلى خلاها ولا تلتقط ضالتها الا لمنشد) . قال رجل : يارسول الله الا الاِذخِر . وعنه صلى الله تعالى عليه وسلم (من صبر على حرّ مكة ساعة تباعدت عنه جهنم مسيرة مائة عام وتقربت منه الجنة مائتى عام) . ووجد على حجر مكتوب فيه : (أنا الله رب مكة الحرام وضعتها يوم وضعت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول أخشابها مبارك لاهلها فى اللحم والماء) ، ومما يدل على فضلها قوله تعالى (وما كان ربك مهلكَ القرى حتى يبعث فى أمها رسولا) . وقوله سبحانه (ولتنذر أم القرى ومن حولها) . ومن شرفها انها كانت لقاحاً (١) لا تدين لدين الملوك ولم يؤد أهلها اتاوةً ، تحج اليها ملوك حمير وكندة وغسان ولخم فيدينون للحُمْس (٢) من قريش ويزيدون فى تعظيمهم ، ويرون الاقتداء بآثارهم من الشرف والفرائض . وكان أهلها آمنين يغزون الناس ولا يُغزون ويحكمون على الناس ولا يحكم عليهم أحد ، وقد ذكر الشعراء كل ذلك فى شعرهم حين مدحوهم . قال الزبرقان بن بدر لرجل من بنى عوف هجا أبا جهل وتناول قريشاً :

أتدرى من هجوت أبا حبيب سليل خُضارم سكنوا البطاحا (٣)
وزادَ الرَكْب تذكر أم هشاماً وبيت الله والبلد اللَقاحا (٤)

وقال حرب بن أمية ودعا الحضرمى أن لا ينزل خارجا من الحرم . وكان يكنى أبا مطر ، فقال حرب :

(١) سيأتى تفسيرها قريباً (٢) لقب قريش ومن ولدت قريش ، وكنانة وجديلة قيس وهم فهم وعدوان ابنا عمرو بن قيس عيلان وبنو عامر بن صعصعة ومن تابعهم فى الجاهلية ، هؤلاء الحمس وانما سموا لتحمسهم فى دينهم أى تشددهم فيه وكذا فى الشجاعة فلا يطاقون أو لالتجائهم بالحمساء وهى الكعبة لان حجرها أبيض الى السواد وقيل غير ذلك (٣) الخضارم بالضم الجواد المعطاء والسيد الحمول (٤) يقال قوم لقاح وحى لقاح لم يدينوا للملوك ولم يملكوا ولم يصبهم فى الجاهلية سباء ، وانشد ابن الاعرابى :

لعمر ابيك والانباء تنمى لنعم الحى فى الجلى رياح
ابوا دين الملوك فهم لقاح اذا هيجوا الى حرب اشاحوا

وقال ثعلب : الحى اللقاح مشتق من لقاح الناقة لان الناقة اذا لقحت لم تطاوع الفحل وليس بقوى

أبا مطرٍ هلمّ الى (صلاحٍ) فيكفيك النّدامى من قريش
وتنزل بلدة عزت قديماً وتأمن أن يزورك ربّ جيش
فتأمن وسطهم وتعيش فيهم أبا مطرٍ هديت بخير عيش

ومما زاد فى فضلها فضل أهلها لانهم كانوا حلفاء متألفين متمسكين بكثير من شريعة ابراهيم الخليل عليه الصلوة والسلام ، ولم يكونوا كالاعراب الذين لا يوقرهم دين ، ولا يزينهم أدب . وكانوا يحبون أولادهم ويحجون البيت ويقيمون المناسك ويكفنون موتاهم ويغتسلون من الجنابة ويتبرؤن من الهربذة[1] ويتباعدون فى المناكح من البنت وبنت البنت والاخت وبنت الاخت غيرة وبعداً من المجوسية ، ونزل القرآن بتأكيد صنيعهم وحسن اختيارهم ، وكانوا يزوجون بالصداق والشهود ويطلقون ثلاثا ، ولذلك قال عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما — وقد سأله رجل عن طلاق العرب — : (كان الرجل يطلق امرأته تطليقة ، ثم هو أحق بها ، فان طلقها ثنتين فهو أحق بها أيضاً ، فان طلقها ثلاثا فلا سبيل له اليها . قال الاعشى :

أيا جارتى بِينى فانكِ طالِقَهْ كذاك أمور الناس عاد وطارقه
وبِينى فقد فارقت غير ذميمةٍ وموموقة منا كما انت وامقَه
وبِينى فان البينَ خيرٌ من العصا والا ترى لى فوق رأسك بارقه

ومما زاد فى شرفهم انهم كانوا يتزوجون من أى قبيلة شاؤا ولا شرط عليهم فى ذلك ، ولا يزوجون أحداً حتى يشترطوا عليه أن يكونَ متحمساً على دينهم . يرون أن ذلك لايحل لهم ولا يجوز لشرفهم حتى يدانَ اليهم وينقاد ، والتحمس التشدد فى الدين ، ورجل أحمس أى شجاع . فحمسوا خزاعة ودانت لهم اذ كانت فى الحرم ، وحمسوا كنانة وجديلةَ قيسٍ وهم فهم ، وابنا عمرو بن قيس عيلان الا انهم ساكنوا الحرم ، وعامر بن صعصعة وان لم يكونوا من ساكنى الحرم ، فان

(١) الهرابذة قومة بيت النار التى للهند فارسى معرب وقيل عظماء الهند أو علماؤهم

أمهم قرشية . وهي مجد بنت تيم بن مرة . وكان من سنة الحمس انهم لايخرجون أيام الموسم الى عرفات انما يقفون بالمزدلفة ، وكانوا لايسلؤن (١) ولا يأقطون (٢) ولا يرتبطون عنزاً ولا بقرة ولا يغزلون صوفا ولا وبراً ، ولا يدخلون بيتاً من الشعر والمدر ، وانما يكتنون بالقباب الحمر فى الاشهر الحرم . ثم فرضوا على العرب قاطبةً أن يطرحوا أزواد الحل اذا دخلوا الحرم ، وأن يتركوا ثياب الحل ويستبدلوها بثياب الحرم إِما شراءً واما عارية واما هبةً ، فان وجدوا ذلك فَبها والا طافوا بالبيت عرايا ، وفرضوا على نساء العرب مثل ذلك غير ان المرأة كانت تطوف فى درج مفرج القوائم والمآخير . قالت امرأة وهى تطوف بالبيت :

اليوم يبدو بعضُهُ أو كله ... وما بدا منه فلا أُحِلُّه
اخثم مثل القَعْبِ بادٍ ظِلُّه ... كأنَّ حُمَّى خيبر تَمَلُّه (٣)

وكلفوا العرب أن يفيضوا من مزدلفة وقد كانوا يُفيضون من عرفة ، وقد كان الملك فى جُرهم وخزاعة وصدر من أيام قريش . فلولا انهم أمنعُ حيٍّ من العرب مع نخوة العرب فى أبائها لما أجلى قصىٌّ خزاعة وخزاعة جرهما ، ولم يكونوا يهتبدون الهبيد (٤) ويأكلون الحشرات كسائر الاعراب ، بل منهم الذى هشم الثريد ، وفيه يقول ابن الزبعرى :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه ... قوم بمكة مسنتين عجاف (٥)

---

(١) سلا السمن : طبخه وعالجه (٢) الاقط شىء يتخذ من المخيض الغنمى واقط الطعام يأقطه أقطاً عمله به فهو مأقوط ، قال ابن هرمة :

لست بذى ثلة مؤنفة ... آقط ألبانها واسلؤها

وائتقط اتخذت الاقط (٣) قال ثعلب : فرج اخثم منتفخ خرقه قصير السمك خناق ضيق ، والقعب : القدح الضخم الجافى او الى الصغر او يروى الرجل ، وحمى خيبر يضرب بها المثل لان خيبر مخصوصة بالحمى والوباء ، قال اوس بن حجر :

كأن به اذ جئته خيبرية ... يعود عليه ورده وملالها

الورد يوم الحمى الدائر . والملال : الضجر والتضايق (٤) هو الحنظل أوحبه (٥) عمرو هو هاشم بن عبد مناف أبو عبد المطلب وكان يكنى أبا نضلة ثالث جد لسيدنا رسول الله (ص) سمى هاشماً لانه أول من ثرد الثريد وهشمه فى الجدب والعام الجماد ، ومسنتون : مقحطون ، وعجاف ضعاف

سنت اليـه الرحلتان كلاهما　　　سفر الشتاء ورحلة الاصياف

وكان عبد الله بن جُدعان التيمى يطعم الرغو [1] والعسل والسمن ولبّ البرّ حتى قال أمية بن أبى الصلت فيه يمدحه :

لـكل قبيـلة رأسٌ وهاد　　　وأنت الرأس تقدم كل هادى

له داعٍ بمكة مُشمَعِلٌّ　　　وآخَرُ فوق دارته ينادى

الى رُدُح من الشيزاء ملأى　　　لبابَ البُرِّ يُلبَك بالشِهادِ

وفضائل قريش ليس هذا موضع استقصائها ، وقد أفردها الزبير بن بكار بكتاب أجاد فيه وأفاد ، وقد بلغ تعظيم العرب لمكة انهم كانوا يحجون البيت ويعتمرون ويطوفون ، فاذا أرادوا الانصراف أخذ الرجل منهم حجراً من حجارة الحرم فنحته على صورة أصنام البيت فيجعله فى طريقه قبلةً ويطوف ويصلى له تشبيهاً باصنام البيت ، وأفضى بهم الأمر بعد طول المدة الى أن كانوا يأخذون الحجر من الحرم فيعبدونه ، فذلك كان أصل عبادة العرب للحجارة فى منازلها شغفاً منها باصنام الحرم ، وتمام الكلام ، فى هذا المقام ، نورده ان شاء الله تعالى عند البحث عن أديانهم ، وما كانوا يتعبدون به فى سالف أزمانهم . وأمارؤساء مكة فذكر أهل السير ان ابراهيم الخليل عليه السلام لما حمل ابنه اسماعيل عليه السلام الى مكة جاءت جُرهم وقطوراء وهما قبيلتان من اليمن وهم أبناء عم ؛ فرأوا بلداً ذا ماء وشجر فنزلوا ونكح اسماعيل عليه السلام من جُرهم فلما توفى اسماعيل ولى البيت بعده نابت بن اسماعيل وهو أكبر ولده ، ثم ولى بعده مُضاض ابن عمرو الجرهمى خال ولد اسماعيل عليه السلام ، الى أن تنافست جُرهم وقطوراء فى الملك وتداعوا للحرب فخرجت جرهم الى قعيقعان وهى أعلى مكة وعليهم مضاض ابن عمرو ، وخرجت قطوراء من أجياد وهى أسفل مكة وعليهم السميدع ، فالتقوا بفاضح واقتتلوا قتالاً شديداً فقتل السميدع وهزمت قطوراء ، فسمى الموضع

(١) الزبد

فاضحاً لأن قطوراء افتضحت فيه ، وسميت أجياداً لما كان معهم من أجياد الخيل ، وسميت قعيقعان لقعقعة السلاح . ثم تداعوا الى الصلح واجتمعوا فى الشعب وطبخوا القدور ، فسمى المطابخ . ونشر الله ولد اسماعيل عليه السلام فكثروا وتفرقوا فى البلاد لا ينادون قوماً إلا أتوهم طائعين ، وظهروا عليهم بدينهم . ثم إن جُرهماً بغوا بمكة فاستحلوا المحرمات ، وأباحوا المنكرات ، وظلموا من دخلها ، وأكلوا مال الكعبة ، وكانت مكة تسمى الناسة[1] . لا تقر ظلماً ولا بغياً ولا تبق فيها أحداً من الملحدين الا أخرجته ، وكان أبو بكر بن عبد مناة بن كنانة وغسان وخزاعة حلولا حول مكة فأذنوهم القتال فاقتتلوا فجعل الحارث بن عمرو بن مضاض الاصغر يقول :

لاهُمَّ إنَّ جُرْهماً عبادك الناس طرف وهم تِلادُك[2]

فغلبتهم خزاعة على مكة ونفتهم عنها . وفى ذلك قال عمرو بن الحارث بن عمرو بن مضاض الأصغر * وقائلة والدمع سكب مبادر * الى آخر الأبيات التى سبق ذكرها . ثم وليت خزاعة البيت ثلاثمائة سنة يتوارثون ذلك كابراً عن كابر حتى كان آخرهم حليل بن أبى حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو بن ربيعة وهو خزاعة بن حارثة . وقريش اذ ذاك حلل وحرم وبيوتات متفرقة حول الحرم ، الى أن أدرك قصىّ بن كلاب وتزوج بنت حليل بن أبى حبشية وولدت بنيه الاربعة فكثر ولده وعظم شرفه ، ثم هلك حليل وأوصى الى ابنه المحترش أن يكون خازناً للبيت وأشرك معه غبشان[3] الملكانى . وكان اذا غاب أحجب هذا حتى

(١) من نست الشيء اذا اذهبته وذكر الخطابى انه يقال لها الباسة أيضا بالموحدة وهو من بست الجبال بساً أى فتت وذريت كا يذرى السويق قال الراجز :

لا تخبزا خبزاً وبسا بسا

يقول لا تشتغلا بالخبز وذريا الدقيق والتقماه . (٢) العرب تحذف الالف واللام من اللهم وتكتفى بما بقى ، والطرف : المستحدث من المال ، والتلاد : القديم منه

(٣) يضرب به المثل فى الخسران ، قال الثعالبي : وكانت خزاعة سدنة الكعبة قبل قريش وكان أبو غبشان الخزاعى يلى من بينهم أمر الكعبة وبيده مفاتيحها فاتفق له انه اجتمع مع

هلك الملكانى فيقال ان قصياً سقى المخترش الخمر وخدعه حتى اشترى منه البيت بدنّ خمر وأشهد عليه وأخرجه من البيت وتملك حجابته وصار رب الحكم فيه ، فقصيّ أول من أصاب الملك من قريش بعد ولد اسماعيل . وذلك فى أيام المنذر ابن النعمان ملك الحيرة ، وملك الفرس يومئذ بهرام جور أبو الفرس وجعل قصيّ مكة رباعا وبنى بها دار الندوة . وكانت صوفة (١) وهى قبيلة من جرهم تصيب بمكة من يلى الاجازة بالناس من عرفة مدة . وفيهم يقول الشاعر

ولا يريمون فى التعريف موقفهم   حتى يقال أجيزوا آل صوفانا (٢)

ثم أخذتها منهم خزاعة وأجازوا مدّة . ثم عدا عليهم بنو عدوان بن عمرو ابن قيس وصارت الى رجل منهم يقال له أبو سيارة (٣) أحد بنى سعد ، وله يقول الراجز :

قصي بن كلاب في شرب بالطائف فخدعه قصي عن مفاتيح الكعبة بان اسكره ثم اشتراها منه بزق خمر وأشهد عليه ودفع المفاتيح فى يد ابنه عبد الدار بن قصي وسرحه الى مكة فلما اشرف عبد الدار على دور مكة رفع عقيرته وقال : يامعاشر قريش هذه مفاتيح بيت ابيكم اسماعيل (ع) قد ردها الله عليكم من غير غدر ولا ظلم ، وأفاق أبو غبشان من سكره نادماً خاسراً فقال الناس أحمق من أبى غبشان واندم من أبى غبشان وأخسر صفقة من أبى غبشان ، فذهبت الكلمات الثلاث امثالا وأكثرت الشعراء القول فيه فقال بعضهم

باعت خزاعة بيت الله اذ سكرت   بزق خمر فما فازت ولا ربحت

وقال آخر

أبو غبشان أظلم من قصى   وأظلم من بنى فهر خزاعه
فلا تلحو قصيا فى شراه   ولوموا شيخكم اذ كان باعه

وقال آخر :

اذا افتخرت خزاعة في قديم   وجدنا فخرها شرب الخمور
تبيع لكعبة الرحمن حمقاً   بزق بئس مفتخر الفخور

(١) أبو حى من مضر سمى بذلك لان أمه جعلت فى رأسه صوفة وجعلته ربيطاً للكعبة يخدمها وهو الغوث بن مر بن اد بن طابخة (٢) قوله أجيزوا أى أفيضوا وكان أحدهم يقول أجيزى صوفة فاذا أجازت قال أجيزى خندف فاذا أجازت اذن للناس كلهم فى الاجازة ، وآل صوفان ويقال لهم آل صفوان قوم من بنى سعد بن زيد مناة قال أبو عبيدة حتى يجوز القائم بذلك من آل صفوان والبيت لاوس بن مغراء (٣) اسمه عميلة بن خالد بن اعزل وكان له حمار أسود أجاز الناس عليه من مزدلفة الى منى أربعين سنة وعير أبى سيارة مشهور يتمثل به فيقال أصح من عير أبى سيارة للرجل الصحيح فى بدنه ، قال الجاحظ : أعمار حمر الوحش تزيد على أعمار الحمر

خَلوا السبيل عن أبي سيَّاره وعن مُواليـه بنى فَزاره [1]
حتى يجيزَ سالماً حمـاره مستقبل الكعبة يدعو جارَه [2]

وكانت صورة الاجازة أن يتقدمهم أبو سيارة على حماره ، ثم يخطبهم فيقول اللهم اصلح بين نسائنا ، وعاد بين رعايانا ، واجعل المال فى سماحنا وسمحائنا ، أوفوا بعهدكم . وأكرموا جاركم ، واقروا ضيفكم ثم يقول : أشرق ثَبير ، كيما نُغير ، ثم ينفر ويتبعه الناس . فلما قوى أمر قصىّ أتى أبا سيارة وقومه فمنعه من الاجازة وقاتلوا عليها فهزمهم قصىّ وصار البيت الحرام الى قصىّ . فلما كبر قصىّ ووهن عظمه جعل الامر فى ذلك كله الى ولده عبد الدار لانه أكبر أولاده ، وهلك قصىّ وأقام قريش على ذلك عبد الدار . ثم ان عبد مناف رأى فى نفسه انه أحق من عبد الدار بالامر وكذلك قريش لما كان عليـه من النباهة والفضل فأجمعوا على أخذ ما بأيديه ، وهموا بالقتال فمشى الاكابر منهم حتى تداعوا الى الصلح بأن يكون لعبد مناف السقاية [3] والرِّفادة [4] ، وأن تكون الحجابة [5] واللواء والندوة لبنى عبد الدار ، وعقدوا على ذلك حلفاً مؤكداً لا ينقضونه ، فأخرج بنو عبد مناف ومن تابعهم من قريش جفنة مملوءة طيباً وغمسوا فيهـا أيديهم ومسحوا بها الكعبة تأكيداً على أنفسهم فسموا المطيبين ، وأخرج بنو عبد الدار ومن تابعهم جفنة من دم وغمسوا فيها أيديهم ومسحوا بهـا الكعبة

الاهلية ولا يعرف حمار أهلى عاش أكثر وعمر أطول من عير أبى سيارة فانهم لايشكون أنه رفع عليه أهل الموسم أربعين عاماً (١) يعنى بمواليه بنى عمه لانه من عدوان وعدوان وفزارة من قيس عيلان (٢) يدعو جاره أى يدعو الله عز وجل يقول اللهم كن لنا جاراً مما نخافه أى مجيراً (٣) الموضع يتخذ لسقى الناس (٤) هى ما كانت تخرجه من أموالها وترفد به منقطع الحاج (٥) هى سدانة البيت وقد احدثها قصىّ ، واللواء منصب أحدثه قصى أيضاً بمنزلة وزير الحرب فى عصرنا فاذا أخرجه من كان بيده اجتمعت عنده صناديد قريش لايتخلف أحد منهم عنه وذلك اذا نابتهم نائبة وغيره لايمكن من ذلك اللواء ، وكان هذا المنصب مخصوصاً ببني عبد الدار ، والندوة وهى أيضاً مما أحدثه قصي وهى بمنزلة قصر الامارة ودار الحكومة وهى دار كانوا يجتمعون فيها لابرام امرهم وتشاورهم والندوة الجماعة ودار الندوة دار الجماعة

فسموا الاحلاف ولعقة الدم ، ولم يل الخلافة منهم غير عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه . والباقون من المطيبين لم يزالوا على حالهم حتى جاءهم الاسلام ، وقريش على ذلك حتى فتح النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مكة سنة ثمان من الهجرة فأقرَّ المفتاح فى يد عثمان بن طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار ، وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ منه المفاتيح عام الفتح فأنزل الله تعالى : (ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها) فاستدعاه ورد المفتاح اليه ، وأقر السقاية فى يد العباس رضى الله تعالى عنه .

من انتهى اليه الشرف بمكة من قريش فى الجاهلية فوصله بالاسلام

اعلم ان من انتهى اليه الشرف من قريش الى أن بَزَغ نور الاسلام عشرة رهط من عشرة ابطن ، وهم : (هاشم) و (أمية) و (نوفل) و (عبد الدار) و (أسد) و (تيم) و (مخزوم) و (عدىّ) و (جمح) و (سهم) فكان من هاشم العباس بن عبد المطلب يسقى الحجيجَ فى الجاهلية وبقى له ذلك فى الاسلام ، ومن بنى أمية أبو سفيان بن حرب كانت عنده العقاب راية قريش ، واذا كانت عنده رجل أخرجها اذا حميت الحرب ، فاذا اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب وان لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه . ومن بني نوفل الحارث بن عامر وكانت اليه الرفادة ، وهى ما كانت تخرجه من أموالها وترفد به منقطع الحاج . ومن بنى عبد الدار عثمان بن طلحة كان اليه اللواء والسدانة مع الحجابة ، ويقال : والندوة أيضاً فى بنى عبد الدار . ومن بنى أسد يزيد بن زَمَعَة بن الأسود وكانت اليه المشورة وذلك ان رؤساء قريش لم يكونوا مجتمعين على أمر حتى يعرضوه عليه ، فان وافقه ولاهم عليه والا تخير وكانوا له أعوانا ، واستشهد مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالطائف ومن بنى تيم أبو بكر الصديق ، وكانت اليه فى الجاهلية الاشناق وهى الديات والمغرم ، فكان

اذا احتمل شيئاً فسأل فيــه قريشاً صدقوه وأمضوا حَمالةَ [1] من نهض معه وان احتملها غيره خذلوه . ومن بنى مخزوم خالد بن الوليد ، كانت اليه القبة والاعنة . فاما القبة فانهم كانوا يضربونها ثم يجمعون اليها ما يجهزون به الجيش . وأما الاعنة فانه كان على خيل قريش فى الحرب . ومن بنى عدى عمر بن الخطاب وكانت اليه السفارة فى الجاهلية ، وذلك انهم كانوا اذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيراً ، وان نافرهم حىّ لمفاخرة جعلوه منافراً ورضوا به . ومن بنى جُمَح صفوان ابن أمية ، وكانت اليه الايسار وهى الازلام ، فكان لايسبق بامر عام حتى يكون هو الذى تسييره على يديه . ومن بنى سهم الحارث بن قيس ، وكانت اليــه الحكومة والاموال المحجرة التي سموها لآلهتهم . فهذه مكارم قريش التى كانت فى الجاهلية ، وهى السقاية والعمارة والعقاب والرِفادة والسدانة والحجابة والنَدوة واللواء والمشورة والاشناق والقُبة والاعنة والسفارة والايسار والحكومة والاموال المحجرة الى هؤلاء العشرة من هذه البطون العشرة على حال ما كانت فى أوليتهم يتوارثون ذلك كابراً عن كابر ، وجاء الاسلام فوصل ذلك لهم وكان كل شرف من شرف الجاهلية أدركه الاسلام فوصله ؛ فكانت سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وحلوان النفر فى بنى هاشم . فاما السقاية فمعروفة ، وأما العمارة فهو أن لايتكلم أحد فى المسجد الحرام بهجر ولا رَفَثٍ ولا يرفع فيه صوته كان العباس ينهاهم عن ذلك . واما حلوان النفر فان العرب لم تكن تملك عليهـا فى الجاهلية أحداً فان كان حرب أقرعوا بين أهل الرياسة فمن خرجت عليه القرعة أحضروه صغيراً كان أو كبيراً . فلمـا كان يوم الفجار اقرعوا بين بنى هاشم فخرج سهم العباس وهو صغير فاجلسوه على المجنّ ، وسبحان من صرف الدهور ، على حسب مصالح الامور .

---

(١) الحَمالة كسحابة الدية يحملها قوم عن قوم

ذكر ماوقع لاصحاب الفيل فى مكة شرفها الله تعالى

اعلم أن ابرهة الاشرم بعد أن استولى على اليمن وقتل أميرها ارياطاً بنى القُلَّيْسَ بصنعاء فبنى كنيسة لم ير مثلها فى زمانها ، ثم كتب الى النجاشى انى قد بنيت لك أيها الملك كنيسةً لم يُبْنَ مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنتهٍ حتى اصرف اليها حج العرب . فلما تحدثت العرب بكتاب ابرهة ذلك الى النجاشى غضب رجل من النَّسأة (١) أحد بنى فقيم بن عدىّ بن عامر بن ثعلبة بن الحارث ابن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر فخرج حتى أتى القُلَّيْسَ (٢) فقعد فيها يعنى أحدث فيها ، ثم خرج فلحق بارضه فاخبر بذلك ابرهة . فقال : من

---

(١) الذين كانوا ينسئون الشهور على العرب في الجاهلية فيحلون الشهر من الاشهر الحرم ويحرمون مكانه الشهر من أشهر الحل ليواطؤا عدة ماحرم الله ويؤخرون ذلك الشهر ففيه انزل الله تبارك وتعالى انما النسيء زيادة فى الكفر يظل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً قوله ليواطؤا أي ليوافقوا ، وكان أول من نسأ الشهور على العرب فأحلت منها ما أحل وحرمت منها ماحرم القلمس وهو حذيفة بن عبد بن فقيم بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحرث بن مالك بن كنانة بن خزيمة وقيل له القلمس لجوده اذ القلمس من أسماء الحرب وتفصيل الكلام يأتى فى الجزء الثالث (٢) هو كنيسة بصنعاء سميت لارتفاع بنائها وعلوها ومنه القلانس لانها فى أعلى الرؤس ويقال تقلنس الرجل وتقلس اذا لبس القلنسوة وقلس طعاماً أى ارتفع من معدته الى فيه ، وكان ابرهة قد استذل أهل اليمن فى بنيان هذه الكنيسة وجشمهم فيها أنواعاً من السخر وكان ينقل اليها العدد من الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس صاحبة سليمان (ع) وكان من موضع هذه الكنيسة على فراسخ وكان فيه بقايا من آثار ملكها فاستعان بذلك على ماأراده فى هذه الكنيسة من بهجتها وبهائها ونصب فيها صلباناً من الذهب والفضة ومنابر من العاج والآبنس وكان اراد أن يرفع فى بنائها حتى يشرف منها على عدن وكان حكمه فى العامل اذا طلعت عليه الشمس قبل أن يأخذ فى عمله ان يقطع يده ! ! فنام رجل منهم ذات يوم حتى طلعت الشمس فجاءت معه امه وهى أمرأة عجوز فتضرعت اليه تستشفع لابنها فأبى الا ان يقطع يده فقالت ، اضرب بمعولك اليوم فاليوم لك وغداً لغيرك ، فقال : ويحك ماقلت ؟ فقالت : نعم كما صار هذا الملك من غيرك اليك فكذلك يصير منك الى غيرك فاخذته موعظتها واعفى الناس من العمل فيها بعد ، فلما هلك اقفر ماحول هذه الكنيسة فلم يعمرها أحد وكثر حولها السباع والحيات ولم يقربها أحد الى زمن أبى العباس فذكر له أمرها وبعث اليها بابن الربيع عامله على اليمن معه أهل الحزم والجلادة فخربها وحصلوا منها مالا كثيراً ببيع ماأمكن بيعه من رخامها وآلاتها فعفى بعد ذلك رسمها وانقطع خبرها ودرست آثارها

صنع هذا ، فقيل له : رجل من العرب من أهل هذا البيت الذى تحج العرب اليه بمكة لما سمع انك تريد أن تصرف اليها حج العرب غضب فجاء فقعد فيها أى انها ليست لذلك باهل ، فغضب عند ذلك ابرهة وحلف ليسيرنّ الى البيت حتى يهدمه ، ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت ثم سار وخرجوا معه بالفيل ، وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفظعوا به ، ورأوا جهاده حقاً عليهم حين سمِعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام ، فخرج اليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر فدعا قومَهُ ومن أجابه من سائر العرب الى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام وما يريد من هدمه واخرابه فأجابه الى ذلك من أجابه . ثم عرض له فقاتله فهزم ذو نفر وأصحابه وأخذ له ذو نفر فأتى به أسيراً ، فلما أراد قتله قال له ذو نفر : أيها الملك لا تقتلْنى فانه عسى أن يكون بقائى معك خيراً لك من قتلى فتركه من القتل وحبسه عنده فى وثاق وكان أبرهة رجلاً حليماً . ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له حتى اذا كان بأرض خَثْعَم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمى فى قبيلى خثعم شهران وناهس ومن تبعه من قبائل العرب فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ له نفيل أسيراً فأتى به . فلما همّ بقتله قال له نفيل أيها الملك لا تقتلنى فانى دليلك بأرض العرب ، وهاتان يدان لك — يشير الى شهران وناهس قبيلى خثعم — بالسمع والطاعة فخلى سبيله وخرج به معه يدله حتى اذا مرّ بالطائف خرج اليه مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف فى رجال ثقيف فقالوا له : أيها الملك انما نحنُ عبيدك سامعون لك مطيعون ليس عندنا لك خلاف وليس بيتنا هذا البيت الذى تريد ، يعنون اللات ، إنما تريد البيت الذى بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه فتجاوز عنهم ، واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة . قال ضرار بن خطاب الفهرى:

وفرت ثقيفٌ الى لاتِها   بمنقلب الخائبِ الخاسِرِ

فبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق الى مكة ، فخرج أبرهة ومعه أبو رغال

حتى أنزله المُغَمَّسَ (١) ، فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك فرجمت قبره العرب ، فهو القبر الذى يرجمه الناس بالمُغَمَّس . فلما نزل أبرهة المُغَمَّسَ بعث رجلاً من الحبشة يقال له الاسود بن مقصود على خيل له حتى انتهى الى مكة فساق اليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم فأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم — وهو يومئذ كبير قريش وسيدها — فهمّت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله ، ثم عرفوا انهم لاطاقةَ لهم به فتركوا ذلك ، وبعث ابرهة حناطة الحميرىَّ الى مكة وقال له : سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها ، ثم قل له : « إنَّ المَلِكَ يقول لك انى لم آت لحربكم انما جئت لهدم هذا البيت فان لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لى فى دمائكم فان هو لم يرد حربى فأتنى به » فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها فقيل له عبد المطلب بن هاشم فجاءه فقال له ما أمره به ابرهة ، فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه وما لنا بذلك منه طاقة ، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله ابراهيم عليه السلام ، أو كما قال فانه يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وان يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه . فقال حناطة : فانطلق معى اليه فانه قد أمرنى أن آتيه بك ، فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر فسأل عن ذى نفر وكان صديقاً له حتى دخل عليه وهو فى محبسه فقال له ياذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نفر : وما غناء رجل أسير بيدى ملك ينتظر أن يقتله غدواً أو عشياً . ما عندى غناء فى شيء مما نزل بك الا أن أنيساً سائس الفيل صديق لى وسأرسل اليه فاوصيه بك واعظم عليه حقك واسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك ويشفع لك بخير إنْ قدر على ذلك ، فقال : حسبى فبعث ذو نفر الى أنيس فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة يطعم الناس بالسهل ، والوحوش فى رؤس الجبال ، وقد أصاب له الملك مائتى بعير فاستأذن له عليه وأنفعه عنده

(١) كمعظم ومحدث موضع بطريق الطائف فيه قبر ابى رغال دليل ابرهة ويرجم

بما استطعت فقال: افعلُ، فكلم أنيس أَبْرَهَةَ فقال له: أيها الملك هـذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عين مكة وهو يطعم الناس فى السهل والوحوش فى رؤس الجبال فأذن له عليك فليكلمك فى حاجتـه. قال: فأذن له ابرهة وكان عبد المطلب اوسم الناس وأجملهم وأعظمهم، فلما رآه ابرهة أجله وأعظمه وأكرمه عن أن يجلسه تحته وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه فنزل ابرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه الى جنبه، ثم قال لترجمانه قل له ماحاجتك؟ فقال له ذلك الترجمانُ فقال حاجتى أن يردّ علىّ الملك مائتى بعير أصابها لى، فلما قال له ذلك قال ابرهة لترجمانه قل له قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى. أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لاتكلمنى فيه. قال له عبد المطلب: أنا رب الابل وان للبيت رباً سيمنعه. قال: ما كان ليمتنع منى قال انت وذاك. وكان — فيما يزعم بعض أهل العلم — قد ذهب مع عبد المطلب الى ابرهة حين بعث اليه حناطة يعمر بن نفاثة بن عدىّ، ينتهى نسبه الى كنانة وهو يومئذ سيد بنى بكر، وخويلد بن واثلة الهذلىّ وهو يومئذ سيد هذيل، فعرضوا على ابرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت فابى عليهم فردّ ابرهة على عبد المطلب الابل التى أصاب له فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب الى قريش فاخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى شَعَفِ الجبال (١) والشعاب تخوفا عليهم من معرة الجيش (٢). ثم قام عبد المطلب فاخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على ابرهة وجنده. فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لاهُمَّ إنّ المرءَ يمنـــع حله فامنع حلالك (٣)

(١) الشعف بفتحتين جمع شعفة محركة وهى رأس الجبل، والشعاب جمع شعب بالكسر وهو الطريق وقيل الطريق فى الجبل (٢) المعرة: المساءة

(٣) العرب تحذف الالف واللام من اللهم وتكتفى بما بقى وكذلك تقول لاه ابوك تريد لله

لا يغلبنّ صليبهم ومحالهم أبداً محالك

ان كنتَ تاركهم وكعـ بتنا فأمر ما بدا لك

فلئن فعلتَ فانه أمر يتمُّ به فعالك

اسمع بأرجس ما أرا دوا العدوُّ وانتهكوا حلالك

جرّوا جميعَ بلادهم والفيل كي يسبوا عيالك

عمدوا حماكَ بكيدِهم جهلاً وما رقبوا جلالك

وقال عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف :

لاهُمَّ اخزِ الاسودَ بن مقصودْ الآخذَ الهَجْمة فيها التقليد [١]

بين حِراء وثَبيرٍ فالبِيد يحبسها وهي اولات التطريد [٢]

فضمها الى طماطمٍ سُود أخفِرْهُ يا ربِّ وأنتَ محمود [٣]

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة وانطلق هو ومن معه من قريش الى شَعَف الجبال فتحرزوا فيها ينتظرون ما يفعل أبرهة بمكة اذا دخلها ، فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله وعبى جيشه ، وكان اسم الفيل (محموداً) وأبرهة مجمع لهدم البيت ثم الانصراف الى اليمن . فلما وجهوا الفيل الى مكة أقبل نُفَيل بن حبيب حتى قام الى جنب الفيل ثم أخذ بأذنه فقال ابرك محمود وارجع راشداً من حيث جئتَ فانك فى بلد الله الحرام ، ثم أرسل أذنه فبرك الفيل [٤] . وخرج

ابوك ويقولون لاهنك أى والله انك وهذا لكثرة دور هذا الاسم على الالسنة وقد قالوا فيما هو دونه فى الاستعمال اجنك تفعل كذا أي من أجل أنك تفعل كذا وكذا والحلال فى هذا البيت القوم الحلول فى المكان والحلال مركب من مراكب النساء ، قال الشاعر : (بغير حلال غادرته مجحفل) والحلال أيضاً متاع البيت وجائز أن يستعيره ههنا (١) الهجمة مابين التسعين الى المائة من الابل والمائة منها هنيدة والمائتان هند ، والاسود بن مقصود صاحب الفيل

(٢) حراء وزان كتاب جبل بمكة ، وثبير : جبل بين مكة ومنى ، والبيد بالكسر جمع بيداء وهى الفلاة ، وفى الحديث أن قوماً يغزون البيت فاذا نزلوا بالبيداء بعث الله جبريل فيقول يابيداء أبيديهم فيخسف بهم أى أهلكيهم وهى هنا اسم موضع بعينه (٣) قوله اخفره أى انقض عزمه وعهده فلا تؤمنه ، وقوله الى طماطم سود يعني العلوج ويقال لكل اعجمى طمطمانى وطمطم

(٤) قال أبو القاسم السهيلي : فيه نظر لان الفيل لايبرك فيحتمل أن يكون بروكه سقوطه

نفيل بن حبيب يشتدّ حتى أصعد فى الجبل وضربوا الفيل ليقوم فأبى فضربوا رأسه بالطَبَرزين (١) ليقوم فأبى فأدخلوا محاجن (٢) لهم فى مراقه (٣) فبزغوه (٤) بها ليقوم فأبى فوجهوه راجعاً الى اليمن فقام يهرول (٥) ، ووجهوه الى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه الى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجهوه الى مكة فبرك ، فقال أبو الطيب مسعود فى ذلك ، وقيل : بل قاله عبد المطلب :

إنّ آياتِ ربّنا ساطعاتٌ ... لا يمارى بهنّ إلا الكفورُ (٦)

حبس الفيل بالمُغَمّس حتى ... مرّ يعوى كأنه معقورُ (٧)

فارسل الله تعالى عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف (٨) والبلسان (٩) مع كل طائر منها ثلاثة أحجار ، حجر فى منقاره وحجران فى رجليه أمثال الحمص والعدس لا تصيب منهم أحداً الا هلك . وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى جاؤا منه ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق الى اليمن . فقال نفيل حين رأى ما انزل الله تعالى بهم من نقمته .

اين المفرُّ والالهُ الطالِبُ ... والاشرمُ المغلوبُ ليس الغالب

الى الارض لما جاءه من أمر الله سبحانه ويحتمل ان يكون فعل فعل البارك الذى يلزم موضعه ولا يبرح فعبر بالبروك عن ذلك ، وقد سمعت من يقول أن فى الفيلة صنفاً منها يبرك كما يبرك الجمل فان صح والا فتأويله ما قدمناه

(١) ذكر البكري فى المعجم أن الاصل فيه طبرزين بفتح الباء وقال طبر هو الفأس

(٢) جمع محجن وزان مقود خشبة فى طرفها أعوجاج مثل الصولجان ، قال ابن دريد كل عود معطوف الرأس فهو محجن والجمع المحاجن (٣) قال فى القاموس ومراق البطن ما رق منه ولان جمع مرق أو لا واحد لها (٤) أى ادموه ومنه سمي المبزغ (٥) يسرع فى مشيه يقال هرول هرولة أسرع فى مشيه دون الخبب ولهذا يقال هو بين المشي والعدو وجعل جماعة الواو أصلاً

(٦) الآيات : العلامات وتجمع الآية على آى أيضاً ، وقوله ساطعات اى مرتفعات يقال سطع الغبار سطوعاً وسطيعاً ارتفع وكذا البرق والشعاع والصبح والرائحة ، وقوله لا يمارى أى لا يجادل ولا يخاصم (٧) المغمس كمعظم بطريق الطايف فيه قبر ابى رغال دليل ابرهة ويرجم

(٨) جمع خطاف وهو طائر معلوم (٩) طير من طيور الماء يسمى مالك الحزين وعبر عنه فى حياة الحيوان بلفظ بلشون

وقال أيضاً

الا حييتِ عنّا يا رُدَيْنا … نعمنا كم مع الاصباح عينا (١)
رُدَيْنةُ لو رأيتِ فلا تريه … لدى جنب المحصَّب مارأينا
اذاً لعذرتنى وحَمِدْتِ أمرى … ولم تأسَىْ على مافات بَيْنا (٢)
حَمِدتُ الله اذ أبصرت طيراً … وخفتُ حجارة تلقى علينا
وكلُّ القوم يَسْأَلُ عن نُفَيْلٍ … كأنَّ علىَّ للحبشان دَيْنا

فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك ، على كل مَنهل ، وأصيب ابرهة فى جسده ، وخرجوا به معهم يسقط انملةً انملةً (٣) حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون . ويروى أن أول مارؤيت الحصبة والجُدَرِىّ بارض العرب ذلك العام ، وانه أول ما رؤى بها مرائر الشجر (٤) الحرمل والحنظل . فلما رد الله تعالى الحبشةَ عن مكة وأصابهم بما أصابهم به من النقمة أعظمت العرب قريشاً ، وقالوا : أهل الله قاتل

(١) قوله ردينا اسم امرأة كانها سميت بتصغير ردنة وهى القطعة من الردن وهو الحرير، ويقال لمقدم الكم ردن مذكر وأما درينة بتقديم الدال فهو اسم الاحمق ، ونعمنا كم الخ دعاء أى نعمنا بكم فعدى الفعل لما حذف حرف الجر وهذا كما تقول أنعم الله بك عينا (٢) نصب بينا نصب المصدر المؤكد لما قبله اذ كان فى معناه ولم يكن على لفظه لان فات معنى فارق وبان كانه قال على مافات فوتاً أوبان بيناً ولا يصح لان يكون مفعولا من أجله يعمل فيه تأس لان الاسى باطن فى القلب والبين ظاهر ولا يجوز أن يكون المفعول من أجله الا بعكس هذا تقول بكى أسفا وخرج خوفا وانطلق حرصاً على كذا ولو عكست الكلام كان خلفاً من القول وهذا أحد شروط المفعول من أجله (٣) أى ينتثر جسمه والانملة طرف الاصبع ولكن قد يعبر بها عن طرف غير الأصبع والجزء الصغير (٤) يقال شجرة مرة ثم يجمع على مرائر كما تجمع حرة على حرائر ولا تجمع فعلة على فعائل الا فى هذين الحرفين والقياس فعل نحو درة ودرر ولكن الحرة من النساء فى معنى الكريمة والعقيلة ونحو ذلك فأجروها مجرى ماهو فى معناها من الفعيلة وكذلك المر قياسه أن يقال فيه مرير لان المرارة فى الشىء طبيعة فقياس فعله أن يكون فعل واذا كان قياسه فعل فقياس الصفة منه أن تكون على فعيل والانثى فعيلة والشىء المر عسير أكله شديد فاجروا الجمع مجرى هذه الصفات التى هى على فعيل لانها طباع وخصال وأفعال الطباع والخصال كلها تجرى هذا المجرى

الله عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم ، فقالوا فى ذلك اشعاراً يذكرون فيها ماصنع الله تعالى بالحبشة وما رد عن قريش من كيدهم فقال عبد الله بن الزبعرى :

تنكلوا عن بطن مكة إنها　　كانتْ قديماً لايُرام حريمُها (١)

لاتخلق الشِعرى ليالىَ حرمت　　إذْ لاعزيزَ من الأنام يرُومها (٢)

سائلْ أميرَ الجيش عنها ما رأى　　ولسوف يُنبى الجاهلينَ عليمُها

ستون ألفاً لم يؤبوا أرضَهم　　بل لم يعش بعد الاياب سقيمُها (٣)

كانت بها عادٌ وجُرْهُمُ قبلهم　　واللهُ من فوق العباد يقيمها

وقال أبو قيس صيفىّ بن الاسلت بن جشم بن وائل :

ومن صنعه يوم فيل الحبوش　　اذ كل ما بعثوه رزم (٤)

محاجنُهم تحت أقرابه　　وقد شرموا أنفهُ فانخرم

---

(١) الابيات من (الكامل) وقد دخل فى قوله تنكلوا الخ خرم ولايبعدان يدخل الخرم فى متفاعل فيحذف من السبب حرف كما حذف من الوتد فى الطويل حرف واذا وجد حذف السبب الثقيل كله فأحرى أن يجوز حذف حرف منه وذلك فى قول ابن مفرغ :

هامة تدعو صدى　　بين المشقر واليمامه

وهو من المرفل والمرفل من الكامل الا ترى ان قبله :

وشريت برداً ليتنى　　من بعد برد كنت هامه

فالمحذوف من الطويل اذا خرم حرف من وتد مجموع والمحذوف من الكامل اذا خرم حرف من سبب ثقيل بعده سبب خفيف قال السهيلى : ولما كان الاضمار فيه كثيراً وهو اسكان التاء من متفاعلن فمن ثم قال ابوعلى : لايجوز فيه الخرم لان ذلك يؤول الى الابتداء بساكن ، وهذا الكلام لمن تدبره بارد غث لان الكلمة التى يدخلها الخرم لمن يكن قط فيها اضمار نحو تنكلوا من بطن مكة والتى يدخلها الاضمار لايتصور فيها الخرم نحو لايبعدن قومى ونحو قوله لم تخلق الشعرى الخ فتعليله فى هذا الشعر اذاً لايفيد شيئاً وما ابعد العرب من الالتفات الى هذه الاغراض التى يستعملها بعض النحاة وهى أوهى من نسج الخدرنق (٢) ان كان ابن الزبعرى قال هذا فى الاسلام فهو منتزع من قول النبى صلى الله عليه وسلم ان الله حرم مكة ولم يحرمها الناس ومن قوله فى حديث آخر ان الله حرمها يوم خلق السموات والارض والتربة خلقت قبل خلق الكواكب وان كان ابن الزبعرى قال هذا فى الجاهلية فانما أخذه والله أعلم من الكتاب الذى وجدوه فى الحجر بالخط المسندحين بنوا الكعبة وفيه أنا الله رب بكة خلقتها يوم خلقت السموات والارض الحديث (٣) يعنى بقوله بعد الاياب سقيمها ابرهة اذ حملوه معهم حين أصابه ما أصابه حتى مات بصنعاء (٤) رزم : ثبت ولزم موضعه وأرزم من الرزيم وهو صوت ليس بالقوى وكذلك صوت الفيل ضئيل على عظم خلقته

وقد جعلوا سوطهُ مِغْوَلاً اذا يمموه قفاه كلم (١)
فولى وأدبر ادراجه وقد باءَ بالظلم من كان ثَمّ (٢)
فارسل من فوقهم حاصباً فلفهم مثل لف القُزُم (٣)
تحضُّ على الصبر أحبارُهم وقد ثأجوا كثؤاج الغنم (٤)

« وقال أيضاً »

فقوموا فصلوا ربكم وتمسحوا باركان هذا البيت بين الاخاشبِ (٥)
فعندكُمُ منه بلاءٌ مصدّق غداةَ أبي يكسوم هادى الكتائب (٦)
كتيبته بالسهل تمشي ورجله على القاذفاتِ في رؤس المناقب
فلما أتاكم نصرُ ذِى العرش ردَّهم جنودُ المليك بين ساف وحاصب (٧)
فولوا سِراعاً هاربين ولم يَؤُبْ الى أهله مِلْحَبْشِ غيرُ عصائب (٨)

وقال طالب بن أبي طالب بن عبد المطلب :

ألم تعلموا ما كانَ في حرب داحسٍ وجيش أبي يكسوم إذ ملؤا الشِعْبا
فلولا دفاعُ اللهِ لاشيء غيره لاصبحتمُ لاتمنعون لكم سَرْبا (٩)

وقال أمية بن أبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفي :

ان آياتِ ربِّنا ناقباتٌ لايمارى فيهن الا الكفور
خَلَقَ الليلَ والنهارَ فكلٌّ مستبينٌ حسابُهُ مقدور
ثم يجلو النهارَ ربٌّ رحيم بمَهاةٍ شُعاعها منشورُ (١٠)

(١) المغول كنبر حديدة تجعل في السوط فيكون لها غلافاً وشبه مشمل الا انه أدق وأطول منه ونصل طويل أو سيف دقيق له قفا (٢) يقال ادبر او رجع فلان ادراجه أى عاد من حيث جاء ، وباء رجع ، وثم بالفتح اسم يشار به بمعنى هناك للمكان البعيد ظرف لا ينصرف (٣) الحاصب : ريح تحمل التراب أو هو ماتناثر من دقاق الثلج والبرد والسحاب الذى يرمى بهما ، والقزم صغار الغنم ويقال رذال المال (٤) كثؤاج الغنم أى كصوت الغنم (٥) الاخاشب : جبال الصمان

(٦) ابو يكسوم كنية ابرهة والكتايب جمع كتيبة وهى الجيش أو الجماعة المتحيزة من الخيل أو غير ذلك ؛ والهادى المتقدم (٧) الساف الذى يرمى بالتراب ، والحاصب مر تفسيره قريباً

(٨) قوله لم يؤب أى لم يرجع وملحبش أى من الحبش (٩) السرب بالفتح المال الراعي والسرب بالكسر القطيع من البقر والظباء ومن النساء أيضاً (١٠) المهاة : الشمس سميت بذلك لصفائها والمها

حبس الفيل بالمُغَمَّس حتى ظلّ يحبو كأنه معقور

لازماً حلقة الجِران كما قط ر من صخر كبكب محدور [١]

حولهُ من ملوكِ كِنْدَةَ ابطا لٌ ملاويثُ فى الحروب صقور [٢]

خلفوه ثم ابذَعَرّوا جميعاً كلهم عظمُ ساقِهِ مكسور [٣]

كل دين يوم القيمة عند الل هِ الا دين الحنيفة بُورُ [٤]

وقال الفرزدق يمدح سليمان بن عبد الملك ويهجو الحجاج بن يوسف :

فلما طَغَى الحجاج حين طغى بهِ عنا قال انى مرتقٍ فى السلالم [٥]

فكان كما قال ابنُ نوح سأرتقى الى جبلٍ من خشية الماء عاصم [٦]

رمى الله فى جثمانه مثلَ مارمى عن القبلة البيضاء ذاتِ المحارم

جنودٌ تسوقُ الفيل حتى أعادهم هباءً وكانوا مُطْرَخِمّى الطراخم [٧]

نصرت كنصر البيت اذساقَ فيلَهُ اليه عظيم المشركين الاعاجم

وقال عبد الله بن قيس الرقيات أحد بنى عامر بن لؤى بن غالب يذكر ابرهة والفيل :

كادَهُ الاشرمُ الذى جاء بالفِ يل فولّى وجيشه مهزوم

واستهلت عليهم الطير بالجَنْ دَلِ حتى كأنَّهُ مرجوم [٨]

ذاكَ من يغزُهُ من الناس يرجع وهو فلٌّ من الجيوش ذميم

من الاجسام الصافى الذى يرى باطنه من ظاهره ، والمهاة البلورة ، والمهاة الظبية (١) الجران العنق يريد القى بجرانه الى الارض وهذا يقوى انه برك الانزاء يقول كما قطر من صخر كبكب وهو جبل محدور أى حجر حدر حتى بلغ الارض (٢) الملاويث والملاوث جمع ملاث وهو الملاذ السيد الشريف لان الامر يلاث به ويعصب أى تقرن به الامور وتعقد (٣) ابذعروا : تفرقوا من ذعر وهى كلمة منحوتة من أصلين من البذر والذعر (٤) يريد بالحنيفة الامة الحنيفة أى المسلمة التى على دين ابراهيم الحنيف صلى الله عليه وسلم وذلك انه حنف عن اليهودية والنصرانية أى عدل عنها فسمى حنيفاً أو حنف عما كان يعبد آباؤه وقومه (٥) السلالم جمع سلم كسكر المرقاة وقد تذكر وتجمع على سلاليم ايضاً (٦) ابن نوح اسمه يام وقيل كنعان ، وعاصم اسم فاعل عصمه اذا حفظه وحماه (٧) المطرخم الممتلىء كبراً أو غضباً والطراخم جمع مطرخم (٨) بالجندل كجعفر مايقله الرجل من الحجارة وتكسر الدال ، ومرجوم الرجم القتل والقذف والطرد ورمي بالحجارة

فلما هلك ابرهة ملك الحبشة ابنه يكسوم بن ابرهة وبه كان يكنى ، فلما هلك يكسوم بن ابرهة ملك اليمن فى الحبشة أخوه مسروق بن ابرهة فلما طال البلاء على أهل اليمن خرج سيف بن ذى يزن الحميرى وكان يكنى بابى مرة فانتزع ملك اليمن من أيديهم بمعاونة كِسْرَى وقد عدت قصة الفيل من آيات الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانه كان فى زمانه حملا فى بطن أمه بمكة لانه ولد بعد خمسين يوما من الفيل وبعد موت ابنه فى يوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الاول ووافق من شهور الروم العشرين من شباط فى السنة الثانية عشر من ملك هرمز ابن انوشروان . وحكى أبو جعفر الطبرى : ان مولده كان لاثنين واربعين سنة من ملك انوشروان فكانت آيته فى ذلك من وجهين . أحدهما : انهم لوظفِروا لسبوا واسترقوا فاهلكهم الله لصيانة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ان يجرى عليه السبى حملا ووليداً . والثانى : أنه لم يكن لقريش من التأله مايستحقون به دفع أصحاب الفيل عنهم ، وماهم أهل كتاب لانهم كانوا ابين عابدصنم ، أومتدين وثن ، أوقائل بالزندقه ، أومانع من الرجعة ، ولكن لما اراده الله تعالى من ظهور الاسلام تأسيساً للنبوة ، وتعظيماً للكعبة ، انْ يجعلها قبلة للصلوة ، ومنسكا للحج ولما انتشر فى العرب ماصنع الله تعالى بجيش الفيل تهيبوا الحرم ، واعظموه وزادت حرمته فى النفوس ، ودانت لقريش بالطاعة ، وقالوا : أهل الله قاتل عنهم وكفاهم كيد عدوهم ، فزادوهم تشريفا وتعظيماً . وقامت قريش لهم بالوفادة والسدانة والسقاية على ماسبق فصاروا أئمةً ديانين ، وقادة متبوعين وصار أصحاب الفيل مثلاً فى الغابرين . وروى هشام بن محمد الكلبى عن ابيه ان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه خرج فى الجاهلية تاجراً الى الشام فمر بزنباع بن روح وكان عشاراً فاساء اليه فى اجتيازه واخذ مكسه ، فقال عمر بعد انفصاله :

متى أَلْقَ زنباعَ بن روح ببلدة ... الى النصف منها يقرع السن بالندم
ويعلم أنّا من لوى بن غالب ... مطاعينُ فى الهيجامضاريب فى البهم

فبلغ ذلك زنباعاً فجهز جيشاً لغزو مكة فقيل له إنها حرم الله ما أرادها أحد بسوء الا هلك كأصحاب الفيل فكف زنباع فقال :

تمنّى أخو فِهرٍ لقاى ودونه ... قراضبةٌ مثلُ الليوث الخواطر (١)
فواللهِ لولا الله لاشيء غيره ... وكعبته راقتْ اليكم معاشرى
لاقتُلُ منكم كل كَهْلٍ مُعَمَّمٍ ... وأسبى نساء بين جمع الاباعر

فبلغ ذلك عمر رضوان الله تعالى عليه فاجابه وقال :

ألم ترَ أنَّ الله أهلكَ من بغى ... علينا قديماً فى قديم المعاشر
وأردى أبا يكسومَ أبْرَهَةَ الذى ... أتانا مغيراً كالفَنيق المخاطر (٢)
بجمع كثير يُخرجُ العين وسطه ... على رأسه تاجٌ على رأس باكر
فما راعنَا من ذلك العبد كيده ... وكنا به من بين لاهٍ وساخر
وقال سأبغى البيتَ هدماً ولا أرى ... بمكةَ ماش بين تلك المشاعر (٣)
فردّاه رب العرش عنا رداءه ... ولم ينجه اعظامه بالمرائر
فاهلكه والتابعين له معاً ... وأسرى به من ناصر ومسامر
وليس لنا فاعلم وليس لبيتنا ... سوى اللهِ من مولى عزيز وناصر
فدونكَ زُرْنا تلقَ مثلَ الذى لقوا ... جميعهم من دارعين وحاسر

وكان شأن الفيل رادعا لكل باغ ، ودافعاً لكل طاغ ، وقد عاصر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى زمن نبوته وبعد هجرته جماعة شاهدوا الفيل ، وطير الابابيل (٤) ، منهم حكيم بن حزام ، وحاطب بن عبد العزى ، ونوفل بن معاوية ، لان كل واحد من هؤلاء عاش مائة وعشرين سنة منها ستين سنة فى الجاهلية ، وستين سنة فى الاسلام .

---

(١) القراضبة : اللصوص الواحد قرضوب وقرضاب (٢) الفنيق الفحل المكرم لايؤذى لكرامته على أهله ولا يركب (٣) المشاعر : مواضع المناسك والمشعر الحرام جبل بآخر مزدلفة واسمه قزح وميمه مفتوحة على المشهور وبعضهم يكسرها على التشبيه بالآلة (٤) فرق جمع بلا واحد

سؤال وجواب

ان سأل سائل لم كان حبس الفيل فى زمان الجاهليـة عن مكة من الافساد والالحاد فيها ، ولم يمنع الحجاج بن يوسف الثقفى فى زمان الاسلام عنهـا ، وقد نصب المنجنيق [1] على الكعبة وأضرمها بالنار ، فقال فيها على ما حكى عنه :

كيف تراه ساطعاً [2] غبارُه   والله فيما يزعمون جارُه

وقال راميها بالمنجنيق :

قطارة مثل الفنيق المزبد   أرمى بها أعواد كل مسجد

وسفك فيهـا الدم الحرام ، وقتل عبد الله بن الزبير وأصحابه فى المسجد ، وكيف لم يحبس عنها القرامطة ، وقدسلبوا الكعبة ، ونزعوا حليتها وقلعوا الحجر ، وقتلوا العالم من الحاج وخيار المسلمين بحضرة الكعبة ؟

(الجواب) ان حبس الفيل فى الجاهلية كان علماً لنبوة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وتنويهاً بذكر آبائه اذ كانوا عمّار البيت وسكان الوادى فكان ذلك الصنيع ارهاصاً [3] للنبوة وحجة عليهم فى اثباتها فلو لم يقع الحبس عنها والذب عن حريمها لكان فى ذلك أمران ، أحدهما : فناء أهل الحرم وهم الآباء والاسلاف لعامة المسلمين ، ولكافة من قام به الدين . والآخر : ان الله سبحانه أراد أن يُقيم به الحجة عليهم فى اثبات نبوة رسوله عليـه الصلاة والسلام ، وأن يجعله مقدمة لكونها وظهورها فيهم ، وكان مولد رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم عامئذ

---

(١) معرب من جه نيك أى ماجودنى أو اناشىء جيدلانه لايجتمع الجيم والقاف فى كلة عربية غير اسم صوت بكسر الميم كما فى القاموس وضبطه ابو منصور بفتحها آلة رمى الحجارة كالمنجنوق ومنجليق لغات فيه معربة وقيل الاقرب انه معرب منجل نيك ومنجل مايفعل بالحيل وميمه زائدة وقيل اصليه ويدل على الاول قول بعض العرب كانت بيننا حروب عون تفقأ فيها العيون مرة بمنجنيق واخرى بوثيق ، وقيل النون زائدة والميم اصلية وعكسه وقيل هما أصليتان وقيل زائدتان كما فصل فى التعريف كما فى شفاء العليل (٢) أى مرتفعاً (٣) الارهاص: الاثبات يقال ارهص الشىء اذا اثبته وأسسه وهو مجاز ومنه ارهاص النبوة

وكانوا قوما عرباً أهل جاهلية ليست لهم بصيرة فى العلم ، ولا تقدمة فى الحكمة ، وانما كانوا يعرفون من الامور ما كان دركه من جهة الحس والمشاهدة ، فلو لم يجر الامر فى ذلك على الوجه الذى جرى لم يكن يبقى فى أيديهم شىء من دلائل النبوة تقوم به الحجة عليهم فى ذلك الزمان . فاما وقد أظهر الله الدين ورفع أعلامه ، وشرح أدلته وأكثر أنصاره ، فلم يكن ماحدث عليها من ذلك الصنيع أمراً يضر بالدين ، أو يقدح فى بصائر المسلمين ، وانما كان ما حدث منه امتحانا من الله سبحانه لعباده ليبلوَ فى ذلك صبرَهم واجتهادَهم وليقيلهم من كرامته ومغفرته ماهو أهل التفضل به ، والله يفعل ما يشاء وله الخلق والامر تبارك الله رب العالمين .

وما ذكرناه نبذةٌ يسيرة مما كان عليه البلد الحرام ، وبقيت ابحاثٌ يضيق عنها نطاق الارقام ، فان أردتَ زيادةً على ما ذكرنا فعليك (بشفاء الغرام ، باخبار البلد الحرام) لابى الطيب محمد المكى المالكى عليه رحمة الملك العلام ، وكذلك تاريخ مكةَ للامام الازرقى عليه الرحمة فان فيهما البغية [1] لمن أراد الوقوف التام على أحوال مكة المكرمة .

أسواق العرب أيام الجاهلية

كان للعرب أسواق يقيمونها فى شهور السنة وينتقلون من بعضها الى بعض ويحضرها سائر العرب بما عندهم من المآثر والمفاخر . منها (دُومة الجندل) كانوا ينزلونها أولَ يوم من ربيع الاول يجتمعون فى أسواقها للبيع والشراء ، والأخذ والعطاء ، وكانت المبايعة فيه ببيع الحصاة ، وهو من بيوع الجاهليـة التى أبطلها الاسلام وفسر بان يقول أحد المتبايعين للآخر ارْمِ هـذه الحصاةَ فعلى أى ثوب وقعت فهولك بدرهم ، وفسر بان يبيعه من أرضه قدر ما انتهت اليه رمية الحصاة ، وفسر بان يقبض على كف من حصى ويقول لى بعـدد ما خرج فى القبضة من الشىء المبيع أو يبيعه سلعة ويقبض على كف من الحصى ويقول لى بكل حصاة

(١) بالكسر الحاجة التى تبغيها ، وضمها لغة وقيل بالكسر الهيئة و بالضم الحاجة

درهم ، وفسر بان يمسك أحدهما حصاة فى يده ويقول أى وقت سقطت الحصاة وجب البيع ، وفسر بان يتبايعا ويقول أحدهما اذا نبذت اليك الحصاة فقدوجب البيع ، وفسر بان يعترض القطيع من الغنم فيأخذ حصاة ويقول أى شاة أصابتها فهى لك بكذا . وهذه الصور كلها فاسدة لما تتضمن من أكل المال بالباطل ومن الغرر والخطر الذى هو شبيه بالقمار ، ولذلك أبطلتها الشريعة . وكان أُكَيْدِر صاحب دُومة الجندل يرعى الناس ويقوم بامرهم أول يوم فتقوم سوقهم الى نصف الشهر ، وربما غلب على السوق بنو كلب فيعشوهم ويتولى أمرهم يومئذ بعض رؤساء بنى كلب فتقوم سوقهم الى آخر الشهر . ومنها (سوق هَجَر) بفتح الهاء والجيم اسم لجميع أرض البحرين ومنه المثل « كمبضع تمر الى هجر » . وقول عمر رضى الله تعالى عنه « عجبت لتاجر هجر » كأنه اراد لكثرة وبائه أولركب البحر . وسمى بهذا الاسم بلد باليمن بينه وبين (عَثَر) يوم وليلة مذكر مصروف وقد يؤنث والنسبة هجرى وهاجرى والسوق الموضع الاول كانوا ينتقلون اليها فى شهر ربيع الآخر فتقوم سوقهم بها ، وكان يعشوهم ويتولى امرهم المنذر بن ساوى احد بنى عبد الله بن دارم . ومنها (سوق عُمان) كغراب . ذكر فى القاموس انها بلد باليمن ويصرف وكشداد بلد بالشام ولم يذكر الموضع الذى كان سوقا ، وهو فى أرض البحرين كانوا يرتحلون من سوق هجر فتقوم بها سوقهم الى أواخر جمادى الاولى ، ومنها (سوق المشقّر) كمعظم حصن بالبحرين كان فيه سوق للعرب تقوم من أول يوم من جُمادى الآخرة ، وكان بيعهم بالملامسة والايماء والهمهمة خوف الحلف والكذب . والهمهمة : الكلام الخفى وكل صوت معه بحح . وبيع الملامسة على أوجه وهى : أن يأتى بثوب مطوى أوفى ظلمة فيلمسه المستام فيقول له صاحب الثوب : بِعْتُكَهُ بكذا بشرط أن يقوم لمسك مقام نظرك ولاخيارَ لك اذا رأيته . الوجه الثانى : ان يجعلا نفس اللمس بيعاً بغير صيغة زائدة . الوجه الثالث : ان يجعلا اللمس شرطاً فى قطع خيار المجلس وغيره ، وهو أيضاً من البيوع التى ابطلها

الاسلام كبيع المنابذة وهو ان يجعلا نفس النبذ بيعاً كما تقدم فى الملامسة ، اوان يجعلا النبذ بيعاً بغير صيغة ، أوان يجعلا النبذ قاطعاً للخيار ومنها (سوق صُحار) بضم الصاد المهملة تقوم لعشر يمضين من رجب الفرد خمسة أيام . ومنها (الشحر) كالمنع ساحل البحر بين عمان وعدَن ويكسر تقوم فى النصف من شعبان ، وكان بيعهم فى هذه السوق أيضاً برمى الحصاة والقاء الحجارة كما فى سوق دومة الجندل . ومنها (سوق عدَن أبْيَن) كانوا يرتحلون من الشحر فينزلون هذا الموضع ، وعدن جزيرة فى اليمن أقام بها (أبْيَن) فنسبت اليه فتقوم سوقهم بها الى أيام من رمضان فتشترى التجارات وأنواع الطيب . ومنها (سوق صنعاء) كانوا اذا ارتحلوا من عدَن والشحْر تقوم سوقهم بصنعاء فى النصف من شهر رمضان الى آخره وصنعاء من أطيب بلاد اليمن ، ومنها كان يجلب الأدَم [1] والبرود ، وكانت تجلب اليها من معافر وهو بلد كان فى اليمن ، وقد تقدم بعض الكلام على صنعاء . ومنها (سوق حضرموت) كانت تقوم فى النصف من ذى القعدة يحضرها بعض القبائل من العرب والبعض منهم يحضر سوقاً أخرى تقوم فى هذه الايام أيضا سيأتى ذكرها . ومنها (سوق ذى المجاز) كانت بناحية عرَفه الى جانبها ، وعند الازرقى من طريق هشام بن الكلبي انها كانت لهذيل على فرسخ من عرفة ، ووهم هنا صاحب الصحاح فانه قال فيه ذو المجاز موضع بمنى كان به سوق فى الجاهلية لما رواه الطبرانى عن مجاهد أنهم كانوا لا يبيعون ولا يبتاعون فى الجاهلية بعرفة ولا بمنى ومنها (سوق مجنة) بفتح الميم وكسرها موضع قرب مكة ، وهو الذى عناه بلال رضى الله تعالى عنه بقوله متشوقا اليه بعد الهجرة :

وهل اردن يوما مياه مجنة ⁂ وهل يبدون لى شامة وطفيل

كانت تقوم سوقهم فيها قرب أيام موسم الحج . ويحضرها كثير من قبائل

---

(١) بفتحتين وبضمتين أيضاً جمع أديم وهو الجلد المدبوغ ، والبرود جمع برد بالضم وهو ثوب مخطط وكساء يلتحف به

العرب . ومنها (سوق حُباشة) بضم الحاء المهملة وتخفيف الموحدة وبعد الف شين معجمة . كانت فى ديار بارق نحو (قَنُونا) بفتح القاف وبضم النون الخفيفة وبعد النون الف مقصورة من مكة الى جهة اليمن ، ولم تكن من مواسم الحج ، وانما كانت تقام فى شهر رجب . ومنها (سوق عُكاظ) بضم المهملة وتخفيف الكاف وآخر ظاء معجمة بالصرف وعدمه . قال اللحيانى : الصرف لأهل الحجاز وعدمه لغة تميم . وهو موسم معروف للعرب بل كان من أعظم مواسمهم وأسواقهم وهو نخل فى وادٍ بين نخلة والطائف وهو الى الطائف أقرب بينهما عشرة أميال ، وهو وراء (قَرَن المنازل) بمرحلة من طريق صنعاء اليمن ، وكان المكان الذى يجتمعون فيه منه يقال له الابتداء ، وكانت هناك صخور يطوفون حولها ، وكانوا يتبايعون فيها ويتعاكظون[1] ويتفاخرون ويتحاجون ، وتنشد الشعراء ما تجدد لهم وقد كثر ذلك فى أشعارهم كقول حسان :

سأنشرُ إنْ حييتُ لهم كلاماً   ينشّر فى المجامع من عُكاظِ

وفيها كان يخطب كل خطيب مِصْقَع . ومنهم قُسّ بن ساعدة الأيادىّ إذ خطب خطبته الشهيرةَ هناك وهو على جمله الأورق ، وفيها علقت القصائد السبع الشهيرة افتخاراً بفصاحتها على من يحضر الموسم من شعراء القبائل الى غير ذلك وكان كل شريف انما يحضر سوق بلده الاّ سوق عكاظ فانهم كانوا يتوافون بها من كل جهة فكان يأتيها قريش وهوازن وسليم والاحابيش وعقيل والمصطلق وطوائف من العرب . ومن كان له أسيرٌ سعى فى فدائه ، ومن كانت له حكومة ارتفع الى الذى يقوم بأمر الحكومة . وكان الذى يقوم بأمر الحكومة فى هذه السوق أناس من بنى تميم ، وكان أحدهم الأقرع بن حابس . ولما كانت هذه السوق مجمع القبائل قال طَريف بن تميم العنبرىّ :

أوَكلما وردتْ عُكاظَ قبيلة   بعثوا الىَّ عَريفَهم يتوسَّمُ[2]

(١) أى يتفاخرون (٢) العريف : رئيس القوم لانه عرف بذلك أو النقيب وهو دون

فتوسمونى إِننى أنا ذلكُمْ ... شاكى سلاحى فى الحوادث مُعْلَمُ (١)

تحتى الأغرُّ وفوق جلدى نَثْرَةٌ ... زغف تردُّ السيف وهو مثلم (٢)

حولى اسيد والهجيم ومازنٌ ... وإِذا حللت فحول بيتى خَضَّم (٣)

ولكل بكرىّ لدىّ عداوةٌ ... وأبو ربيعةَ شانئٌ ومحلّم

وطَرِيف هذا كان من مشاهير شجعان العرب وفرسانهم قتل مرة رجلا من بنى شيبان ثم حضر ذلك الموسم فأمعن فيه النظر بعض أقارب ذلك المقتول. فسأله طريف عن السبب فقال : أُريد أَنْ أعرفك فلعلى أصادفك يوماً لأقتلك أو تقتلنى ، فانشد طريف تلك الابيات . وقد صادف ذلك الرجل طريفاً فى يوم من أيامهم فقتله وأخذ منه ثار قريبه ، وكانت بعكاظ وقائع مرة بعد مرة ، ولذلك يقول دريد بن الصمة .

تغيبتُ عن يومَىْ عُكاظَ كِليْهما ... وإِنْ يكُ يومٌ ثالثٌ اتغيَّبُ

وان يكُ يومٌ رابع لاا كن به ... وان يك يوم خامس اتجنَّبُ

وذكر أبو عبيدة انه كان بعكاظ أربعة أيام : يوم شمطة ويوم العبلاء ويوم شرب ويوم الحريرة ، وهى كلها من عكاظ قال : «فشمطة» من عكاظ هو الموضع الذى نزلت فيه قريش وحلفاؤها من بنى كنانة بعد يوم نخلة ، وهو أول يوم اقتتلوا فيه من أيام الفجار بحول على ماتواعدت عليه مع هوازن وحلفائها من ثقيف وغيرهم فكان يوم شمطة لهوازن على كنانة وقريش ولم يقتل من قريش أحد يذكر ، واعتزلت بكر بن عبد مناة بن كنانة الى جبل يقال له (رخم) فلم يقتل منهم أحد ، وقال خداش بن زهير :

الرئيس ، والتوسم التخيل والتفرس وإنما كان يتوسمه لان فرسان العرب اذا كان ايام عكاظ فى الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضاً تقنعوا حتى لا يعرفوا (١) شاكي السلاح : ذوشوكة وحد فى سلاحه ، واعلم نفسه وسمها بسيما الحرب (٢) الزغفة وقد يحرك : الدرع اللينة الواسعة المحكمة الرقيقة الحسنة السلاسل ، درع زغف ودروع زغف أيضاً ، والنثرة : الدرع السلسة الملبس أو الواسعة (٣) خضم كبقم الجمع الكثير من الناس

فابلغ ان بلغت به هشاماً   وعبدَ الله ابلغ والوليدا [١]
بانا يوم (شمطة) قد اقمنا   عمودَ الدين إنَّ له عمودا

ثم التقى الاحياء المذكورون على رأس الحول من شمطة « بالعبلاء » الى جنب عكاظ ، فكان لهوازن أيضاً على قريش وكنانة . قال خداش بن زهير :

ألم يبلغكمُ انّا جدَعنا   لدى العبلاء خِندفَ بالقيادِ
ضربناهم ببطن عكاظَ حتى   تولّوا طالعينَ من النجاد

ثم التقوا على رأس الحول وهو اليوم الرابع من يوم نخلة « بشرب » وشرب من عكاظ ، ولم يكن بينهم يوم أعظم منه فحافظت قريش وكنانة وقد كان تقدم لهوازن عليهم يومان ، وقيد أبوسفيان وحرب ابنا أمية وأبو سفيان بن حرب أنفسهم . وقالوا لايبرح منا رجل مكانه حتى يموت أو يظفرَ ، فانهزمت هوازن وقيس كلها الآ بنى نصر فانها صبرت مع ثقيف ، وذلك ان (عكاظ) بلدهم لهم فيه نخل واموال فلم يغنوا شيئاً ، ثم انهزموا وقتلت هوازن يومئذ قتلا ذريعاً .
قال أمية بن اسكر الكنانى :

الاسائلْ هوازن يوم لاقوا   فوارسَ من كنانة معلمينا [٢]
لدى شرب وقد جاشوا وجشنا   فاوعب فى النفير بنوابينا [٣]

وقال

قومى اللذُو بعكاظ طيروا شرراً   من روس قومك ضرباً بالمصاقيل [٤]

---

(١) حذفت نون التوكيد من ابلغن للضرورة ومثله قول الشاعر :

ياراكباً بلغ اخواننا   من كان من كندة أو وائل

وقول الآخر

إن ابن احوص مغرور فبلغه   فى ساعديه اذا رام العلى قصر

ولا يجوز مثل هذا فى سعة الكلام الاشاذا نحو قراءة ابى جعفر المنصور الم نشرح لك صدرك بفتح الحاء .

(٢) المعلم الذى أعلم نفسه أى وسمها بسيما الحرب (٣) أوعب القوم اذا حشدوا (٤) الشرر بفتحتين هوا ما جمع شررة وهو ماتطاير من النار، وكذلك الشرار والشرارة واما مصدر شررت يارجل بفتح الراء وكسرها شراً وشرراً وشرارة من الشر نقيض الخير، وقوله من روس قومك بحذف

ثم التقوا على رأس الحول « بالحَرِيْرَة » وهى حرة الى جنب عكاظ مما يلى مهب جنوبها فكان لهوازن على قريش وكنانة . وكانت تقوم هذه السوق فى قول أول ذى القعدة الى عشرين منه ثم يتوجهون الى مكة فيقفون بعرفات ويقضون مناسك الحج ثم يرجعون الى أوطانهم . وفى قول آخر : انهم كانوا يقيمون به جميع شوال الى غير ذلك من الاقوال المختلفة ، ولعل ذلك لاختلاف العادة فى السنين أو لاختلاف القبائل فى الاقامة فى هذا الموسم . والذى عليه صاحب قبائل العرب انهم كانوا يقيمون فى هـذه السوق من نصف ذى القعدة الى آخره فاذا أهل ذو الحجة أتوا (ذا المجاز) وهو قريب من عكاظ على ماسبق فتقوم سوقه الى التروية وهو اليوم الثامن من ذى الحجة سمى بيوم التروية لانهم كانوا يرتوون فيه من المـاء لما بعـد ، أو لانّ ابرهيم عليه السلام كان يتروى ويتفكر فى رؤياه فيه ، وفى التاسع عرف وفى العاشر استعمل ، ثم يصيرون الى منى وتقوم سوق (نطاة) بخيبر ونطاة عين أو حصن بخيبر . وسوق (حَجْر) بفتح المهملة وسكون الجيم يوم عاشوراء الى آخر المحرم . ولم تزل هذه الاسواق قائمة فى الاسلام الى أن كان أول ماترك منها سوق عكاظ فى زمن خروج الخوارج الحروية بمكة مع المختار بن عوف سنة تسع وعشرين ومائة فنهبوها فتركت الى الآن ، واتخذت سوقا بعد الفيل بخمس عشرة سنة وكان آخر ماترك من الاسواق المذكورة سوق (حُباشة) فى زمن داود بن عيسى بن موسى العباسى فى سنة سبع وتسعين ومائة . والله أعلم بحقائق الامور .

مجتمعات العرب فى جاهليتهم

أما المجتمعات فى غير الاسواق فهى كثيرة الانواع والاقسام لايمكن استيعابها

الهمزة من رؤس ، والمصاقيل جمع مصقول من الصقل وهو جلاء الحديد وتحديده أى جعله قاطعاً اراد كل آلة حديد من السلاح مثل السيف والسنان وفي البيت شاهد على أن النون تحذف من الذون

فى مثل هذا المقام . منها ما كان لمحض الانس ، وتنشيط الانفس ، وذكر ماسلف لهم من الحروب والوقائع ، وتناشد الشعر والقريض ونحو ذلك من الكلام الذى تبتهج له الطبائع . وهذا الحال لا يكون غالباً الا فى الليال ، وبعد الاستراحة واستقرار البال ، كما يدل عليه لفظ المسامرة فان السمر هو التحدث فى الليل والمحاورة . ولله در العرب ، فقد كان لهم من دقيق الفكر مايوجب العجب ، فان النهار ولاسيما فى الغدوّ وهو وقت السعى وطلب المعاش وزمان قضاء مصلحة وتكسب وانتعاش ، وهم كانوا يسعون فيه بما لهم من المصالح والاشغال ، ولا يقضونه فى اللهو والبطالة والقيل والقال ، وهذا بعكس ماعليه أهل زماننا من قبيح العوائد ، فتراهم يقضون نفائس الاوقات فى كل ماعرى عن الفوائد ، ولذلك تأخروا فى الفضائل ، وحرموا والامر لله تعالى من الصفات الجليلة وجميل الشمائل . وأما العرب الاولون فقد ملؤا بطونَ الدفاتر ، بما كان لهم من المفاخر والمآثر ، وكانوا يتحلقون اذا اجتمعوا من النادى فى طرف ، وربما كان وسط الحلقة من ينتهى اليه الشرف ، واذا أراد أحدهم ذكر حادث غريب ، والقاء كلام عجيب ، قام وتلاه على القوم كما يفعل الخطيب ، واذا حدث شخص آخر مسّ لحيته فى اثناء مخاطبته ، وتناولها بيده فى حال محاورته ، وذلك شكل من أشكال العرب وعادة من عاداتهم ، يفعل الرجل ذلك بصاحبه اذا حدثه ويجرى ذلك مجرى الملاطفة من بعضهم لبعض فى معتقداتهم كما نبه على ذلك الخطابى فى شرح السنن .

« ومنها » ما كان للمذاكرة والمشاورة فى تدارك حرب أو اغارة على قوم آخرين فانهم لا يتحركون حركة فى ذلك الا بعد أن يجتمع أهل الحل والعقد فى محل مخصوص كقبة ينصبها لهم من تكفل بأمرها لأجل ذلك كما أشرنا اليه سابقاً ، وعند الاجتماع تدور بينهم أقداح المذاكرة فما يستقر عليه الرأى يعمل بموجبه ولا يتخلف أحد عنه . « ومنها » ما كان لأجل الحكومة وفصل الدعاوى والمنازعات التى كانت تقع بينهم كما كانوا يجتمعون فى دار الندوة وهى دار قُصىّ

ابن كلاب وهو الذى بناها وجعل بابها الى مسجد الكعبة ؛ وفيها كانت قريش تقضى أمورها تيمناً بأمر قصىّ ، فما تنكح امرأةٌ ولا يتزوج رجل من قريش ولا يتشاورون فى أمر نزل بهم ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلا فيها يعقده لهم بعض ولد قصىّ ، وما تدرع جارية من قريش إذا بلغت أن تدرع إلا فى داره يشق عليها فيها درعها ثم تدرعه ، ثم ينطلق بها الى أهلها . وكان لا يعذر غلام الا فيها ، (١) ولا تنفصل خصومة بينهم الا هناك . قال الكلبى : وهى أول دار بنيت بمكة ثم تتابع الناس فبنوا من الدور ما استوطنوه ، وكلما قربوا من عصر الاسلام ازدادوا قوةً وكثرةَ عددٍ حتى دانت لهم العرب وصار أمر قصىّ فى قريش كالدين المتبع . وسميت الندوة لانهم كانوا ينتدون فيها أى يجتمعون للخير والشر . وفى القاموس النادى والندوة والمنتدى مجلس القوم نهاراً أو المجلس ماداموا مجتمعين فيه . وكانت لقريش أندية حول الكعبة يجتمعون فيها كما فى السيرة الهشامية ويتذاكرون فى أمور تخصهم . وكان عبد المطلب يجلس فى ظل الكعبة على فراش معدّ له لا يجلس عليه أحد غيره احتراماً له واجلالا لقدره . وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يجلس وهو صغير بجنب جده ولا يدع أحداً يمنعه . وكان يقول : سيكون لا بنى هذا شأن فكان كما قال بل فوق ما كان يتصوره ويرجوه .

« ومنها » ما كان لطلب مثوبة واتعاظ بوعظ كما كانت قريش فى الجاهلية تجتمع الى كعب بن لؤىّ بن غالب وهو جدّ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم السابع فى كل جمعة فيخطب فيه على قريش فيقول على ماحكاه الزبير بن بكار : أما بعد فاسمعوا وافهموا وتعلموا واعلموا . ليلٌ داج (٢) ونهار صاح ، والأرض مهاد ، والسماء بناء ، والجبال أوتاد ، والنجوم أعلام ، والأولون كالآخرين ،

(١) عذر الغلام والجارية من باب ضرب ختنه فهو معذور واعذرته بالالف لغة
(٢) أى مظلم

فصِلُوا أرحامكم ، واحفَظوا أصهاركم ، وثمروا أموالكم ، فهل رأيتم من هالكٍ رجع أو ميت انتشر ، والدار أمامكم ، والظن غير ما تقولون . وكان يذكرهم بمبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ويعلمهم بأنه من ولده ويأمرهم باتباعه ، ويقول : زينوا حرمكم وعظموه ، فسيأتى له نبأ عظيم ، وسيخرج منه نبى كريم ، ثم ينشد :

نهارٌ وليل كل أوْبٍ نجاذب   سواءٌ علينا ليلها ونهارُها

يؤوبانِ بالأحداث حينَ تأوبا   وبالنعم الضافى علينا ستورُها

صروف وأبناء تقلب أهلها   لها عقدٌ ما يستحل مريرها

على غفلةٍ يأتى النبى محمدٌ   فيخبر أخباراً صدوقاً خبيرها

ثم يقول : أما والله لئن كنت فيها ذا سمع وبصر ويدٍ ورجل لتنصبت فيها تنصب الجمل ، ولأرقلت فيها أرقال [1] الفحل ، ثم يقول :

ياليتنى شاهد نجواء دعوته   حينَ العشيرة تبغى الحقَّ خذلانا

وهذا من فطن الالهامات التى تخيلتها العقول فصدقت ، وتصورتها النفوس فتحققت ، ويقال : هو الذى سمى يوم العَرُوبة يوم الجمعة . وهو أول من نقلها الى ماهو المتداول ، لاجتماع الناس اليه فى كل جمعة . وقد كانت العرب العاربة تسمى أيام الأسبوع بأسماء غير هذه الأسماء المتداولة بين الناس اليوم . وكانوا يسمون الأحد أول ، والاثنين أهون ، والثلاثا جباراً ، والأربعاء دباراً ، والخميس مونسا ، والجمعة ماسبق ، والسبت شياراً ، ويقال فى أهون أوهن وأوهد وفى شيار الفتح والكسر ، وقد نظم ذلك بعضهم بقوله :

أؤمّلُ ان أعيش وانَّ يومى   باوّلَ أو باهونَ أو جبار

أو التالى دبار فان أفته   فمونس فالعَرُوبة أو شيار

أى انى أؤمل البقاء فى الدنيا والعيش فيها ، ولا بد من الموت فى يوم من هذه

---

(١) هو ضرب سريع من السير

الايام ولا محالة وهذا سفه من الرأى ، فينبغى للحازم ان لا يؤمل البقاء وكل يوم من أيام الاسبوع محتمل أن يكون غاية الاجل وللعمر فيه ختام وانقضاء . وكذلك وضعت العرب لساعات النهار والليل اسماء غير ماهو المتعارف ، وهى الذرور ثم البزوغ ثم الضحى ثم الغزالة ثم الهاجرة ثم الزوال ثم الدلوك ثم العصر ثم الاصيل ثم الصبوب ثم الحدود ثم الغروب ويقال فيها أيضاً البكور ثم الشروق ثم الاشراق ثم الراد ثم الضحى ثم المتوع ثم الهاجرة ثم الاصيل ثم العصر ثم الطفل ثم العشى ثم الغروب ، ذكرهاتين الروايتين ابن النحاس فى كتابه الذى سماه (صناعة الكتاب) . ويقال : ان أول من قسم النهار اثنتى عشرة ساعة آدم عليه السلام ، وضمن ذلك وصيته لابنه شيث عليه السلام وعرفه ماوظف عليه فى كل ساعة من عمل وعبادة . وأما ساعات الليل فهى الشاهد ثم الغسق ثم العتمة ثم الفحمة ثم الموهن ثم القطع ثم الجوسر ثم العبكة ثم التباشير ثم الفجر الاول ثم المعترض ثم الاسفار . وفى كتب اللغة أسماء اخر لساعات الليل والنهار فلتراجع . وكذلك كانوا يسمون الاشهر باسماء غير ما نعلمها اليوم وسيأتى بيان ذلك ان شاء الله تعالى فى الكلام على النسئ ، وقيل فى سبب تسمية يوم العروبة بيوم الجمعة ان الانصار قالوا لليهود يوم يجتمعون فيه بعد كل ستة أيام وللنصارى كذلك فهلموا نجعل لنا يوماً نجتمع فيه نذكر الله تعالى ونصلى ، فقالوا يوم السبت لليهود ويوم الاحد للنصارى فاجعلوه يوم العروبة فاجتمعوا الى سعد بن زرارة فصلى بهم يومئذ ركعتين وذكرهم فسموه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه ، فانزل الله تعالى سورة الجمعة فهى أول جمعة كانت فى الاسلام . وأما أول جمعة جمعها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فهى انه لما قدم المدينة مهاجراً نزل على قبيلة بنى عمرو بن عوف ، وأقام عندهم يوم الاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس وانتبش مسجدهم . ثم خرج يوم الجمعة قاصداً المدينة فادركته الصلوة فى بنى سالم بن عوف فى بطن وادٍ لهم فخطب وصلى بهم الجمعة . وحكى السهيلى فى كتاب شرح السيرة النبوية : أن يوم الجمعة كان

يسمى بهذا الاسم قبل أن تصلى الانصار الجمعة وانه لما كان اليوم الذى جمع فيه خلق آدم عليه السلام سمى بهذا الاسم . قال أهل اللغة : السبت القطع ، ومنه يوم السبت لانقطاع خلق الاشياء فيه . وحكى أيضاً ان هذه الاسماء المتداولة مروية عن أهل الكتاب وان العرب المستعربة لما جاورتهم اخذتها عنهم ، وان الناس لم يكونوا يعرفون قبل ذلك الا الاسماء التى وضعتها العرب العاربة والاسماء التى وضعتها السريان وهى (ابجد هوز حطى كلمن سعفص قرشت) ، ولم يذكروا سابعاً وذكروا أنها أسماء الايام التى خلق الله تعالى فيها سائر المخلوقات علويها وسفليها . وهذا القول مذكور فى كتاب ابن النحاس أيضاً وكأن السهيلى نقله منه

« ومنها » ما كان لحلف وعقد معاهدة كما اجتمعت قريش فى الجاهلية حين كثر فيهم الزعماء وانتشرت فيهم الرياسة وشاهدوا من التغالب والتجاذب ما لم يكفهم عنه سلطان قاهر فعقدوا حلفا على رد المظالم ، وانصاف المظلوم من الظالم . وكان سببه ما حكاه الزبير بن بكار : ان رجلاً من اليمن من بنى زبيد قدم مكة معتمراً ببضاعةٍ فاشتراها منه رجل من بنى سهم ، وقيل إنه العاص بن وائل فلوى الرجلَ بحقه فسأله ماله أو متاعه فامتنع عليه فقام على الحجر ، وأنشد باعلى صوته :

يال قصىٍّ [1] لمظلوم بضاعته ببطن مكةَ نائى الدار والنفر
واشعث محرم لم تقض حرمته بين المقام وبين الحجرْ والحَجَر
أقائمٌ من بنى سهم بذمتهم أو ذاهبٌ فى ضلالٍ مالِ معتمر

ثم أن قيس بن شيبة السلمى باع متاعا على أبىّ بن خلف فلواه وذهب بحقه فاستجار برجل من بنى جمع فلم يجره ، فقال قيس :

يالَ قصيٍّ كيفَ هذا فى الحَرَمْ وحرمة البيت واحلاف الكرمْ
اظلم من لايمنع عنى الظلم

فاجابه العباس بن مرداس السلمى [2] :

(١) ويروى عنه ياآل فهر (٢) جده ابو عامر بن حارثة أحد بنى سليم بن منصور وأمه

إن كانَ جارُكَ لم تنفعك ذمتهُ   وقد شربت بكاس الذل أنفاسا
فأتِ البيوتَ وكن من أهلها صددا   لاتلق تأديبهم فحشاً ولا باسا
ومن يكن بفناء البيت معتصما   يَلْقَ ابنَ حربٍ ويلقَ المرءَ عباسا
قومى قريش بأخلاق مكملة   بالمجد والحزم ماعاشا وما ساسا
ساق الحجيج وهذا ناشر فلج   والمجد يورث أخماسا واسداسا

فقام أبو سفيان والعباس بن عبد المطلب فردّ عليه ماله ، واجتمعت بطون قريش فتحالفوا فى دار عبد الله بن جُدْعان على رد المظالم بمكة وأن لايظلم أحد الاّ منعوه وأخذوا للمظلوم حقه ، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يومئذ معهم قبل النبوة ، وكان إذ ذاك ابن خمس وعشرين سنة فعقدوا حلف الفضول فى دار ابن جُدعان فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذاكراً للحال : لقد شَهِدت فى دار عبد الله بن جُدْعان حلف الفضول ما أحب أن لى به حمر النعم ولو ادعى اليه فى الاسلام لاجبت . وأتى بقصته وما يزيده الاسلام الا شدة ، فقال بعض قريش فى هذا الحلف :

تيمَ بنَ مرةَ ان سألتَ وهاشماً   وزهرةَ الخيرفى دار ابن جُدْعانِ
متحالفين على الندى ما غردت   ورقاء فى فَنَنٍ من جذع كتمان

وهذا وان كان فعلا جاهلياً دعتهم اليه السياسة فقد صار بحضور رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم له وما قاله فى تأكيد أمره حكما شرعياً ، وفعلا نبوياً ، وكما اجتمعوا على الحلف الشهير (بحلف المطيبين) وقد مرت الاشارة إليه عند الكلام على مكة شرفها الله تعالى . وهو على مافى السيرة الهشامية نقلاً عن ابن اسحق : أن قصيّ بن كلاب لما هلك أقام أمره فى قومه وفى غيرهم بنوه من بعده فاختطوا مكة رباعا بعد الذى كان قطع لقومه بها . فكانوا يقطعونها فى قومهم

الخنساء الشاعرة بنت عمرو بن الشريد وكان العباس فارساً شاعراً مخضرماً شديد العارضة والبيان سيداً فى قومه من كلا طرفيه وفد الى النبى (ص) وأسلم وكان من المؤلفة قلوبهم ثم حسن اسلامه

وفى غيرهم من حلفائهم ويبيعونها فأقامت على ذلك قريش معهم ليس بينهم اختلاف ولا تنازع ، ثم ان بنى عبد مناف بن قصى بن عبد شمس وهاشما والمطلب ونوفلا أجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدى بنى عبد الدار بن قصىّ مما كان قصىّ جعل إلى عبد الدار من الحجابة واللواء والسقاية والرِفادة ورأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم فى قومهم ، فتفرقت عند ذلك قريش ، فكانت طائفة مع بنى عبد مناف على رأيهم يرون إنهم أحق من بنى عبد الدار لمكانهم فى قومهم . وكانت طائفة مع بنى عبد الدار يرون أن لا ينزع منهم ما كان قصىّ جعل إليهم فكان صاحب أمر بنى عبد مناف عبد شمس بن عبد مناف ، وكان صاحب بنى عبد الدار عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، وكان بنو أسد ابن عبد العزى بن قصى . وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو تيم بن مرة بن كعب ، وبنو الحارث بن فهر بن مالك بن النضر مع بنى عبد مناف ، وكان بنو مخزوم ابن يقظة بن مرة ، وبنو سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب ، وبنو جمح بن عمرو ابن هصيص بن كعب ، وبنو عدى بن كعب مع بنى عبد الدار ، وخرجت عامر ابن لؤى ومحارب بن فهر فلم يكونوا مع واحد من الفريقين . فعقد كل قوم على أمرهم حلفاً مؤكداً أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً ما بلّ بحر صوفه[1] ، فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً فيزعمون أن بعض نساء بنى عبد مناف أخرجتها لهم فوضعوها لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم

(١) هذا من الابديات لا من الامثال كما زعم بعضهم وحكى اللحياني ما بل البحر صوفة والظاهر أن هاء صوفة فيه للتأنيث كهاء تمرة وأن المراد بذلك القطعة من الصوف المعروف وذكر بعض أهل اللغة انه يحتمل أن تكون الهاء هاء الضمير وحمل صوف البحر على شىء يكون فيه يشبه الصوف المعروف من وجه ويسمى سحاب البحر وغمامه والزبد الطرى وقيل هو الطحلب ويسمى غزل الماء كما قال الطبيب داود الضرير ورجح الاول بان السفنج المتبادر منه البحر المالح بخلاف الطحلب فأنه يكون فى مناقع الماء مطلقاً فالاوفق بالاضافة فى صوف البحر ارادة ما كان مختصاً وبأن شبه السفنج للصوف الحيواني أقوى من شبه الطحلب له ، والاظهر أن الهاء للتأنيث والصوفة قطعة من الصوف المعروف

فسموا المطيبين . وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند الكعبة حلفاً مؤكداً على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً فسموا الاحلاف . ثم سوند بين القبائل ولزم بعضها ببعض فعبيت بنو عبد مناف لبنى سهم ، وعبيت بنو أسد لبنى عبد الدار ، وعبيت زهرة لبنى جمح ، وعبيت بنو تيم لبنى مخزوم وعبيت بنو الحارث بن فهر لبنى عدىّ بن كعب . ثم قالوا لتفن كل قبيلة من أسند إليها فبينا الناس على ذلك قد أجمعوا للحرب اذ تداعوا الى الصلح على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة وأن يكون الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار كما كانت ففعلوا ورضى كل واحد من الفريقين بذلك وتحاجز الناس عن الحرب وثبت كل قوم مع من حالفوا فلم يزالوا على ذلك حتى جاء الله تعالى بالاسلام فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ما كان من حلف فى الجاهلية فان الاسلام لم يزده الا شدة . وبقى لهم اجتماعات كثيرة مذكورة فى كتب السير والتواريخ

الكلام على مفاخرات العرب فى الجاهلية ومنافراتهم

اعلم أن الفخر هو المباهاة بالأشياء الخارجة عن الانسان . وفى القاموس : الفخر والفخار والفخارة بفتح الفاء التمدح بالخصال كالافتخار ، وتفاخر القوم فخر بعضهم على بعض ، وفاخرهم مفاخرة وفخارة عارضه بالفخر ففخره كنصره غلبه ، وفخره عليه كمنع فضله عليه فى الفخر كأفخره عليه . والمفخرة وتضم ما فخر به انتهى . والفخر نهاية الحمق عند من نظر بعين عقله ، وانحسر عنه قناع جهله . وقد أبطلته الشريعة المحمدية ، ونهت عن تعاطيه بالكلية ، فان أعراض الدنيا عارية مستردة لا يؤمن كل ساعة أن ترجع . فالمباهى بها مباهٍ بغير ثراه ، ومتبجح بما فى نظر سواه ، كالفاجرة تَبَجَّحُ بزيّها بل هو دون ذلك ، فقد قال بعض الحكماء لمثر يفتخر بثرائه : ان افتخرت بفرسك فالحسن والفراهة له دونك ، وان افتخرت باباءك فالفضل فيهم لا فيك ، ولو تكلمتْ هذه الأشياء لقالت هذه محاسننا فمالك

من الحسن ، وأيضاً فالاعراض الدنيوية سحابة صيف عن قليل تقشع ، وظل زائل عن قليل يضمحل ، كما قال الشاعر :

انما الدنيا كرؤيا فرّحت   من رآها ساعة ثم انقضت

بل كما قال الله عز وجل « انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض » . فان افتخرت فافتخر بمعرفة غير خارجة عنك ، وإذا أعجبك من الدنيا شئ فاذكر فناءك وبقاءه أو بقاءك وزواله أو فناءكما جميعاً فاذا أرابك ماهو لك ، فانظر الى قرب خروجه من يدك ، وبعد رجوعه اليك ، وطول حسابك عليه ، ان كنت تؤمن بالله واليوم الآخر . وقد ذم الله تعالى الفخور ، بقوله « والله لا يحب كل مختال فخور » وتفاخر حيان من قريش بنو عدنان وبنو سهم وتكاثروا بالسيادة والاشراف بالاسلام فقال كل حيّ منهم : نحن أكثر سيداً ، وأعظم رجالا ، وأكثر قائداً ، فان التكاثر التفاعل فيكون من اثنين يقول كل واحد منهما لصاحبه أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً فكثر بنو عبد مناف بنى سهم ، ثم تكاثروا بالأموات فكثرتهم بهم فنزل « الهيكم التكاثر حتى زرتم المقابر » قاله الكلبي . وعن أبى بردة : أنها نزلت فى قبيلتين من قبائل الأنصار : فى بنى حارثة ، وبنى الحارث تفاخروا وتكاثروا فقالت احداهما : فيكم مثل فلان وفلان . وقال الآخرون مثل ذلك . تفاخروا بالأحياء ثم قالوا انطلقوا بنا الى القبور فجعلت احدى الطائفتين تقول فيكم مثل فلان يشيرون الى القبر ومثل فلان ، وفعل الآخرون مثل ذلك فانزل الله تعالى « الهيكم التكاثر حتى زرتم المقابر كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون » ردع وزجر لهم وتنبيه على أنهم سيعلمون عاقبة ذلك يوم القيامة وفيه وعيد شديد ، وفى ذلك دليل على أن الاشتغال بالدنيا والمكاثرة بها والمفاخرة فيها من الخصال المذمومة . والعرب لم يكن لهم فى الجاهلية من يردعهم ويكفهم عن سفاسف الأمور وذميم الأخلاق فانهم كانوا فى زمان فترة من الرسل والأنبياء فلم يكن لهم وقوف على غايات الأمور

والعواقب المحمودة وما يترتب عليه الثواب والعقاب من الفعل الحسن والقبيح ، وكان غالب مفاخراتهم بالشجاعة والكرم والوفاء ونحو ذلك ، وها أنا ذاكر من مفاخراتهم ومنافراتهم لمعاً لأنى لو تقصيت ذلك لأفنيت العمر دون الجزء الذى لا يتجزى منه قلة ، فأقول : نقل عن أبى عبيدة أنه قدم على النعمان بن المنذر وفود ربيعة ومضر ابنى نزار ، فكان فيمن قدم عليه من وفود ربيعة بسطام ابن قيس والحوفزان بن شريك البكريان . وفيمن قدم عليه من وفد مضر من قيس ابن عيلان عامر بن مالك وعامر بن الطفيل . ومن تميم قيس بن عاصم والأقرع بن حابس فلما انتهوا الى النعمان أكرمهم وحباهم ، وكان يتخذ للوفود عند انصرافهم مجلساً يطعم فيه معهم ويشرب ، وكان اذا وضع الشراب سقى النعمان فمن بدىء به على أثره فهو أفضل الوفد فلما شرب النعمان قامت القينة تنظر الى النعمان مَن الذى يأمرها أن تسقيه وتفضله من الوفد فنظر فى وجهها ساعة ثم أطرق ثم رفع رأسه وانشأ يقول :

سقى وفودك مما كنت ساقيتى ... وابدى بكأس ابن ذى الجدَّين بسطام
أغرَّ ينميه من شيبانَ ذوانف ... حامى الذمارِ وعن أعراضها رام
قد كان قيس بن مسعود ووالده ... تبدا الملوك به أيام أيام
فارضوا بما فعل النعمانُ فى مُضَرٍ ... وفى ربيعةَ من تعظيم أقوام
هم الجماجمُ والأذناب غيرهُمُ ... فارضوا بذلك أو بُوؤا بارغام

فقال عامر بن الطفيل :

كان التتابع فى دهر لهم سلف ... وابن المُرارِ واملاك على الشام
حتى انتهى الملك من لَخْمٍ الى ملك ... بارى السنان لمن لم يرمه رام
انحى علينا بأظفار فطوَّقنا ... طوقَ الحمام باتعاس وارغام
ان يمكن الله فى يوم يشاء به ... نترككَ وحدكَ تدعو رَهْطَ بسطام
فانظر الى الصيد لم يحموك من مضر ... هل فى ربيعةَ ان لم تدعنا حام

فاجابه بسطام بن قيس فقال :

لعمرى لئن صحت تميمٌ وعامرٌ ... لقد كنت قِدْما فى حلوقِهم شجَا
أرونى كمسعودٍ وقيس وخالد ... وعمرو وعبدالله ذى الباع والندَا
فكانوا على افناء بكر بن وائل ... ربيعاً اذا ما سال سائلهم جدا
وسرتُ على آثارهم غير تارك ... وصيتهم حتى انتهيت الى المدى

« وروى عن ابن الكلبى » انه قال قال كسرى للنعمان بن المنذر يوما : هل فى العرب قبيلة تشرف على قبيلة ، قال : نعم ، قال فبأى شىء ؟ قال : من كانت له ثلاثة آباء متوالية رؤساء ، ثم اتصل ذلك بكمال رابع فالبيت من قبيلته فيه وتنسب اليه . قال : فاطلب ذلك فطلبه فلم يصبه الا فى آل حذيفة بن بدر وآل ذى الجدين وآل الاشعث بن قيس بن كندة فجمع الجميع ومن معهم من عشائرهم وأقعد لهم الحكام والعدول وقال : ليتكلم كل رجل منكم بمآثر قومه وليصدق ، فكان حذيفة بن بدر أول متكلم ، وكان السنَّ القوم ، فقال : قد علمت العرب أن فينا الشرفَ الأقدَم ، والعزَّ الاعظم ، ومآثرَ للصنيع الاكرم . فقال من حوله : ولمَ ذاك يا أخا فزارة ؟ قال : ألسنا الدعائم التى لاترام ، والعز الذى لايضام ؟ قيل له : صدقت . ثم قام شاعرهم فقال :

فزارةُ بيت العز والعز فيهمُ ... فزارة قيس حسب قيس نضالها
لها العزة القعساء والحسب الذى ... بناه لقيسٍ فى القديم رجالها
فمن ذا اذا مد الاكف الى العلى ... يمد باخرى مثلها فينالها
فهيهاتِ قد أعيا القرونَ التى مضت ... مآثرُ قيس مجدُها وفعالها
وهل أحدٌ إنْ مدَّ يوما بكفه ... الى الشمس فى مجرى النجوم ينالها
فان يصلحوا يصلح لذاك جميعنا ... وان يفسدوا يفسدْ على الناس حالهُا

ثم قام الاشعث بن قيس وانما أذن له أن يقوم قبل ربيعة وتميم لقرابته بالنعمان ، فقال : لقد علمت العرب انا نقاتل عديدها الاكثر ، وقديم زحفها الاكبر ، وانا

غياث اللَزْبات [١] . فقالوا : لمَ يا أخا كندة ؟ قال : لانا ورثنا ملك كندةَ فاستظللنا بافيائه ، وتقلدنا منكبه الاعظم ، وتوسطنا بحبوحه [٢] الاكرم ، ثم قام شاعرهم فقال :

اذا قستَ أبياتَ الرجال ببيتنا ... وجدتَ له فضلاً على من يفاخر

فمن قال : كلا أو أتانا بخطةٍ ... ينافرنا يوماً فنحن نخاطر

تعالَوْا فعُدُّوا يعلم الناس ايّنا ... له الفضلُ فيما أورثته الاكابر

ثم قام بسطام بن قيس فقال : قد علمت العرب أنا بُناةُ بيتها الذى لا يزول ، ومغرس عزها الذى لا يحول . قالوا : ولمَ يا أخا شيبان ؟ قال : لانا أدركهم للثار ، وأضربهم للملك الجبار ، وأقولهم للحق ، وألدهم للخصم . ثم قام شاعرهم فقال :

لَعَمْرِىَ بسطام أحقُّ بفضلها ... وأول بيت العز عز القبائل

فسائِلْ أَبَيْتَ اللعنَ عن عز قومها ... اذا جدّ يومَ الفخرِ كلُّ مناضل

فيخبرك الاقوام عنها فانها ... وقائع ليست نُهْزَةً للقبائل

ألسنا أعزّ الناس قوماً وأسرة ... وأضربَهم للكبش بين القبائل [٣]

وقائع عز كلها رَبَعيةٌ ... تذل لهم فيها رقاب المحافل

اذا ذكرت لم ينكر الناس فضلها ... وعاذ بها من شرها كلُّ قائل

وانا ملوك الناس فى كل بلدة ... اذا نزلت بالناس احدى النوازل

ثم قام حاجب بن زرارة التميمى فقال : قد علمت العرب انا فرع دعامتها ، وقادة زحفها . قالوا : ولم ذاك يا أخا بني تميم ؟ قال : لانا أكثر الناس عديداً ، وأنجبهم طراً وليداً ، وأعطاهم للجزيل ، وأحملهم للثقيل . ثم قام شاعرهم فقال :

لقد علمت أبناء خِنْدِفَ أننا ... لنا العزُّ قِدْماً فى الخطوب الاوائلِ

وأنا كرام أهل مجد وثروة ... وعز قديم ليس بالمتضائلِ

فكم فيهمُ من سيد وابن سيد ... أغر نجيب ذى فعال ونائل

(١) لزبات بالتسكين جمع لزبة وهى الشدة (٢) بحبوحة الشيء وسطه (٣) الكبش : سيد القوم وقائدهم

فسائلْ أبيْتَ اللعنَ عنا فاننا دعائم هذا الناس عند الجلائل

ثم قام قيس بن عاصم السعدى فقال : لقد علم هؤلاء انا أرفعهم فى المكرمات دعائم ، وأثبتهم فى النائبات مقاوم . قالوا : ولمَ ذاك يا أخا بنى سعد ؟ قال : لانا أدركهم للثار ، وأمنعهم للجار ، وأنا لا ننكل اذا حملنا ، ولا نرام اذا حللنا . ثم قام شاعرهم فقال :

لقد علمتْ قيسٌ وخِنْدِفُ أننا وجل تميم والجموع التى ترى
بأنا عماد فى الأمور وأننا لنا الشرفُ الضخم المركب فى الندى
وأنا ليوث البأس فى كل مأزق إذا جزّ بالبيض الجماجم والـكلا
وإنا اذا داعٍ دعانا لنجدة أجبنا سراعاً فى العلا من دعا
فمن ذا ليوم الفخر يعدل عاصما وقيساً إذا مد الأكف الى العلا ؟
فهيهاتِ قد أعيا الجميعَ فعالهُم وفاتوا بيوم الفخر مسعاةَ من سعا

فقال كسرى حينئذ ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه ، واسنى حباءهم ، وأعظم صلاتهم « وافتخر » رجلان بباب معاوية بن أبى سفيان أحدهما من بنى شيبان والآخر من بنى عامر بن صعصعة . فقال العامرى : أنا أعد لك عشرة من بنى عامر ، فعد علىَّ عشرة من بنى شيبان. فقال الشيبانى هاتِ اذا شئت . فقال العامرى : خذ عامر بن مالك ملاعب الأسنة ، والطفيل بن مالك قائد هوازن ، وفارس قردل ، ومعاوية بن مالك معوّذ الحكماء ، وربيعة بن مالك فارس ذى علق ، وعامر بن الطفيل ، وعلقمة بن علاثة ، وعتبة بن سنان ، ويزيد ابن الصعق ، واربد بن قيس وهو اربد الحتوف . فقال الشيبانى : خذ قيس بن مسعود رهينة بكر بن وائل ، وهانئ بن قبيصة أمين النعمان بن المنذر ، وقبيصة ابن مسعود وافد المنذر ، ومفروق بن عمرو[1] حاضن الأيتام ، وسنان بن مفروق ضامن الدمن ، والأصم عمرو بن قيس صاحب روس بنى تميم ، وعمران ابن مرة الذى أسر يزيد بن الصعق مرتين ، وعوف بن النعمان . فقال معاوية :

(١) وسيأتى قريباً : مفروق بن عمران فانظر أيهما أصوب

عامر أنخر هوازن ، وشيبان أنخر بكر بن وائل ، وقد كفا كما الله المؤنة . هذان رجلان من غير قومكما عندى يحكمان بينكما : عدىّ بن حاتم . وشريك بن الاعور الحارثى . ثم قال معاوية للشيبانى : من تعبأ لعامر بن مالك . قال أصم بن أبى ربيعة : الذى قتل من تميم مائةرجل على دم . فقال معاوية للرجلين : ماتقولان؟ قالا : رجح الاصم على عامر بن مالك . قال معاوية : فمن تعبأ لعامر بن الطفيل قال الشيبانى : الحوفزان بن شريك . فقال الحكمان : رجح الحوفزان . قال : فمن تعبأ لعلقمة بن علاثة ؟ قال الشيبانى : بسطام بن قيس . فنظر معاوية الى الحكمين فقالا : رجح بسطام بن قيس . قال معاوية : فمن تعبأ لعتبة بن سنان ؟ فقال الشيبانى : مفروق بن عمران بن مرة . فقالا له : رجح مفروق . قال معاوية : فمن تعبأ للطفيل بن مالك ؟ قال الشيبانى : عمران بن مرة . فقالا رجح عمران بن مرة . قال : فمن تعبأ لمعاوية بن مالك ؟ قال الشيبانى عوف بن النعمان . فقالا : رجح عوف بن النعمان . قال فمن تعبأ لعوف بن الاحوص ؟ قال قبيصة بن مسعود . فقالا : رجح قبيصة . قال : فمن تعبأ لربيعة بن مالك ؟ قال : هانئ بن قبيصة . قال معاوية : فمن تعبأ ليزيد بن الصعق ؟ قال : سنان بن مفروق . قال : فمن تعبأ لأربد بن قيس ؟ قال : الاسود بن شريك . فقال معاوية للشيبانى : فأين نسيب قيس بن مسعود ؟ قال : أصلحك الله ليس من هذه الطبقة فانهم قيس مجداً وطولا فقال العامرى فى ذلك :

أعدّ اذا عددت أبا براء ... وكان علا على الأقوام فضلا
وكان الجعفرىّ أبو علىّ ... اذا ما هاجت الهيجاء علاّ
ووالده الذى حدثت عنه ... طفيلٌ خيرنا يفَعا وكَهْلا
وكان معوّذ الحكما المبارى ... رياح الصيف أعلى القوم فعلا
وقد أورثْ زناد أبى لبيد ... ربيعة يوم ذى علق فابلا
وعلقمة بن الاحوص كان كهفا ... كلابياً رحيبَ الباع سهلا

وعتبة والاغرّ يزيد انى | رأيتهما لكل الفخر أهلا
وعوفا ثم أَرْبدَ ذا المعالى | كفى بهما عليك ندى وبذلا
أولئك من كلاب فى ذُراها | وخير قُرومها حَسَبا ونُبْلا

فقال الشيبانى مجيباً له :

اعدّ اذا عددت ابا خفافٍ | وعمرانَ بن مُرَّةَ والاصمّا
وهانينا الذى حدثت عنه | وكان قبيصة الانف الاشما
ومفروقاً وذا النجدات عوفاً | وبسطاما ووالده الخضما
واسود كان خير بنى شريك | ولم يكُ قرنه كبشاً اجما
أولئك من عكابةَ خير بكر | وأكرم من يليك أباً واما
وأفضل من ينص الى المعالى | اذا ماحصلوا خالاً وعمّا
وأكثر قومهم بالشر طوقاً | وأبعد قومهم فى الخير همّا

فقال معاوية للحكمين : ماتقولان ؟ قالا : شيبان أكرم الحيين . فقال معاوية : وذاك قولى فأكرمهما وحباهما ، وفضل الشيبانى على العامرى .

ومن حديث ذى الجدين

ان الملك النعمان قال : لاعطينّ أفضل العرب مائةً من الابل فلما أصبح الناس اجتمعوا لذلك ولم يك ابن مسعود فيهم وأراده قومه على ان ينطلق فقال لالئن كان يريد بها غيرى لاأشهد ذلك وان كان يريدنى بها لاعطينها . فلما رأى النعمان اجتماعَ الناس قال : ليس صاحبها شاهدا . فلما كان من الغد ، قال له قومه : انطلق فانطلق . فدفعها الملك اليه . فقال حاجب بن زرارة ابيت اللعن ماهو باحق بها منى . فقال قيس بن مسعود : انافره عن اكرمنا قعيدةً ، واحسننا ادب ناقة وأكرم لئيم قوم . فبعث معهما النعمان من ينظر فى ذلك ، فلما انتهيا الى بادية حاجب بن زرارة مروا على رجل من قومه فقال حاجب : هذا الأمُ قومى وهو

فلان بن فلان والرجل عند حوضه يورد ابله فاقبلوا اليه فقالا : ياعبد الله دعنا فلنستق فانا قد هلكنا عطشا وأهلكنا ظهورنا فنجهم وابى عليهم فلما أعياهم قالوا الحاجب اسفر فسفر ، فقال : انا حاجب بن زرارة فدعنا فلنشرب . قال : أنت فلا مرحبا بك ولا أهلا فاتوا بيته فقالوا لامرأته هل من منزل ياأَمَةَ الله ؟ قالت : والله مارب المنزل شاهد أوما عندنا من منزل وارادوها على ذلك فابت . ثم اتوارجلا من بكر بن وائل على ماء يورد فقال قيس : هذا والله الأَمُ قومي فلما وقفوا عليه قالوا مثل ماقالوا للآخر فابى عليهم وهمَّ ان يضربهم . فقال له قيس ابن مسعود : ويلك انا قيس بن مسعود فقال له : مرحبا وأهلا أوردْ . ثم اتوا بيته فوجدوا فيه امرأته قدرها تَغِطُّ (١) فلما رأتِ الركب من بعيد انزلت القدر وتردت ، فلما انتهوا اليها قالوا : هل عندك ياأمةَ الله منزل ؟ قالت : نعم انزلوا فى الرحب والسعة . فلما نزلوا وطعموا وارتحلوا اخذوا ناقتيهما فاناخوها على قريتين للنمل ، فاما ناقة قيس بن مسعود فتضورت (٢) وتقلبت ثم لم تثرْ . (٣) وأما ناقة حاجب فمكثت وثبتت حتى اذا قالوا قد اطمأنت طفقت هاربةً ، فاتوا الملك فاخبروه بذلك فقال له قد كنت ياقيس ذاجدٌ فانت اليوم ذوجدين ، فبذلك سمي ذا الجدين . وقيل : انما سمى بذلك لاسيرين اسرهمامرتين . وقيل بل سبق فى سبقين هكذا جاءت الرواية . والذى أعرف أنا أن ذا الجدين انما هو عبد الله بن عمرو بن الحارث بن همام سمي بذلك لأنه اشترى كعب بن مامة من أيدى قوم عَنَزِيِّين وكتم نفسه وعرفه عبد الله أنه لم يشتره الا عن معرفة فوهبه كل مالقى فى طريقه من ابل أبيه بعبدانها وكانت سوداً وحمراً وصهباً ، وبلغ به الى أبيه ، فاجازله ذلك وأعطاه قبته بمافيها ، فلما اتى الحيرة قال بعض من رآه لصاحبه : انه لذو جد . قال الآخر : بل هو ذوجدين فسمى بذلك .

(١) أى تصوت وذلك عند أشتداد غليانها (٢) التضور : الصياح والتلوي عند الضرب أوالجوع (٣) من ثار يثور

مفاخرة يمن ومضر

قال الابرش الكلبي لخالد بن صفوان : هلمَّ أفاخرك وهما عند هشام بن عبد الملك فقال له خالد : قل ، فقال الابرش : لنا ربع البيت يريد الركن اليماني ، ومنا حاتم طيّئ ، ومنا المهلب ابن ابى صفرة . قال خالد بن صفوان : منا النبي المرسل ، وفينا الكتاب المنزل ، ولنا الخليفة المؤمل . قال الأبرش : لافاخرت مضريا بعدك . ونزل بأبي العباس قوم من اليمن من أخواله من كلب ففخروا عنده بقديمهم وحديثهم فقال هشام لخالد بن صفوان : أَجِبِ القوم فقال: أخوال أمير المؤمنين . قال : لابد أن تقول . قال : وما أقول لقوم يا أمير المؤمنين هم بين حائك بُرْد ، وسائس قِرْد ، ودابغ جلد ، دلّ عليهم هُدْهُدٌ ، وملكتهم امرأة ، وغرقتهم فارة ، فلم يثبت لهم بعدها قائمة .

مفاخرة الاوس والخزرج

تفاخرت الأوس والخزرج فقالت الأوس : منا غسيل الملائكة حنظلة ابن الراهب ، ومنا عاصم بن الأفلح الذى حمت لحمه الدبر ، (١) ومنا ذو الشهادتين خزيمة بن ثابت ، ومنا الذى اهتز لموته العرش سعد بن معاذ . قالت الخزرج : منا أربعة قرؤا القرآنَ على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لم يقرأه غيرهم زيد بن ثابت وأبو زيد ومعاذ بن جبل وأُبَيُّ بن كعب سيد القراء ، ومنا الذى أيده الله بروح القدس فى شعره حسان بن ثابت .

المنافرات الشهيرة التى وقعت بين العرب فى الجاهلية

« منها منافرة عامر بن علقمة » كانت العرب فى الجاهلية إذا تنازع الرجلان منهم فى الشرف تنافرا الى حكامهم وسنذكرهم ان شاء الله قريباً فيفضلون

---

(١) جماعة النحل والزنابير

الاشرف . ونافر معناه حاكم فى النسب وسميت منافرةً لأنهم كانوا يقولون عند المفاخرة انا أعز نفراً . وقد ألف أبو عبيدة وغيره من الأئمة البارعين فى اللغة كتباً فى منافرات العرب ، وأشهر منافرة كانت فى الجاهلية منافرة عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب مع علقمة بن علاثة بن عوف بن الاحوص ابن جعفر حين قال له علقمة : الرياسة لجدى الاحوص ، وانما صارت الى عمك أبى براء من أجله ، وقد استسن عمك وقعد عنها فانا أولى بها منك وان شئت نافرتك . فقال له عامر : قد شئت والله لانا أشرف منك حسباً ، وأثبت منك نسباً ، وأطول قصباً فقال . علقمة : أنافرك وأنى لَبَرٌّ وانك لفاجر ، وانى لولود وانك لعاقر ، وانى لواف وانك لغادر . فقال : عامر : أنافرك انى اسمى منك سمة ، وأطول قمة ، وأحسن لمة ، وأجعد جمة ، وأبعد همة ، فقال علقمة : أنا جميل وأنت قبيح ، ولكن أنافرك أنا أولى بالخيرات منك . فخرجت أم عامر فقالت : نافره أيكما أولى بالخيرات . ففعلوا على أن جعلوا مائة من الابل يعطيها الحكم الذى ينفر عليه صاحبه ، فخرج علقمة ببنى خالد بن جعفر وبنى الاحوص ومعهما القباب والجزر والقدور وينحرون فى كل منزل ويطعمون ، وخرج عامر ببنى مالك وقال: انها المقارعة عن احسابكم ، فاشخصوا بمثل ماشخصوا به . وقال لعمه ابى براء اعنى فقال سبنى ، فقال : كيف اسبك وانت عمى . فقال : وانا لا اسب الاحوص وهو عمى ولم ينهض معه ، فجعلا منافرتهما الى ابى سفيان بن حرب بن امية ، ثم الى ابى جهل ابن هشام فلم يقولا بينهما شيئاً ، ثم رجعا الى هرم بن قطبة بن سنان الفزارى . فقال: نعم لاحكمن بينكما فأعطيانى موثقاً اطمئن به أن ترضيا بحكمى وتسلما لما قضيت بينكما ففعلا فأقاما عنده أياماً ، ثم أرسل الى عامر فأتاه سراً فقال : قد كنت أحسب أن لك رأياً وان فيك خيراً ، وما حبستك هذه المدة إلا لتنصرف عن صاحبك ، أتنافر رجلاً لا تفخر أنت ولا قومك الا بآبائه فما الذى أنت به خير منه؟ فقال عامر : نشدتك الله والرحم ان لا تفضل علىّ علقمة فوالله لئن فعلت لا افلح

بعدها أبداً هذه ناصيتى فاجزُزْها واحتكم فى مالى فان كنتَ لابد فاعلاً فَسَوِّ بينى وبينه . فقال : انصرف فسوف أرى من آرائى . فانصرف عامر وهو لايشك انه ينفره عليه ، ثم أرسل الى علقمة سراً فقال له ماقال لعامر ، وقال له : أتفاخر رجلاً هو ابن عمك فى النسب وأبوه أبوك ، وهو مع ذلك أعظم منك غناء واحمد لقاء ، واسمح سماحا ، فما الذى انت به خير منه ؟ فرد عليه علقمة مارد به عامر وانصرف وهو لايشك انه ينفر عامراً عليه ، فأرسل هرم الى بنيه وبنى أخيه وقال لهم : انى قائل فيهم غداً مقالة فاذا فرغت فليطرد بعضكم عشر جزائر فلينحرها عن علقمة وليطرد بعضكم مثلها فلينحرها عن عامر وفرقوا بين الناس لايكونوا بينهم جماعة ، ثم أصبح هرم فجلس مجلسه واقبل عامر وعلقمة حتى جلسا فقال هرم : إنكما يابنى جعفر قد تحاكمتما عندى وأنتما كركبتى البعير الأَدْرَم الفحل تقعان الارض وليس فيكما واحد الاوفيه ماليس فى صاحبه ، وكلاكما سيد كريم ، ولم يفضل واحداً منهما على صاحبه لكيلا يجلبَ بذلك شراً بين الحيين ونحر الجزر وفرق على الناس ، وعاش هرم حتى أدرك خلافة عُمَرَ . فقال : ياهرم أى الرجلين كنت مفضلا لوفعلت ؟ قال : لوقلت ذلك اليوم عادت جذعة ولبلغت شعفات هَجَر . فقال عمر : نِعْمَ مُسْتَوْدَعُ السرّ انت ياهرم مثلك فليستودع العشيرة اسرارهم . والحكاية طويلة قد اختصرناها . وقال فيه الاعشى :

حكمتموه فقضى بينكم   ابلج مثل القمر الباهر
لايأخذ الرشوة فى حكمه   ولا يبالى غبن الخاسر

هذا ماوجدناه فى أول شرح المقامات الحريرية للشريشى . وقد شرحها باكثر من هذا مرتين أوثلاثا الاصبهانى فى الاغانى (١) فقال : قال ابن الكلبى حدثنى أبى ومحيريز بن جعفر وجعفر بن كلاب الجعفرى عن بشر بن عبد الله بن حبان ابن سلمى بن مالك بن جعفر عن أبيه عن أشياخه وذكر بعضه أبو مسكين قالوا :

(١) ج ١٥ ص ٥٠

أول ماهاج النفار بين عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر ، وبين علقمة بن علاثة بن عوف بن الاحوص ، وام عامر كبشة بنت عروة الرحال بن عتبة بن جعفر ، وأمها أم الظباء بنت معاوية فارس الهراز بن عبادة بن عقيل بن كعب بن ربيعة ، وأمها خالدة بنت جعفر بن كلاب ، وأمها فاطمة بنت عبد شمس بن عبد مناف ، وأم أبيه الطفيل أم البنين بنت ربيعة بن عامر بن صعصعة . قال ابو الحسن الاثرم : وكانت أم علقمة ليلى بنت أبي سفيان بن هلال بن النخع سبية وأم أبيه ماوية بنت عبد الله ابن الشيطان بن بكر بن عوف بن النخع مهيرة ، وذكر ان علقمة كان قاعداً ذات يوم يبول فبصر به عامر فقال لم أرَ كاليوم عورةَ رجل أقبح . فقال علقمة: أما والله ما وثبت على جاراتها ولا تنازل كنائنها يعرض بعامر . فقال عامر : وما أنت والقروم والله لفرَسُ أبي حيوة اذكر من أبيك ولفحل أبي غَيْهب أعظم ذكراً منك في نجد . قال : وكان فرسه فرساً جواداً نجا عليه يوم بني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان وكان فحله فحلا لبني حرملة بن الاشعر بن صرمة بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان . قال الاثرم : وأخبرني رجل من جهينة بدمشق قال هو الاشعر بن صرمة . قال الاثرم : وسمي صرمة غيهب لسواده . قال ابن الكلبي : فاستعاره منهم يستطرقه فغلبهم عليه . فقال علقمة : أما فرسكم فعارة وأما فحلكم فغدرة ولكن ان شئت نافرتك . فقال : قد شئت . فقال عامر : والله لانا أكرم منك حسباً ، وأثبت منك نسباً ، وأطول منك قصباً . فقال علقمة : لانا خير منك ليلا ونهارا . فقال عامر : لانا أحب الى نسائك ان أصبح فيهن منك . فقال عامر : أنافرك على أني أنحر منك للقاح ، وخير منك في الصباح ، واطعم منك في السنة الشياح . فقال علقمة : أنت رجل تقاتل والناس يزعمون اني جبان ولان تلقى العدو وأنا أمامك أعز لك من أن تلقاهم وأنا خلفك وأنت جواد والناس يزعمون أني بخيل ولست كذلك ، ولكن انافرك اني خير منك أثراً ، وأحدّ منك بصراً ، وأعز منك نفراً ، وأشرف منك ذكراً . فقال عامر : ليس لبني الاحوص فضل على بني مالك

فى العدد ، وبصرى ناقص وبصرك صحيح ، ولكنى أنافرك على انى أنشر منك أُمَّةً ، وأطول منك قمة ، وأحسن منك لمة ، واجعد منك جمة ، وابعد منك همة . قال علقمة : أنت رجل جسيم ، وأنا رجل قصير ، وأنت جميل وأنا قبيح ، ولكنى أنافرك بآبائى وأعمامى . فقال عامر : آباؤك أعمامى ، ولم أكن لانافرك بهم ، ولكنى أنافرك انى خير منك عقبا ، واطعم منك جدبا . قال علقمة : قد علمت ان لك عقباً فى العشيرة ، وقد أطعمت طيناً إذ سارت ، ولكنى انا فرك انى خير منك ، وأولى بالخيرات منك ، وقد أكثرنا المراجعة منذ اليوم . قال : فخرجت أم عامر وكانت تسمع كلامهما فقالت : ياعامر نافره أيكما أولى بالخيرات . قال أبو المنذر : قال أبو مسكين قال عامر فى مراجعته : والله لأنا أركبُ منك فى الحماه ، وأقل منك للكماه ، وخير منك للمولى والمولاه . فقال له علقمة : والله إنى لَبَرٌّ وانك لفاجر ، وانى لوفىّ وانك لغادر ، ففيم تفاخرنى ياعامر ، فقال عامر : والله إنى لانزلُ منك للقفرة ، وأنحر منك للبكرة ، وأطعم منك للهبرة ، (١) وأطعن منك للثغْرة ، فقال علقمة : والله أنك لكليل البصر . نكد النظر ، وثاب على جاراتك بالسحر . فقال بنو خالد بن جعفر وكانوا يداً مع بنى الأحوص على بنى مالك بن جعفر : لن تطيق عامراً ولكن قل له أنافرك بخيرنا وأقربنا الى الخيرات ، وخذ عليه بالكبر . قال له علقمة هذا القولَ . فقال عامر (عير وتيس وتيس وعنز) فذهبت مثلاً ، نعم على مائة من الابل الى مائة من الابل يعطاها الحكم أينا نفر عليه صاحبه أخرجها ، ففعلوا ذلك ووضعوا بها رهناً من ابنائهم على يدِ رجلٍ من بني الوحيد ، فسمى الضمين الى الساعة وهو الكفيل . قال : وخرج علقمة ومن معه من بنى خالد وخرج عامر فيمن معه من بنى مالك وقد أتى عامر بن الطفيل عامر بن مالك وهو أبو براء . فقال : ياعماه اعنّى . فقال يا ابن أخى : سبني . فقال لا أسبك وأنت عمى قال : فسب الأحوص . فقال عامر : ولا أسب والله الأحوص وهو عمى . فقال :

(١) القطعة من اللحم

دونك نعلى فانى قد ربعت فيها أربعين مِرْباعا (١) فاستعن بها فى نفارك ، وجعلا منافرتهما الى أبى سفيان بن حرب بن أمية فلم يقل بينهما شيئاً وكره ذلك لحالهما وحال عشيرتهما وقال : أنتما كركبتى البعير الأدرم . قال : فأينا اليمين فقال كلا كما يمين . وأبى أن يقضى بينهما فانطلقا الى أبى جهل بن هشام فأبى أن يحكم بينهما فوثب مروان بن سراقة بن قتادة بن عمرو بن الأحوص بن جعفر فقال :

يالَ قريشٍ بيِّنوا الكلاما ... أنا رَضينا منكمُ الأحكاما
فبينوا ان كنتم حُكاما ... كانَ أبونا لهم إماما
وعبد عمرو منع الفئاما ... فى يوم فخر معلماً اعلاما (٢)
ودعلج أقدمه إقداما ... لولا الذى أجشمهم اجشاما
* لا تخذتهُمْ مَذْحِجٌ نعاما *

قال : فأبوا أن يقولوا بينهما شيئاً وقد كانت العرب تحاكم الى قريش فاتيا عيينة بن حصن بن حذيفة فأبى أن يقول بينهما شيئاً ، فاتيا غيلان بن سلمة ابن معتب الثقفى فردهما الى حرملة بن الأشعر المرى فردهما الى هرم بن قطبة ابن سنان بن عمرو الفزارى فانطلقا حتى نزلا به . وقال بشر بن عبد الله بن حبان ابن سلم : انهما ساقا الابل معهما حتى أشتت وأربعت لا يأتيان أحداً إلا هاب أن يقضى بينهما فقال هرم : لعمرى لأحكمن بينكما ثم لأفصلن ثم لست أثق الى أحد منكما فاعطيانى موثقاً اطمئن اليه أن ترضيا بما أقول وتسلما لما قضيت بينكما وأمرهما بالانصراف ووعدهما ذلك اليوم من قابل فانصرفا حتى اذا بلغ الأجل خرجا اليه ، فخرج علقمة ببنى الأحوص فلم يتخلف منهم أحد معهم القباب والجزر والقدور وينحرون فى كل منزل ويطعمون ، وجمع عامر بنى مالك فقال : انما تخاطرون عن احسابكم فأجابوه وساروا معه ولم ينهض ابو براء معه وقال لعامر : والله لا تطلع ثنية إلا وجدت الأحوص منيخاً بها وكره أبو براء ما كان من أمرهما . فقال عامر فيما

(١) ربع الغنيمة كان رئيس القوم يأخذه لنفسه فى الجاهلية (٢) الفئام : الجماعة من الناس

كان من منافرتهما ودعا عامر إياه أن يسير معه :

أأومرُ ان أسبَّ أبا شريحٍ　　ولا واللهِ أفعل ما حييتُ
ولا أهدى الى هَرِمٍ لِقاحاً　　فيحيا بعد بذلك أو يميت
أكاف سعى لقمان بن عادٍ　　فيا لابى شريح مالقيت

قال : وأبو شريح هو الاحوص فكره كل واحدمن البطنين مابينهما . وقال عبد عمرو بن شريح بن الاحوص :

لحا الله وفدينا وما ارتحلا به　　من السوءة الباقى عليهم وبالها
الا إنما بردى صفاق متينة　　أبى الضيم أعلاها وانبت حالها

قال : فسار عامر وبنو عامر على الخيل مجنبي الابل وعليهم السلاح . فقال رجل من غنى : ياعامر ماصنعت اخرجت بنى مالك تنافر بنى الاحوص ومعهم القباب والجزروليس معك شيء تطعمه الناس ماأسوءماصنعت ! فقال عامر لرجلين من بنى عمه : احصيا كل شيء مع علقمة من قبة أو قدر أو لقحة . ففعلا ، فقال عامر : يابنى مالك إنها المقارعة عن احسابكم فاشخصوا بمثل ماشخصوا به ففعلوا وثار مع عامر لبيد بن ربيعة والاعشى ، ومع علقمة الحطيئةوفتيان من بنى الاحوص منهم السندرى بن يزيد بن شريح ومروان بن سراقة بن قتادة بن عمرو بن الاحوص وهم يرتجزون ، فقال لبيد :

ياهرمٌ وأنت أهلُ عدلِ　　إنْ نفرَ الاحوص يوماً قبلى
ليذهبن أهله باهلى　　لايجمعن شكلهم وشكلى

* ونسل آبائهم ونسلى *

وقال أيضاً :

إنى آمرُؤٌ من مالك بن جعفر　　علقم قد نافرت غير منفر

* نافرت سقباً من سقاب العرعر *

فقال قحافة بن عوف بن الاحوص :

نَهْنِهْ اليك الشعر يالبيدُ واصدد فقد ينفعك الصدود
سادَ ابونا قبلَ اَنْ تسودوا سؤددكم مطرف زهيد

وقال أيضاً :

اِنى اذا اكتنى الخباء وضاع يومَ المشهد اللواء
انى وقد حق لى النماء الى كهولٍ ذكرها سناء
اذ لا يزال جلدة كوماء مبقورة لسقبها رغاء
لم ينهنا عن نحرها الصفاء لنا عليكم سورة ولاء

* المجدُ والسؤددُ والعطاء *

وقال أيضاً :

أنتم عزلتم عامرَ بنَ مالكِ فى سنوات مضر الهوالك

* ياشر ناحياً وشر هالك *

قال : وانشدها السندرى يومئذ ورفع صوته فقيل : مَنْ هذا ؟ فقال :

أنا لمن أنكر صوتى السندرى أنا الفتى الجعد الطويل الجعفرى

* من ولد الأحوص أخوال غنى *

فقال عامر : أجب يالبيد فرغب لبيد عن إجابته وذلك لأن السندرى كانت جدته اَمَةً اسمها (عيساء) فقال :

لما دعانى عامرٌ لأجيبهُ أبيتُ وان كانَ ابنُ عيساء ظالما
لكى لا يكون السندرى نديدتى واشتم اعماماً عموما عماعما
وانشر من تحت القبور اُبوةً كراماً هم شدوا علىَّ التمائما
لعبت على اكتافهم وحجورهم وليداً وسمّونى وليداً وعاصما
الا أيّنا ماكان شراً لمالك فلا زال فى الدنيا ملوماً ولائما

قال ووثب الحطيئة فقال :

ما يحبس الحكام بالفصل بعدما بدا سابق ذو غرة وحجول

وقال أيضاً :

يا عامُ قد كنتَ ذا باعٍ ومكرمة ... لو ان مسعاة من جاريته أَمَمُ
جاريتَ قَرْماً أجاد الأحوصان به ... سمح اليدين وفى عِرْنينه شَمَمُ
لا يصعب الأمر إلا ريث يركبه ... ولا يبيت لمرعوبٍ له قسم
هابتْ بنو مالك مجداً ومَكْرُمةً ... وغاية كان فيها الموت لو قدموا
وما أساؤا فراراً عن مجلحة ... لا كاهن يمترى فيها ولا حَكَمُ

قال : وأقام القوم عنده أياما ، وأرسل الى عامر فأتاه سراً لا يعلم به علقمة . فقال ياعامر : قد كنت أرى لك رأيا وإن فيك خيراً ، وما حبستك هذه الأيام إلا لتنصرف عن صاحبك أتنافر رجلاً لا تفخر أنت وقومك الا بآبائه ؟ فما الذى أنت به خير منه ؟ قال عامر نشدتك الله والرحم أن لا تفضل علىّ علقمة فوالله لئن فعلت لا أفلح بعدها أبداً هذه ناصيتى فاجزُزْها واحتكم فى مالى فان كنت لا بدّ فاعلاً فسوِّ بينى وبينه . قال : انصرف فسوف أرى رأيى فخرج عامر وهو لا يشك أنه ينفره عليه . ثم أرسل الى علقمة سراً لا يعلم به عامر فأتاه فقال يا علقمة : واللهِ ان كنت لأحسب فيك خيراً وان لك رأيا وما حبستك هذه الايام إلا لتنصرف عن صاحبك ، أتفاخر رجلا فى النسب وأبوه أبوك ، وهو مع هذا أعظم قومك غناء ، وأحمدهم لقاء ؟ فما الذى أنت به خير منه ؟ فقال له علقمة : أنشدك الله والرحم أن لا تنفر علىّ عامراً أجزز ناصيتى واحتكم فى مالى وان كنت لا بد أن تفعل فسوّ بينى وبينه . فقال : انصرف فسوف أرى رأيى فخرج وهو لا يشك أنه سيفضل عليه عامراً . قال أبى : وسمعت أن هرما قال لعامر حين دعاه ياعامر كيف تفاضل علقمة ؟ فقال عامر : ولِمَ ياهرم ؟ قال : لأنه انجل منك عيناً فى النساء ، وأكثر منك نفيراً عند ثورة الدعاء ، قال عامر : هل غير هذا ؟ قال : نعم هو أكثر منك نائلا فى الثراء ، وأعظم منك حقيقة عند الدعاء . ثم قال لعلقمة : كيف تفاضل عامراً ؟ قال : ولِمَ ياهرم ؟ قال : هو أنفذ منك لسانا ، وامضى منك سنانا . قال علقمة : فهل غير هذا ؟ قال : نعم هو أقتل منك للكماة ، وأفك

منك للعناة . قال : ثم ان هرما أرسل الى بنيه وبني أبيه انى قائل غداً بين هذين الرجلين مقالة فاذا فعلت فليطرد بعضكم عشر جزائر فلينحرها عن علقمة ويطرد بعضكم عشر جزائر ولينحرها عن عامر وفرقوا بين الناس لا تكونوا لهم جماعة . وأصبح هرم فجلس مجلسه ، وأقبل الناس وأقبل علقمة وعامر حتى جلسا ، فقام لبيد فقال :

ياهرمَ ابن الاكرمين منصبا انك قد وليت حكما معجبا
فاحكم وصوّبْ رأيَ من تصوبا إنَّ الذى يعلو عليها ترتبا (١)
لخيرنا عماً وامّاً وأبا وعامرٌ خيرهما مركبا

* وعامر ادنى لقيس نَسَبا *

فقام هرم فقال : يابنى جعفر قد تحا كمتما عندى وانتما كركبتى البعير الأدْرم تقعان الى الارض معا وليس فيكما أحد الا وفيه ماليس فى صاحبه ، وكلا كما سيد كريم . وعمد بنو هرم وبنو أخيه الى تلك الجزر فنحروها حيث أمرهم هرم عن علقمة عشراً وعن عامر عشراً وفرقوا الناس فلم يفضل هرم أحداً على صاحبه وكره ان يفعل وهما ابناعم فيجلب بذلك عداوةً ويوقع بين الحيين شراً . قال : وكان الاعشى حين رجع من عند قيس بن معدى كرب بما أعطاه طلب الجوار والخفرة من علقمة فلم يكن عنده ماطلب ، واجاره وخفره عامر حتى اداه وماله الى أهله . قال :

علقمُ ماأنت الى عامرٍ الناقص الاوتار والواتر (٢)

---

(١) الترتب الدائم الثابت كذا فى نسخة الاصل (٢) من ابيات للاعشى أعشى بنى قيس ابن ثعلبة يمدح عامر بن الطفيل ويهجو علقمة بن علافة وبعده:

ان تسد الحوص فلم تعدهم وعامر ساد بنى عامر
عهدى بها فى الحى قد درعت صفراء مثل المهرة الضامر
قد حجم الثدى على نحرها فى مشرق ذى بهجة ناضر
لو أسندت ميتاً الى نحرها عاش ولم ينقل الى قابر
حتى يقول الناس مما رأوا ياعجباً للميت الناشر

ثم اتمها بعد النفار فلما بلغ علقمة ما قال الاعشى وأشاع فى العرب ان هرما قد فضل عامراً ، توعد الاعشى فقال الاعشى : (لعمرى لئن أمسى من الحى شاخصاً) قال ابن الكلبى : حدثنى أبى قال فعاش هرم حتى أدرك سلطان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فسأله أيُّ الرجلين كنت مفضلا لوفضلت ؟ فقال : لوقلت ذاك ياأمير المؤمنين لعادت جذعة ، ولبلغت شعاف هجر . فقال : نِعْمَ مُسْتَوْدَعُ السر ومسند الامر اليه أنت ياهرم ، مثل هذا فَلْيَسُدِ العشيرة . وقال: الى مثلك فليستبضع القوم أحكامهم . قال أبو الفرج الاصبهانى : وقد أدرك علقمة ابن علاثة الاسلام فاسلم ثم ارتد فيمن ارتد من العرب ، فلما وجه أبو بكر خالد بن الوليد الى بنى كلاب ليوقع بهم وعلقمة يومئذ رئيسهم هرب واسلم ، ثم أتى أبا بكر رضى الله تعالى عنه فاعلمه انه قد نزع عما كان عليه فقبل اسلامه وآمنه، هكذا ذكر المدائنى . وأما سيف بن عمر فانه روى عن الكوفيين غير ذلك والله تعالى أعلم .

منافرة بين فزارة وبنى هلال

إن بني فزارة وبنى هلال تنافرا الى انس بن مدرك ، وتراضوا به فقالت بنو هلال : يابنى فزارة اكلتم ايرَ الحمار . فقال بنو فزارة : لم نعرفه . وكان سبب ذلك ان ثلاثة اصطحبوا فزارى وتغلبي وكلابى فصادفوا حمار وحش ، ومضى الفَزارى فى بعض حوائجه فطبخا وأكلا وخبآ للفَزارى اير الحمار ، فلما رجع قالا له قد خبأنا لك سهمك فكُلْ ، وأقبل يأكل ولا يسيغه فجعلا يضحكان ففطن وأخذ السيف وقام اليهما وقال : لتأكلان منه والاقتلتكما فامتنعا فضرب أحدهما فقتله وتناوله الآخر فأكل منه ولذلك رمى بنو فَزارة بأكل اير الحمار قال الكميت ابن ثعلبة :

نشدتُك يافزارُ وأنتَ شيخٌ ... اذا خيرت تخطئُ فى الخيار

اصيحانيةٌ ادمتْ بِسَمْنٍ أحبُّ اليك أم أيْرُ الحمارِ
بلى أيْرُ الحمارِ وخصيتاه أحبّ الى فزارة من فزارِ

قوله نشدتك أراد به نشدتك بالله أى ذكرتك به واستعطفتك به لتخبرنى عما أسألك ويقال أيضاً نشدتك الله من باب نصر والخيار هو الاختيار . وقوله أصيحانية أدمت : أى أتمرة صيحانية والصيحانى تمر معروف بالمدينة ويقال كان كبش اسمه صيحان بمهملتين شدّ بنخلة فنسبت اليه وقيل صيحانية : وأدمت : من الأدام يقال أدمت الخبز اذا أصلحت اساغته بالادام وهو ما يؤتدم به ما ئعاً كان أو جامداً . ولكون هذه الأبيات فيها خفاء أشرنا الى تفسير مبهماتها .. فقالت بنوفزارة منكم يابنى هلال من سقى إبله فلما رويت سَلَحَ [1] فى الحوض ومدره بخلا ، يريدون به رجلا من بنى هلال يضرب به المثل فى البخل فيقال (هو أبخل من مادر) . وبلغ من بخله أنه كان يسقى إبله فبقى فى أسفل الحوض ماء قليل فسلح فيه ومدر الحوض به فسمى مادراً ، فنفرهم أنس بن مدرك على الهلاليين فأخذ الفزاريون منهم مائة بعير ، وكانوا تراهنوا عليها ، وفى بنى هلال يقول الشاعر :

لقد جللت خزياً هلالُ بن عامر بنى عامرٍ طراً لسلحة مادرِ
فأفٍ لكم لاتذكروا الفخرَ بعدَها بنى عامر أنتم شرارُ العشائر

هذا ما أورده الجاحظ فى مساوى البخل من كتاب المحاسن والاضداد ، ونقله حمزة الاصبهانى والميدانى والزمخشرى فى أمثالهم بعبارات مختلفة محصلها ماذكرناه والله تعالى اعلم .

قصة الفقعسى وضمرة وماجرى بينهما من المنافرة

قال أبو محمد الاعرابى فى (ضالة الأديب) : إنَّ ضمرة بن ضمرة بن جابر

(١) السلح مايخرج من البطن

ابن قطن بن نهشل كان جاراً لنوفل بن جابر بن شحنة بن حبيب بن مالك بن نصر وأم نوفل عاتكة بنت الأشتر بن حجوان بن فقعس بن طريف بن عمرو ابن قعين ، وكان ضمرة كثير المقامرة فنحر نوفل جزوراً فدعا الحي فأكلوا فدعا ضمرة فقال : يامعشر بني قعين هذا جاركم وأنا منه خلو . ثم ان ضمرة قام فقمر ماله كله ، وانتجعت (١) أسد نحو أرض بني تميم وهم مقحمون مضعفون فأرسل ضمرة الى من يليهم من بني تميم أن ميلوا عليهم فانهم لأول من أتاهم ، فأتى بني نصر الخبر فانصرفوا وأتمروا بضمرة أن يأكلوه حين ينزلون فأمر نسوته سراً أن يتأخرن ويلحقن بظعن بني فقعس وسار هو في سلف بني نصر وقد علم أنهم آكلوه إذا نزلوا ، فلما نزلوا ركض نحو بني فقعس فقال أنا جارٌ لكم فقالوا انك لست بجار ولك أمانُ العائذ الغادر ومنعوه من بني نصر ، وإذاً ماله في بني نصر قد أحرزوه فلما جاء ظعن بني فقعس اذا نسوته فيهن فعدل له بنو فقعس خمسين شائلة (٢) ونحروا الجزور ، وكان فيهم زمانا ثم لحق بقومه فنافر معبد ابن نضلة بن الأشتر بن حجوان خالد بن وهب الصيداوي وجمعهما وضمرة مجلس النعمان ، فأرسل ضمرة الى خالد نافره واجعلني الكفيل وهو بيني وبينك نصفين فانه لايخافني ، واجعلها مائة في مائة في خفرة النعمان وأجعل بينكما بها رهنا فانه لابد من ادائها اذا كنت انا الكفيل . فلما راحوا الى النعمان سب خالد معبداً ، فقال : اتسبني ولم تنافرني قال : انافرك قال مابدالك . قال خالد : اني أجعل الكفيل من شئت وان شئت ولي نعمتكم هذا . قال معبد : فاني قد فعلت واعتقد عليه بما أمره به ضمرة . ثم تغاديا على ضمرة ، فقال ضمرة : والله ان بني طريف لمن أكرم الناس وما رأينا قط أكرم من خالد فنفره على معبد في مجلسه فحبس قيس بن معبد عند النعمان رهينة بمائة من الابل . فقال معبد لبني جابر بن شحنة : اكفلوني

(١) أي طلبت الكلأ في موضعه (٢) الشائلة من الابل ماأتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها

يابنى عمى فانى لم يشنى غدر ضمرة ولا كذبه . قال بنو جابر : نرى بنى فقعس مقرين بهذا . قال : نعم يرون أنها خيانة ولا نضرهم فكفل بنو جابر الابل فلما أتى معبد بنى فقعس قال بنو وثار وبنو نوفل بن فقعس : والله مانرضى بهذا أبداً ما بقى منا انسان فنهضت بنو فقعس الى النعمان فوجدوا عنده ضمرة فقال سبرة بن عمرو بن الحارث بن وثار بن فقعس بن طريف :

انى ان أنكر وجهى سبره الرجل الاشم فيه الزعره (١)

* كالميسم الحامى عليه الغبره *

الى ان قال

والله ما نعقل منها بكره أو يأمر النعمان فيها أمره

فامرهم النعمان أن يتقاضوا الى العُزّى صنم كان بنخلة فعندها قال سبرة :

أَضَمْرَ بن ضمر ابلقَ الاست والقفا وهل مثلنا فى مثلها لك غافر
اتنسى دفاعى عنكَ اذ أنت َمُسْلَمٌ وقد سال من ذلّ عليك قُراقر (٢)
ونسوَتكم فى الرَّوع بادٍ وجوهُها يُخَلْنَ إِماءً والإِماء حرائر (٣)
يسلخن باللبل الشوىّ باذرع كايدى السباع والرؤس حواسر
أعيّرتنا ألبانها ولحومها وذلك عارٌ يا ابنَ رِيطةَ ظاهرُ (٤)
وإِنا لتغشانا حقوقٌ ولم تكن تقربنا للمخزيات الاباعرُ
نحابى بها أكفاءَنا ونهينها ونشربُ فى أثمانها ونقامر (٥)
وتكسبها فى غير غدر أكفنا اذا عقدت يوم الحِفاظ الدوائر

(١) الزعرة : سوء الخلق (٢) المسلم : المخذول الذى لاناصر له ، وقراقر اسم واد (٣) الروع هنا الحرب ، وقوله يخلن اماء أى يحسبن اماء . وكانت الحرة فى ذلك الوقت تتشبه بالامة خوفاً على نفسها من السبى ، وقوله والاماء حرائر معناه انكم تفرقتم حتى تركتم اماءكم فيما تركتم فصرن بمنزلة الحرائر (٤) عيره الامر قال المجد ولا تقل عيره بكذا أى نسبه الى العار والذم ، وظاهر أى زائل ، يريد عيرتنا البان الابل ولحومها واقتناء الابل مباح لامحظور فيه وعاره ذاهب (٥) نحابى من المحاباة وهى العطاء ، والاكفاء جمع كفء وهو النظير المماثل لك ، وقوله ونهينها أى للاضياف ومن يطلب القرى

وانا لَنَقْرِى الضيفَ فى ليلةِ الشتا   عظيم الجفان فوقهن الحوائر

والحوائر جمع حوير وهو الشحم الابيض وبعد هـذا ثلاثة أبيات أخر . ثم أورد لسبرة الفقعسى أشعاراً كثيرة يخاطب بها ضمرة ويهجوه بها وفى سياقه هـذا نقض فانه لم يذكر فيه وجه تعييره بالابل ولاالى أىّ شىء تم حالهما والله أعلم .

منافرة جرير البجلى وخالد بن ارطاة الكلبي

قال ابن الاعرابى فى نوادره : كان جرير بن عبد الله البَجَلى تنافر هو وخالد بن أرطاة الكلبى الى الاقرع بن حابس ، وكان عالم العرب فى زمانه . والمنافرة المحاكمة من النفر لان العرب كانوا اذا تنازع الرجلان منهم وادعى كل واحد انه أعز من صاحبه تحاكما الى عالم فمن فضل منهما قدم نفره عليه ، أى فضل نفره على نفره . فقال الاقرع : ماعندك ياخالد ؟ فقال : ننزل البَرَاح[1] ، ونطعن بالرماح ، ونحن فتيان الصباح ، فقال : ماعندك ياجرير ؟ فقال : نحن أهل الذهب الأصفر ، والأحمر المعتصر ، نخيف ولانخاف ، ونطعم ولا نستطعم ، ونحن حى لَقَاح ، نُطْعم ماهبت الرياح ، نضمن الدهر ، ونصوم الشهر ، ونحن الملوك لقسر . فقال الأقرع : واللاتِ والعُزّى ، لو نافرتَ قيصرَ ملكَ الروم ، وكسرى عظيم الفرس ، والنعمان ملك العرب لنفرت عليهم ، وروى لنصرت عليهم . فقال عمرو بن خثارم البَجَلى فى هذه المنافرة :

يا أقرعَ بنَ حابسٍ يا أقرعُ   اِنى أخوكَ فانظرَنْ ما تصنعَ
اِنك اِنْ يُصْرعْ أخوك تصرعُ   انى أنا الداعى نِزاراً فاسمعوا
فى باذخٍ من عز مجدٍ يفرع   به يضر قادر وينفع
وادفع الضيم غداً وامنع   عزّ الذّ شامخ لا يقمع
يتبعه الناس ولا يستتبع   هل هو إلا أذنب وأكرع

---

(١) يأتى شرح هذه الكلمة وما بعدها فى الاصل

وزَمَع مُؤتَشَبٌ مجتمع وحَسَبٌ وَغلٌ وأنفٌ اَجدَعُ

قوله : يا أقرع بن حابس هو من الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، وكانت هذه المنافرة فى الجاهلية قبل اسلامه . والصرع : الهلاك . ونزار : هو أبو قبيلة وهو نزار بن معد بن عدنان . والباذخ : العالى يقال جبل باذخ بمعجمتين . والمجد : العظمة والشرف . ويفرع : أى يعلو كل عز ومجد يقال فرعت قومى أى علوتهم بالشرف ونحوه وهو بالفاء ومهملتين ، والألدّ : الاشدّ ولدّه يلدّه غلبه فى الخصومة والشامخ : المرتفع ، ويقمع : أى يقهر ويذل يقال قمعه بالقاف والميم فانقمع ، وقوله هل هو الضمير لخالد بن أرطاة الكلبى . والأكرع جمع كراع بالضم وهو مستدق الساق استعاره لأسفل الناس كالذنب . والزمع بفتح الزاى والميم هو رذال الناس يقال هو من زمع الناس أى من مآخيرهم . والمؤتَشَب بفتح الشين قال فى الصحاح : وفلان مؤتَشَب أى مخلوط غير صريح فى نسبه ، والوغل بفتح الواو وسكون المعجمة . قال فى الصحاح : والوغل النذل من الرجال . وأجدع بالجيم والدال المهملة مقطوع الأنف . وقوله تنزل البراح بفتح الموحدة والحاء المهملة المكان الذى لاسترة فيه من شجر وغيره وهو منزل الكرماء . وقوله : والأحمر المعتصر هو الخمر . وقوله حىّ لَقاح بفتح اللام بعدها قاف . قال فى الصحاح : يقال حى لَقاح للذين لا يَدينون الملوك أو لم يُصبهم فى الجاهلية سبأ . وجرير بن عبد الله البجلى صحابى وكان جميلا .

قال عمر هو يوسف هذه الأمة وقدمه عمر فى حروب العراق على جميع بَجِيلة وكان لهم أثر عظيم فى فتح القادسية ثم سكن جريرٌ الكوفةَ وأرسله علىٌّ رسولاً الى معاوية ثم اعتزل الفريقين وسكن قرقيساء حتى مات سنة احدى وقيل أربع وخمسين . وفى الصحيح انه صلى الله تعالى عليه وسلم بعثه الى ذى الخُلَصة فهدمها وفيه قال ما حجبنى رسول الله تعالى عليه وسلم منذ أسلمت ولا رآنى إلا تبسم ، كذا فى الاصابة لابن حجر . وخالد بن أرطاة الكلبى جاهلى . وسيأتى ذكر ابن حابس

فى الكلام على الحكام . وأما عمرو بن خثارم البجلى فهو جاهلى والله أعلم هذا على وجه الاختصار . وأما على وجه البسط فهو ما أورده أبو محمد الاعرابى فى (فرحة الأديب) قال : أملى علينا أبو الندى قال كان سبب المنافرة بين جرير بن عبد الله البجلى وبين خالد بن أرطاة بن خشين بن شبث الكلبى . ان كلباً أصابت فى الجاهلية رجلاً من بجيلة يقال له مالك بن عتبة من بنى عادية بن عامر بن قداد فوافوا به عكاظ فمر العادى بابن عم له يقال له القاسم بن عقيل ابن أبى عمرو بن كعب بن عريج بن الحويرث بن عبد الله بن مالك بن هلال بن عادية بن عامر بن قداد يأكل تمراً فتناول من ذلك التمر شيئاً ليتحرم به فجذبه الكلبى . فقال له القاسم انه رجل من عشيرتى فقال لو كانت له عشيرة منعته فانطلق القاسم الى بنى عمه بنى زيد بن الغوث فاستتبعهم . فقالوا نحن منقطعون فى العرب وليست لنا جماعة نقوى بها . فانطلق الى آخر فاستتبعهم فقالوا كلما طارت وبرة من بنى زيد فى أيدى العرب أردنا أن نتبعها . فانطلق عند ذلك الى جرير بن عبد الله البجلى فكلمه فكان القاسم يقول ان أول يوم أريت فيه الثياب المصبغة والقباب الحمر اليوم الذى جئت فيه جريراً فى قسر . وكان سيد بنى مالك بن سعد بن زيد بن قسر وهم بنو أبيه فدعاهم فى انتزاع العادى من كلب فتبعوه . فخرج يمشى بهم حتى هجم على منازل كلب بعكاظ فانتزع منهم مالك بن عتبة العادى وقامت كلب دونه . فقال جرير زعمتم ان قومه لا يمنعونه فقالت كلب ان رجالنا خلوف . فقال جرير لو كانوا لم يدفعوا عنكم شيئاً . فقالوا كأنك تستطيل على قضاعة ان شئت قايسنا كم المجد وزعيم قضاعة يومئذ خالد بن أرطاة بن خشين بن شبث قال ميعادنا من قابل سوق عكاظ فجمعت كلب وجمعت قسر ووافوا عكاظ من قابل . وصاحب أمر كلب خالد بن أرطاة فحكموا الاقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع حكمه جميع الحيين ووضعوا الرهون على يدى عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فى أشراف من قريش . وكان فى الرهن من قسر الاصرم بن عوف بن عويف

ابن مالك بن ذبيان بن ثعلبة بن عمرو بن يشكر بن على بن مالك بن سعد بن نذير بن قسر ومن احمر حازم بن أبى حازم وصخر بن العلية . ومن بنى زيد بن الغوث بن انمار رجل ثم قام خالد بن أرطاة فقال لجرير ما تجعل قال الخطر فى يدك قال ألف ناقة حمراء فى ألف ناقة حمراء . فقال جرير ألف قينة عذراء فى ألف قينة عذراء . وان شئت فألف أوقية صفراء لألف أوقية صفراء . قال من لى بالوفاء ؟ قال كفيلك اللات والعُزّى وإساف ونائلة ويَعُوقَ وذو الخُلَصة ونسر . فمن عليك بالوفاء قال ودّ ومناة وقلس ورضا . قال جرير لك بالوفاء سبعون غلاماً مُعِمّاً مُخْوِلاَ يوضعون على أيدى الاكفاء من أهل الله . فوضعوا الرهن من بجَيلة ومن كلب على أيدى من سمينا من قريش . وحكموا الاقرع بن حابس وكان عالم العرب فى زمانه . فقال الأقرع ما عندك ياخالد ؟ فقال ننزل البَرَاح . ونطعن بالرماح . ونحن فتيان الصباح . فقال الأقرع ما عندك ياجرير ؟ قال نحن أهل الذهب الأصفر . والأحمر المعتصر . نخيف ولا نخاف . ونطعم ولا نستطعم . ونحن حى لَقَاح . نُطعم ما هبت الرياح ، نطعم الشهر . ونظمن الدهر . ونحن الملوك لقسر . فقال الأقرع واللات والعُزّى لو فاخرت قيصر ملك الروم وكسرى عظيم فارس والنعمان ملك العرب لنفرتك عليهم وأقبل نعيم بن حجبة النمرى . وقد كانت قسر ولدته بفرس الى جرير فركبه جرير من قبل وحشيه [1] فقيل لم يحسن أن يركب الفرس ، فقال جرير الخيل ميامن وانا لا نركب الا من وجوهها . وقد كان نادى عمرو بن خثارم أحد بنى جشم بن عامر بن قداد فقال :

لا يغلب اليوم فتى والا كما ... يا ابنىْ نزارٍ انصرا أخا كما

إن أبى وجدته أبا كما ... ولم أجِدْ لى نَسَباً سوا كما

غيثٌ ربيع سبط ندا كما ... حتى يحلَّ الناسُ فى مرعا كما

أنتم سرور عينٍ من رآ كما ... قد مُلِئَتْ فما ترى سوا كما

(١) أى الايسر

قد فاز يومَ الفخر من دعا كما   ولا يعدّ أحد حصا كما
وان بنوا لم يُدركوا بنا كما   مجداً بناه لكما أبا كما
ذاك ومن ينصُرُه مثلا كما   يوماً اذا ما سعرت نارا كما

وقال أيضاً

يالَنزارِ قد نى فى الاخشب   دعوة داعٍ دعوة المثوب (١)
يالنزار ثم فاسعى واركبى   يالنزار ليس عنكم مذهبى
ان أباكم هو جدى وأبى   لم ينصر المولى اذا لم تغضبى
يالنزار اننى لم أكذب   أحسابكم اخطرتها وحسبى
ومن تكونوا عزه لايغلب   ينمى الى عزهجان مصعب

* كانه فى البرج عند الكوكب *

وقال أيضاً

ياأقرعَ بن حابس ياأقرع   انى أخوك فانظرن ما تصنعُ
انك ان يصرعْ أخوك تصرع   إنى أنا الداعى نِزار فاسمعوا
لى باذخ من عزه ومفزع   به يضر قادر وينفع
وادفع الضيم غدا وامنع   عز الذّ شامخ لايقمع
يتبعه الناس ولا يستتبع   هل هو الا ذنب وأ كرع
وزَمَع مؤتشَبٌ مجمَع   وحسب وَغْلٌ وانف أجدع

وقال أيضاً

ياأقرعَ بن حابس ياأقرع   انك ان يصرعْ أخوك تصرع
إنى أناالداعى نزاراً فاسمعوا   فى باذخ من عزه ومفزع
قم قائماً ثمّتَ قلْ فى المجمع   للمرء ارطاة أيا ابن الافدع
ها إن ذا يومُ علا ومجمع   ومنظر لمن رأى ومسمع

---

(١) الاخشب : اسم جبل

فنفره الاقرع بمضر وربيعة ولولاه نفر الكلبي ، وكانت القرابة بين بجيلة وولد نزار . ان أراش بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان خرج حاجا فتزوج سلامة بنت انمار بن نزار . وأقام معها فى الدار بغور تهامة فاولدها انمار بن اراش ورجالا فلما توفى اراش وقع بين انمار بن اراش واخوته اختلاف فى القسمة فتنحى عن اخويه ، وأقام أخويه فى الدار مع اخوالهم ، وتزوج انمار بن اراش بهند بنت مالك بن غافق بن الشاهد فولدت افتل وهو خثعم . ثم توفيت فتزوج ببجيلة بنت صعب بن سعد العشيرة فولدت له عبقر ، فسمته باسم جدها وهو سعد ولقب بعبقر لانه ولد على جبل يقال له عبقر وولدت أيضاً الغوث ووادعة وصهيبة وحزيمة واشهل وشهلاء وسنية وطريفاً وفهماً وخدعة والحرث انتهى ما أورده ابو محمد الاعرابى والله أعلم .

منافرة القعقاع بن زرارة وخالد بن مالك

ان القعقاع بن زرارة بن عدس ، وخالدَ بنَ مالك بن ربعى بن سلم بن جندل ابن نهشل تنافرا الى اكثم بن صيفى أيهما أكرم وجعلا بينهما مائة من الابل لمن كان أكرمهما . فقال اكثم : سفيهان يريدان الشر وطلب اليهما أن يرجعا عما جاءا له فابيا فبعث معهما رجلا الى ربيعة بن حُذار . وحبس ابلهما التى تنافرا عليها مائة ومائة . وقال : انطلقا معرسولى هذا فانه (قتل أرضاً عالمُها ، [1] وقتلت أرض جاهلها) فارسلها مثلا . فلما قدما على ربيعة واخبراه بما جاءا له قال ربيعة للقعقاع : ماعندك ياقعقاع ؟ قال : أنا ابن معبد بن زرارة وأمى معاذة بنت ضرار رأس من اعمامى عشرة ومن اخوالى عشرة وهذه قوس عمى رهنها عن العرب وجدى زرارة أجار ثلاثةَ أملاكٍ بعضهم من بعض قال : وفى ذلك يقول الفرزدق :

---

(١) أصل القتل التذليل ومنه قتل الخمر وهو مزجها بالماء والمراد بالمثل ان الرجل العالم بالارض عند سلوكها يذلل الارض ويطلبها بعلمه فلم يضل ولم يهلك ، يضرب فى مدح العلم وقتلت أرض جاهلها فى مقابلة قتل ارضا عالمها يضرب لمن يباشر أمراً لاعلم له به

منا الذى جمع الملوك وبينهم حربٌ يشب سعيرُها بضرام

ثم قال ربيعة لخالد بن مالك : ماعندك ياخالد ؟ قال : أنا ابن مالك . قال : لم تصنع شيئاً . ثم ابن من ؟ قال : ابن ربعى . قال : لم تصنع شيئاً . ثم ابن من ؟ قال : ابن سلم . قال : الآن . فمن أمك ؟ قال : قردعة . قال : ابنةمن ؟ قال : ابنة مندوس . قال ربيعة للقمقاع : قد نفرتك ياابن الضبية . فقال خالد : أتجعل ابن معبد بن زرارة كمثل ابن سلم بن جندل فقال ربيعة : (ما جُعِلَ العبد كَرَبِهِ) فارسلها مثلاً .

منافرة هاشم بن عبد مناف وأمية بن عبد شمس

كان هاشم بن عبد مناف أحد أجداد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد تولى أمر مكة بعد أبيه وسادَ قومه بما كان عليه من محاسن الاخلاق ، وجليل الشيم ، وكمال الشجاعة ، ووافر الكرم ، وغاية الفصاحة ، وغير ذلك من الصفات الفاضلة التى لم يطاولهُ بها أحد . وهو أول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى الشام وهو الذى كان يقوم بامر الناس فى السنين المقحطة ويطعمهم أحسن الطعام ، ولذلك لهجت السنة العرب على اختلافهم فى القبائل بالثناء عليه ، فعندذلك حسده ابن أخيه أمية بن عبدشمس بن عبدمناف حيث عجز عن محا كاته فى صنيعه ومباراته فى شيمه حتى شمتَ به اناس كثيرون من قريش . فقال فيه وهب بن عبد قصى :

تحمل هاشم ماضاق عنه وأعيا اَنْ يقومَ به بريض

أتاهم بالغرائر متقلاتٍ من الشام بالبر البغيض

فاوسع أهل مكةَ من هشيمٍ وشاب اللحم باللحم الغريض (١)

ونشبت العداوة بين أمية وهاشم وأراد منافرته فكره هاشم ذلك لنسبه

(١) الغريض : الطرى

وقدره ، فلم تدعه قريش حتى نافره الى الكاهن الخزاعى فى خمسين ناقة سود الحدق ينحرها ببطن مكة والجلاء من مكة عشر سنين فخرج كل منهما فى نفر فنزلوا على الكاهن فقال قبل ان يخبروه خبرهم : والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ، وما بالجوّ من طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر ، من منجد وغائر ، لقد سبق هاشم أمية الى المفاخر . فنفر الخزاعى هاشماً وقال لامية : تنافر رجلاً هو أطول منك قامة ، وأعظم منك هامة ، وأحسن منك وسامة ، وأقل منك لامة ، وأكثر منك ولداً ، وأجزل منك صفراً ؟ فقال أمية : من انتكاث الزمان أنْ جعلناك حكماً . فاخذ هاشم الابل فنحرها وأطعمها من حضره ، وخرج أمية الى الشام فاقام بها عشر سنين . فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وامية وسيأتى لهاشم ذكر فى مبحث حكام العرب ، وما قاله عند تنافر قريش وخزاعة عنده ان شاء الله تعالى .

حكام العرب فى الجاهلية

الحاكم منفذ الحكم كالحكم محركة جمعه حكام . وحكام العرب علماؤهم الذين كانوا يحكمون بينهم اذا تشاجروا فى الفضل والمجد وعلو الحسب والنسب وغير ذلك من الامور التى كانت تقع بينهم وكان لكل قبيلة من قبائلهم حكم يتحاكمون اليه وهم كثيرون لايسعهم الحصر ونحن نذكر منهم من وجدناه فيما عندنا من كتب الادب ، منهم :

أكثم بن صيفى بن رياح (١)

كان اكثم بن صيفى حكماً من حكام تميم فصيحاً عالماً بالانساب ، وكان من حديثه انه لما ظهر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة ودعا الى الاسلام بعث أكثم ابنه حُبَيشاً فاتاه بخبره فجمع بنى تميم وقال : يابنى تميم لاتحضرونى سفيهاً فانه

(١) أقول ومن الحكام أيضاً عيينة بن حصن بن حذيفة وحرملة بن الاشعر المرى وهرم ابن قطبة بن سنان بن عمرو الفزارى وبشر بن عبد الله بن حبان وابو سفيان بن حرب بن امية وأبو جهل بن هشام وانس بن مدرك

من يَسْمَعْ يَخَلْ (١) إن السفيه يوهن من فوقه ويثبت من دونه ، لاخير فيمن لاعقل له ، كبرت سنى ودخلتنى ذلة ، فاذا رأيتم منى حسناً فاقبلوه ، وان رأيتم منى غير ذلك فقومونى استقِم ، ان ابنى شافه هذا الرجل مشافهةً واتانى بخبره وكتابهِ يأمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الاخلاق ، ويدعو الى توحيد الله تعالى وخلع الاوثان ، وترك الحلف بالنيران . وقد حلف ذوو الرأى منكم أن الفضل فيما يدعو اليه ، وان الرأى ترك ماينهى عنه . إن أحق الناس بمعونة (محمدٍ) ومساعدته على أمره أنتم ، فان يكن الذى يدعو اليه حقاً فهو لكم دون الناس ، وان يكن باطلا كنتم أحق الناس بالكف عنه والستر عليه ، وقد كان أُسقُف نجران (٢) يحدث بصفته ، وكان سفيان بن مجاشع يحدث به قبله ، وسمى ابنه محمداً فكونوا فى أمره أوّلاً ولا تكونوا آخراً . ائتوا طائعين قبل أن تأتوا كارهين ، إن الذى يدعو اليه محمدٌ لو لم يكن ديناً كان فى أخلاق الناس حسناً أطيعونى واتبعوا أمرى أسأل لكم أشياء لا تُنزع منكم أبداً وأصبحتم أعزّ حيّ فى العرب ، وأكثرهم عدداً ، وأوسعهم داراً ، فانى أرى أمراً لا يجتنبه عزيز إلاّ ذل ، ولا يلزمه ذليل الاّ عزّ ، إن الأول لم يدع للآخر شيئاً وهذا أمر له ما بعده ، من سبق اليه غمر المعالى واقتدى به التالى والعزيمة حزم والاختلاف عجز . فقال مالك بن نُوَيرة : قد خرف شيخكم . فقال أكثم ويلٌ للشجىّ من الخلىّ ، (٣) ولهفى على أمر لم أشهده ولم يسبقنى فذهب مثلا .

(١) المعنى ان من يسمع الشىء ربما ظن صحته ، وقيل من يسمع أخبار الناس ومعايبهم يقع فى نفسه عليهم المكروه أى أن المجانبة للناس اسلم ، ومفعولا يخل محذوفان أى يخل مسموعه صادقاً على ماف كتب النحو ، قال الكميت :

فان تصغ تكفاه العداة إنا آ• نا ونسمع بنا أقوال اعدائنا يخل

(٢) هو قس بن ساعدة احد بل أوحد حكماء العرب وبلغائهم — راجع الجزء الثانى من هذا الكتاب — (٣) يضرب مثلا لسوء مشاركة الرجل صاحبه ، يقول ان الخلى لايساعد الشجى على مابه ويلومه ، والخلى الخالي من الهم وياءوه مشددة وياء الشجى مخففة وقد تشدد ، قيل أن ول من قاله لقمان وقصته فى صفراهن شراهن وقيل بل أن أول من تكلم به أكثم بن صيفى لما اتاه ابنه من عند رسول الله (ص) بكتاب فدعى قومه وحرضهم على الاسلام فقال مالك بن

قال المدائني : أول من قال ذلك أكثم بن صيفي التميمي ومن كلامه: مقتل الرجل بين فكيه . والمقتل القتل وموضع القتل أيضاً . ويجوز أن يجعل اللسان قتلا مبالغة في وصفه بالافضاء اليه ، كما قال الشاعر : (فانما هي اقبال وادبار) ويجوز أن يجعل موضع القتل أي في سببه يحصل القتل . ويجوز أن يكون بمعنى القاتل فالمصدر ينوب عن الفاعل كأنه قيل قاتل الرجل بين فكيه . قال المفضل : أول من قال ذلك أكثم بن صيفي في وصيته لبنيه وكان جمعهم فقال: تباروا فان البرّ يبقى عليه العدد ، وكفوا ألسنتكم فان مقتل الرجل بين فكيه . إن قول الحق لم يدع لي صديقاً . الصدق منجاة . لا ينفع التوقي مما هو واقع . وفي طلب المعالي يكون العناء . الاقتصاد في السعي أبقى للجمام . من لم يأسَ على مافاته ودع بدنه . ومن قَنِعَ [1] بما هو فيه قرت عينه . التقدم قبل التندم . أصبح عند رأس الأمر أحب اليّ من أن أصبح عند ذنبه . لم يهلك من مالك ما وعظك . ويل لعالم أمرٍ من جاهله . يتشابه الأمر اذا أقبل . وإذا أدبر عرفه الكيس والأحمق . البطر عند الرخاء حمق . والعجز عند البلاء أفن . أي نقص . لا تغضبوا من اليسير فانه يجني الكثير . لا تجيبوا فيما لم تسألوا عنه . ولا تضحكوا مما لا يضحك منه . تناءوا في الديار ولا تباغضوا فانه من يجتمع يتقعقع عمده . الزموا النساء المهانة . نِعْمَ لهوُ الحرة المغزل . حيلة من لا حيلة له الصبر ، ان تعِشْ ترَ مالم ترَه .

نورة قد خرف شيخكم انه ليدعوكم الى الفناء ويعرضكم على البلاء ان تجيبوه تفرق جماعتكم وتظهر أضغانكم ويذل عزيزكم فمهلا مهلا فقال أكثم بن صيفي : ويل للشجي من الخلي فيالهف نفسي على أمر لم أدركه ولم يفتني مآسى عليك بل على العامة يامالك انك هالك وان الحق اذا قام دفع الباطل وصرعه صرعى قياما فتبعه مائة من عمرو وحنظلة وخرج الى النبي (ص) فلما كان في بعض الطريق عمد حبيش الى رواحلهم فنحرها وشق ما كان معهم من قربة وهرب فأجهدا كثم العطش فمات وأوصى من معه باتباع النبي (ص) وأشهدهم أنه أسلم فانزل الله فيه : ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله

(١) قنع بالكسر قنوعاً وقناعة اذا رضي واما قنع بالفتح فمعناه سأل وما أحسن ما قال بعضهم :

العبد حر ان قنع ... والحر عبد ان قنع
فاقنع ولا تقنع فما ... شيء يشين سوى الطمع

المكثار كحاطب ليل . من أكثر اسقط . لا تجعلوا سراً الى أمة . فهذه تسعة وعشرون مثلاً كلها من كلام اكثم . وقد أحسن من قال فى معنى قوله (مقتل الرجل بين فكيه) : رحم الله امرأ أطلق ما بين كفيه ، وأمسك ما بين فكيه . ولله درّ أبى الفتح البستى حيث يقول فى معنى هذا المثل أيضاً :

تكلّمْ وسَدِّدْ ما استطعتَ فانما　　كلامُك حيٌّ والسكوت جمادُ
فان لم تجِد قولاً سديداً تقولُهُ　　فَصَمتُك عن غير السديدِ سدادُ

واحتذاه القاضى أبو احمد منصور بن محمد الهروى فقال :

اذا كنت ذا علم وما راك (1) جاهل　　فَأَعْرِضْ ففى تركِ الجوابِ جواب
وان لم تصِبْ فى القول فاسكُتْ فانما　　سكوتك عن غير الصواب صوابُ

وضمن الشيخ ابو سهل النيلى شرائط الكلام فى قوله حيث يقول :

أوصيك فى نظم الكلام بخمسةٍ　　ان كنت للموصى الشفيق مطيعا
لاتغفُلَنْ سبب الكلام ووقته　　والكيف والكم المكان جميعا

وقد ذكرت نبذة من كلام اكثم مع كسرى وما خطب به فيماسبق ، وسيأتى ان شاء الله فى الخطب شيء منه . ومنهم :

حاجب بن زرارة بن عدس التميمى

كان حاجب أيضاً من حكام تميم ، وله معرفة تامة باخبار العرب وأحوالها وأنسابها وكان من مشاهير فصحاء زمانه وبلغائهم ، ومن المعروفين بالوفاء بين العرب . وفد على كسرى لما منع تميماً من ريف العراق فاستأذن عليه فاوصل اليه فقال : أسيدالعرب أنت ؟ قال : لا . قال : فسيدمضر ؟ قال : لا . قال : فسيد بنى أبيك أنت ؟ قال : لا . ثم أذن له فلما دخل عليه قال له : من أنت ؟ قال : سيد العرب . قال : أليس قد أوصلت اليك أسيد العرب . فقلت : لا . حتى

(1) أى جادلك وخاصمك

اقتصرت بك على بنى أبيك . فقلت : لا . قال له : أيها الملك لم أكن كذلك حتى دخلت عليك فلما دخلت عليك صرت سيدَ العرب . قال كسرى : آه أملؤا فاه دُرّاً . ثم قال : إنكم معشرَ العرب غُدُر فان أَذِنْتُ لكم أفسدتم البلاد ، وأغرتم على العباد ، وآذيتمونى . قال حاجب : فانى ضامنٌ للملك ان لا يفعلوا . قال : فمن لى بان تفى أنت ؟ قال : ارهنك قوسى . فلما جاء بها ضحك من حوله وقالوا : لهذه العصايفى . قال كسرى : ما كان ليسلمها لشىء أبداً . فقبضها منه وأذن لهم أن يدخلوا الريف . ثم إن مضر اتت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا : يارسول الله هلك قومك ، وا كلهم الضبع يريدون الجوع . والعرب يسمون السنة الضبع والذئب . قال جرير : (من ساقت السنة الشهباء والذيب) (١) وقال آخر :

أبا خُراشةَ أما أنت ذا نفرٍ ... فان قومِيَ لم يأ كلهم الضَّبُعُ (٢)

فدعالهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأحيوا . وقد كان دعا عليهم فقال : «اللهم اشدُدْ وطاتَكَ على مضر ، وابعث عليهم سنينَ كسنى يوسف» . ومات حاجب بن زرارة فارتحل عطارد بن حاجب الى كسرى يطلب قوس أبيه . فقال له : ما أنت الذى رهنتها . قال : اجل . قال : فما فعل ؟ قال : هلك وهو أبى وقد وفى له قومه ووفى هو للملك فردها عليه وكساه حلة . فلما وفد الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عطارد بن حاجب وهو رئيس تميم وأسلم على يديه أهداها للنبى

---

(١) قبله : (يأوى اليك فلامن ولا جحد) والبيت من قصيدة له يمدح بها أيوب بن سليمان ابن عبد الملك ومعناه يأوى اليك أهل الحاجة الذين ساقتهم السنة الشهباء وهى التى لاخضرة فيها أولامطر والذيب أى الجوع (٢) نسبه الزمخشرى فى المفصل الى ابى ذؤيب الهذلى ونسبه غير واحد الى العباس بن مرداس من ابيات يخاطب بها خفاف بن ندبة السلمى ، وابو خراشة كنية خفاف بن ندبة ، والنفر فى اصل معناه اسم لما دون العشرة والمراد هنا القوم والجماعة والضبع السنة المجدبة ، قيل ان ذلك اسم لها وقيل بل اطلاقه عليها على سبيل التشبيه كأنه شبه نقص السنة المجدبة لمن تأتى عليه باكل الضبع وهذا البيت من شواهد النحو والشاهد فى اما أنت حيث حذف فيه كان بعد أن المصدرية

صلى الله تعالى عليه وسلم فلم يقبلها فباعها من رجل من اليهود باربعة آلاف درهم . وهذه رواية ابن عبد ربه فى العقد الفريد . وقال الامام المرزوقى : وقد روى القصة بابسط مما ذكر . كان السبب فى ذلك أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان دعا على مُضر وقال « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، وابعث عليهم سنيناً كسنى يوسفَ » فتوالت الجدوبة عليهم سبع سنين ، فلما رأى حاجب الجهد على قومه جمع بنى فَزارة وقال : إنى أزمعت[1] على انى آتى الملك يعنى كسرى فاطلب أن يأذنَ لقومنا فيكونوا تحت هذا البحر حتى يحيوا . فقالوا : رشدت فافعل غير أنا نخاف عليك بكر بن وائل . فقال : مامنهم وجه الاّ ولى عنده يدٌ الا ابن الطويلة التميمى وسأداويه . ثم ارتحل فلم يزل ينتقل فى الاتحاف والبرّ من الناس حتى انتهى إلى المـاء الذى عليـه ابن الطويلة فنزل ليلاً فلما أضاء الفجر دعا بنِطعٍ[2] ثم أمر فصب عليه التمر ، ثم نادى حَيَّ على الغداء فنظر ابن الطويلة . فاذا هو بحاجب فقال لأهل المجلس : أجيبوه . وأهدى إليه جزراً ، ثم ارتحل فلما بلغ كسرى شكا اليه الجهد فى أموالهم وأنفسهم وطلب ان يأذن لهم فيكونوا فى حد بلاده . فقال : أنتم معشر العرب غُدُر فاذا أذنت لهم عاثوا[3] فى الرعية وأغاروا . قال حاجب : إنى ضامن للملك أن لايفعلوا . قال : فمن لى بأن تفى أنت قال : أرهنك قوسى . فلما جاء بها ضحك من حوله ، فقال الملك : ما كان ليسلمها اقبضوها منه . ثم جاءت مضر الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد موت حاجب فدعا لهم فخرج أصحابه الى بلادهم وارتحل عطارد بن حاجب الى كسرى يطلب قوس أبيه . فقال : ما أنت بالذى وضعتها . قال : أجل انه هلك وأنا ابنه وفىّ للملك . قال : ردوا عليه وكساه حلة . فلما وفد الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أهداها اليه فلم يقبلها فباعها من يهودىّ بأربعة آلاف درهم فصار ذلك فخراً ومنقبة لحاجب وعشيرته . والى هذه القوس أشار أبو تمام يمدح بها أبا دُلَفٍ العجلى :

---

(١) يقال ازمعت الامر وعليه أي أجمعت أوثبت عليه كزمعت بالتشديد (٢) هو بالكسر وبالفتح وبالتحريك وكعنب : بساط من الاديم (٣) أى أفسدوا

على مثلها من أربُعٍ وملاعبِ ... تذال مصونات الدموع السواكب (١)
أقول لقُرحان من البين لم يجد ... رسيس الهوى بين الحشا والترائب (٢)
أعنّى أفرّق شمل دمعى فاننى ... أرى الشمل منهم ليس بالمتقارب

الى أن قال

اذا العِيسُ لاقت بى أبا دُلَفٍ فقد ... تقطّع ما بينى وبين النوائب (٣)
هنالك تلقى الجودَ حيثُ تقطعت ... تمائمه والمجدُ مرخى الذوائب (٤)
تكاد عطاياه يجنّ جنونها ... اذا لم يعوّذها بنعمة طالب (٥)
يرى أقبحَ الأشياء أوْبةَ آملٍ ... كسته يدُ المأمول حلةَ خائب (٦)
واحسن من نَوْرٍ يفتّحه النَدَى ... بياض العطايا فى سواد المطالب (٧)
اذا الحمت يوماً لحيم وحولها ... بنو الحصن نجل المحصنات النجائب (٨)
فان المنايا والصوارمَ والقنا ... أقاربُهم فى الرَوْع دون الأقارب
جَحَافل لا يتركْنَ ذا جبرية ... سليماً ولا يحربْنَ من لا يحارب (٩)
يمدونَ من أيدٍ عواصٍ عواصمٍ ... تصولُ بأسيافٍ قواضٍ قواضبِ (١٠)

(١) الاربع : المنازل ، وتذال : تحتقر وتهان ، ويروى تذيل وأهينت أيضاً (٢) قرحان : سالم ، والبين الفراق ، والرسيس : الثابت ، والترائب عظام الصدر (٣) العيس : الابل البيض بشقرة ، والنوائب . المصائب (٤) التمائم : خرزات رقط تعلق فى عنق الصبى لدفع العين والمفرد تميمة ، وفى الحديث من علق تميمة فلا أتم الله له ، والجود : الكرم ، والذوائب : النواصى وهى قصاصات الشعر (٥) هذا البيت مما انتقد به على ابى تمام حتى قال بعضهم وماباله ينسبها الى الجنون ويلتمس لها العوذ والرقى هلافك أسارها وعجل خلاصها ولم ينتظر بها نعمة الطالب ففعل كما قال المتنبى :

وعطاء مال لو عداه طالب ... انفقته فى أن تلاقى طالبا

(٦) الاوبة : الرجعة ، والحلة ثوبان : وهنا استعارة (٧) النور : زهر النبت ، والصبا الريح الشرقية ، وهذا البيت من أحسن الشواهد على المقابلة (من صناعة البديع) وهو مأخوذ من قول الاخطل :

رأينا بياضاً فى سواد كأنه ... بياض العطايا فى سواد المطالب

(٨) النجل النسل ويطلق على الولد ، والمحصنات : الحرائر العفيفات (٩) الجحافل : الجيوش وذا جبرية أى متجبر ، ويحربن : يسلبن (١٠) عواصم : موانع ، وقواض قاضيات ، وقواضب : قواطع ، وهذا البيت يستشهد به فى البديع على الجناس الناقص المطرف

اذا افتخرتْ يوماً تميمٌ بقوسها   فخاراً على ما وطّدت من مناقب (١)
فأنتم بذى قارٍ أمالت سيوفكم   عروشَ الذين استرهنوا قوسَ حاجب

يقول اذا افتخرت تميم بذلك فأنتم قتلتم الذين كسبوهم هذا المجد مما ارتهنوه وهدمتم عزهم . وانما يعنى وقعة ذى قار حين قتلت بنو شيبان العجم ونكوا فيهم . وكان رئيسهم سيار بن حنظلة العجلى ، وأبو دُلف عجلى فلذلك خاطبه بهذا . ومنهم :

الاقرع بن حابس أبو عيينة التميمي

كان الاقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان التميمي المجاشعي الدارمي من حكام تميم ومرجعهم فى واقعاتهم ومنافراتهم . قال ابن اسحق : وفد على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وشهد فتح مكة وحُنَيْناً والطائف ، وهو من المؤلفة وقد حسن اسلامه . وقال الزبير فى النسب : كان الاقرع حكما فى الجاهلية ، وقد نادى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من وراء الحجرات يامحمد فلم يجبه . فقال : والله يامحمد ان حمدى لزين ، وان ذمى لشين . فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ذلكم الله . وروى ابن شاهين من طريق المدائنى قال : لما أصاب عيينة بن حصن بني العنبر قدم وفدهم فذكر القصة وفيها فكلم الاقرع بن حابس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى السبي . وكان فى المدينة قبل قدوم السبي فنازعه عيينة ابن حصن . وفى ذلك يقول :

وعندَ رسولِ اللهِ قامَ ابنُ حابسٍ   بخطة أسوارٍ الى المجدِ حازم
له اطلق الأَسْرَى التى فى قيودها   مغللة أعناقُها فى الشكائم (٢)

وشَهِدَ الاقرع مع شُرَحْبيل بن حسنة دُومَةَ الجندل وشهد مع خالد حرب

---

(١) وطدت ثبتت
(٢) الشكائم جمع شكيمة وهى فى اللجام الحديدة المعترضة فى فم الفرس فيها الفأس

أهل العراق وفتح الانبار . وقال ابن دريد : اسم الاقرع بن حابس فراس ، وانما قيل له الاقرع لقرع كان برأسه وكان شريفاً فى الجاهلية والاسلام واستعمله عبدالله ابن عامر على جيش سيره الى خراسان فاصيب بالجوزجان هو والجيش ، وذلك فى زمن عثمان . وذكر ابن الكلبى : انه كان مجوسياً قبل أن يسلم . وذكر الرضى الشاطبى : انه قتل الاقرع بن حابس باليرموك فى عشرة من بيته والله أعلم . ومنهم:

ربيعة بن مخاشن التميمى

كان من حكام تميم واليه المرجع فى عصره حيث كان عالمهم واقفا على انساب قومه وغيرهم من قبائل العرب مقدّراً لمراتبهم ، ومع ذلك كان من أفصح أهل زمانه ومن الخطباء المشهورين مِضيافاً شجاعاً لايعدل قومه عن رأيه ولا يقطعون أمراً دونه . وهو أحد بنى أسيد بن عمرو بن تميم وبنو تميم يزعمون هو الذى أول من قرعت له العصا . وقد ذكرنا الخلاف فى ذلك عند الكلام على ذكاء العرب . ومنهم:

ضمرة بن ضمرة التميمى

كذلك كان من حكام تميم واليه يتنافرون وعنده يتحاكمون لايرون فى وقته كرأيه رأياً ، ولا يستغنون عن مشورته فى وقائعهم وأيامهم لوقوفهم على ما كان عليه من غزارة العقل وذكاء الفطنة وطلاقة اللسان وكرم السجية وخبرته باحوال العرب وأنسابهم . وفى القاموس : انه ضمرة بن أبى ضمرة وصوابه ما ذكرناه كما نبه عليه شارحه الزبيدى . وفى مجمع الامثال للميدانى عند قولهم « اِن العصا قُرِعَتْ لذى الحلم » أن ضمرة حكم فاخذ رشوة فغدر . ومنهم:

عامر بن الظرب العدوانى

كان عامرٌ هذا من حكام قيس ، وقد ذكرنا فى ذكاء العرب أن أبا عبيدةَ

قال : أول من قرعت له العصا عامر بن الظَّرِب ، والقصة هناك . وكانت العرب لاتعدل بفهمه فهماً ، ولا بحكمه حكماً ، وفى كتاب مجمع الامثال : يُقال إنه عاش ثلاثمائة سنة ، ثم ذكر مايدل على ذلك من شعره ، وقد نقلناه سابقاً مع نبذة من خبره . وكان عامر من فصحاء العرب . ومن كلامه : رُبَّ أَكلةٍ تمنع أَكلات.

قال المفضل : أول من قال ذلك عامر بن الظَّرِب العدوانى ، وكان حديثه انه كان يدفع بالناس فى الحج فرآه ملك من ملوك غسّان فقال : لا أترك هذا العدوانى أو أذله فلما رجع الملك الى منزله أرسل اليه أحب أن تزورنى فأحبُوك وأُكرِمَكَ وأتخذك خِلاً . فأتاه قومه فقالوا : أَتَفِدُ ويَفِدُ معك قومك اليه فيصيبون بجنبك ويتجهون بجاهك فخرج وأخرجَ معه نفراً من قومه ، فلما قدم بلاد الملك أكرمه وأكرم قومه . ثم انكشف له رأى الملك فجمع أصحابه وقال : « الرأى نائم والهوى يقظان ، ومن أجل ذلك يغلب الهوى الرأى عجلت حين عجلتم ولن أعود بعدها ، انا قد تورّدنا بلاد هذا الملك فلا تسبقونى بِرَيْث[1] أمر أقيم عليه ولا بعجلة رأى أخف معه فان رأيى لكم » فقال قومه : لقد أكرمنا كما ترى وبعد هذا ما هو خير منه . قال : لا تعجلوا فان لكل عام طعاماً ورُبَّ أكلةٍ تمنع أكلات فمكثوا أياماً . ثم أرسل اليه الملك فتحدث عنده . ثم قال له الملك : قد رأيت أن أجعلك ناظراً فى أمورى . فقال له : ان لى كنزَ علمٍ لست الا به تركته فى الحى مدفوناً وان قومى أضنّاء بى فاكتب لى سجلا بجباية الطريق فيرى قومى طمعاً تطيب به أنفسهم فأستخرج كنزى وأرجع إليك وافراً . فكتب له بما سأله ، وجاء الى أصحابه فقال : ارتحلوا ، حتى اذا أدبروا قالوا : لم نرَ كاليوم وافدَ قوم أقل ولا أبعد من نوال منك . فقال : مهلاً فليس على الرزق فوت ، وغنم من نجا من الموت ، ومن لا يرى باطناً ، يعش واهناً ، فلما قدم على قومه أقام فلم يُعد .

ومن كلامه أيضاً : « رب زارع لنفسه حاصد سواه » قال ابن الكلبى : أول

---

(١) الريث البطء .

من قال ذلك عامر بن الظرِب ، وذلك انه خطب اليه صعصعة بن معاوية ابنته فقال : « ياصعصعة انك جئت تشترى مني كَبِدِى ، وارحم ولدى عندى ، منعتك أو بعتك ، النكاح خير من الايمة ، والحسيب كفء الحسيب ، والزوج الصالح يُعَدُّ أباً ، قد أنكحتك خشيةَ أن لا أجد مثلك » ثم أقبل على قومه فقال يا معشر عَدوان أخرجت من بين أظهركم كريمتَكم على غير رغبة عنكم ، ولكنه من خُطَّ له شيء جاءه ، رُبَّ زارعٍ لنفسه حاصد سواه ، ولولا قسم الحظوظ على غير الجدود ، ما أدرك الآخر من الاول شيئاً يعيش به ، ولكن الذى أرسل الحيا[1] أنبت المرعى ، ثم قسمه أكلا لكل فم بقلة ، ومن الماء جَرعة ، إنكم ترون ولا تعلمون ، لن يرى ما أصفُ لكم إلا كل ذى قلب واع ، ولكل شيء راع ، ولكل رزق ساع ، اما أكيَسُ واما أحمق ، وما رأيت شيئاً قط الا سمعت حسه ، ووجدت مسه ، وما رأيت موضوعا الا مصنوعا ، وما رأيت جائيا الا داعيا ، ولا غانما الا خائبا ، ولا نعمةً الا ومعها بؤس ، ولو كان يميت الناسَ الداء لأحياهم الدواء ، فهل لكم فى العلم العليم ؟ » قيل : ما هو قد قلت فأصبت وأخبرت فصدقت ؟ فقال : « أرى أموراً شتى وشيئا شيًا حتى يرجع الميت حيا ، ويعود اللاشيء شيًا ، ولذلك خلقت الأرض والسماء » فتولوا عنه راجعين ، فقال : وَيْلُمِّها نصيحة لو كان من يقبلها . ومن كلامه أيضاً : « من طلب شيئاً وجده » وفى مجمع الأمثال للميدانى ان أول من قال ذلك : عامر بن الظرب وكان سيد قومه فلما كبر وخشى عليه قومه أن يموت اجتمعوا اليه فقالوا : انك سيدنا وقائلنا وشريفنا فاجعل لنا شريفا وسيداً وقائلا بعدك . فقال : (يامعشر عدوان كلفتمونى بغياً ان كنتم شرّفتمونى فانى أريتكم ذلك من نفسى فأنّى لكم مثلى . افهموا ما أقول لكم انه من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعا له وكان الباطل أولى به ، وان الحق لم يزل ينفر من الباطل ، ولم يزل الباطل ينفر من الحق ، يامعشرَ عَدوان

(١) المطر

لا تشمتوا بالذلة ولا تفرحوا بالعزة فبكل عيش يعيش الفقير مع الغنى ومن يُرِ يوماً يُرَ به ، وأعدّوا لكل أمر جوابه ، ان مع السفاهة الندامة ، والعقوبة نكال وفيها ذمامة ، ولليد العليا العاقبة والقود راحة لا عليك ولا لك ، واذا شئت وجدت مثلك انّ عليك كأنّ لك ، وللكثرة الرُّعب ، وللصبر الغلبة ، ومَن طلب شيئا وجده ، وان لم يجده يوشِكُ أن يقع قريبا منه ، ومنهم :

غيلان بن سلمة الثقفى

وهو غيلان بن سلمة بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف ابن ثقيف وسمى أبو عمرو جدّه شرحبيل . قال المرزبانى فى معجم الشعراء : غيلان شريف شاعر أحد حكام قيس فى الجاهلية .

« وانشد له »

لم ينتقص منى المشيبُ قُلامةً (١) ... الآن حين بَدا اَلَبُّ وا كْيَسُ
والشيب اِنْ يحلل فَاِنَّ وراءه ... عمرا يكون خلاله متنفس

وفى مجمع الأمثال للميدانى : غيلان بن سلمة الثقفى من حكام قيس ، وكانت له ثلاثة أيام يوم يحكم بين الناس ، ويوم ينشد فيه شعره ، ويوم ينظر فيه الى جماله ، وجاء الاسلام وعنده عشر نسوة فخيره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فاختار أربعا . وعده أيضاً صاحب القاموس من حكام قيس . وأسلم بعد فتح الطائف ، وكان أحد وجوه ثقيف واسلم أولاده عامر وعمار ونافع وهو أحد من نزل فيه قوله تعالى (على رجل من القريتين عظيم) وقد روى ابن عباس عنه شيئاً من شعره ، وهو ممن وفد على كسرى فبنى له حصنا بالطائف ، وله معه خبر ظريف قال أبو الفرج الاصبهانى بعد أن ساق سنده : كان غيلان بن سلمة قد وفد على كسرى فقال له ذات يوم أىّ ولدك أحب اليك ؟ قال : الصغير حتى يكبر والمريض حتى يبرأ قال : عجبت لك هذا العقل . وقد روى الهيثم بن عدى هذه القصة أبين من

---

(١) القلامة بالضم ما سقط من الظفر .

هذه ، وفيها : كان أبو سفيان فى نفر من قريش ومن ثقيف فوجهوا بتجارة الى العراق فقال لهم أبو سفيان : إنا نقدم على ملك جبار لم يأذن لنا فى دخول بلاده فاعدوا له جوابا . فقال غيلان : انا أكفيكم على أن يكون نصف الربح لى قالوا نعم فتقدم الى كسرى وكان جميلا فقال له الترجمان : يقول لك الملك كيف قدمتم بلادى بغير اذنى ؟ فقال : لسنا من أهل عداوتك ولا تجسسنا عليك وانما جئنا بتجارةٍ فان صلحت لك خذها والا فائذن لنا فى بيعها ، وان شئت رجعنا بها . قال : وسمعت صوت الملك فسجدت فقيل له لم سجدت ؟ قال : سمعت صوت الملك حيث لا ينبغى أن ترفع الأصوات . فأعجب كسرى وأمر أن توضع تحته مرفقة فرأى عليها صورة كسرى فوضعها على رأسه . فقيل له : لم فعلت ذلك ؟ قال : رأيت عليها صورة الملك فأجللتها أن اجلس عليها . فاستحسن ذلك أيضاً ثم قال له : ألك ولد ؟ قال نعم . قال : فأيهم أحب اليك ؟ قال : الصغير حتى يكبر ، والمريض حتى يبرأ ، والغائب حتى يقدم . قال : أنت حكيم من قوم لا حكمة فيهم . وأحسن اليه ، وذكرها أبو هلال العسكرى فى كتاب الأوائل بغير اسناد أطول مما هنا فقال : خرج أبوسفيان بن حرب فى جمع من قريش وثقيف يريدون بلاد كسرى بتجارة لهم فلما ساروا ثلاثا جمعهم أبو سفيان فقال : انا فى سيرنا هذا لَعَلَى خطر ، ما قدومنا على ملك لم يأذن لنا بالقدوم عليه وليست بلاده لنا بمتجر فأيكم يذهب بالعير فنحن برآء من دمه ان أصيب ، وان يغنم فله نصف الربح ؟ فقال غيلان بن سلمة : أنا أمضى بالعير وأنشده :

فلو رآنى أبو غيلان إذ حسرتْ ... عنى الأمورُ بأمرٍ ماله طَبَقُ (١)

لقال : رُعْبٌ ورهبٌ أنتَ بينهما ... حبُّ الحياة وهول النفس والشفق

أما مشف على مجدٍ ومَكْرُمةٍ ... أو أُسْوةٌ لك فيمن يهلك الوَرِقُ (٢)

---

(١) الطبق غطاء كل شىء ، والحسر : الكشف (٢) قوله مشف على مجد هكذا هو فى الاصل ولعله مسف الى مجد من أسف اليه أى دنا ، والمكرمة بضم الراء اسم من الكرم والاسوة : القدوة ، والورق : الدراهم المضروبة

فخرج بالعير وكان أبيضَ طويلا جَعْداً (١) فتخلق (٢) ولبس ثوبين أصفرين وأشهر نفسه وقعد بباب كسرى حتى أَذِنَ له فدخل عليه وشباك بينه وبينه فقال له الترجمان : يقول لك ما أدخلك بلادى بغير اذنى ؟ فقال : لست من أهل عداوة لك ولم أكن جاسوسا ، وانما حملت تجارة فان أردتها فهى لك وان كرهتها رددتها . قال : فانه ليتكلم إذ سمع صوت كسرى فخرّ ساجداً . فقال له الترجمان يقول لك ما أسجدك ؟ قال : سمعت صوتا مرتفعا حيث لا ترفع الأصوات فظننته صوت الملك فسجدت . قال : فشكر له ذلك وأمر بمرفقة فوضعت تحته فرأى فيها صورة الملك فوضعها على رأسه . فقال له الحاجب : انا بعثنا بها اليك لتقعد عليها . فقال : قد علمت ولكننى رأيت عليها صورة الملك فوضعتها على أكرم أعضائى . فقال : ما طعامك فى بلادك ؟ قال : الخبز . قال : هذا عقل الخبز ثم اشترى منه التجارة بأضعاف أثمانها وبعث معه من بنى له أُطُماً (٣) بالطائف فكان أولَ أُطم بنى بالطائف . ومن أخبار غيلان فى الجاهلية ما حكاه أبو سعيد السكرى فى ديوان شعره : ان بنى عامر أغاروا على ثقيف بالطائف فاستنجدت ثقيف ببنى نصر بن معاوية وكانوا احلفاءهم فلم ينجدوهم فخرجت ثقيف الى بنى عامر وعليهم يومئذ غيلان بن سلمة فقاتلوهم حتى هزَموا بنى عامر ، وفى ذلك يقول غيلان فذكر شعرا يذكر فيه الوقعة ، وأخباره كثيرة مفصلة فيما أُعِدَّ لمثلها من الكتب . ومنهم :

هاشم بن عبد مناف القرشى

وهو من أكابر رجال قريش ، وساداتهم وحكامهم ، وملك بعد أبيه الرفادة والسقاية واستقرت له الرياسة وصارت قريش له تابعة تنقاد لامره وتعمل برأيه ،

(١) جعد الشعر جعودة اذا كان فيه التواء وتقبض فهو جعد وذلك خلاف المسترسل (٢) أى تطيب بالخلوق وهو ضرب من الطيب (٣) الاطم : القصر وكل حصن مبنى بحجارة وكل بيت مربع مسطح

وكان يعمل الطعام للحجاج يأكل منـه من لم يكن له سعة ولا زاد ويقال لذلك الرفادة ، وأخباره كثيرة مشحونة منها كتب السير . وكان اذا أهل هلال ذى الحجة قام صُبَيْحته وأسند ظهره الى الكعبة من تلقاء بابها ويخطب ويقول فى خطبته: يامعشر قريش انكم سادة العرب ، أحسنها وجوها ، وأعظمها أحلاما ، وأوسط العرب انسابا ، وأقرب العرب بالعرب ارحاما ، يامعشر قريش انكم جيران بيت الله . أكرمكم الله بولايته ، وخصكم بجواره ، دون بنى اسماعيل ، وانه يأتيكم زوار الله يعظمون بيته فهم أضيافه ، وأحق من أكرم أضياف الله أنتم فأكرموا ضيفه وزواره فانهم يأتون شُعثاً غبراً من كل بلد على ضوامر [1] كالقداح ، فأكرموا ضيفه وزوار بيته ، فورب هذه البَنِيّة [2] . لو كان لى مال يحتمل ذلك لكفيتكموه ، وأنا مخرج من طيب مالى وحلالى مالم يقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ بظلم ، ولم يدخل فيه حرام . فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل ، وأسألكم بحرمة هذا البيت أن لايخرج رجل منكم من ماله لـكرامة زوار بيت الله وتقويتهم الا طيباً لم يؤخذ ظلما ، ولم يقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ غصباً ، فكانوا يجتهدون فى ذلك ويخرجونه من أموالهم فيضعونه فى دار الندوة . وتنافرت قريش وخزاعة اليه فخطبهم بما اذعن له الفريقان بالطاعة فقال فى خطبته : أيها الناس نحن آل ابراهيم وذرية اسماعيل وبنو النضر بن كنانة وبنو قصى بن كلاب وارباب مكة وسكان الحرم ، لنا ذروة الحسب ومَعْدِن المجد ، ولـكل فى كل حلف يجب عليه نصرته واجابة دعوته الا مادعا الى عقوق عشيرة وقطع رحم ، يابنى قصى انتم كغصن شجرة ايهما كسر أوحش صاحبه والسيف لايصان الا بغمده ، ورامى العشيرة [3] يصيبه سهمه . ومن أَمْحَكَهُ [4] اللجاج أخرجه الى البغى ، أيها الناس الحلم شرف ، والصبر ظفر ،

---

(١) جمع ضامر وهو الجمل المهزول (٢) البنية على فعيلة الكعبة لشرفها اذ هى أشرف مبنى يقال لاورب هذه البنية ما كان كذا وكذا وفى حديث البراء رأيت أن لا أجعل هذه البنية منى بظهر يريد الكعبة وكانت تدعى بنية ابراهيم عليه السلام لانه بناها وقد كثر قسمهم برب هذه البنية (٣) وفي هذا المعنى يقول الشاعر

قومى هم قتلوا اميم أخى ‏ ‏ فاذا رميت أصابنى سهمى

(٤) أغضبه

والمعروف كنز ، والجود سؤدد ، والجهل سفه ، والايام دول ، والدهر غيَر[1] والمرء منسوب الى فعله ومأخوذ بعمله ، فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد ، ودعوا الفضول تجانبكم السفهاء ، وأكرموا الجليس يعمر ناديكم ، وحاموا الخليط يرغب فى جواركم ، وانصفوا من أنفسكم يوثق بكم ، وعليكم بمكارم الاخلاق فانها رفعة. واياكم والاخلاقَ الدنية فانها تضع الشرف ، وتهدم المجد ، وان نهنهة الجاهل[2] أهون من حزيرته ، ورأس العشيرة يحمل اثقالها . ومقام الحليم عظة لمن انتفع به ، فقالت قريش : رضينا بك أبا نضلة وهى كنيته . قال الامام الماوردى بعد ايراد هذه الخطبة فى كتابه أعلام النبوة : فانظروا الى ما أمر به من شريف الاخلاق ، ونهى عن مساوى الافعال ، هل صدر الا عن غزارة فضل ، وجلالة قدر وعلو همة ، وماذاك الا لاصطفاء يراد ، وذكر يشاد . لان توالى ذلك فى الاباء ، يوجب تناهيه فى الابناء . ومنهم :

عبد المطلب بن هاشم القرشى

وكان أيضا من حكام قريش ، وهو جد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ويدعى (شيبةَ الحمد) لكثرة حمد الناس له لانه كان مَفْزَعَ قريش فى النوائب وملجأهم فى الامور فكان شريف قريش وسيدها كمالاً وفعالاً من غير مدافع ، وكان مجابَ الدعوة ، وكان يقال له (الفيّاض) لجوده و (مطعم طير السماء) لانه كان يرفع من مائدته للطير والوحوش فى رؤس الجبال ، وكان من حلماء قريش وحكمائها ، وكان ممن حرم الخمر على نفسه فى الجاهلية ، وكان نديمه حرب بن أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف والد أبى سفيان ، وكان فى جوار عبد المطلب يهودى فاغلظ ذلك اليهودى القولَ على حرب فى سوق من أسواق (تِهامةَ) فاغرى عليه حربٌ من قتله فلما علم عبد المطلب بذلك ترك منادمة حرب ولم يفارقه حتى أخذ

---

(١) أى متقلب (٢) زجره

منه مائة ناقة دفعها لابن عم اليهودىّ حفظاً لجواره . ثم نادم عبدالله بن جُدْعان ، وكان عبد المطلب يأمر أولاده بترك الظلم والبغى ويحثهم على مكارم الاخلاق وينهاهم عن دنيئات الامور . وكان يقول : لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه ، وتصيبه عقوبة الى أن هلك رجل ظلوم من أهل الشام لم تصبه عقوبة فقيل لعبد المطلب فى ذلك ، ففكر وقال : والله إن وراء هذه الدار داراً يجزى فيها المحسن باحسانه ، ويعاقب المسىء باساءته — أى فالظلوم شأنه فى الدنيا ذلك حتى اذا خرج من الدنيا ولم تصبه العقوبة فهى معدّة له فى الآخرة — ورفض فى آخر عمره عبادةَ الاصنام ووحّد الله سبحانه وتعالى ، وتؤثر عنه سنن جاء القرآن باكثرها وجاءت السنة بها ، منها الوفاء بالنذر ، والمنع من نكاح المحارم ، وقطع يد السارق ، والنهى عن قتل الموؤدة ، وتحريم الخمر والزنا وأن لايطوف بالبيت عُرْيان . ومنهم :

أبو طالب بن هاشم بن عبد مناف

وهو عم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وناصره ولد قبل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بخمس وثلاثين سنة ، ولما مات عبد المطلب وصى بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم اليه فكفله وأحسن تربيته ، وسافر به الى الشام وهو شاب . ولما بعث صلى الله تعالى عليه وسلم قام بنصرته وذب عنه من عاداه ومدحه عدة مدائح واسمه عبد مناف على المشهور واشتهر بكنيته ، وقيل اسمه عمران ، وقيل شيبة . وكان من حكام قريش وساداتها ومرجعها فى الملمات . قال الواقدى : وتوفى أبو طالب فى النصف من شوال فى السنة العاشرة من النبوة وهو ابن بضع وثمانين سنة واختلف فى اسلامه . قال ابن حجر : رأيت لعلىّ بن حمزة البصرى جزءاً جمع فيه شعر أبى طالب ، وزعم انه كان مسلماً ومات على الاسلام وان الحشوية تزعم انه مات كافراً ، واستدل لدعواه بما لا دلالة فيه انتهى . ومن شعره قوله :

ودعوتنى وزعمتَ انك صادق ... ولقد صدقتَ وكنتَ قبلُ أمينا

ولقد علمتُ بان دينَ محمدٍ ... من خيرِ اديانِ البرية دِينا

ومن شعره الذى قاله وهو فى الشعب :

الا ابلغا عنى على ذاتِ بيننا ... لؤيًا وخصًا من لؤى بنى كعب

ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً ... نبياً كموسى خُطَّ فى أول الكتب

وان عليه فى العباد مودةً ... ولا خيرَ ممن خصه الله بالحب

وهى قصيدة جيدة على هذا الأسلوب ، وله قصيدة لامية طويلة تزيد على مائة بيت وهى من جيد شعره عاذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها وتودد فيها الى اشراف قومه ، وأخبر قريشاً أنه غير مسلم محمداً رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأحد حتى يهلك دونه ومدحه فيها أيضاً ، وقالها فى الشعب لما اعتزل مع بنى هاشم وبنى عبد المطلب قريشاً . وسبب دخوله الشعب أن كفار قريش اتفق رأيهم على قتل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقالوا : قد أفسد أبناءنا ونساءنا فقالوا لقومه : خذوا منا ديةً مضاعفة ويقتله رجل من غير قريش وتريحوننا وتريحون أنفسكم فأبى بنو هاشم من ذلك ، وظاهرَهم بنو عبد المطلب فاجتمع المشركون من قريش على منابذتهم واخراجهم من مكة الى الشعب ، فلما دخلوا الشعب أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من كان بمكة من المؤمنين أن يخرجوا الى أرض الحبشة وكانت متْجَراً لقريش ، وكان يثنى على النجاشى بأنه لا يظلم عنده أحد ، فانطلق عامة من آمن بالله ورسوله الى الحبشة ودخل بنو هاشم وبنو عبد المطلب الشعب مؤمنهم وكافرهم فالمؤمن دينا والكافر حمية ، فلما عرفت قريش أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد منعه قومه اجمعوا على أن لا يبايعوهم ولا يدخلوا اليهم شيئاً من الرفق وقطعوا عنهم الأسواقَ ولم يتركوا طعاما ولا اداما إلا بادروا اليه واشتروه ولا يناكحوهم ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يُسلّموا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم للقتل وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها

فى الكعبة ، وتمادوا على العمل بما فيها من ذلك ثلاث سنين فاشتد البلاء على بنى هاشم ومن معهم فاجمعوا على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر والبراءة ، وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأبى طالب : ياعم ان ربى قد سلط الأرضة على صحيفة قريش فلحستها الا ما كان اسماً لله فأبقته . قال : أربك أخبر بهذا؟ قال : نعم . قال : فوالله ما يدخل عليك أحد ثم خرج الى قريش فقال : يامعشر قريش ان ابن أخى اخبرنى ولم يكذبنى أن هذه الصحيفة التى فى أيديكم قد بعث الله عليها دابة فلحست ما فيها فان كان كما يقول فأفيقوا فلا والله لا نسلمه حتى نموت ، وان كان يقول باطلاً دفعناه اليكم . فقالوا : قد رضينا ففتحوا الصحيفة فوجدوها كما أخبر به صلى الله تعالى عليه وسلم وقالوا : هذا سحر ابن أخيك وزادهم ذلك بغياً وعدواناً ، فقال أبو طالب : يامعشر قريش علامَ نحصر ونحبس وقد بان الامر وتبين انكم أهل الظلم والقطيعة ؟ ثم دخل هو وأصحابه بين أستار الكعبة وقال : اللهم انصرنا على من ظلمنا وقطع أرحامنا واستحل ما يحرم عليه منا ، ثم انصرف الى الشعب وقال هذه القصيدة . قال ابن كثير : هى قصيدة بليغة جداً لا يستطيع أن يقولها الا من نسبت اليه ، وهى أفحل من المعلقات السبع وأبلغ فى تأدية المعنى. منها قوله :

خليلىَّ ما اذنى لأولِ عاذلٍ ... بصغواء فى حقٍ ولا عند باطلِ (١)
خليلىَّ انَّ الرأىَ ليس بشركةٍ ... ولا نَهْنَهٍ عند الأُمور البلابلِ (٢)

(١) بصغواء خبر ما النافية وهى حجازية ولذا زيدت الباء ، والصغو الميل وأصغيت الى فلان اذا ملت بسمعك نحوه ولاول عاذل متعلق بصغواء وفى حق متعلق بعاذل أى لا أميل بأذنى لاول عاذل فى الحق وانما قيد العاذل بالاول لانه اذا لم يقبل عذل العاذل الاول فمن باب أولى أن لا يقبل عذل العاذل الثانى فان النفس اذا كانت خالية الذهن فى الغالب أن يستقر فيها أول ما يرد عليها (٢) أراد أن الرأى الجيد يكون بمشاركة العقلاء فان لم يتشاركوا بان كانوا متباغضين لم يفتح شيئاً والرأى مالم يتخمر فى العقول كان فطيراً ، والنهنه بنونين وهاءين كجعفر : الثوب الرقيق النسج ومن شأنه ان لا يمنع والنير الشفاف الذى يظهر الاشياء على جليتها وأصله الثوب الرقيق النسج ومن شأنه ان لا يمنع النظر الى ما وراءه وهو معطوف على شركة ، والبلابل اما جمع بلبلة بفتح البائين أو جمع بلبال بفتحها وهما بمعنى الهم ووساوس الصدر كزلازل جمع زلزلة وزلزال بالفتح وهو اما على حذف مضاف أى ذات البلابل أو أنها بدل من الامور

ولما رأيتُ القومَ لا ودَّ عندهم ... وقد قطعوا كل العُرا والوسائل (١)
وقد صارَحُونا بالعداوة والأذى ... وقد طاوعوا أمرَ العدوّ المزايل (٢)
وقد حالفوا قوماً علينا أظِنَّةً ... يعضّون غيظاً خلفَنا بالأنامل (٣)
صبرتُ لهم نفسى بسمراء سمحةٍ ... وأبيض عضبٍ من تراث المقاول (٤)
وأحضرتُ عند البيت رهطى واخوتى ... وأمسكتُ من أثوابه بالوصائل (٥)
قياماً معاً مستقبلين رِتاجَهُ ... لدى حيث يُقضى خلفه كل نافلِ (٦)
أعوذ بربّ الناس من كل طاعن ... علينا بسوءٍ أو مُلِحٍّ بباطلِ (٧)
ومن كاشحٍ يَسْعى لنا بمَعيبةٍ ... ومن مُلْحِقٍ فى الدين ما لم نحاولِ (٨)

وكلها على هذا المنوال وهى مذكورة مع شرحها فى كتاب لب لباب لسان العرب . وعن هشام بن محمد بن السائب الكلبى انه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاةُ جمع اليه وجوه قريش فأوصاهم فقال : يا معشرَ قريش أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب فيكم السيد المطاع ، وفيكم المِقدام الشجاع ، الواسع الباع ، واعلموا انكم لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيباً الا أحرزتموه ، ولا شرفاً الا أدركتموه ، فلكم بذلك على الناس الفضيلة ولهم به اليكم الوسيلة ، والناس لكم حرب وعلى حربكم إلْبٌ (٩) ، وانى أوصيكم بتعظيم هذه البَنِيَّة (يعنى الكعبة) فان فيها

(١) أراد بالقوم كفار قريش ، والعرا جمع عروة وهى معروفة واراد هنا ما يتمسك به من العهود مجازاً مرسلاً ، والوسائل جمع وسيلة وهى ما يتقرب به (٢) صارحونا أى كاشفونا بالعداوة صريحا والصراحة وان كانت لازمة لكنها لما نقلت الى باب المفاعلة تعدت ، والمزايل أسم فاعل من زايله مزايلة وزيالا فارقه وباينه وانما يكون العدو مفارقاً اذا صرح بالعداوة فلا تمكن العشرة (٣) حالفوا قوماً مثل صارحونا فى أنه كان لازماً وتعدى الى المفعول بنقله الى باب المفاعلة والتحالف التعاهد والتعاقد على أن يكون الامر واحداً فى النصرة والحماية وعلينا متعلق بحالفوا ، والاظنة جمع ظنين وهو الرجل المتهم والظنة بالكسر التهمة والجمع الظنن (٤) الصبر الحبس ، والسمراء : القناة ، والسمحة اللدنة اللينة التى تسمح بالهز والانعطاف ، والابيض : السيف ، والعضب : القاطع ، والمقاول جمع مقول بكسر الميم الرئيس وهو دون الملك (٥) الوصائل ثياب مخططة يمانية كان البيت يكسى بها (٦) الرتاج : الباب العظيم وهو مفعول مستقبلين ، والنافل فاعل من النافلة وهو التطوع (٧) قوله ملح اسم فاعل من ألح على الشىء اذا أقبل عليه مواظباً (٨) المعيبة العيبة والنقيصة ، ونحاول : نريد ، والكاشح : مضمر العداوة (٩) واحد مجتمعون عليه بالظلم والعداوة

مرضاة للرب وقواماً للمعاش ، وثباتاً للوطأة ، صلوا أرحامكم فان فى صلة الرحم منساةً (أى فسحةً) فى الأجل ، وزيادةً فى العدد ، اتركوا البغىَ والعقوق ففيهما هلكت القرون قبلكم ، أجيبوا الداعى ، وأعطُوا السائل فان فيهما شرفَ الحياة والمات ، وعليكم بصدق الحديث ، وأداء الأمانة فان فيهما محبةً فى الخاص ومَكرُمةً فى العام ، وانى أوصيكم بمحمد خيراً ، فانه الامين فى قريش ، والصدّيق فى العرب ، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به وقد جاءنا بأمر قبله الجَنَان[1] ، وأنكره اللسان ، مخافة الشنآن وايم الله كأنى أنظر الى صعاليك العرب وأهل الأطراف والمستضعَفين من الناس ، قد أجابوا دعوته ، وصدقوا كلمته ، وعظموا أمره ، فخاض بهم غمرات الموت وصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابا ، ودورها خرابا ، وضعفاؤها أربابا ، واذاً أعظمهم عليه ، أحوجهم اليه ، وأبعدهم منه أحظاهم عنده ، قد محضته العرب ودادَها ، وأصفت له بلادَها ، وأعطته قيادَها ، يامعشرَ قريش كونوا له ولاةً ، ولحزبه حماة ، والله لا يسلك أحدٌ سبيله الا رشد ، ولا يأخذ بهديه أحد الاسعد ، ولو كان لنفسى مدة ، وفى أجلى تأخير ، لكففت عنه الهزاهز ولدافعت عنه الدواهى ، ثم هلك ، ومنهم :

العاص بن وائل القرشى

عده صاحب القاموس من حكام قريش وكذلك الميدانى فانه قال فى كتاب مجمع الأمثال : العاص بن وائل من حكام قريش . وقد ذكر نسبه الزبيدى فى شرحه على القاموس فقال : العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سهم بن عمرو ابن هصيص بن كعب بن لؤى " انتهى وهو والد عمر بن العاص الصحابى المشهور وكان له قدر فى الجاهلية ولم يوفق للاسلام . قال ابن الكلبى : كان من حكام قريش ، وأجار عمر رضى الله تعالى عنه حين أسلم . وقد اخرج الزبير بن بكار

(١) القلب

هذه القصة مطولة وفيها : أنّ العاص بن وائل قال رجل اختار لنفسه أمراً فمالكم وله فردّ المشركين عنه . وكان موته بمكة قبل الهجرة ، ولم أقف على كمال خبره فيما بين يدى من كتب الأدب سوى ماذكرت وهو كاف فى المقصود . ومنهم :

العلاء بن حارثة القرشى

وهو على ما فى القاموس أيضاً من حكام قريش ، واسم جده نضلة بن عبد العزى بن رياح وكان عند قريش بمكان مكين من علو المنزلة ونفوذ الحكم وسعة الاطلاع بأحوال العرب وأنسابهم وأحسابهم . ومنهم :

ربيعة بن حذار الاسدى

كان حكما من حكام بنى أسد واليه مرجعهم فى كل ما يَعِنّ لهم من الحوادث واليه نافر خالد بن مالك بن تميم النهشلى القعقاع بن معبد التميمى كما ذكرناه سابقاً عند ذكر المنافرات وكان ما أوردناه من رواية الميدانى فى كتاب مجمع الأمثال . ورأيت القصة فى كتاب أسد الغابة عند ترجمة خالد هذا بلفظ آخر وكلام أبسط وأشمل فأحببت ذكرها هنا تكميلا للفائدة وهى : ان خالداً هو الذى نافر القعقاع الى ربيعة بن حُذار الاسدى فقال هاتيا مكارمكما . فقال خالد : أعطيت من سأل ، وأطعمت من أكل ، ونصبت قدورى حين وضعت السماك ذيولها ، وطعنت يوم (شواحط) فارساً فجللت فخذيه بفرسه . فقال : ياقعقاع ما عندك ؟ فأخرج قوس حاجب فقال : هذه قوس عمى رهنها عن العرب وهاتان نعلا جدى قسم فيها أربعين مرباعاً وهذه زربية [1] زرارة لم ير ناره خائف الا أمن ولم يمسك بطنب فسطاطه [2] أسير الا فكّ . فنادى ربيعة بن حُذار ان السماحة واللهى [3] والمرباع والشرف الاسبغ للقعقاع الا انى نفرت من كان أبوه معبداً وعمه حاجباً وجده زرارة . قال أبو احمد العسكرى : ثم أدرك القعقاع بن معبد وخالد بن مالك النهشلى

(١) البساط اوكل مابسط واتكىء عليه (٢) بضم الفاء وكسرها بيت من الشعر والجمع فساطيط (٣) العطايا

الاسلام فوفدا على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال ابو بكر : أمر هذا (١) . وقال عمر : أمر هذا (٢) . فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لولا انكما اختلفتما لوليتهما وأخذت برأيكما ، وهذه المقالة من أبي بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما قد ذكرت في ترجمة القعقاع بن معبد من كتاب أسد الغابة ، وكان الثانى الاقرع بن حابس التميمى ، وهو الاكثر . وقد نسب خالداً المذكور ابن الكلبي فقال خالد ابن مالك بن ربعى بن سلمى بن جندل بن نهشل بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم . وقال كان شريفا ولم يذكر له صحبة الا أبو احمد العسكرى . والله أعلم . ومنهم :

يعمر الشداخ الكنانى (٣)

وهو يَعْمَرُ بن عوف بن كعب ولقب بالشُدَّاخ لانه شَدَخَ دماء خُزاعةَ وكان حكما من حكام كنانة ، وكان عالم العرب فى وقته خبيراً بانسابهم وأحسابهم . ومنهم:

صفوان بن أمية

كان أيضا من حكام كنانة واليه مرجعهم فيما ينوبهم من المهمات وكان فصيح اللسان مشهور البيان ، وأخباره كثيرة تدل على رفعة شأنه وعلو مكانه بين العرب . ومنهم :

سلمى بن نوفل الكنانى

كان أيضا من حكام كنانة وعرفائها حيث كان فى الفهم والفطنة بمنزلة اذعن له بها العرب غير انهم كانوا يفضلون عليه عامر بن الظَرِب العَدْوانى . ومنهم :

---

(١) هو القعقاع بن معبد بن زرارة (٢) هو على مافى الاصابة الاقرع بن حابس التميمى

(٣) قال فى القاموس ويعمر الشداخ كطوال وطباب وقد يفتح : أحد حكامهم حكم بين قضاعة وقصى فى أمر الكعبة وكثر القتل فشدخ دماء قضاعة تحت قدمه وأبطلها فقضى مالبيت لقصى وهذا — الذى ذهب اليه صاحب القاموس — تبعاً لبعض المؤرخين وقيل يوجد فى بعض النسخ بين خزاعة

مالك بن جبير العامري

كان من حكام العرب وحكمائها المشهورين بجودة الفهم وغزارة العقل وسعة الاطلاع . ومن كلامه الذى ضرب به المثل : (على الخبير سقطت) والخبير العالم والخبر العلم ، وسقطت أى عثرت عبر عن العثور بالسقوط . لان عادة العاثر أن يسقط على ما يعثر عليه . وقد تمثل الفرزدق بهذا المثل للحسين بن على رضى الله تعالى عنهما حين أقبل يريد العراق فلقيه وهو يريد الحجاز فقال له الحسين : ما وراءك ؟ قال : (على الخبير سقطت) قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية والامر ينزل من السماء . فقال الحسين رضى الله تعالى عنه : صدقتنى . ومنهم :

عمرو بن حممة الدوسى

وحممة بضم المهملة وفتح الميم الخفيفة بعدها مثلها . ذكر أبو بكر بن دريد انه وفد على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم والذى ذكره غيره انه مات فى الجاهلية وكان معمراً . وهو الذى يقول :

أخبّرَ أخبارَ القرون التى مضت ... ولا بُدَّ يوماً أنْ تطار لمصرعى

أنشده له ابن الكلبي . وقال المرزبانى : كان أحد حكام العرب فى الجاهلية وأحَدَ المعمَّرين . يقال : انه عاش ثلاثمائة وتسعين سنة . وأنشد له البيت المذكور وقبله :

كبرتُ وطال العمر منى كاننى ... سليمُ افاعٍ ليله غير مودع

وبعده

وما السقم ابلانى ولكن تتابعتْ ... علىَّ سنون من مَصِيف ومَرْبَعَ

ثلاث مئين من سنينٍ كواملٍ ... وها أنا هذا ارتجى مرَّ اربع

فاصبحت بين الفخِّ والعشِّ نادباً ... اذا رام تطياراً يقال له : قع[1]

(١) الفخ : آلة يصاد بها

أخبر أخبار القرون البيت . قال : ويقال انه الذى كان يقال له ذو الحلم وضربت به العرب المثل فى قرع العصا لانه بعد أن كبر صار يذهل فاتخذوا له من يوقظه فيقرع العصا ، فيرجع اليه فهمه واليه أشار الحارث بن وعلة :

وزعمتم اَنْ لاحُلومَ لنا اِن العصا قُرِعت لذى الحلم

وقال الفرزدق

* كأنَّ العصا كانت لذى الحلم تقرعُ *

وقال الآخر

لذى الحلم قبلَ اليوم ماتقرَعُ العصا وما عُلِّمَ الانسانُ الا ليعلما

قال ابن دريد بسنده الى الشعبى قال : كناعند ابن عباس وهو فى ضفة زمزم يفتى اذ قام اليه اعرابى فقال : افتيتهم فافتنا . قال : هاتِ . قال : مامعنى قول الشاعر لذى الحلم قبل اليوم ، وانشد البيت السابق ؟ فقال له ابن عباس : ذاك عمرو بن حممة الدوسى قضى بين العرب ثلاث مائة سنة فكبر فالزموه السابع أو التاسع من ولده ، فكان اذا غفل قرع له العصا ، فلما حضره الموت اجتمع اليه قومه فاوصاهم وصية حسنة فيها حلم ، وهذا كله منقول من الاصابة لابن حجر . وقد حقق الميدانى ان أول من قرعت له العصا عامر بن الظَرِب ، والقول بانه عمرو ابن حُمَمَة هو قول أهل اليمن ، والابيات السابقة نسبها الى عامر أيضاً وجعل بدل قوله « كبرت وقد طال » تقول ابنتى لما رأتنى كاننى . روى أبو على القالى فى أماليه (١) قال حدثنا أبو بكر بن دريد قال حدثنى عمى عن أبيه عن ابن الكلبى عن أبى مسكين وعن الشرقى بن قطامى قال : لما مات عمرو بن حممة الدوسى وكان أحد من تتحاكم اليه العرب مر بقبره ثلاثة نفر من أهل يثرب قادمين من الشام ، آلهِدْم بن امرئ القيس بن الحرث بن زيد بن كلثومَ (أبو كلثوم بن الهدم الذى نزل عليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم) وعَتِيك بن قيس بن هيشة

(١) ج ٢ س ١٤٥

ابن أمية بن معاوية ، وحاطب بن قيس بن هيشة الذى كان بسببه حرب حاطب فعقروا رواحلهم على قبره وقام الهدم فقال :

لقد ضمت الأثراء منكَ مُرَزَّأً　　عظيمَ رمادِ النار مُشترَكَ القِدْرِ
حليماً اذا ما الحلم كان حزامةً　　وقُوراً اذا كان الوقوفُ على الجمر
اذا قلتَ لم تترُكْ مقالاً لقائلٍ　　وان صُلْتَ كنتَ الليثَ يحمى حِمى الأجْرِ
لِيبكِكَ من كانت حياتُك عزَّهُ　　فاصبَحَ لما بِنْتَ يُغضى على الصُغر
سقى الارضَ ذاتَ الطول والعرض مُثجم　　أحمُّ الرحى واهى العُرى دائمُ القَطْرْ (١)
ومابىَ سُقيا الارض لكنَّ تُربةً　　اضلَّكَ فى أحشائها مَلْحَدُ القبر

الرحى وسط الغيم ومعظمه ووسط الحرب ومعظمها . وقام عتيك فقال :

برغم العلى والجودِ والمجد والندَى　　طواكَ الردَى ياخيرَ حافٍ وناعِلِ
لقد غال صَرْفُ الدهر منك مُرَزَّأً　　نَهُوضاً بأعباء الأُمور الأثاقِلِ
يَضُمُّ العُفاة الطارقين فناؤُهُ　　كما ضمَّ أُمُّ الرأس شُعبَ القبائل
ويَسْرُو دجى الهَيْجا مَضاءُ عزيمةٍ　　كما كشفَ الصبحُ اطرافَ الغياطل (٢)
ويُستهزَمَ الجيشُ العرمرَمُ باسمه　　وان كان جرّاراً كثيرَ الصواهِلِ
وينقادُ ذو البأو الأبىُّ لحكمه　　فيرتدُّ قسْراً وهو جمُّ الدغاول (٣)
ويَمضى اذا ما الحربُ مدَّتْ رِواقَها　　على الرَوْعِ وارفضَّتْ صدورُ العوامل
فَإمَّا تُصبنا الحادثاتُ بنكْبةٍ　　رمتك بها احدى الدواهى الضابل
فلا تَبعَدَنْ إن الحُتوفَ مَوارِدٌ　　وكل فتىً من صَرْفِها غيرُ وائل

الضابل الضواهى واحدها ضِئْبل . وقام حاطب بن قيس فقال :

سلامٌ على القبرِ الذى ضمَّ أعظُماً　　تحومُ المعالى حولَهُ فتُسَلِّمُ

---

(١) أنجم المطر اذا دام وأنجمت السماء اسرع مطرها ثم اقلعت وقيل أنجمت السماء دام مطرها كتنجمت نجماً (٢) الغيطلة : الظلمة والغيطلة اختلاط الاصوات قال ابو النجم : (مستأسداً ذبانه فى غيطل) وهو جمع غيطلة والغيطلة البقرة الوحشية والغيطلة الشجر الملتف ، قال ابن الاعرابى : الغيطلة التفاف الناس واجتماعهم والغيطلة غلبة النعاس (٣) الدغاول : الدواهى

سلام عليه كلما ذرّ شارقٌ ... وما امتدّ قِطعٌ من دُجى الليل مُظلِم
فياقبرَ عمرٍو جادَ أرضاً تعطَّفتْ ... عليك مُلِثٌّ دائم القَطْر مُرْزِم
تضمَّنْتَ جسماً طابَ حيّاً وميتا ... فأنتَ بما ضُمِّنْتَ فى الأرض مُعْلَمُ
فلو نطقت أرضٌ لقال ترابها ... الى قبرِ عمرِو الازدِ حلَّ التكرُّمُ
الى مَرْمَس قد حلَّ بين تُرابها ... وأحجاره بذْرٌ واَضبطُ ضيغمُ
فلو وَألْتَ من سطوة الموت مُهْجةٌ ... لكنتَ ولكنَّ الردى لا يُثَمْثِمُ (١)
ولا يُبعدنْك الله حيّاً وميتاً ... فقد كنتَ نورَ الخطْب والخطبُ مُظلِم
وقد كنتَ تُمضى الحكم غيرَ مُهلِّلٍ ... اذا غالَ فى القولِ الأبلُّ الغشمْشمُ (٢)
لَعَمْرُ الذى حُطَّت اليه على الونى ... حَدابِيرُ عوجٌ نيُّها مُتَهمِّمُ (٣)
لقد هدّ مِلعَلْياء موتُكَ جانباً ... وكان قديماً ركنها لا يهدَّم

ومنهم :

الحارث بن عباد الربعى

قال أبو رياش فى شرح الحماسة : كان الحارث بن عباد بن ضبيعة بن قيس ابن ثعلبة من حكام ربيعة وفرسانها المعدودين ، وكان اعتزل حرب بنى وائل وتنحى بأهله وولده وولد اخوته وأقاربه وحل وتَرَ قوسه ونزع وسنانَ رمحه ولم يزل معتزلا حتى اذا كان فى آخر وقائعهم خرج ابن أخيه بجير بن عمرو بن عباد فى أثر ابل له ندّتْ (٤) يطلبها فعرض له مهلهل فى جماعة يطلبون غِرَّة (أى غفلة) بكر بن وائل فقال لمهلهل امرؤ القيس بن ابان بن كعب بن زهير بن جشم (وكان من أشراف بنى تغلب . وكان على مقدمتهم زماناً طويلا) : لا تفعل فوالله لئن قتلته ليقتلن به منكم كبش لا يسئل عن خاله من هو وإياك أن تحقر البغى فان عاقبته وخيمة ، وقد اعتزلنا عمه وأبوه وأهل بيته وقومه فأبى مهلهل الا قتله فطعنه

(١) وألت : نجت ، ويثمثم : يبطىء ويثمثم يحرك ويدفع (٢) المهلل : المتوقف ويقال حمل عليه فما هلل ، والابل : الظلوم ، والغشمشم : الذى يركب برأسه لا يثنيه شىء عما يحب ويهوى (٣) الحدابير جمع حدبار وهى المنحنية الظهر ، والنى الشحم ، والمتهمم : الذائب ، وقوله ملعلياء أى من العلياء (٤) أى شردت ونفرت

بالرمح وقتله وقال بُؤْ بشسع نعل كليب . يقال أبأت فلانا بفلان فباء به اذا قتله به ولا يكاد يستعمل هذا إلا والثانى كفء للأول ، وسيأتى باقى القصة عند ترجمته فى مبحث الفرسان . ومنهم :

القلمس الكنانى (١)

كان أحد حكام العرب فى الجاهليــة ، وكان أيضاً من نَسَأَةِ الشهور كان يقف عند جمرة العقبة ، ويقول : اللهم انى ناسئ الشهور وواضعُها مواضِعَها ولا اعابُ ولا أجاب ، اللهم انى قد أحللتُ احدَ الصفرَين وحرمت صفَرَ المؤخَّر ، وكذلك فى الرَّجَبَيْن يعنى رجباً وشعبانَ ، انفِرُوا على اسم الله تعالى . وذلك قوله تعالى (انما النسئ زيادة فى الكفر) وسيأتى له ذكر إن شاء الله تعالى فى ترجمة ابنة الخس ، ومنهم :

ذو الاصبع العدوانى

كان احدَ حكام العرب فى الجاهلية وشعرائهم المعمَّرين ، قال أبو حاتم فى كتاب المعمرين : عاش ذو الاصبع وهو حرثان بن محرث من عدوان بن عمرو ابن قيس عيلان ثلثمائة سنة وقال :

أصبحتُ شيخاً أرى الشخصين أربعةً ... ولشخصَ شخصين لما مسَّنِي الكِبَرُ

لاأسمعَ الصوتَ حتى استدِيرَ له ... ليلاً وإنْ هو ناغانى به القمرُ

وانما قال ليلاً لان الاصوات هادئة ، فاذا لم يسمع بالليل والاصوات ساكنة كان من أن يسمع بالنهار مع ضجة الناس ولغطهم أبعد . وانما قيل له ذو الاصبع لأنه كانت له فى رجله أصبع زائدة . وقال ابن قتيبة فى كتاب الشعراء : ذو الأصبع حرثان بن عمرو من عدوان بن عمرو بن قيس عيلان ، وكان جاهلياً وسمى ذو الاصبع لأن حية نهشت أصبعه فقطعها انتهى . وقال ابن الأنبارى فى شرح المفضليات :

---

(١) القلمس معناه البحر

نسبه احمد بن عبيد وغيره ، فقالوا : هو حرثان بن الحارث والأصمعى يقول : ابن السموأل بن محرث بن شبابة بن ربيعة بن هبيرة بن ثعلبة بن الظرب ابن عمرو بن عياذ بن يشكر بن عدوان وهو الحرث بن عمرو بن سعد بن قيس ابن عيلان بن مضر بن نزار ، وانما سمى ذا الأصبع لأن أفعى نهشت ابهام رجله فقطعها ، ويقال أنه كانت له أصبع زائدة انتهى . وقال السيد المرتضى فى أماليه غرر الفوائد ودرر القلائد : ومن المعمرين ذو الأصبع العدوانى واسمه حرثان بن محرث ابن الحارث بن ربيعة بن وهب بن ثعلبة بن ظَرِب بن عمرو بن عياذ بن يشكر ابن عدْوان وهو الحرث بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مضر وانما سمى الحرث عدوان لأنه عدا على أخيه فهم فقتله وقيل بل فقأ عينه ، وقيل ان اسم ذى الاصبع محرث بن حرثان ، وقيل حرثان بن حويرث ، وقيل حرثان بن حارثة ويكنى أبا عدوان ، وسبب لقبه بذى الأصبع أن حية نهشته على أصبعه فشلت فسمى بذلك ، ويقال انه عاش مائة وسبعين سنة . وقال أبو حاتم : إنه عاش ثلاثمائة سنة وهو أحد حكام العرب فى الجاهلية ، ثم أورد السيد جملاً من أحواله الى أن أورد هذه الحكاية وأوردها الزجاجى أيضاً فى أماليه الصغرى بسندها الى سعيد بن خالد الجدلى أنه قال : لما قدم عبد الملك بن مروان الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير دعا الناس الى فرائضهم فأتيناه فقال : ممن القوم ؟ فقلنا : من جديلة . فقال جديلة عدوان ؟ قلنا : نعم . فتمثل عبد الملك

عَذِيرَ الحيِّ من عَدْوا ن كانوا حَيَّةَ الارضِ (١)

بغى بعضُهم بعضاً فلم يرعوا على بَعْضِ (٢)

(١) اختلف فى العذير فنهم من جعله مصدراً بمعنى العذر وهو مذهب سيبويه ومنهم من جعله بمعنى عاذر كعليم وعالم والمعنى عنده هات عذرك واحضر عاذرك وامتنع ان يجعله بمعنى العذر لان فعيلا لا يبنى على المصدر الا فى الاصوات نحو الصهيل والنهيق والنبيح والاولى مذهب سيبويه لان المصدر يطرد وضعه موضع الفعل بدلاً منه لانه اسمه ولا يطرد ذلك فى اسم الفاعل وقد جاء فعيل فى غير الصوت كقولهم وجب القلب وجيباً اذا اضطرب ، وقوله كانوا حية الارض أى كانوا يتقى منهم لكثرتهم وعزتهم كما يتقى من الحية المنكرة (٢) الارعاء الابقاء على اخيك

ومنهم كانت السادا ت والموفونَ بالقرْض

ثم أقبل على رجل كنا قدمناه أمامنا جسيم وسيم ، فقال : أيكم يقول هذا الشعر ؟ فقال : لا أدرى . فقلت من خلفه : يقوله ذو الاصبع فتركنى وأقبل على ذلك الجسيم . فقال : وما كان اسم ذى الأصبع ؟ فقال لا أدرى . فقلت أنا من خلفه : اسمه حرثان ، فاقبل عليه وتركنى ، فقال : لمَ سمى ذا الاصبع ؟ فقال : لا أدرى ، فقلت أنا من خلفه : نهشته حية على أصبعه . فاقبل عليه وتركنى . فقال : من أيكم كان ؟ فقال : لا أدرى . فقلت أنا من خلفه : من بنى ناج ، فاقبل على الجسيم فقال : كم عطاؤك ؟ فقال : سبعمائة درهم . ثم اقبل علىَّ فقال : كم عطاؤك ؟ قلت : أربعمائة درهم فقال لكاتبه : حط من عطاء هذا ثلاثمائة وزدها فى عطاء هذا فَرُحْتُ وعطائى سبعمائة وعطاؤه أربعمائة انتهى . واورد له من شعره قوله :

اكاشر كالظغن المبين منهم ... واضحك حتى يبدُوَ النابُ اجمعُ
واهدنه بالقول هدناً ولو يرى ... سريرةَ ما أُخفى لباتَ يفزع

ومعنى اهدنه اسكنه . ومن شعره أيضاً قوله :

اذا ما الدهرُ جرَّ على اناسٍ ... شراشِرَهُ اناخَ بآخرينا
فقلْ للشامتين بنا افيقوا ... سيَلْقَى الشامتون كما لَقِينا

ومنه قوله أيضا

ذَهَبَ الذين اذا رأونى مقبلاً ... هَشُّوا الىَّ ورحَّبوا بالمقبلِ
وهمُ الذين اذا حملتُ حَمالةً ... ولقيتُهم فكأننى لم أحملِ

والحَمالةُ بالفتح تحمل دية القتيل عن القاتل ومعنى الشراشر فى البيت السابق الثقل ومنه قوله :

ولى ابن عمٍّ على ما كانَ من خُلُقٍ ... مختلفان فأَقْليه ويَقْليني
ازرى بنا اننا شالتْ نعامتنا ... فخالنى دونه بل خِلتُهُ دونى (١)

(١) يقال ازري به اذا قصر وزرى عليه إذا عابه ، وقوله شالت نعامتنا أى تفرق أمرنا واختلف والمعنى تنافرنا فصرت لا اطمئن اليه ولا يطمئن الىَّ

لاهِ ابن عمك لا أفضلت فى حسب — عنى ولا أنت ديانى فتخزونى (١)
إنى لعمرك ما بابى بذى غلق — عن الضيوف ولا خيرى بممنون
ولا لسانى على الادنى بمنطلق — بالفاحشات ولا أغضى على الهون
ماذا علىّ وان كنتم ذوى رحمى — ان لا أحبكم إن لم تحبونى
ياعمرو إن لم تدعْ شتمى ومنقصتى — اضربك حتى تقول الهامة اسقونى (٢)
كل امرئ صائرٌ يوماً لشيمته — وان تخلّق أخلاقاً الى حين
لايخرجُ القسر منى غير مغضبة — ولا الين لمن لا يبتغى لينى (٣)

وهى قصيدة طويلة مذكورة فى شرح الشواهد للعينى (٤) وكان لذى الاصبع بنات أربع فعرض عليهن أن يزوجهن فأبينَ وقلن خدمتك وقربك أحب الينا ثم أشرف عليهن يوماً من حيث لا يرينه فقلن : لتقل كل واحدة ما فى نفسها . فقالت كل منهن شعراً تعرّض به الى حب الازدواج ، وسيأتى ان شاء الله تعالى تفصيل قصة عند ذكر مناكح العرب وانه زوّجهن .

حكيمات العرب

كان فى نساء العرب أيام الجاهلية ذوات كمال ، ووفور معرفة ، ومزيد فطانة وذكاء ، وحدة نظر ، حتى تزينت بذكر مآثرهن صحف التواريخ ، وقد دونت

(١) قوله لاه ابن عمك قال قوم اراد لله ابن عمك وقال ابن دريد : اقسم بالله ابن عمك ، وقوله عنى أى على ، والديان القيم بالامر المجازى به وتخزونى : تسوسنى سياسة وتخزونى بالخاء والزاى المعجمتين مضارع خزاه خزوا بالفتح ساسه وقهره وملكه وأما الخزى بالكسر وهو الهوان والذل فالفعل منه كرضى (٢) قوله أضربك حتى تقول الهامة أسقونى ، قال الاصمعى العطش فى الهامة وأراد أضربك فى ذلك الموضع أى على الهامة حتى تعطش ، وقال آخرون : ان العرب تقول ان الرجل اذا قتل خرجت من رأسه هامة تدور حول قبره وتقول اسقونى اسقونى فلا تزال كذلك حتى يؤخذ بثاره وهذا من مذاهب العرب فى الجاهلية — راجع الجزء الثانى من هذا الكتاب (٣) القسر : القهر أى ان أخذت قسراً لم أزده الاباء (٤) وذكرها القالى فى أماليه أيضاً انظر ج ١ ص ٢٥٩

كتبٌ ودواوين مشهورة فى شعرهن وفصاحة كلامهن ، وكانت منهن جملة اشتهرن باصابة الحكم وفصل الخصومات وحسن الرأى فى الحكومة . منهن :

ابنة الخس

وهى هند بنت الخُس الايادية جاهلية قديمة ، وقد أدركت القَلَمَّسَ أحد حكام العرب وقدسبق ذكره تحاكمت هى وأختها جمعة اليه ومدحته بابيات منها :

اذا الله جازى منعماً بوفائِهِ فجازاك عنى ياقلمَّسُ بالكرمْ

وبعض الرواة يزعم انها ماتت فى زمن النعمان عند هند ابنته ويستشهد على ذلك بقول الفرزدق :

وفيت بعهد كان منك تكرماً كما لابنةِ الخسِّ الايادى وفت هِندُ

وليس الامر كذلك ، وانما مراد الفرزدق ان هنداً وفت لاختها جمعة ابنة الخس لا انها عند ابنة النعمان ، وقد ترجمها الشريف المرتضى فى أماليه وذكر طرفاً من أمورها . ولها اسجاع كثيرة وشعر قليل ، وكانت تحاجى (١) الرجال الى أن مرَّ بها رجل فسألته المحاجاة فقال لها : كاد . فقالت : كاد العروس يكون أميراً . فقال : كاد . فقالت : كاد المنتعل يكون راكباً . فقال : كاد . فقالت : كاد البخيل يكون كلباً . وانصرف ، فقالت له : أحاجيك . فقال : قولى . فقالت : عجبت . فقال : عجبت للسبخة لايجف ثراها ، ولا ينبت مرعاها . فقالت : عجبت . فقال : عجبت للحجارة لايكبر صغيرها ولا يهرم كبيرها . فقالت : عجبت . فقال : عجبت لحفرة بين فخذيك لايمل حفرها ، ولا يدرك قعرها . فخجلت وتركت المحاجاة وقد روى الحريرى هذه القصة فى كتابه درة الغواص ونسبها لامرأة من الجن والصواب ماذكرناه . ومن اسجاعها : قيل لها أىّ الخيل أحب اليك ؟ قالت : ذو الميعة (٢) الصنيع ، السليط التليع (٣) ، الآيد

(١) يقال حاجيته محاجاة وحجاء فحجوته فاطنته فغلبته (٢) يقال ماع الشىء يميع جرى على وجه الارض منبسطاً فى هينة والفرس جرى (٣) السليط : الشديد ، والتليع : الرافع رأسه فى مشيه

الضليع (١) ، الملهب (٢) السريع . فقيل لها : أى الغيوث أحب اليك ؟ قالت : ذو الهَيْدَب (٣) المنبعق ، الاضخم المؤتلق (٤) ، الصخب المنبق (٥) ، وروى الشريف المرتضى فى اماليه عن ابن الاعرابى انه قيل لابنة الخس : ما مائة من المعز ؟ قالت : مويل يشف الفقر من ورائه مال الضعيف وحرفة العاجز . قيل : فما مائة من الضأن ؟ قالت : قرية لاحِمَى لها . قيل : فما مائة من الابل ؟ قالت : بخ جمال ومال ، ومنى الرجال . قيل : فما مائة من الخيل ؟ قالت : طغى من كانت له ولا يوجد . قيل : فما مائة من الحمر ؟ قالت : عازبة الليل ، وخزى المجلس ، لالبن فيحلب ولا صوف فيجز ، إنْ ربط عيرها أدلى ، وان ترِكَ ولى . وقيل لها : من أعظم الناس فى عينك ؟ قالت : من كانت لى اليه حاجة . وعن ابن الاعرابى أيضاً قيل لابنة الخس : ما أحسن شىء ؟ قالت غادية فى اثر سارية فى بنخاءقاوية . قال : بنخاء أرض مرتفعة لان النبات فى موضع مشرف احسن . وفى امالى أبى على القالى شىء من أسجاعها . وشعرها جيد ، ومنه قولها :

أَشَمّ كَنَصْلِ السيفِ جَعْدٌ مرجّل   شغفتُ به لو كانَ شئٌ مدانيا
وأقسم لو خيرت بين لقائِهِ   وبين أبى لاخترتُ أَنْ لا أباليا

والخس بضم الخاء المعجمة وتشديد السين المهملة ابن حابس رجل من إياد قال فى القاموس : وهو أبو هند بنت الخُسّ أو هى من العماليق والايادية جُمعة بنت حابس كلتاهما من الفصاح انتهى . وأغرب الجواليقى فقال : قال الأصمعى سمعت ناساً يحدثون أن ابنة الخس كانت قاعدة فى جوارٍ فمر بها قطا واردٌ فى مضيق من الجبل . فقالت : ياليت ذا القطا لنا * ومثل نصفه معه * الى قطاة أهلنا * اذا لنا قطا مائة * فاتبعت القطا فعدت على الماء فاذا هى ست وستون

(١) الآيد : القوى ، والضليع : التام الخلق المجفر والغليظ الالواح والكثير العصب
(٢) هو الذى يجتهد فى عدوه حتى يثير الغبار (٣) الهيدب : السحاب ما تهدب منه اذا أراد الودق كانه خيوط ، والمنبعق : السحاب المتصبب بشدة (٤) ائتلق البرق : لمع واضاء
(٥) الصخب ذو الصياح والجلبة ، والمنبثق : المنفجر

انتهى [١] والصواب أن صاحبةَ القطاهى زرقاء اليمامة . والى هذه القصة أشار النابغة الذبيانى بقوله من أبيات يخاطب بها النعمان بن المنذر ويعاتبه ويعتذر اليه مما أتهم به عنده :

فاحكم كحكم فتاة الحى إذ نظرتْ ... الى حمام شراعٍ وارد الثمد
يحفّه جانبا نيق وتتبعه ... مثل الزجاجة لم تكحل من الرمَد
قالت الا ليتما هذا الحمامُ لنا ... الى حمامتنا أو نصفه فقَدِ
فحسبوه فألفوه كما ذكرت ... تسعاً وتسعين لم تنقص ولم تزد [٢]
فكملت مائة فيها حمامتها ... وأسرعت حسبةً فى ذلك العدد

قال من شرح هذه القصيدة قوله فاحكم كحكم أى كن حكيما كهذه الفتاة أى أصب فى أمرى كاصابتها فى حدسها بالنظر . وأراد بفتاة الحى زرقاء اليمامة . قال الزمخشرى : ابصر من الزرقاء من مستقصى الامثال هى من بنات لقمان بن عاد ملكة اليمامة واليمامة اسمها فسميت البلدة باسمها وقيل اسمها عنز وهى احدى الزرق الثلاث أعينها والزباء والبَسوس . وكانت جديسية ، وحين قتل جديس طسما استجاشَ قبيلة طسم حسان بن تُبَّع الى اليمامة فلما صاروا من جوٍّ على مسيرة ثلاث ليال صعدت الاطُم [٣] الذى يقال له (الكلب) فنظرت اليهم وقد استتر كل بشجرة تلبيساً عليها فارتجزت بقولها :

(١) أقول ان هذه القصة قد تداولها الناس فى كتبهم وتلقوها بالقبول ، وانى لأرى من المستحيل ان يتفق هذا لاحد مع التساهل فى تجويز الرؤية وسرعتها على أن أحصاء هذا العدد والحمام والقطا فى طيرانه كيف يتهيأ وبعضه يتقدم وبعضه يتأخر وبعضه يتسفل وبعضه يستعلى . والاغرب ماذكره النابغة فى بيته (يحفه جانبا نيق وتتبعه مثل الزجاجة لم تكحل من الرمد) يريد بجانبي النيق : حافتى الجبل وإذا كان الحمام بين جبلين ضاق المكان عليه وركب بعضه بعضاً متراكبا فيكون أبعد لاحصاء عدده بخلاف ما اذا كان منبسطاً فى الجو ؛ والاغرب أيضاً مايذكرونه من ان زرقاء اليمامة كانت تنتظر الفارس من مسيرة ثلاثة أيام وقد ذكر فخر الدين الرازى فى (السر المكتوم) ماهو أسخف من هذه السخافات والامر لله .

(٢) قوله فحسبوه بعضهم يشدد السين لئلا تتوالى أربع متحركات وبعضهم يخففها ويقول بجواز ذلك فى بحر البسيط ، وألفوه : وجدوه (٣) القصر وكل حصن مبنى بحجارة وكل بيت مربع مسطح

أُقسِمُ باللهِ لقد دبَّ الشَّجَرْ   أو حمير قد أخذتْ شيئاً تجر

فكذبها قومها فقالت : والله لقد أرى رجلا ينهس كتفا أو يخصف نعلا ، فما تأهبوا حتى صبحهم الجيش ولما ظفر بها حسان قال : ما كان طعامك ؟ قالت : درمكة [1] فى كل يوم بمخ . قال فبم كنت تكتحلين ؟ قالت : بالإِثمِد وشق عينيها فرأى عروقاً سوداً من الإثمِد وهى أول من اكتحل بالأثمـد من العرب انتهى المقصود منه . ومنهن :

جمعة بنت حابس الايادى

وكانت من حكيمات العرب ذات فصاحة ومنطق عذب لاتبارى ببيانهـا وسلاطة لسانها ، وقد سبق انها أخت هند بنت الخس وانهما تحا كما الى القَلَمَّس فى كلام لهما ، وذكرها صاحب القاموس والميدانى فى جملة حكيمات العرب وسبق ول أن جُمعة ليست أخت هند . والاول أشهر . ومنهن :

صحر بنت لقمان

كانت من نساء العرب المشهورات بالعقل والكمال والفصاحة ، وكانت العرب تتحاكم عندها فيما ينوبهم من المشاجرات فى الانساب وغيرها . وصُحُر بالصاد والحاء المهملتين وكون أبيهـا لقمان هو الاصح ، وبعضهم يقول : هى أخت لقمان لابنته والله أعلم . ومنهن :

خصيلة بنت عامر بن الظرب العدوانى

كانت خصيلة من حكيمات العرب كما فى القاموس ومجمع الامثال ، ولعلها هى التى كان أبوها عامر يقول لها (مَتَى سُخَيْلُ بعدها أو صَبِّحى) بناء على انهـا كانت تسمى سخيلا أيضا . قال الميدانى عند شرحه لهـذا المثل : سخيل جارية

(١) الدرمك كجعفر : دقيق الحوارى

كانت لعامر بن الظرِب العدوانى وكان عامر حكم العرب. وكانت سخيل ترعى عليه غنمه، فكان عامر يعاتبها فى رعيتها اذا سرحت قال: أصبحتِ ياسُخَيل، واذا أراحت قال: أمسيت ياسخيل وكان عامر عىَّ فى فتوى قوم اختلفوا اليه فى خنثى يحكم فيه وسهر فى جوابهم ليالى فقالت الجارية: اَتْبِعه المبال فبايهما بال فهو هو ففُرِّج عنه وحكم به. وقال مَسى سخيل بعدها أى بعد جواب هذه المسئلة أى لا سبيل لاحد عليك بعد ما أخرجتني من هذه الورطة، يضرب لمن يباشر أمراً لا اعتراض لاحد عليه فيه. ومنهن:

حذام بنت الريان

وهى القائلة (لو تُرِكَ القطا ليلاً لنامَ) قال المفضل الضبى: أول من قال ذلك حَذامِ بنت الريّان، وذلك أن عاطس بن خلاّج سار الى أبيها فى حمير وخثعم وجعفى وهَمْدان ولقيهم الريان فى أربعة عشَرَ حياً من أحياء اليمن فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم تحاجزوا وان الريان خرج تحت ليلته وأصحابه هراباً فساروا يومهم وليلتهم، ثم عسكروا وأصبح عاطس فغدا لقتالهم فاذا الأرض منهم بلاقعُ فجرد خيله فى الطلب فانتهوا الى عسكر الريّان ليلاً فلما كانوا قريباً منه أثاروا القطا، فمرت على أصحاب الريّان فخرجت حَذام بنت الريان الى قومها فقالت:

الا ياقومنا ارتحلوا وسيروا — فلو تُرِكَ القَطا ليلاً لناما

أى أن القطا لو ترك لما طار هذه الساعة وقد أتاكم القوم، فلم يلتفتوا الى قولها واخلدوا الى المضاجع لما نالهم من الكلال فقام ديسم بن طارق فقال بصوت عال:

اذا قالتْ حَذامِ فصدّقوها — فان القولَ ما قالت حَذامِ

فثار القوم فلجؤا الى وادٍ كان قريباً منهم فاعتصموا به حتى أصبحوا وامتنعوا منهم. قال الميدانى: قلت وفى رواية أبى عبيد أن البيت للجيم بن صعب فى امرأته

حدام ، وقد ذكرته فى باب القاف . قال : وهذا مثل يضرب لمن حمل على مكروه من غير ارادته. هذا ما وقفت عليه من هذا الباب ، وعليك بالكتب المؤلفة فيه ان أردت الاستيعاب ، وما ذكرته كاف فى المقصود ، ونسأله تعالى التسهيل إنه ذو الكرم والجود .

الكلام على أعياد العرب فى الجاهلية وافراحهم

اعلم أن العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد عائداً ما تعود السنة أو يعود الاسبوع أو الشهر أو نحو ذلك فالعيد يجمع أموراً منها يوم عائد كيوم الفطر ويوم الجمعة ، ومنها اجتماع فيه ، ومنها أعمال تتبع ذلك من العبادات والعادات ، وقد يختص العيد بمكان بعينه وقد يكون مطلقا وكل من هذه الأمور قد تسمى عيداً ، فالزمان كقول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم (ان هذا يوم جعله الله للمسلمين عيداً) يعنى يوم الجمعة . والاجتماع والأعمال كقول ابن عباس (شهدت العيد مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان ، فكلهم كانوا يصلون قبل الخطبة) والمكان كقول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم (لا تتخذوا قبرى عيداً) وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم للذى نذر أن ينحر ببُوانة [1] (أبها وثن من أوثان المشركين أو عيد من أعيادهم ؟ قال : لا . قال : فأوفِ بنذرك) . وقد يكون لفظ العيد اسماً لمجموع اليوم والعمل فيه وهو الغالب كقول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من جملة حديث (دعهما يا أبا بكر فان لكل قومٍ عيداً وهذا عيدنا) . اذا عرفت ذلك فاعلم أن العرب كانوا فى الجاهلية شِيَعاً متفرقين وفرقا مختلفين . قال ابن قتيبة فى أديان العرب : إن النصرانية كانت فى ربيعة وغسان وبعض قضاعة ، وكانت اليهودية فى حمير وبنى كنانة وبنى الحارث بن كعب وكندة ، وكانت المجوسية فى تميم منهم زُرارة بن عدس التميمى وابنه حاجب ابن زرارة وكان تزوج ابنته ثم ندم ، ومنهم الأقرع بن حابس فقد كان مجوسيا ، Ma'arif. p. 205.

(١) بوانة كثمامة : هضبة وراء ينبع وماءة لبنى جشم وماء لبنى عقيل

وأبو الأسود جد وكيع بن حسان فقد كان مجوسياً أيضاً ، وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الحيرة والمراد بالزندقة هنا عدم الايمان بالآخرة وبالربوبية ولها غير هذا المعنى وكان بنوحنيفة اتخذوا فى الجاهلية الهاً من حيس (١) فعبدوه دهراً طويلاً ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه فقال رجل من تميم :

أكلت ربها حنيفة من جو ... ع قديم بها ومن إعواز

وقال آخر :

أكلت حنيفة ربها ... زمن التقحم والمجاعه

لم يحذروا من ربهم ... سوء العواقب والتباعه

والتقحم القحط والحيس الخلط وتمر يخلط بسمن واقط فيعجن شديداً ثم يندر (٢) منه نواه وربما جعل فيه سويق ، وسيأتى ان شاء الله تعالى تفصيل الكلام فى ذلك كله . والمقصود أن العرب لم يكونوا متفقى المذهب ، ولا متحدى المسلك والمشرب ، ولا شك أن الأعياد من الديانات ، ولواحق العبادات ، والى ذلك ذهب المفسرون فى قوله تعالى (ولكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه) فقد فسروا المنسك بالعيد فلم يكن العرب يومئذ متفقين فى الأعياد ، كما لم يتفقوا فى الدين والاعتقاد ، فلزم أن نبين مالكل فرقة منهم من الأعياد والمواسم على وجه الاجمال ، ولو ذكرنا ما كان لكل قبيلة من ذلك على وجه التفصيل لطال المقال ، ومن الله نستمد التوفيق وعليه الاتكال .

اعياد المشركين من عبدة الاصنام

كان لعباد الاصنام من العرب فى الجاهلية أعياد كثيرة منها مكانية ومنها زمانية اما « المكانية » فكثيرة ، وهى مواضع أصنامهم وأوثانهم وأمكنة طواغيتهم وكانت الطواغيت الكبار التى كانت تشد اليها الرحال وتتخذ عيداً ثلاثة : اللات

(١) سيأتى تفسيره (٢) ندر الشيء ندوراً من باب قعد سقط أو خرج من غيره ومنه نادر الجبل وهو مايخرج منه ويبرز وندر فلان من قومه

والعُزَّى ومَناة الثالثة الأخرى كما ذكر الله تعالى ذلكَ فى كتابه حيث قال (أفرأيتم اللاتَ والعُزَّى ومناةَ الثالثةَ الأخرى ألكمُ الذَّكَرُ وله الانثى تلك اذاً قِسمةٌ ضيزى) (١) وكل واحد من هذه الثلاثة لمصر من أمصار العرب ، والامصار التى كانت من ناحية الحرم ومواقيت الحج ثلاثة : مكة والمدينة والطائف ، فكانت اللات لاهل الطائف . ذكروا انه كان فى الاصل رجلاً صالحاً يلُتّ (٢) السويقَ للحاج فلما مات عكفوا على قبره مدة ثم اتخذوا تمثاله ثم بنوا عليه بنية سموها بيت الربة . وأما العُزَّى فقد كانت لاهل مكة قريباً من عرفات ، وكانت هناك شجرة يذبحون عندها ويدعون ، فبعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم خالد بن الوليد عقب فتح مكة فأزالها وقسم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مالها وخرجت منها شيطانة ناشرة شعرَها فيئست العُزَّى أن تعبد . وأما مَنَاة فكانت لاهل المدينة يهلون لها شركا بالله تعالى ، وكانت حذو قديد الجبل الذى بين مكة والمدينة من ناحية الساحل . وكانت لهم مواسم من السنة مخصوصة للاجتماع فى هذه الثلاثة ، وكانت العرب تَقْصِدُها من كل فَجّ وتعظمها كتعظيم الكعبة ، وكان لها سدنة (٣) وحُجاب ، وكانوا يهدون اليها كما يهدون للكعبة ويطوفون بها وينحرون عندها مع اعترافهم بفضل الكعبة عليها لعلمهم انها بيت أبيهم ابراهيم الخليل عليه السلام ومسجده ، وكان ذو الخلَصة بيتاً باليمن لخثعم وبجيلة فيه نصب يعبدونها ولهم فيه من السنة موسم وعيد ، وفى الحديث (كان بيت فى الجاهلية يقال له ذو الخلصة والكعبة اليمانية والكعبة الشامية ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لجرير ألا تريحني من ذى الخلصة ؟ قال جرير : فنفرت فى مائة وخمسين راكباً فكسرناه وقتلنا من وجدنا عنده فاتيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فاخبرته فدعا لنا

---

(١) أى ناقصة ويقال جائرة ويقال أضازة حقه اذا نقصه وضاز فى الحكم اذا جار فيه وضيزى وزنه فعلى وكسرت الضاد للياء وليس فى النعوت فعلى (٢) لت الرجل السويق لتاً من باب قتل بله بشىء من الماء وهو أخف من البس (٣) يقال سدنت الكعبة سدناً من باب قتل خدمتها فالواحد سادن والجمع سدنة والسدانة بالكسر الخدمة

ولا أحمسَ) وفى رواية أخرى فقال رسول جرير : والذى بعثك بالحق ما جئتك حتى تركتها كأنها جملٌ أجربُ ، قال فبارك فى خيل أحمس ورجالها خمس مرات ، وهذا غير ذى الخلصة الذى نصبه عمرو بن لُحيّ أسفلَ مكة . وكانوا يلبسونه القلائد ويجعلون عليه بيض النعام ويذبحون عنده

وكان أهل نجران يعبدون نخلة طويلة بين أظهرهم لها عيد وموسم فى كل سنة اذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وحلى النساء ثم خرجوا اليها وعكفوا عليها يوما فابتاع فيمونَ — وكان مؤمناً بعيسى عليه السلام — رجلٌ من أشراف أهل نجران وابتاع صالحاً آخر ، فكان فيمون اذا قام من الليل يتهجد فى بيت له أسكنه اياه سيده فاذا صلى أضاء له البيت نوراً حتى يُصبح ، فأحس بذلك سيده فأعجبه ما يرى منه فسأله عن دينه فأخبره به فقال له فيمون : انما أنتم فى باطل ان هذه النخلة لا تضر ولا تنفع ولو دعوت عليها الهى الذى أعبده أهلكها وهو الله وحده لا شريك له . فقال له سيده فافعل فانك ان فعلت دخلنا فى دينك وتركنا ما نحن عليه . فقام فيمون فتطهر وصلى ركعتين ثم دعا الله تعالى عليها فأرسل الله عليها ريحاً فجعفتها أى قلعتها من أصلها فألقتها فاتبعه عند ذلك أهل نجران على دينه فحملهم على الشريعة من دين عيسى بن مريم عليه السلام ثم دخلت عليهم الاحداث التى دخلت على أهل دينهم بكل أرض فمن هنالك كانت النصرانية بنجران فى أرض العرب .

وأما « الزمانية » فهى أيام مسراتهم وأفراحهم لظفرهم على عدوهم ونصرتهم على خصومهم ومحاربيهم ، وذلك انما يكون بحسب قوم دون قوم ولقبيلة دون أخرى فيتفق فى يوم هو عيد لقوم وسرور وهو لآخرين حزن وبؤس . وكان لأهل المدينة يومان يلعبون فيهما (١) فلما قدم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة قال لهم (قد أبدلكم الله تعالى بهما خيراً منهما يوم الفطر والأضحى) ويوم (السبع) عيد من أعياد قبيلة من قبائل العرب فى الجاهلية يشتغلون فيه باللهو

(١) ذكر بعض شراح الحديث أنهما النيروز والمهرجان وكأنهم أخذوهما من الفرس

واللعب ، وكذلك يوم (السباسب) كان عيداً لقوم من العرب فى الجاهلية ، قال النابغة :

رقاقُ النعال طيّبٌ حُجُزاتهم ... يُحَيَّون بالريحان يوم السباسب (١)

يقول : هم اعفاء الفروج لا يحلون ازارهم لريبة ، وكانوا اذا حيوا يقدمون مع التحية الريحان لأنهم يحيون بنفس الريحان ، وذلك فى هذا الموسم خاصة وبعض الادباء عمم .

أعياد المجوس وهم الفرس وشرذمة من العرب وغيرهم

وهى كثيرة جداً حتى ان علىّ بن حمزة الاصبهانى عمل فيها كتاباً ذكر فيه سبب اتخاذهم لها وسنن ملوكهم فيها فكرهت أن أقتفى أثره فى ذلك خوف التطويل فاقتصرت منها على المشهور الذى أولع الشعراء بذكره ، واعتنى الامراء بامره ، وهو (النيروز) و (المهرجان) و (السدق) فاما « النيروز » فهو تعريب نوروز وهو أعظم أعيادهم فيقال : إن أول من اتخذه (جمشاد) أحد ملوك الطبقة الاولى من الفرس وهذا الاسم فى الاصل مركب من جم وهو القمر وشاد وهو الشعاع والضياء وسبب اتخاذهم لهذا اليوم عيداً ان (طمهورة) لما هلك ملك بعده جمشاد فسمى اليوم الذى ملك فيه نوروزاً أى اليوم الجديد ، ونقل عن بعض المجاميع ان جمشاد ملك الاقاليم السبعة والجن والانس ، وانه لما مضى من ملكه ثلثمائة وستة عشر سنة أقبل على عجلة من زجاج عملتها له الشياطين سار بها الى (دنباوند) الى (بابل) فى يوم واحد ، وجعل يسير بها فى الهواء حيث شاء ، وان اليوم الذى ركبها فيه كان أول يوم من شهر (افرود ريزماه) وكان مدة ملكه لا يريهم وجهه فلما ركبها أبرز لهم وجهه ، وكان له حظ وافر من الجمال فجعلوا يوم رؤيتهم له عيداً وسموه نوروزاً والله تعالى أعلم بصحة ذلك . والفرس يصفون جمشاد بما وصف

(١) الحجزة . بالضم معقد الازار ومن السراويل موضع التكة

به سليمان بن داود عليهما السلام ، وانه كان مجاب الدعوة ، وانه سأل ربه أن يرفع عن رعيته الموت والسقم فكثر الخلق حتى ضاقت بهم الارض فسأل ربه أن يوسعها عليهم ، فامره أن يأتي جبل (البرز) وهوجبل (قاف) المحيطبالارض فيأمره أن يتسع ثلاثمائة فرسخ فى أدوار الارض فاتسع ، ثم بعد ذلك طغى وتجبر فذهب بهاؤه وشعاعه وهرب يجول فى الارض مائةسنة ثم ظَفِرَ به الضحاك فنشره بالمنشار . ومن الفرس من يزعم ان النيروز هو اليوم الذى خلق الله تعالى فيه النور ، وانه كان معظماً قبل جمشاد . وبعضهم يزعم انه أول الزمان الذى ابتدأ الفلك فيه بالدوران ، ومدته عندهم ستة أيام أولها اليوم الاول من شهر (افرودريزماه) الذى هو أول شهور سنتهم ويسمون اليوم السادس النيروز الكبير ، لأن الاكاسرة كانوا يقضون فى الايام الخمسة حوائج الناس على اختلاف طبقاتهم ، ثم ينتقلون الى مجالس أنسهم مع خواصهم .

وحكى ابن المُقَفَّع : انه كان من عادتهم فيه أن يأتي الملك رجل من الليل قد أرصد لما يفعله حسن الاسم والوجه فيقف على الباب حتى يُصبِح ، فاذا أصبح دخل على الملك من غير استئذان ووقف حيث يراه ، فيقول له الملك : من أنت ومن أين أقبلت وأين تريد وما اسمك ولاى شىء وردت وما معك ؟ فيقول : أنا المنصور واسمى المبارك ومن قبل الله أقبلت والملك السعيد أردت وبالهنا والسلامة وردت ومعى السنة الجديدة ، ثم يجلس ويدخل بعده رجل معه طبق من فضة وعليه حنطة وشعير وجلبان وحمص وسمسم وأرز ، من كل جنس سبع سنابل وسبع حبات وقطعة سكر ودينار ودرهم جديدان فيضع الطَبَق بين يدى الملك ، ثم تدخل عليه الهدايا ويكون أول من يدخل عليه وزيره ثم صاحب الخراج ثم صاحب المؤنة ثم الناس على مراتبهم ، ثم يقدم للملك رغيف كبير مصنوع من تلك الحبوب موضوع فى سلة فيأكل منه ويطعم من حضره ، ثم يقول : هذا يوم جديد من شهر جديد من عام جديد من زمان جديد يحتاج

الى أن نجدد فيه ما اخلق الزمان ، وأحق الناس بالفضل والاحسان الرأس لفضله على سائر الأعضاء . ثم يخلع على وجوه مملكته ويَصِلهم ويفرق فيه ما حمل اليه من الهدايا . وأما عوام الفرس فكانت عادتهم إيقاد النار فى ليلته ورش الماء فى صباحه ، وزعموا أن إيقاد النار فيه لتحليل العفونات التى أبقاها الشتاء فى الهواء وقيل : انما فعلوا ذلك تنويهاً بذكره واشهاراً لأمره . وقيل فى رش الماء انما هو بمنزلة النُّشْرَة [1] لتطهير الأبدان مما انضاف اليها من دخان النار الموقدة فى ليلته . وقال آخرون : ان سبب رش الماء ان فيروز بن يزدجرد لما استتم بناء سور (جَىّ) [2] واصبهان القديمة لم يقع المطر سبع سنين من ملكه ، ثم مطرت فى هذا اليوم ففرح الناس بالمطر فصبوا من مائه على ابدانهم من شدة فرحهم به فصار ذلك سنة عندهم فى ذلك اليوم من كل عام [3] . وكثيراً ما نحا الناس هذا النحو لموافاته إياهم بالكدر بدلاً عن الصفو . وعند القبط بمصر عيد يسمونه (النيروز) أيضاً ويتخذونه فى رأس سَنتهم ويسميه نصارى الشام (القلنداس) وهم يظهرون فيه من الفرح والسرور وإيقاد النيران وصب المياه ضعف ما يفعله الفرس ، ويشاركهم فى ذلك العوام من المسلمين إلا أن أهل مصر يزيدون فيه التصافع بالنطاع ، وربما حملهم ترك الاحتشام على أن يجترؤا على الرجل المطاع ، ولولا أن ولاة الأمر يردعونهم ويمنعونهم من ذلك لمنعوا الطريق من السالك وهم مع هذا من ظفروا به لا يتركونه الا بما يرضيهم من الفداء ، كما يفعل بمن حصل فى أيدى الأعداء ، ويقال : ان أول من عمل نيروز القبط اشمود بن قبطم ابن مريم أحد ملوك القبط الأول ، وأول من رسم هدايا النيروز والمهرجان فى الاسلام الحجاج بن يوسف الثقفى ، وأول من رفع ذلك عمر بن عبد العزيز ،

---

(١) بالضم رقية يعالج بها المجنون والمريض (٢) بالفتح لقب أصبهان قديماً (٣) وما احلى قول بعضهم يخاطب من يهواه ويذكر مايعتمد فى النيروز من شب النيران وصب الافواه :

كيف أبتهاجك بالنيروز ياسكني   وكل مافيه يحكيني وأحكيه
فتارة كالهيب النار فى كبدى   وتارة كتوالى عبرتى فيه
أسلمتنى فيه ياسؤلى الى وجب   فكيف تهدى الى من أنت تهديه

واستمر ذلك الى أن فتح الهدية فيه (احمد بن يوسف الكاتب) فانه اهدى فيه للمأمون سفطَ ذهبٍ فيه قطعة عود هندى فى طوله وعرضه وكتب معه هذا يوم جرت فيه العادة ، بالطاف العبيد للسادة ، وقد قلت :

على العبد حقٌّ وهو لاشك فاعِلُهُ وإنْ عَظُمَ المولى وجَلَّتْ فواضِلُهُ (١)

وكتب سعيد بن حميد الى صديق له يوم نيروز : هذا يوم سهلت فيه السنة للعبيد الاهداء للملوك وتعلقت كل طائفة من البر بحسب القدرة والهمة ولم أجد فيما أملك مايفى بحقك ، ووجدت تفريطك أبلغ من أداء مايجب لك ومن لم يؤت فى هدية إلا من جهة قدرته ، فلا طمن عليه فى همته . ولم يزل الناس على سنن الفرس فى استجباء الخراج عند دخول النيروز حتى دخل عليهم الخلل فى دور السنين فحاولوا أن يؤخروه وذلك فى زمن هشام بن عبد الملك ، وبذلوا لخالد ابن عبد الله القسرى مائة الف دينار على ذلك فكتب فيه الى هشام ، فكتب اليه هشام : أخاف أن يكون هذا من النسىء الذى قال الله تعالى فيه : انما النسىء زيادة فى الكفر . فامتنع خالد من ذلك ثم سئل يحيى بن خالد بن برمك فى أيام الرشيد أن يؤخر النيروز الى شهرين فعزم على ذلك فبلغه أن قوماً قالوا أراد أن ينصر المجوسية فامتنع من ذلك الى أن رأى المتوكل وقد ركب للصيد يوم النيروز والزرع لم يسبل بعد وقال : قد استؤذنت فى فتح الخراج والزرع لم يسبل بعد فعرّفه ابراهيم بن عباس الصُولى أن الأكاسرة كانت تسقط فى كل عشرين ومائة سنة شهراً ، وان الروم طرحت بعد موت الاسكندر من كل أربع سنين يوما وربع يوم ، وانما فعلوا ذلك لأن الشمس تقطع الفلك فى كل ثلثمائة وستين يوما وربع يوم فيجمع من هذا الربع يوم فى كل أربع سنين فيطرح وتسمى هذه السنة

(١) ويروى بعده :

ألم ترنا نهدى الى الله ماله وان كان عنه ذا غنى فهو قابله
فلو كان يهدى للجليل بقدره لقصر عنه البحر يوماً وساحله
ولكننا نهدى الى من نجله وان لم يكن ذو سعة ماانذا كله

كبيسة فلما جاء الاسلام عملوا على رسم دواوين العجم من غير أن يطرحوا هذا اليوم ، فأمر المتوكل الحساب أن يحسبوا ما طرحوه فحسبوا الذى مضى من السنين التى لم تكبس فيها بعد ذهاب الفرس فوجدوه مائتين وخمسين سنة فجعلوا لكل مائة وعشرين سنة شهراً ، فوافق السابع عشر من حزيران ، وأمر أن يجعل النيروز فى هذا اليوم ، وأن لا يفتح الخراج الا فيه ، وكان هذا فى أواخر سنة اثنتين وأربعين ومائتين . ثم قدّم فى أيام المعتضد الى الحادى عشر من حزيران تحريراً للحساب الاول ، ونقلت فى أيام المطيع لله سنة خمسين وثلاثمائة الخراجية الى سنة احدى وخمسين . واما « المهرجان » فوقوعه فى السادس والعشرين من تشرين الاول من شهور السريان ، ومن شهور الفرس فى السادس عشر من مهرماه وهذا الاوان وسط زمن الخريف ولهذا قال الشاعر :

أُحِبُّ المهرجان لأنَّ فيه ... سروراً للملوك ذوى السناء
وباباً للمصير الى أوانٍ ... تفتح فيه أبواب السماء

وهو ستة أيام ويسمى اليوم الثالث المهرجان الاكبر . قال المسعودى : وسبب تسميتهم لهذا اليوم بهذا الاسم انهم كانوا يسمون شهورهم باسماء ملوكهم ، وكان لهم ملك يسمى مهراً يسير فيهم بالعنف والعسف فمات فى نصف الشهر الذى يسمونه مهرماه ، ومعنى ماه القمر فسمى ذلك اليوم مهرجان وتفسيره نفس مهر ذهبت لان العجم يقدمون المضاف اليه على المضاف بخلاف العرب ، وهذه اللغة لغة الفرس الاولى وتسمى الفهلوية ويقال مهر وفاء وجان سلطان وكان معناه سلطان الوفاء . وزعم آخرون ان مهر بالفارسية حفاظ وجان الروح [1] . ويقال : انما ظهر فى عهد افريدون الملك ، ومعنى هذا الاسم ادراك النار بعده عن دين المجوسية

---

(١) وفى ذلك يقول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

اذا ما تحقق بالمهرجا ... ن من ليس يعرف معناه غاظا
ومعناه ان غلب الفرس فيه ... فسموه للروح فيه حفاظا

وسبب اتخاذهم له ان بيوراسب وهو الضحاك (١) . ويقال له الازدهاق ذو الحيتين

(١) قال ابن الاثير في الكامل ذكر بيوراسب وهو الازدهاق الذي يسميه العرب الضحاك قال وأهل اليمن يدعون أن الضحاك منهم وانه أول الفراعنة وكان ملك مصر لما قدمها ابراهيم الخليل والفرس تذكر أنه منهم وتنسبه اليهم وأنه بيوراسب بن اروند اسب بن رينكاو بن وندريشتك ابن يارين بن فروال بن سيامك بن ميشى بن جيومرث ومنهم من ينسبه هذه النسبة

وزعم أهل الاخبار أنه ملك الاقاليم السبعة وأنه كان ساحراً فاجراً ، قال هشام ابن الكلبي ملك الضحاك بعد جم فيما يزعمون والله أعلم ألف سنة ونزل السواد في قرية يقال لها برس في ناحية طريق الكوفة وملك الارض كلها وسار بالفجور والعسف وبسط يده في القتل وكان أول من سن الصلب والقطع وأول من وضع العشور وضرب الدراهم وأول من تغنى وغني له ، قال وبلغنا أن الضحاك هو نمروذ وأن ابراهيم عليه السلام ولد في زمانه وأنه صاحبه الذى أراد أحراقه

وتزعم الفرس أن الملك لم يكن الا للبطن الذى منه أوشهنج وجم وطهمورث وأن الضحاك كان غاصباً وانه غصب أهل الارض بسحره وخبثه وهول عليهم بالحيتين اللتين كانتا على منكبيه وقال كثير من أهل الكتب ان الذى كان على منكبيه كان لحمتين طويلتين كل واحدة منهما كرأس الثعبان وكان يسترهما بالثياب ويذكر على طريق التهويل انهما حيتان يقتضيانه الطعام وكانتا تتحركان تحت ثوبه اذا جاع . ولقي الناس منه جهداً شديداً وذبح الصبيان لان اللحمتين اللتين كانتا على منكبيه كانتا تضربانه فاذا طلاهما بدماغ انسان سكنتا فكان يذبح في كل يوم رجلين فلم يزل الناس كذلك حتى اذا اراد الله هلاكه وثب رجل من العامة من اهل اصبهان يقال له كابي بسبب ابنين له اخذهما اصحاب بيوراسب بسبب اللحمتين اللتين كانتا على منكبيه ، وأخذ كابي عصا كانت بيده فعلق بطرفها جراباً كان معه ثم نصب ذلك كالعلم ودعا الناس الى مجاهدة بيوراسب ومحاربته فاسرع الى اجابته خلق كثير لما كانوا فيه من البلاء وفنون الجور فلما غلب كابي تفاءل الناس بذلك العلم فعظموه وزادوا فيه حتى صار عند ملوك العجم علمهم الاكبر الذى يتبركون به وسموه درفش كابيان فكانوا لا يسيرونه الا في الامور الكبار العظام ولا يرفع إلا لأولاد الملوك اذا وجهوا في الامور الكبار ، وكان من خبر كابي انه من أهل اصبهان فثار بمن اتبعه فالتفت الخلائق اليه فلما اشرف على الضحاك قذف في قلب الضحاك منه الرعب فهرب عن منازله وخلى مكانه فاجتمع الاعجام الى كابي فاعلمهم انه لا يتعرض للملك لانه ليس من أهله وأمرهم أن يملكوا بعض ولد جم لانه ابن الملك أوشهنج الاكبر ابن فروال الذى رسم الملك وسبق في القيام ، وكان أفريدون بن أثفيان مستخفياً من الضحاك فوافى كابي ومن معه فاستبشروا بموافاته فملكوه وصار كابي والوجوه لافريدون أعواناً على أمره فلما ملك وأحكم ما احتاج اليه من امر الملك واحتوى على منازل الضحاك وسار في اثره فاسره بدنباوند في جبالها

وبعض المجوس تزعم انه وكل به قوماً من الجن وبعضهم يقول انه لقي سليمان بن داود وحبسه سليمان في جبل دنباوند وكان ذلك الزمان بالشام فابرح بيوراسب بحبسه بحجر حتى حمله الى خراسان فلما عرف سليمان ذلك أمر الجن فاوثقوه حتى لا يزول وعملوا عليه طلسما كرجلين يدقان باب الغار الذى حبس فيه ابداً لئلا يخرج فانه عندهم لا يموت ، وهذا ايضاً من اكاذيب الفرس الباردة ولهم فيه اكاذيب اعجب من هذا تركنا ذكرها

والافواه الثلاثة والاعين الستة الداهية الخبيث المتمرد لما قتل جمشاد وملك . جاءه ابليس فى صورة خادم فقبل منكبيه فبدت فيهما حبتان وكانت تؤلمه فوصف له أدمغة الناس فقتل كل يوم غلامين لذلك . فاجحف قتل الولدان بالرعية فخرج رجل باصبهان يقال له (كابى) وعقد لواء من سنبك جدى ، وقيل من جلد أسد ودعا النـاس الى محاربة الضحاك فاجتمع له خلق كثير ، وشخص الى الضحاك فهابهم وهرب منهم فاجتمع الفرس الى (كابى) ليملكوه عليهم ، فقال : ما أنا من أهله وذكر لهم ان معه صبياً من ولد جمشاد يسمى افريدون ، فقال : أرى أن تملكوه وتعيدوا الملك الى أهله . فملكوه فخرج افريدون فى طلب الضحاك فوجده فاخذه وشده وحبسه فى جبل دنباوند ، وجعل ذلك اليوم عيداً وسماه المهرجان . ويقال ان ذلك اللواء لم يزل عند الفرس مغشى بالديباج المذهب المرصع بضروب الجواهر ، وكان يسمى (درفس كابى) ومعنى درفس قائم ، وكانت ملوك الفرس لاتخرجه الأ فى يوم حرب تبركا به ، ولا يحمل إلاّ على رأس ملك أو ولى عهد ، ولم يزل عندهم الى أن جاء الاسلام فحمل على رأس رستم فى وقعة القادسية ، فلما هزمت الفرس وقتل رستم صارت هذه الغنائم الى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فقوّمت بالفى ألف ومائتى ألف وثلاثين ألف درهم . وقيل : كان أخذها يوم فتح المدائن . وقيـل : يوم فتح نهاوند . وزعم بعض الفرس ان الضحاك هو نمروذ ، وافريدون هو ابراهيم عليه السلام . ويقال : إن المهرجان هو اليوم الذى

وبعض الفرس يزعم ان افريدون قتله يوم النيروز فقال العجم عند قتله امروز نوروز اى استقبلنا الدهر يوم جديد فاتخذوه عيداً وكان اسره يوم المهرجان فقال العجم امد مهرجان لقتل من كان يذبح وزعموا انهم لم يسمعوا فى امور الضحاك بشىء يستحسن غير شىء واحد وهو ان بليته لما اشتدت ودام جوره وتراسل الوجوه فى امره فاجمعوا على المصير الى بابه فوافاه الوجوه فاتفقوا على أن يدخل عليه كابى الاصبهانى فدخل عليه ولم يسلم فقال أيها الملك أى السلام أسلم عليك سلام من يملك الاقاليم كلها ام سلام من يملك هذا الاقليم ، فقال بل سلام من يملك ألاقاليم كلها لانى ملك الارض

هذا ماأردنا ذكره توضيحاً لما أجل فى الاصل ليس الا

عقد فيه التاج على رأس ازدشير بن بابك أول ملوك الفرس الساسانية ، وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر يفضل المهرجان على النيروز :

أخا الفرسِ إنّ الفرسَ تعلم أنه   لا طيبُ من نيروزها مهرجانُها
لادبار أيام يغمُّ هواؤها   واقبال أيام يسر زمانها

وكان مذهب الفرس فيه أن تدهن ملوكهم بدهن البان تبركا وكذلك عوامهم وان يلبس العصب والوشى وان يتتوج بتاج عليه صورة الشمس وحجلتها الدائرة عليها ، ويكون أول من يدخل عليها الموبذان بطبق فيه اترجة وقطعة سكر ونبق وسفرجل وعناب وتفاح وعنقود عنب أبيض وسبع طاقات آس قد زمزم عليها ، ثم تدخل الناس على تفاوت طبقاتهم بمثل ذلك . وكان ازدشير وأنوشيروان يأمران باخراج مافى خزائنهم فى المهرجان والنيروز من أنواع الملابس والفرش فيفرق كلها فى الناس على مراتبهم ويقولان : ان الملوك تستغنى عن كسوة الصيف فى الشتاء وعن كسوة الشتاء فى الصيف ، وليس من أخلاقهم أن تجبى كسوتهم فى خزائنهم وتساوى العامة فى فعلها . وزعم أصحاب التاريخ أن النيروز عملته الفرس قبل المهرجان بألفى سنة وخمسمائة سنة . وكانوا يهدون فى النيروز والمهرجان المسك والعنبر والعود الهندى ويعوضون فى النيروز عن الزعفران الكافور . وأما « السدق » ويعمل فى ليلة الحادى عشر من شهر ايار ماه ويسمى هذا اليوم عند الفرس روزابان لأن لكل يوم من أيام الشهر عندهم أسماء ويقال فى سبب اتخاذهم له : إن فراسياب لما تملك سار الى بلاد بابك فأكثر فيها الفتنة وخرب ما كان عامراً منها فخرج عليه زفرب بن طهماز شب فطرده عن مملكة فارس الى بلاد الترك . وكان ذلك فى يوم روزابان فاتخذ الفرس هذا اليوم عيداً وجعلوه ثالثاً لعيدى النيروز والمهرجان ، ولما تملك وضع عن الناس خراج سبع سنين فعمرت البلاد . ويقال أيضاً فى سبب اتخاذهم لهذا العيد : إنّ الأب الأول وهو عندهم كيومرت لما كمل له من بنيه مائة ولد زوج الذكور بالأناث وصنع لهم

عرساً أكثر فيه من إيقاد النيران ، وقد وافق هذا تلك الليلة المذكورة فاستنت ذلك الفرس بعده وهم يوقدون النيران بسائر الأدهان ويزيدهم الولوع بها حتى أنهم يلقون فيه سائر الحيوانات .

وللفرس أعياد دون ما ذكرناه . منها عيد يسمى « تيركان » زعموا أنه لما وقعت المصالحة بين منوجهر وفراسياب التركى على ان يعطى فراسياب منوجهر من المملكة قدر رمية سهم فانبروا رجلا يقال له ايس ، وكان مؤيداً فى الرمى فغرز سهماً فى قوسه ورمى وامتدّ السهم من جبال طبرستان الى أعالى طخرستان ، وهذا يكون فى الثالث عشر من تيرماه . وأيام « الفيروزجان » وهى خمسة أيام أولها السادس والعشرون من أبان ماه ومعناه تربية الروح لأنهم كانوا يصنعون فيها أطعمة وأشربة لأرواح موتاهم ، ويزعمون أنها تأتى وتغتذى بها « وركوب الكوسج » (١) يعمل فى أول يوم من آذرماه . وسنّتهم فيه أن يركب فى كل بلد من بلادهم رجل كوسج قد أعدّ لما يصنع به يأكل الأطعمة الحارّة ويشرب الشراب الصرف أياما قبل حلول الشهر ، فاذا حل لبس غلالة صبورية وركب بقرة وأخذ على يده غرابا ، ويتبعه الناس يصبون عليه الماء ويضربون وجهه بالثلج ويروحون عليه بالمراوح وهو يصيح بالفارسية كرم كرم ، ومعناه : الحرّ الحرّ ، يفعل ذلك سبعة أيام ومعه أوباش الناس ينهبون ما يجدون من الأمتعة فى الحوانيت ، وللسلطان عليهم مال فاذا وجدوا بعد عصر اليوم السابع ضربوا وحبسوا . ويقال : إن هذا الفعل كان يتداوله أهل بيت كل منهم كوسج . وحكى الزمخشرى فى كتاب (ربيع الابرار) فى سببه : أن كوسجاً كان يشرب فى هذه الأيام ويطلى بدنه فيها فعملته الفرس . وفى ركوبه يقول الشاعر :

قد ركب الكوسجُ ياصاحِ   فالتذّ بالمزهر والراحِ
وأنعم بآزرماه عيشاً   وخذ من لذة بمفتاحِ

(١) الكوسج معرب كوسه بمعنى ناقص الشعر وقيل ناقص الاسنان والاول هو المعروف واشتقوا منه فعلا فقالوا من طالت لحيته تكوسج عقله ، ويقال كوسق وهو اسم سمكة وهو معرب أيضاً

و « عيد بهمنجه » يتخذونه فى يوم بهمن فى شهر بهمن ماه يؤكل فيه بهمن الأبيض باللبن الخالص على أنه ينفع الحفظ ، ورؤساء خُراسان كانوا يعملون فيه الدعوات على طبيخ فيه كل حب مأكول ولحم كل حيوان يؤكل ويحضر مايوجد فى ذلك الوقت من بقل أو نبات .

اعياد القبط والنصارى

قال الشيخ شهاب الدين الحموى فى كتابه (عجائب المخلوقات) : للقبط أربعة عشر عيداً سبعة يسمونها كباراً وسبعة أخرى يسمونها صغاراً فالكبار :

« البشارة » ويعنون بها بشارة (غبريال) وهو جبريل عليه السلام على زعمهم لمريم عليها السلام بميلاد عيسى صلوات الله عليه يعملونه فى اليوم التاسع والعشرين من برمهاة من شهور القبط .

و « الزيتونة » وهو عيد الشعانين وتفسيره التسبيح يعملونه فى سابع أحد من صومهم وكانت سنتهم فيه أن يخرجوا بسعف النخل من الكنيسة وهو ركوب المسيح العفو فى القدس وهو معنى الحمار ودخوله صيور وهو راكب والناس يسبحون بين يديه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

و « الفصح » وهو العيد الكبير عندهم يقولون ان المسيح قام فيه بعد الصلبوت بثلاثة أيام وخلص آدم من الجحيم وأقام فى الارض أربعين يوماً آخرها يوم الخميس ثم صعد الى السماء ، وكان يوافق فصح اليهود قبل زمان قسطنطين . ولما تنصر قسطنطين وابن واجتمع الاساقفة حينئذ على وضع الامانة وهى العقيدة التى يدين بها جميع فرق النصارى فاتفقوا أيضا على مخالفة اليهود فى الفصح فاخروه عنه وجعلوه يوم الاحد

و « خميس الاربعين » ويسميه الشاميون (السلاق) وهو الثانى والاربعون من الفطر يزعمون ان المسيح عليه السلام تسلق فيه من بين تلاميذه الى السماء بعد القيام ووعدهم ارسال (الفار قليط) وهو روح القدس

و «عيد الخمسين» وهو العنصرة يعمل بعد خمسين يوما من عيد القيام يقولون ان روح القدس حلت فى التلاميذ وتفرقت عليهم السنة الناس فتكلموا بجميع الالسنة وراح كل واحد منهم الى بلاد لسانه يدعونهم الى دين المسيح عليه السلام .

و « الميلاد » وهو اليوم الذى ولد فيه المسيح عليه السلام . يقولون : انه ولد يوم الاثنين ويجعلون عشية الاحد ليلة الميلاد وهم يقدون فيها المصابيح بالكنائس ويزينونها ، وولد صلوات الله عليه ببيت لحم قرية من أعمال فلسطين يعمل فى التاسع والعشرين من كيفكر من شهور القبط . وقال المسعودى : يوم الاربعاء لست من كانون الثانى ، وكانت مريم عليها السلام يوم ولدته بنتَ ثلاث عشرةَ سنة .

و « الغطاس » ويعمل فى الحادى عشر من طوبة من شهورهم يقولون أن يوحنا وهو يحيى بن زكريا عليهما السلام غمس بالمعمدان ، وفيه غسل عيسى عليه السلام فى بحيرة الاردن . ويزعمون انه لما خرج من الماء اتصل به روح القدس على هيئة حمامة والنصارى يغمسون أولادهم فى الماء فى هذا اليوم ووقته شديد البرد . ورأيت فى بعض الكتب هذه الاعياد ، وذكر فيه يوم ظهور المجوس وانهم أهدوا له دقيقاً ولباناً وتمراً وهو يوم النجم

وأما الأعياد الصغار « فالختان » ويعمل فى سادس (بُونه) ويقولون أن المسيح ختن فى هذا اليوم وهو الثامن من الميلاد .

و « الأربعون » عيد دخول الهيكل يقولون ان سمعان الكاهن دخل بعيسى عليه السلام مع أمه وبارك عليه ويعمل فى ثامن أمشير .

و « خميس العهد » ويعمل قبل الفطر بثلاثة أيام وسنتهم فيه أنهم يأخذون اناء ويملؤنه ماء ويزمزمون عليه ثم يغسل البطريك به أرجل سائر الناس ويزعمون أن المسيح عليه السلام فعل هذا بتلاميذه فى هذا اليوم يعلمهم التواضع وأخذ

عليهم العهد أن لا يتفرقوا وأن يتواضع بعضهم لبعض والعامة من النصارى يسمون هذا الخميس (خميس العدس) لانهم يطبخون فيه العدس على ألوان شتى ويسميه أهل الشام (خميس الرز وكان) ويسميه أهل الاندلس (خميس ابريل) وهو اسم شهر من شهور الروم

و «سبت النور» وهو قبل الفصح بيوم يقولون ان النور يظهر على مقبرة المسيح فى هذا اليوم فتشتعل منه مصابيح كنيسة القيامة التى بالقدس وما ذلك الا من التخيلات النيرنجية التى يفعلها القسيسون منهم ليستميلوا بها العقول الضعيفة وذلك انهم كانوا يعلقون القناديل فى بيت المذبح ويتحيلون فى ايصال النار اليها بان يمدوا على سائرها شريطاً من حديد فى غاية الدقة مدهونا بدهن البَلَسان ودهن الزنبق فاذا صلوا وحان وقت الزوال فتحوا المذبح فدخل الناس اليه وقد اشتعلت فيه الشموع ويتوصل به بعض القوام الى ان يعلق بطرف الشريط النار فتسرى عليه فتتقد القناديل واحد بعد واحد اذ من طبيعة دهن البلسان علوق النار فيه سريعا بادنى ملامسة له فيظن من حضر من ذوى العقول الناقصة ان النار نزلت من السماء فاوقدت القناديل وكذلك اتخذوا شريطاً دقيقاً من حديد مدهون بهذا الدهن منصوبا من أعلى القبة الى فتيلة قنديل معلق فى وسط القبة فيوقد طرف الشريط فتسرى النار فيه الى الفتيلة فتشتعل . وقد أراد بعض ملوك الشام من بنى أيوب إبطالها فقيل له انك تحصل بهذا كثيراً من المال فى كل سنة فكف عنها وتركها

و «الأحد الجديد» وهو بعد الفصح بثمانية أيام يعمل أول أحد بعد الفطر لأن الأحاد قبله مشغولة بالصوم وفيه يجددون الآلات والأثاث واللباس ومنه يأخذون فى العدد للمعاملات والقبالات والأمور الدنيوية .

و «التجلى» يقولون أن المسيح عليه السلام تجلى لتلاميذه بعد أن رفع فى هذا اليوم وتمنوا عليه أن يحضر لهم إيليا وموسى عليهما السلام فأحضرهما لهم بمصلى

بيت المقدس ثم صعد وصعدوا ويعمل فى ثالث عشره مسرى .

و « عيد الصليب » وتزعم النصارى أن قُسْطنطين بن هيلانة انتقل من اعتقاد اليونان الى اعتقاد النصرانية فيه وبنى كنيسه قُسطنطينية العظمى وسائر كنائس الشام ، ويزعمون فى سبب ذلك أنه كان مجاوراً للرومان فضاق بهم ذرعا من كثرة غاراتهم على بلاده فهم أن يصانعهم ويفرض لهم عليه أتاوة فى كل عام ليكفوا عنه فرأى ليلة فى المنام أن ملائكة نزلت من السماء ومعها أعلام عليها صلبان فحاربت الرومان فانهزموا فلما أصبح عمل أعلاما وصور فيها صلبانا ثم قاتل فيها الرومان فهزمهم . وقيل : إنه رأى فى المنام صليباً من بعد فى السماء وقائلا يقول : اعمل مثل هذا على رؤس اعلامك فانك تنتصر . فلما أصبح أمر بعمل صلبان من ذهب على رؤس اعلامه وقاتل بها ونصر فسأل من كان فى بلده من التجار الذين طافوا فى بلاد الدنيا فقالوا له هذا دين النصرانية ، وانه فى بلد الخليل من أرض الشام فامر أهل مملكته بالرجوع عن دينهم اليه وأن يقصوا شعورهم ويحلقوا لحاهم ، وانما فعل ذلك بهم لان رسل عيسى عليه السلام كانوا قد وردوا على اليونان قبل أن يأمروهم بالتعبد بدين النصرانية فاعرضوا عنهم ومثلوا بهم بهذه المثلة نكالاً ففعلوا ذلك تأسياً أى اقتداء بهم ولما انتصر قسطنطين خرجت أمه هيلانة الى الشام ، فبنت فيه الكنائس وسارت الى بيت المقدس وطلبت الخشبة التى صلب عليها المسيح على ما تزعم النصارى وكانت مدفونة فى مربطة عظيمة فأخرجت منها وفيها موضع سبعة مسامير ، وكانت اليهود قد وثبت على يعقوب بن يوسف أخى عيسى فى الصليبية على زعم النصارى ببيت المقدس فألقوه من أعلى الشكل (لعله الهيكل) فمات لامتناعه من الرجوع الى دينهم ومقامه على دين النصرانية وهدموا البِيعَةَ وأخذوا خشبة الصلب وخشبتى اللصين اللذين صلبا معه على زعمهم فدفنوهم فى قبر واحد . وهذه الأعياد عندهم يصومونها

وإذا كان أحدهم فى موطن أو قرية لا يرتحل حتى يعيد فلما حملت اليها غلفتها بالذهب وحملتها الى ابنها ، فعمل من المسامير لجاما لفرسه وعمل صليباً من ذهب ووضعه على جبهته واتخذت يوم رؤيتها لها عيداً وذلك لأربع عشرة ليلة خلت من ايلول ووافق ذلك سبع عشرة ليلة من توت من شهور القبط . قال المسعودى وكان من مولد المسيح الى اليوم الذى وجدت فيه الخشبة ثلاثمائة وثمان وعشرون سنة

اعياد اليهود

وهى على ماذكره الحموى أيضاً خمسة نطقت بها التوراة بزعمهم وهى « عيد رأس السنة » يعملونه عنـد رأس سنتهم ويسمونه (عيد رأس هيشا) أى عيد رأس الشهر وهو أول يوم من تشرين يتنزل عندهم منزلة عيد الأضحى عندنا ، ويقولون ان الله تعالى أمر ابراهيم بذبح ولده اسحق فيه وفداه بِذِبْحٍ [1] عظيم .

و « عيد صوماريا » ويسمى (الكبور) وهو عندهم الصوم العظيم الذى فرض عليهم صومه ، ومدة الصوم خمسة وعشرون ساعة يبتدأ فيها قبل غروب الشمس فى اليوم التاسع من شهر تشرين وتختم بمضى ساعة بعد غروبها من اليوم العاشر ، ولهذا ربما يسمى العاشور ويشترطون رؤية ثلاثة كواكب عند الافطار وهو عندهم تمام الاربعين الثالثة التى صامها موسى عليه السلام . ولا يجوز أن يقع عندهم فى يوم الأحد ، ولا فى يوم الثلاثاء ، ولا فى يوم الجمعة ، ويزعمون ان الله تعالى يغفر لهم فيه جميع ذنوبهم ماخلا الزنى بالمُحْصَنَةِ وظلم الرجل أخاه وجحده لربوبية الله تعالى .

و « عيد المظال » وهو ثمانية أيام أولها الخامس عشر من تشرين وكلها اعياد ، واليوم الآخر منها يسمى عرابا . تفسيره : شجر الخلاف . وهو أيضاً حج لهم وهم يجلسون فى هذه الأيام تحت ظلال من جريد النخل واغصان الزيتون والخلاف وسائر الشجر الذى لا ينتشر ورقه على الارض . ويزعمون أن ذلك

(١) الذبح بكسر الذال ماذبح ، والذبح بضمها المصدر

تذكاراً منهم لأظلال الله تعالى إياهم فى التيه بالغمام . وكيفية عمل هذه الظلال أن يصنع كل من أمكنه فى بيته طارمة من قصب وسقفها من الجريد الأخضر وسعفه ويترك داخلها أسفار التوراة . ومنهم من يوزرها بالديباج ومتى زالت من السعف سعفة حتى تدخل الشمس المكعب فسد عليه عيده ، وتكون هذه الظلة فى علو الدار تحت السماء ويعمل كل واحد فى أول يوم من هذه الأيام الثمانية قبضة مرسين فيها ثلاثة عيدان فى كل عود ثلاثة اغصان بعضها أعلى من بعض فى كل غصن ثلاثة أوراق وفى وسطها قلب من سعف النخل مستقيم طوله ثلاث قبضات ، وعود من الصفصاف وأترجة سالمة من الخدوش صحيحة من التعفن ويحمل ذلك الى البيعة ويودع عند القمص ، واذا كان قبل يوم من الأيام الثمانية دخلوا البيعة وصلوا وأعطى قيم البيعة الى كل رجل منهم بيده اليمنى قبضة ، وبيده اليسرى الأترجة فتكون فى أيديهم وهم قيام . ويقرأ عليهم مزموراً من المزامير ، فاذا فرغ من المزمور سلم عليهم الختران وهو المعلم وقرأ عليهم شيئاً من التوراة فاذا فرغ من القراءة صلى صلوة ثانية قرب الظهر . ومنهم من يرد الى العصر فى بيته ، ومنهم من يعلم القيم وينصرف .

و « عيد الفطير » ويسمونه الفصح فيكون فى الخامس عشر من نيسان وهو سبعة أيام أيضاً يأكلون فيها الفطير وينظفون فيها من خبز الخمير لأنها عندهم الأيام التى خلص الله تعالى فيها بنى اسرائيل من يد فرعون وأغرقه فخرجوا الى أرض التيه ، وجعلوا يأكلون اللحم والخبز الفطير وهم بذلك فرحون ، وفى آخر هذه الأيام غرق فرعون واتفق ان كان القمر فى ذلك اليوم تام الضوء فأمروا بحفظ ذلك اليوم فصاروا يراعون وقوعه فى ذلك الزمن .

و « عيد الاسابيع » وهى الاسابيع التى فرضت فيها الفرائض وكمل فيها الدين ، ولهم فيها حساب طويل امتطوا فيه مطىّ التعسف ، ويسمى (عيد العنصرة) و (عيد الخطاب) . ويكون بعد عيد الفطير بسبعة أسابيع ، ويقولون : إنه اليوم

الذى خاطب الله تعالى فيه بنى اسرائيل من طور سيناء ، وفى جملة هذا الخطاب الكلمات العشر ، وهى وصايا تضمنت أمراً ونهياً وتضمنت التوفيق ، وهو حج من حجوجهم ، وحجوجهم ثلاثة الأسابيع والفطير والمظال وهم يعظمونه ويأكلون فيه القطايف ويتفننون فى عملها ويجعلونها بدلاً عن المنّ الذى أنزل عليهم فى هذا اليوم على ما يزعمون . واتخاذهم لهذا العيد السادس من سيوان ، ويسمى عشرتا مشتق من الاجتماع . و «عيد الفور» وهو عيد أحدثوه ويسمونه الفوريم ، وذكر فى سبب اتخاذهم له ان بخت نصر لما اجلى من كان ببيت المقدس من اليهود الى عراق العجم أسكنهم (بجىّ) وهى احدى مدينتى اصفهان ، ثم ذهبت أيام الكلدانيين ، وملكت الفرس الاولى والأخيرة . فلما ملك ازدشير بن بابك وتسميه اليهود بالعبرانية احشويرش . وكان له وزير يسمونه بلغتهم هامان ، ولليهود يومئذ حبر يسمونه بلغتهم مردخاى ، فبلغ ازدشير ان له ابنةَ عم من أحسن نساء أهل زمانها وأكملهن عقلا ، فطلب تزويجها منه فأجاب لذلك فحظيت عنده حظوة صار بها مردخاى قريباً منه فأراد هامان اصغاره واحتقاره حسداً له وعزم على اهلاك طائفة اليهود التى فى جميع مملكة ازدشير ، فرتب مع نواب الملك فى سائر الأعمال أن يهلك كل واحد منهم من بعمله من اليهود ، وعين له يوما وهو النصف من آذار وانما خص هذا اليوم دون سائر الأيام لأن اليهود يزعمون أن موسى ولد فيه وتوفى فيه ، وأراد بذلك المبالغة فى نكايتهم ليتضاعف الحزن عليهم بهلاكهم وبموت موسى عليه السلام ، فاتضح لمردخاى ذلك من بطانة هامان فأرسل الى ابنة عمه يعلمها بما عزم هامان فى أمر اليهود وسألها اعلام الملك بذلك وحضها على أعمال الحيلة فى خلاص نفسها وخلاص قومها ، فاعلمت الملك بالحال وذكرت له انما حمله على ذلك الحسد على قربنا منك ونصحنا لك ، فأمر بقتل هامان وقتل أهله وان يكتب لليهود بالأمان والبر والاحسان فى ذلك اليوم فاتخذوه عيداً واليهود يصومون قبله ثلاثة أيام . وهذا العيد عندهم عيد

سرور ولهو وخلاعة يهدى بعضهم فيه الى بعض ، ويصورون من الورق صورة هامان ويملؤن بطنها نخالة وملحاً ويلقونها فى النار حتى تحترق يخدعون بذلك صبيانهم .

و « عيد الحنكة » وهو أيضاً مما أحدثوه ، وهو ثمانية أيام أولها ليلة الخامس والعشرين من كسلا ، ويقدون فى الليلة الاولى من لياليه على كل باب من أبوابهم سراجا ، وفى الثانية سراجين وهكذا الى أن يكون فى الثامنة ثمان سرج . وسبب اتخاذهم لهذا العيد أن بعض الجبابرة تغلب على بيت المقدس وفتك ببنى اسرائيل وافتض أبكارهم ، فوثب عليه أولاد كاهنهم وكانوا ثمانية فقتله أصغرهم ، وطلب اليهود زيتاً لوقيد الهيكل فلم يجدوا الا يسيراً وزعوه على عدد ما يوقدونه من السرج على أبوابهم فى كل ليلة الى تمام ثمان ليال ، فاتخذوا هذه الايام عيداً وسموه (الحنكة) وهو بمعنى التنظيف لأنهم نظفوا فيه الهيكل من اقذار شيعة الجبار . وبعضهم يسميه (عيد التبريك) . وقيل : إن عيد التبريك كان فيه استتمام نزول التوراة وسلمت الى أئمتهم لتوضع فى الهيكل ، وهم يخرجون فيه التوراة ويتبركون فيها .

القول فى اعياد المسلمين

ولما أنجز الكلام الى ذكر غالب اعياد الأمم ، وبيان عاداتهم وسننهم فى مواسمهم على الوجه الاتم ، اقتضى ذلك أن نذكر ما اشتهر من اعياد المسلمين على سبيل الاختصار ، إذ قد بسط الكلام عليها العلماء الاخيار ، فنقول : قد أسلفنا أنه كان لكل قوم من الأمم يوم يتجملون فيه ويخرجون من بلادهم بزينتهم وتلك عادة لاينفك عنها أحد من طوائف العرب والعجم ، وقد قدِم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما فقال ماهذان اليومان ؟ فقالوا : كنا نلعب فيهما فى الجاهلية . فقال : قد أبدلكم الله تعالى بهما خيراً منهما يوم الاضحى ويوم الفطر قيل هما النيروز والمهرجان ، وانما بدلا لأنه مامن عيد

فى الناس الا وسبب وجوده تنويه بشعائر دين أو موافقة أئمة مذهب أو شئ مما يضاهى ذلك فخشى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ان تركهم وعاداتهم أن يكون هنالك تنويه بشعائر الجاهلية أو ترويج لسنة اسلافهم فأبدلها بيومين فيهما تنويه بشعائر الملة الحنيفية ، وضم مع التجمل فيهما ذكر الله وأبواباً من الطاعات لئلا يكونَ اجتماع المسلمين بمحض اللعب ولئلا يخلوَ اجتماع منهم من اعلاء كلمة الله. احداهما: يوم فطر صيامهم وأداء نوع من زكاتهم فاجتمع الفرح الطبيعى من قبل تفرغهم عما يشق عليهم وأخذ الفقير الصدقات ، والعقلى من قبل الابتهاج مما أنعم الله عليهم من توفيق أداء ما افترض عليهم وأسبل عليهم من ابقاء رؤس الأهل والولد الى سنة أخرى. والثانى: يوم ذبح ابراهيم ولده اسماعيل وانعام الله عليهما بأن فداه بِذِبْحٍ عظيم. إذ فيه تذكر حال أئمة الملة الحنيفية والاعتبار بهم فى بذل المهج والأموال فى طاعة الله تعالى وقوة الصبر وفيه تشبه بالحاج وتنويه بهم وشوق لما هم فيه ولذلك سن التكبير وهو قوله تعالى (ولتكبروا الله على ماهدا كم) يعنى شكراً لما وفقكم للصيام ، ولذلك سن الأضحية والجهر بالتكبير أيام منى واستحب ترك الحلق لمن قصد التضحية وسن الصلوة والخطبة لئلا يكونَ شئ من اجتماعهم بغير ذكر الله وتنويه شعائر الدين وضم معه مقصد آخر من مقاصد الشريعة وهو أن كل ملة لا بد لها من عرصة يجتمع فيها أهلها لتظهر شوكتهم وتعلم كثرتهم ولذلك استحب خروج الجميع حتى الصبيان والنساء وذوات الخدور والحيض ويعتزلن المصلى ويشهدن دعوة المسلمين ولذلك كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يخالف فى الطريق ذهابا وإياباً ليطلع أهل تلك الطريقين على شوكة المسلمين. ولما كان أصل العيد الزينة استحب حسن اللباس والتقليس أى ضرب الدفوف ومخالفة الطريق والخروج الى المصلى وسنة صلوة العيدين أن يبدأ بالصلوة من غير اذان ولا إقامة يجهر فيها بالقرآءة يقرأ عند ارادة التخفيف بسبح اسم ربك الاعلى. وهل أتاك. وعند الاتمام ق ، واقتربت الساعة ، يكبر فى الاولى

سبعاً قبل القرآءة والثانية خمساً قبل القرآءة ، وعمل الكوفيين أن يكبر أربعاً كتكبير الجنائز فى الاولى قبل القرآءة وفى الثانية بعدها ، وهما سنتان وعمل الحرمين أرجح ثم يخطب يأمر بتقوى الله ويعِظُ ويذكر . وفى الفطر خاصة أن لا يغدو حتى يأكل تمرات ويأكلهن وتراً وحتى يؤدى زكوة الفطر اغناء للفقراء فى مثل هذا اليوم ليشهدوا الصلوة فارغى القلب وليستحق مخالفة عادة الصوم عند ارادة التنويه بانقضاء شهر الصيام . وفى الاضحى خاصة أن لا يأكل حتى يرجعَ فيأكل من أضحيته اعتناء بالأضحية ورغبة فيها وتبركا بها ولا يضحى الا بعد الصلوة لأن الذبح لا يكون قربة الا بتشبه الحاج وذلك بالاجتماع للصلوة والأضحية سنة من معز أو جذع من ضأن فى كل أهل بيت وقاسوها على الهَدْىِ فأقاموا البقرة عن سبعة والجزور عن سبعة مقامها . ولما كانت الأضحية من باب بذل المال لله تعالى وهو قوله تعالى (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) كان تسمينها واختيار الجيد منها مستحباً لدلالته على صحة رغبته فى الله فلذلك يتقى من الضحايا أربع : العرجاء البين ضلعها ، والعوراء البين عورها ، والمريضة البين مرضها ، والعجفاء التى لا تنقى ، وينهى عن أعضب القرن والاذن ، وسُنَّ استشراف العين والاذن وأن لا يضحى بمقابلة ولا مدابرة ولا شرقاء ولا خرقاء . والمقابلة : ما يقطع من قبل اذنها أى مقدمها . والمدابرة : التى قطع من مؤخر اذنها والشرقاء : مشقوقة الاذن . والخرقاء : مقطوعة الاذن ثقباً مستديراً . وسن الفحل الأقرن الذى ينظر فى سواد — أى سواد العينين — ويبرك فى سواد — أى سواد البطن والصدر — ويطأ فى سواد — أى سواد الارجل — لأن ذلك تمام شباب المعز . ومن اذكار التضحية : إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض الخ اللهم منك واليك ولك من الله والله أكبر .. واستيفاء الكلام على الأعياد الزمانية والمكانية والاجتماعية وما حدث منها فى الاسلام فى كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم) لشيخ الاسلام تقى الدين بن تيمية رحمه الله .

بيان ما كان العرب يصنعونه فى اعيادهم ومواسمهم

كانوا فى أيامهم ومواسمهم يتزينون بأحسن الثياب والملابس المفتخرة والحلل المثمنة والبرود المعجبة والفرسان منهم يتسابقون على الخيل والاجواد يبسرون أى يلعبون بالميسر [(١)] وصبيانهم يلعبون أنواعا من الملاعب قد استوفاها صاحب القاموس ، ويزمرون بالدفوف والمزاهر ونحو ذلك مع التغنى بأراجيز وأبيات من الشعر أنشدوها فى أيامهم كيوم بغاث ، [(٢)] وكان لهم أولا فن الشعر يؤلفون فيه الكلام اجزاء متساوية على تناسب بينها فى عدة حروفها المتحركة والساكنة ويفصلون الكلام فى تلك الاجزاء تفصيلا يكون كل جزء منها مستقلاً بالافادة لا ينعطف على الآخر ويسمونه البيت فتلائم الطبع بالتجزية أولاً ثم بتناسب الاجزاء فى المقاطع والمبادى ثم بتأدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليها فلهجوا به فامتاز من بين الكلام بحظ من الشرف ليس لغيره لأجل اختصاصه بهذا التناسب وجعلوه ديواناً لأخبارهم وحكمهم وشرفهم ومحكاً لقرائحهم فى اصابة المعانى وإجادة الأساليب واستمروا على ذلك . وهذا التناسب الذى من أجل الاجزاء والمتحرك والساكن من الحروف قطرة من بحر من تناسب الاصوات كما هو معروف فى كتب الموسيقى إلا أنهم لم يشعروا بما سواه لأنهم حينئذ لم ينتحلوا علماً ولا عرفوا صناعة وكانت البداوة أغلب نحلهم ، ثم تغنى الحُداة منهم فى حُداء إبلهم والفتيان فى فضاء خلواتهم فرجعوا الأصوات وترنموا ولم يزل هذا شأن العرب فى بداوتهم وجاهليتهم فلما جاء الاسلام واستولوا على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم وغلبوهم عليه وكانوا من البداوة والغضاضة على الحال التى عرفت لهم مع غضارة الدين وشدته فى ترك أحوال الفراغ وما ليس بنافع فى دين ولا معاش فهجروا ذلك شيئاً ما ولم يكن الملذوذ عندهم الا ترجيع القراءة والترنم

(١) أى القمار (٢) بالعين المهملة والغين المعجمة ويثلث : موضع على ليلتين من المدينة ويومه معلوم

بالشعر الذى هو ديدنهم ومذهبهم فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الامم صاروا الى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ . وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا الى الحجاز وصاروا موالى للعرب وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير وسمع العرب تلحينهم للاصوات فلحنوا عليها أشعارهم وظهر بالمدينة (نشيط الفارسى) و(طويس) و(سائب) و(حائر) مولى عبيد الله بن جعفر فسمعوا شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه وطار لهم ذكر ثم أخذ عنهم (معبد) وطبقته (وابن سريج) وأنظاره وما زالت صناعة الغناء تتدرج الى أن كملت أيام بنى العباس عند ابراهيم بن المهدى وابراهيم الموصلى وابنه اسحق وابنه حماد وكان من ذلك فى دولتهم ببغداد ماتبعه الحديث بعده به وبمجالسه الى زمن بعيد وأمعنوا فى اللهو واللعب . واتخذت آلات الرقص فى الملبس والقضبان والاشعار التى يترنم بها عليه وجعل صنفاً وحده واتخذت آلات أخرى للرقص تسمى بالكرّج وهى تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة باطراف أقبية يلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكرّون ويفرّون ويثاقفون . وأمثال ذلك من اللعب المعدّ للولائم والاعراس وأيام الاعياد ومجالس الفراغ واللهو وكثر ذلك فى بغداد وأمصار العراق وانتشر منها الى غيرها . وكان للموصليين غلام اسمه (زرياب) أخذ عنهم الغناء فاجاد فصرفوه الى المغرب غيرة منه فلحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل أمير الاندلس فبالغ فى تكرمته وركب للقائه وأثنى له الجوائز والاقطاعات والجرايات وأحله من دولته وندمائه بمكان فاورث بالاندلس من صناعة الغناء ماتناقلوه الى أزمان الطوائف وطمى منها باشبيلية بحر زاخر وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها الى بلاد العدوة بافريقية والمغرب وانقسم على أمصارها وهذه الصناعة آخر ما يحصل فى العمران من الصنائع لانها كمالية فى غير وظيفة من الوظائف الا وظيفة الفراغ والفرح وهو أيضا ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه . كذا فى مقدمة العبر .

ذكر حُدَاء العرب والغناء والتغبير

تغنَّ بالشعرِ ان ما كنتَ قائله　　اِنَّ الغِناء لهذا الشعرِ مِضْمارُ

يقولون فلان يتغنى بفلان أو فلانة اذا صنع فى أحدهما شعراً قال ذو الرُمّة :

احِبُّ المكانَ القفرَ من أجل أننى　　به اَتَغنَّى باسمِها غيرَ مُعجمِ

وكذلك يقولون حدا به اذا عمل فيه شعراً . قال المرار الاسدى :

ولو انى حدوتُ به ارفأَنَّتْ　　نعامتهُ وابصر ما يقول (١)

وغناء العرب على ثلاثة أوجه : النصب ، والسناد ، والهزج . « فاما النصب » فغناء الركبان وغناء الفتيان . قال اسحق بن ابراهيم الموصلى : وهو الذى يقال له المرائى وهو الغناء الجنابى اشتقه رجل من كلب يقال له جناب بن عبد الله بن هبل فنسب اليه ، ومنه كان أصل الحداء كله ، وكله يخرج من الطويل فى العروض . « واما السناد » فالثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات ، وهو على ست طرق : الثقيل الاول وخفيفه والثقيل الثانى وخفيفه والرمل وخفيفه « واما الهزج » فالخفيف الذى يرقص عليه ويمشى بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحلوم . قال اسحق : هذا كان غناء العرب حتى جاء الله تعالى بالاسلام وفتحت العراق وجلب الغناء الرقيق من فارس والروم فغنوا الغناء المجزء المؤلف بالفارسية والرومية وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير . قال الجاحظ : العرب تقطع الالحان الموزونة والعجم تمطط الالفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل فى الوزن اللحن فتضع موزونا على غير موزون . ويقال : اِن أول من أخذ من ترجيعه الحداء مضر بن نزار بن معد بن عدنان سقط عن جمل فانكسرت يده فحملوه وهو يقول وايداه وايداه ، وكان أحسن خلق الله تعالى صوتا وجرما فاصغت

(١) قال المجد : أرفأَنَّ ارفئنانا نفر ثم سكن ، والنعامة الجهل ، قال فى التاج يقال سكنت نعامته ثم قال : قال المرار الفقعسى :　ولو أنى حدوت به ارفأنت ✿ نعامته وأبغض ما أقول

اليه الابل وجدّت فى السير فجعلت العرب مثالا لقوله هايدا هايدا يحدون فى الابل ، حكى ذلك عبد الكريم فى كتابه ، وزعم ناس من مضر أنّ أول من حدا رجل منهم كان فى ابله أيام الربيع فامر غلاما له ببعض أمره فاستبطأه فضربه بالعصا فجعل يشتد فى الابل ويقول يايداه يايداه قال له الزم الزم فاستفتح الناس الحداء من ذلك . وذكر ابن قتيبة : انهم قالوا ذلك للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم . وحكى الزبير ابن بكار فى حديثٍ رَفَعَه : ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لقوم من بنى غفار حين سمع حادِيَهم بطريق مكة ليلا فمال اليهم : ان أباكم مضر خرج الى بعض رعائه فوجد ابله قد تفرقت فاخذ عصاً فضرب بها كف غلامه فعدا الغلام فى الوادى وهو يصيح وايداه وايداه فسمعت الابل ذلك فعطفت عليه . فقال مضر لو اشتق مثل هذا انتفعت به الابل واجتمعت فاشتق الحداء « واما التغبير » فهو تهليل أو ترديد صوت بقراءة أو غيرها حكى ذلك ابن دريد . وحكى أبو اسحق الزجاج قال : سألنى بعض الرؤساء لم سمى التغبير تغبيراً ؟ قلت : لانه وضع على انه يرغب فى الغابر أى الباقى أى يرغب فى نعيم الجنة وفيما يعمل للآخرة وقال غيرى انما قيل له تغبير لان مايخرج من الفم بمنزلة الغبار فعرض جوابانا على أبى العباس ثعلب فاستجاد جوابى ويقال للمراسل فى الغناء : المتالى حكاه غلام ثعلب ، والله تعالى ولىّ التوفيق .

الكلام على عادات عرب الجاهلية فى المأكل والمشرب

اعلم ان جميع سكان الاقاليم الصالحة اتفقوا على مراعاة آدابهم فى مطعمهم ومشربهم وملبسهم وقيامهم وقعودهم وغير ذلك من الهيئات والاحوال وكان ذلك كالامر المفطور عليه الانسان عند سلامة مزاجه وظهور مقتضيات نوعه عند اجتماع أفراد منه وترائى بعضها لبعض وكانت لهم مذاهب فى ذلك ، فكان منهم من يتخذها على قواعد الحكمة الطبيعية فيختار فى كل ذلك مايرجى نفعه ولا

يخشى ضرره بحكم الطب والتجربة ، ومنهم من يتخذها على قوانين الاحسان حسبما تعطيه ملته ، ومنهم من يريد محاكاة ملوكهم وحكمائهم ورهبانهم ، ومنهم من يتخذها على غير ذلك ، وكانت عادات العرب فى ذلك أوسط العادات ولم يكونوا يتكلفون فى المطاعم والمشارب تكلف العجم ، وكانت لهم فى هذا الباب عوائد مستحسنة ومألوفات يتلقاها ذوو العقول بالقبول ، من ذلك انهم كانوا يبكرون فى الغداء ويرون أن ذلك أقرب الى راحة البدن وصحته . وسئل ابن هبيرة عن ذلك فقال : انَّ فيه ثلاثَ خصالٍ ، الاولى : انه ينشف المرة . والثانية : يطيب النكهة[1] . والثالثة : انه يعين على المروءة . قيل : وكيف يعين على المروءة؟ قال : اذا خرجت من بيتى وقد تغديت لم اتطلع على طعام أحد من الناس . وكانوا يؤخرون العشاء رغبة فى ورود الاضياف واجتماع الاكلة بعد انقضاء حاجاتهم وعودهم من مسارحهم وغاراتهم ولان بلادهم حارة الهوآء فكلما ذهبت منه شدة ببرد الليل كان الطعام أمرى ، والشاهية فى الاكل أدعى ، والاصل الاصيل فى ذلك مراعاة الضيوف فقد كان لهم مزيد اعتناء بأمرهم كما تنطقُ بذلك أشعارهم وأخبارهم . قال قائلهم :

إِنّى اذا خَفِيَتْ نارٌ لِمُرْمِلِةٍ   الفى بارفعِ تلٍّ رافعاً نارى
ذاك وانى على جارى لذو حَدَبٍ   احنو عليه بما يخفى على الجار

المرملة : الجماعة التى نفد زادها ورجل مرمل لاشئ له مشتق من الرمل كانه لايملك غيره كما يقال ترب الرجل اذا افتقر يقال ارمل الرجل اذا نفد زاده وافتقر فهو مرمل وجاء أرمل على غير قياس والجمع أرامل وأرملت المرأة فهى أرملة لتى لا زوج لها لافتقارها الى من ينفق عليها . وقال الأزهرى لا يقال لها أرملة الا اذا كانت فقيرة فان كانت موسرة فليست بأرملة والجمع أرامل .

(١) يقال نكه الرجل على فلان ونكه له نكها من باب نفع وضرب اذا تنفس على انفه ونكهه نكها يتعدى بنفسه أيضاً اذا فعل ذلك ليشم ريح فمه ليعلم هل شرب أم لا واستنكهه كذلك والنكهة مثل تمرة اسم منه كذا فى المصباح

والتل ما ارتفع من الأرض . وايقاد النار فى الأماكن العالية من أخلاق الكرام حتى يهتدى الضيف اليه فى الليل المظلم ويأتى . يقول : اذا خفيت نار غيرى بأن لا توقد فى أيام الجدب والقحط فأنا أوقدها فى تلك الأيام لتهتدى الى الضيوف يصف نفسه بشدة الكرم وبسط الكف للمسترفدين . وقال الأحوص :

عوّدت قومى اذا ما الضيف نبهنى　　عقر العشار على عسرى وايسارى

أراد بقوله نبهنى طرقنى ليلا فنبهنى . والعقر ضرب قوائم البعير بالسيف ولا يكون العقر فى غير القوائم . وربما قيل عقره اذا نحره ، والعشار جمع عشراء وهى الناقة التى أتى على حملها عشرة أشهر وهى عند العرب أعز الابل فذبحها للضيف يكون غاية فى الجود والاكرام . وقوله على عسرى وايسارى أى أعقرها له على كل حالة سواء كنت معسراً أو موسراً . وعقر العشار مشتمل على ايقاد النار ودال عليه فكأنه قال عودت قومى انى أوقد النار للطارق . وقال حريث بن عناب الطائى :

عوى ثم نادى هل أحستم قلائصاً　　وسمن على الأخفاذ بالامس أربعا (١)

غلام قليعى يحف سباله　　ولحيته طارت شعاعاً مقزعا (٢)

غلام أضلته النبوح فلم يجد　　بما بين خبت فالهبائة أجمعا (٣)

أناساً سوانا فاستمانا فلم يرى　　أخا دلج أهدى بليل واسمعا (٤)

(١) فاعل عوى هو غلام فى أول البيت الذى بعده وقوله هل أحستم يريد احسستم قال الجوهرى وربما قالوا ما أحست منهم فالقوا أحد السينين استثقالا وهو من شواذ التخفيف والقلائص جمع قلوص وهى الناقة الشابة ، وجملة وسمن على الافخاذ صفة قلائص (٢) قليعى منسوب الى قليع بضم القاف وفتح اللام وهى قبيلة أو هو منسوب الى القليعة مصغر قلعة وهى موضع فى طرف الحجاز واسم مواضع اخر ، ويحف بالحاء المهملة يقال حف الرجل شاربه حفاً من باب قتل اذا أحفاه أى بالغ فى قصه ، والسبالى بالكسر الشارب ، والشعاع بالفتح المتفرق ، والمقزع بالقاف وفتح الزاى المشددة المفتول يعنى أن لحيته من الهواء والبرد تفرقت وصارت كالفتائل .

(٣) النبوح بضم النون والموحدة وحاء مهملة ضجة الحى وأصوات كلابهم ، وخبت بفتح الخاء المعجمة وسكون الموحدة اسم ماء لكلب وقيل لكندة وموضع آخر ، والهباءة موضع فى أطراف الربذة خارج المدينة المنورة وكانت فيه حرب من حروب داحس لعبس على ذبيان

(٤) قوله فاستمانا أى تصيدنا والمستمى المتصيد والمسماة جورب يلبسه الصائد للحر

فقلت اجرّا ناقة الضيف انى   جدير بأن تلقى انائى مترعا [1]
فما برحت سجواء حتى كأنما   تغادر بالزيزاء برساً مقطعا [2]
كلا قادميهـا يفضل الكف نصفه   كجلد الحبارى ريشه قد تزلعا [3]
دفعت اليـه رسل كوماء جلدة   وأغضيت عنه الطرف حتى تضلعا [4]
اذا قال قطنى قلت آليت حلفة   لتغنى عنى ذا انائك أجمعا [5]
يدافع حيزوميه سخن صريحها   وحلقاً تراه للثمالة مقنعا [6]
اذا عم خرشاء الثمالة أنفه   تقاصر منهـا للصريح وأقمعا [7]

وشرح هذه الأبيات يطول وقد أراد الشاعر ان هذا الغلام شردت له قلائص أربع فخرج فى طلبها حتى أظلم عليه الليـل فضل عن الطريق فعوى حتى سمعت الكلاب صوته فنبحته فاستدل بصوتهـا علينا فجاء فسأل عن قلائصه . والعرب تزعم ان سارى الليـل اذا أظلم عليه فلم يستبن محجة ولم يدر أين الحلة

وقوله فلم يرى هذه الالف نشأت من أشباع فتحة الراء وهو بالبناء للمفعول بمعنى يعلم والضمير فيه للغلام، والدلج بفتحتين اسم مصدر من ادلج ادلاجا أى سار الليل كله فان خرج آخر الليل فقد أدلج بتشديد الدال كذا فى المصباح (١) أجر بفتح الهمزة وكسر الجيم امر من اجررته رسنه اذا تركته يصنع مايشاء بمعنى خلوا رسنها ودعوها تأكل ما شاءت، وناقة الضيف الناقة التى جاء راكبا عليها وهذا من أخلاق الكرام فان أكرام دابة الضيف غاية الاكرام عند الضيف وانائى بالمد والاضافة الى الياء والاناء الوعاء، ومترع من ترعت الاناء بالتشديد واترعته أى ملأته وهذا كناية عن الخصب والكثرة (٢) سجواء بالنصب خبر برح وسجواء بالمهملتين والمد أى ساكنة عند الحلب، وتغادر تترك، والزيزاء بكسر الزاى الاولى والمد الموضع الصلب من الارض والبرس بكسر الموحدة وأهمال الراء والسين القطن شبه ماسقط من اللبن به . (٣) الحبارى بضم المهملة بعدها موحدة وبالقصر طائر على شكل الاوزة برأسه وبطنه غبرة ولون ظهره وجناحيه كلون السمانى غالباً، وتزلع تقلع (٤) الرسل بكسر الراء اللبن، والكوماء بفتح الكاف والمد الناقة العظيمة السنام والجلدة بفتح الجيم وسكون اللام هى أدسم الابل لبنا والجمع الجلاد بالكسر، والطرف العين، وتضلع امتلأ مابين أضلاعه (٥) قطنى أى حسبي أى قال قد حلفت أن تشرب جميع ما فى انائك (٦) قوله حيزوميه هو ما اكتنف حلقومه من جانبي الصدر، والسخن الحار، والصريح اللبن الذى ذهبت رغوته، والثمالة بضم المثلثة رغوة اللبن يريد أنه يرفع حلقه لاستيفاء اللبن ومقنع اسم مفعول من اقنع رأسه اذا رفعه (٧) الخرشاء بكسر الخاء جلد الحية وقشرة البيضة العليا بعد أن تكسر ويخرج مافيها ثم يشبه به كل شىء فيه انتفاخ وتفتق وخروق، واقمع يقال أقمعت مافى السقاء أى شربته كله

أى القوم النزول وضع وجهه مع الارض وعوى عواء الكلب لتسمع ذلك الصوت الكلاب ان كان الحىّ قريباً منه فتجيبه فيقصد الابيات . قال الفرزدق :

وداع بلحن الكلب يدعو ودونه ... من الليل سجفاً ظلمة وغيومها
دعا وهو يرجو أن ينبه اذ دعا ... فتى كابن ليلى حين غارت نجومها
بعثت له دهماء ليست بلقحة ... تدرّ اذا ما هب نحساً عقيمها

ابن ليلى : هو أبو الفرزدق . ومعنى بعثت له دهماء : أى رفعتها على أثافيها . ويعنى بالدهماء القدر واللقحة الناقة اراد ان قدره تدرّ اذا هبت الريح عقيماً لا مطر فيها . وما أحسن قول ابن هرْمة :

ومستنبحٍ يستكشط الريح ثوبَهُ ... ليسقُطَ عنه وهو بالثوب مُعْصِمُ
عوى فى سواد الليل بعد اعتسافه ... لينبح كلب أو ليفزعَ نُوَّمُ
فجاوبه مستسمع الصوت للقِرى ... له مع اتيان المحبين مَطْعَمُ
يكاد اذا ما أبصر الضيفَ مقبلا ... يكلمه من حبه وهو أعجم

يقال فزعت لفلان : اذا اغثته . والمهبون : الموقضون له ولاهله وهم الاضياف ، وانما كان له معهم مطعم لانه ينحر لهم مايصيب منه واراد بقوله يكلمه من حبه الخ بصبصته وتحريكه ذَنَبِه . ومثله قوله أيضاً :

واذا اتانا طارق متنوِّرٌ ... نبحت فدلته علىَّ كلابى
وفرحن اذ ابصرنه يضربنه ... من أنسها بشرا شر الاذناب

يقال شرشر الكلب اذا ضرب بذنبه وحركه للانس . وأما قول الاخطل :

دعانى بصوتى واحد فاجابه ... منادٍ بلا صوت وآخر صيت

فمعناه ان ضيفاً عوى بالليل والصدى من الجبل يجيبه فذلك معنى قوله بصوتى واحد . وقوله فاجابه مناد بلا صوت : أى نار رفعها له فرأى سناها فقصدها والصيت الآخر الكلب لانه أجاب عواءه . والمقصود من ذكر هذه الابيات بيان ما كان للعرب من مزيد الاعتناء بالضيف حتى أوقدوا النيران فى الليل

واتخذوا الكلاب ليهتدى اليهم من لم يعرف المنازل . ومن عاداتهم المحمودة وأفعالهم الجميلة ، انهم كانوا اذا ألمّ باحدهم ضيف ظهرت البشاشة على وجهه وتلقاه بالترحيب والتكريم ، وادّوا له آداب الضيافة كلها فانه حين يستقر بالضيف المقام يسرع الى أهله ليجيئهم بنزلهم بحيث لايكاد يشعر به أحد ، وهذا من كرم رب المنزل المضيف انه يذهب باختفاء بحيث لايشعر به الضيف فيشق عليه فيستحى فلا يشعر به الا وقد جاءه بالطعام بخلاف من يسمع ضيفه ويقول له أولمن حضر مكانكم حتى اتيكم بالطعام ونحو ذلك مما يوجب حياء الضيف واحتشامه ، وقد تلقوا هذه السنن من ابيهم ابراهيم عليه السلام فهو أول من قرى الضيف ، وتأمل ثناء الله سبحانه عليه فى اكرام ضيفه حيث يقول سبحانه (هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال سلام قوم منكرون ، فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين فقربه اليهم قال ألا تأكلون) فنى هذا من الثناء على ابراهيم وجوه متعددة : منها : أنه وصف اكرام ضيفه بانهم مكرمون أى ان ابراهيم أكرمهم . ومنها : قوله تعالى اذ دخلوا عليه فلم يذكر استيئذانهم ، فنى هذا دليل على انه صلى الله تعالى عليه وسلم قد عرف باكرام الضيفان واعتياد قراهم فبقى منزل مضيفه مطروقا لمن ورده لايحتاج الى استيئذان ، بل استيئذان الدخول دخوله وهذا غاية مايكون من الكرم . ومنها : قوله لهم سلام بالرفع وهم سلموا عليه بالنصب والسلام بالرفع أكمل فانه يدل على الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والتجدد والمنصوب يدل على الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد ، فابراهيم عليه الصلاة والسلام حيّاهم بتحية أحسن من تحيتهم فان قولهم سلاما يدل على سلمنا سلاماً وقوله سلام أى سلام عليكم . ومنها : انه حذف المبتدأ من قوله قوم منكرون ، فانه لما أنكرهم ولم يعرفهم احتشم من مواجهتهم بلفظ ينفر الضيف لو قال أنتم قوم منكرون ، فحذف المبتدأ هنا من ألطف الكلام . ومنها : انه راغ الى أهله ليجيئهم بنزلهم والروغان هو الذهاب فى اختفاء بحيث لا يكاد يشعر

به وهذا من كرم المضيف على ما سبق . ومنها : انه ذهب الى أهله فجاء بالضيافة . فدل على ان ذلك كان معداً عندهم مُهيّأً للضيفان ولم يحتج أن يذهب الى غيرهم من جيرانه أو غيرهم فيشتريه أو يستقرضه . ومنها : قوله فجاء بعجل سمين دل على خدمته للضيف بنفسه ولم يقل فأمر لهم بل هو الذى ذهب وجاء به بنفسه ولم يبعثه مع خادمه وهذا أبلغ فى اكرام الضيف . ومنها : انه جاء بعجل كامل ولم يأت ببضعة منه وهذا من تمام كرمه . ومنها : انه سمين لا هزيل . ومعلوم ان ذلك من أفخر أموالهم . ومثله يتخذ للاقتناء والتربية فآثر به ضيفانه . ومنها : انه قربه اليهم بنفسه ولم يأمر خادمه بذلك . ومنها انه قربه اليهم ولم يقربهم اليه . وهذا أبلغ فى الكرامة أن تجلس الضيف ثم تقرب الطعام اليه وتحمله الى حضرته ولا تضع الطعام فى ناحية ثم تأمر ضيفك بأن يتقرب اليه . ومنها : انه قال لهم ألا تأكلون ، وهذا عرض وتلطف فى القول وهو أحسن من قوله كلوا أو مدّوا أيديكم ونحوها وهذا مما يعلم الناس بعقولهم حسنه ولطفه ، ولهذا يقولون بسم الله أو ألا تتصدق ألا تجبر ونحو ذلك . ومنها : انه انما عرض عليهم الاكل لانه رآهم لا يأكلون ولم يكن ضيوفه يحتاجون معه الى الاذن فى الاكل بل كان اذا قدم اليهم الطعام أكلوا وهؤلاء الضيوف لما امتنعوا من الاكل قال لهم : ألا تأكلون ، ولهذا أوجس منهم خيفة أى أحسها وأضمرها فى نفسه ولم يبدها لهم . فقد جمعت هذه الآية آداب الضيافة التى هى أشرف الآداب وما عداها من التكلفات التى هى تخلف وتكلف انما هو من أوضاع الناس وعاداتهم وكفى بهذه الآداب شرفاً وفخرا . ومن تصفح أخبار العرب وأشعارهم وجدهم فى أمر الضيافة على تلك الآداب ، وانهم لم يغيروا شيئاً منها بعد مرور الأزمان والأحقاب . حتى انهم كانوا يقومون بأمر من يرد الى مكة من الحاج بالغاً ما بلغ ، وكان هاشم وهو أحد أجداد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اذا حضر الحج قام فى قريش فقال : يا معشر قريش انكم جيران الله وأهل بيته وهم ضيف الله وأحق

الضيف بالكرامة ضيفه فاجمعوا لهم ما تصنعون لهم به طعاماً أيامهم هذه التى لا بد لهم من الاقامة فيها فانه والله لو كان لى مال يسع لذلك ما كلفتكموه فيخرجون لذلك خرجاً من أموالهم كل امرئ على حسب قدرته وطاقته فيصنع به للحاج طعاماً حتى يصدروا وهذه هى الرفادة التى هى من سنن قصى على ما سبق . وهاشم هو الذى هشم الثريد لقومه بمكة وكان اسمه عمراً كما يشعر به قول الشاعر :

عمرو الذى هَشَم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عِجاف
سنت اليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الأصياف

أشار فى البيت الثانى الى رحلة الشتاء والصيف ، وهو أول من سنهما لقريش.

ومن عاداتهم فى هذا الباب انهم يقلون من الاكل ويقولون : البطنة تذهب الفطنة . أى الذى يملأ بطنه من الطعام تذهب منه فطنته . وكانوا يعيبون الرجل الاكول الجَشِع . قال الشنفرى :

اذا مُدّتِ الايدى الى الزادِ لم أكُن بِأعجَلِهِمْ إذْ أجْشَعُ القومِ أعْجَلُ (١)

وقيل للحارث بن كلدة طبيب العرب فى الجاهلية : ما أفضل الدواء ؟ قال : الازم . يريد قلة الاكل وقد أصاب فى ذلك . قال بعض حكمائهم : أى بنىّ لامر مّا طالت أعمار الهند وصحت أبدان العرب، ولله در ابن كلدة اذ زعم ان الدواء هو الازم فالداء كله من فضول الطعام فكيف لا ترغب فى شىء يجمع لك صحة البدن وذكاء الذهن وصلاح الدين والدنيا والقرب من عيش الملائكة ، أى بنىّ لم صار الضب أطول عمراً لانه يتبلغ النسيم ، أى بنىّ قد بلغت تسعين عاماً ما نقص لى سن ولا انتشر لى عصب ولا عرفت ذنين انف (٢) ولا سيلان عين

(١) الجشع : أشد الحرص والماضي جشع بكسر الشين وتجشم كذلك ورجل جشع وقوم جشمون وهذا من جنس قول حاتم :

أكف يدى من أن تنال أكفهم اذا نحن أهوينا وحاجاتنا معا

(٢) الذنين رقيق المخاط أو ماسال من الانف رقيقاً أو عام فيهما وذنن كفرح والاذن من يسيل منخراه والذناء للانثى

ولا سلس بول ما لذلك علة الا التخفيف من الزاد فان كنت تحب الحياة فهذه سبيل الحياة وان كنت تحب الموت فلا أبعد الله غيرك انتهى . وقال الاصمعى : تقول العرب فى الرجل الاكول انه برم قرون . البرم الذى يأكل مع الجماعة ولا يجعل شيئاً . والقرون الذى يأكل تمرتين تمرتين ، ويأكل أصحابه تمرة تمرة . والحاصل ان الشبع مذموم بالعقل والنقل ومضاره كثيرة فانه يقسى القلب بخلاف الجوع فانه يرققه ويصفيه فيتهيأ به لادراك لذة المناجاةوللتأثر بالذكر فكم من ذكر يجرى على اللسان مع حضور القلب ولكن القلب لا يتأثر به حتى كأن بينه وبينه حجاباً وذلك من قساوة القلب الحاصلة من الشبع ولذلك قال بعض العارفين : القلب اذا جاع أو عطش صفا ورقّ ، واذا شبع عمى . ومن مضاره انه يفسد الذهن لانه يكثر البخار فيورث البلادة حتى ان الصبي اذا أكثر الاكل بطل حفظه وفسد ذهنه وصار بطىء الفهم والادراك . ومنها : انه يعطل القوى الباطنة عن ادراك المعانى الكاملة والعلوم الفاضلة واستجلاء المعارف ، واستحلاء العوارف . قال لقمان لابنه : يا بنيّ اذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الاعضاء عن العبادة . ومنها : انه ينشط الاعضاء على المعصية لان منشأ المعاصى كلها الشهوات والقوى ومادتهما لا محالة الاطعمة فبتقليلها يضعفان وبتكثيرها يقويان . واذا قويتا تحصل المعاصى ، وقد وردت عدة أحاديث فى ذم الشبع . منها قوله صلى الله تعالى عليه وسلم (المؤمن يأكل فى مِعًى واحد والكافر يأكل فى سبعة أمعاء) أى يأكل سبعة أضعاف المؤمن ، أو ان شهوته سبعة أمثال شهوة المؤمن وتكون الامعاء كناية عن الشهوة لان الشهوة هى التى تقبل الطعام وتأخذه كما تأخذ الامعاء وليس المعنى زيادة امعاء الكافر على امعاء المؤمن ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ان كان ولا بد من التجاوز عما ذكر فلتكن اثلاثا ، فثلث للطعام . وثلث للشراب ، وثلث للنفس . ولله در العرب حيث راعوا فى مأكلهم هذه الدقائق والاسرار وهم فى زمن الجاهلية .

تفصيل الوصف بكثرة الاكل وترتيبه عند العرب

لما كان كثرة الاكل عندهم معيبا وليس ذلك بمنزلة واحدة بل هو درجات متفاوتة كما تدل عليه لغتهم فقد قالوا اذا كان الرجل حريصاً على الاكل فهو نَهِمٌ وشَرِهٌ . فاذا زاد حرصه وجودة أكله فهو جشع . فاذا كان لايزال قَرِماً[1] الى اللحم وهو مع ذلك أكول فهو جعم . فاذا كان يتتبع الاطعمة بحرص ونهم فهو لعوس ولحوس . فاذا كان رغيب البطن كثير الاكل فهو عيصوم . فاذا كان أكولاً عظيم اللقم واسع الحنجور فهو هبلع . فاذا كان مع شدة أكله غليظ الجسم فهو جعظرى . فاذا كان يأكل أكل الحوت الملتقم . فهو هلقام وتلقامة وجراضم . فاذا كان كثير الاكل من طعام غيره فهو مجلح . فاذا كان لايبقى ولا يذر من الطعام فهو قحطى . وهو من كلام الحاضرة دون البادية . قال الازهرى أظنه نسب الى التقحط لكثرة أكله كأنه نجا من القحط . فاذا كان يعظم اللقم ليسابق فى الاكل فهو مدهبل . فاذا كان لايزال جائعاً أو يرى انه جائع فهو مستجيع وشحذان ولهسم . فاذا كان يتشمم الطعام حرصاً عليه فهو ارشم . فاذا كان شهوان شرهاً حريصاً فهو لعمظ ولعموظ . فاذا دخل على القوم وهم يطعمون ولم يدع فهو وارش . فاذا دخل عليهم وهم يشربون ولم يدع فهو واغل . فاذاجاء مع الضيف فهو ضيفن . وقال الجاحظ فى عيوب الاكل الزلاق الذى فى فيه لقمة لم يسغها فيشرب الماء ويسمى زاقّ الفرخ أيضا . والمبلعم الذى فى فيه لقمة لم يسغها ويبادر خلفها باخرى . والمحلحل الذى يأخذ سكرجة فيحركها ليجتمع الابزار فيأكل ويترك ملحاً ساذَجاً . والمغربل الذى يحرك طبق الرطب والباقلاء وما أشبهه ثم يأكل نقاوته . والمقبب الذى يجمع اللحم بين يديه على رغيف كانه قبة ويدع رفقائه بغير لحم . والمنعل الذى يأخذ لقمة أكبر مما يسع فاه فيضع يده أو كسرة تحتها . والمعلق الذى يأخذ فى فيه لقمة وفى يديه أخرى .

---

(١) القرم محركة شدة شهوة اللحم

مطاعم العرب الشهيرة

كان مأكولهم فى غالب الازمان لحوم الصيد والسويق والالبان وربما ابتلع أحدهم الريح أو مضغ القيصوم (١) والشيح أو حَرَش اليربوع (٢) والضب أوصاد الضبي والارنب . وكان الغالب من أهل باديتهم لايعاف شيئاً من المأكل لقلتها عندهم . ومنهم من كان يعاف القذر ويتجنب عن أكل كل مادبّ ودرج . وكان أحسن اللحوم عندهم لحوم الابل ولا يفضلون شيئاً عليها ، وكان منهم من يستطيب أكل الضب

« يقول قائلهم »

اكلتُ الضبابَ فما عفتُها ... وانى اشتهيتُ قديدَ الغنم (٣)
ولحم الخروفِ حَنيذاً وقدْ ... اتيتُ به فاتراً فى الشَبِم
وأما البِهَطِ وحيتانكم ... فاصبحت منها كثير السقم
وركبتُ زُبْداً على تمرة ... فنعم الطعامُ ونعم الادم
وقد نلت منها كما نلتمُ ... فلم أرَ فيها كضبٍّ هرم
ومافى التيوس كبيض الدجاج ... وبيض الدجاج شفاء القَرِم
ومَكْن الضباب طعام العرب ... وكاشيه منها رؤسُ العجم

قوله الحنيذ : أى الشوى . وماء الشبم بفتح الشين المعجمة وفتح الباء الموحدة ماء الاسنان . والبهط بكسر الباء الموحدة وفتح الهاء وبالطاء المعجمة الارز باللبن . والقرم بفتح القاف وكسر الراء الرجل يشتهى اللحم . والمكن بفتح الميم واسكان الكاف وبالنون فى آخره بيض الضب . والكشى جمع كشية بضم الكاف واسكان الشين المعجمة وهى شحمة بطن الضب أوأصل ذنبه . . وكان الاصطياد

(١) نبت وهو صنفان أنثى وذكر النافع من أطرافه وزهره مر جداً (٢) يقال حرش الضب يحرشه حرشاً وتحراشاً صاده كاحترشه وذلك بأن يحرك يده على باب حجره ليظنه حية فيخرج ذنبه ليضربها فيأخذه (٣) هذه الابيات لابى الهندى

ديدناً لهم وسيرة فاشية حتى كان ذلك أحد المكاسب التى عليها معاشهم ، وكان لهم شغل شاغل عن الاعتناء بامر المأكل لاضطرارهم الى النقلة فى الغالب لرعى مواشيهم وتشاغلهم بالحروب وغزو بعضهم بعضاً . وأما ما كان يتعاطاه غيرهم من التأنق فى الاطعمة المتنوعة والالوان الشهية فلم تكن العرب تعرفها ولا كانت تمر على أذهانهم ، حتى حكى أن عبد الله بن جُدْعان وكان سيداً شريفاً فى قريش وفد على كِسْرَى مرة وأكل عنده الفالوذج فتعجب منه وسأل عن حقيقته فقيل له هى لُباب البر يُلبكُ مع العسل فابتاع من عنده غلاماً يصنعه وقدم به مكة فصنع بها الفالوذج فوضع موائده بالابطح الى باب المسجد ثم نادى من أراد أن يأكل الفالوذج فليحضر فكان ممن حضر امية ابن أبى الصلت ، فقال مادحا :

لكل قبيلةٍ رأسٌ وهادى ... وانت الرأسُ تقدم كلَّ هادى
له داعٍ بمكة مُشْمَعِلٌ ... وآخرُ فوقَ دارته يُنادى (١)
الى رُدُحٍ من الشِيزَى ملاء ... لُبابَ البُرِّ يُلْبَكُ بالشِهادِ (٢)

وكان للعرب اطعمة شهيرة يتخذونها من لحوم وحبوب والبان وغير ذلك « فمنها السخينة » وهى تتخذ من الدقيق دون العصيدة فى الرقة وفوق الحساء وانما يأكلونها فى شدة الدهر وغلاء السعر وعجف المال وهى التى كانت تعير بها قريش . حكى ان معاوية قال للاحنف : ما الشئ الملفف فى البجاد ؟ فقال : السخينة ، وانما اراد معاوية قول القائل :

اذا ما مات مَيْتٌ من تميم ... فسرَّكَ أن يعيش فجئْ بزادِ (٣)

---

(١) أشمعل أشرف والقوم فى الطلب بادروا فيه (٢) الردحة سترة تكون فى مؤخر البيت أوقطعة تزاد فيه والرداح الجفنة العظيمة ، والشيز والشيزى خشب أسود يتخذ منه القصاع ، وقوله لباب البراى من لباب البر وروى البيت الثالث هكذا : الى ردح من الشيزى عليها الخ

(٣) هذا الشعر ليزيد بن عمرو بن الصعق الكلابي وذكر الجاحظ انه لابى المهوس الاسدى ، وقوله إذا ما مات ميت من تميم ، قال ابن السيد فيه رد على أبى حاتم السجستانى ومن ذهب مذهبه لان أبا حاتم كان يقول قول العامة مات الميت خطأ والصواب مات الحى وهذا الذى أنكره غير منكر لان الحى إ قد يجوز أن يسمى ميتاً لان أمره يؤل الى الموت كما يقال الزرع قصيل لانه يقصل

بخبز أو بتمر أو بِسَمْنٍ ... أو الشيء الملفف في البجاد (١)

تراه يطوف في الآفاق حِرْصاً ... ليأكل رأسَ لقمانَ بن عاد (٢)

وكان الاحنف من تميم ، وانما أراد الاحنف بالسخينة رمى قوم معاوية بالبخل لانهم كانوا يقتصرون عليها عند غلاء السعر حتى صار هذا اللفظ لقباً لقريش واسماً لهم . قال حسان :

زعمت سخينةُ أَنْ ستغلِبُ ربَّها ... وليُغلبنَّ مغالبُ الغلاَّبِ

ويروى أن كعباً لبس يوم أحد لامَةَ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وكانت صفراء ولبس النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لامته فجرح كعب احد عشر جرحا ولما قال كعب :

جاءت سخينة كي تغالب ربها ... فليغلبن مغالب الغلاب

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لقد شكرك الله يا كعب على قولك

أي يقطع وتقول العرب بئس الرمية الارنب فيسمونها رمية لانها مما يرمى ويقال للكبش الذي يراد ذبحه ذبيحة وهو لم يذبح وضحية ولم يضح بها ، وقال الله تعالى : « إنك ميت وإنهم ميتون » وقال : « إني أراني أعصر خمراً » وانما يعصر العنب . وهذا النوع في كلام العرب كثير والعجب من انكار أبي حاتم اياه مع كثرته وقد فرق قوم بين الميت بالتشديد والميت بالتخفيف فقالوا الميت بالتشديد ماسيموت والميت بالتخفيف ماقد مات وهذا خطأ في القياس ومخالف للسماع اما القياس فان ميت المخفف انما أصله ميت المشدد فخفف وتخفيفه لم يحدث فيه معنى مخالفاً لمعناه في حال التشديد كما يقال هين وهين ولين ولين فكما أن التخفيف في هين ولين لم يحل معناهما فكذلك تخفيف ميت ، واما السماع فانا وجدنا العرب لم تجعل بينهما فرقاً في الاستعمال ومن ابين ماجاء في ذلك قول الشاعر :

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الاحياء

قال ابن قنعاس الاسدي :

الا ياليتني والمرء ميت ... وما يغني عن الحدثان ليت

في البيت الاول سوى بينهما وفي البيت الثاني جعل الميت المخفف الحي الذي لم يمت ، الا ترى أن معناه سيموت فجرى مجرى المثل انك ميت وانهم ميتون فجعل الميت بالتشديد ماقد مات

(١) البجاد : الكساء فيه خطوط (٢) قوله ليأكل رأس لقمان الخ انما ذكر لقمان ابن عاد لجلالته وعظمته يريد أنه لشدة نهمه وشرهه اذا ظفر باكلة فكأنه ظفر برأس لقمان لسروره بما نال واعجابه بما وصل اليه وهذا كما يقال لمن يزهى بما فعل ويفخر بما أدركه كأنه قد جاء برأس خاقان

هذا « ومنها الحريقة » وهى ان يذر الدقيق على ماء أولبن حليب فيحسى وهى أغلظ من السخينة يبقى بها صاحب العيال على عياله اذا عضه الدهر « ومنها الصحيرة » وهى اللبن يغلى ثم يذر عليه الدقيق « ومنها العذيرة » وهى دقيق يحلب عليه لبن ثم يحمى بالرضيف [١] « ومنها العكيسة » وهى لبن يصب عليه الاهالة وهى الشحم المذاب « ومنها الغريقة » وهى حلبة تضم الى اللبن والتمر وتقدم الى المريض والنُفَساء « ومنها الرغيدة » وهى اللبن الحليب يغلى ثم يذر عليه الدقيق حتى يختلط فيلعق « ومنها الاصية » وهى دقيق يعجن بلبن وتمر « ومنها الرهية » وهى برّ يطحن بين حجرين ويصب عليه لبن يقال ارتهى الرجل اذا اتخذ ذلك « ومنها الوليقة » وهى طعام يتخذ من دقيق وسمن ولبن « ومنها اللويقة » وهى مالين من الطعام وفى حديث عبادة ولاآكل الامالوّق لى « ومنها الالوقة » وهى أيضاً الملين منه الاان اللويقة اللين « ومنها الخزيفة » وهى شحمة تذاب ويصب عليها ماء يطرح عليه دقيق فيلبكُ به وهى عند الاطباء ثلاث : الخبز والسكر والسمن، وشتان ما بينهما « ومنها الرغيفة » وهى حسو من دقيق وماء وليست فى رقة السخينة « والربيكة » وهى طعام يتخذ من بر وتمر وسمن . ومنها المثل «غرثان فاربكوا له» . [٢] « والتلبينة » وهى حُثالة يتخذ من دقيق أو نخالة ويجعل فيه عسل وانما سميت تلبينة تشبيهاً باللبن لبياضها ورقتها . وفى الحديث : عليكم بالتلبينة وكان اذا اشتكى أحدهم فى منزله لم تنزل البرمة حتى يأتى أحد طرفيه ومعناه حتى يبرأ من علته أو يموت، وانما جعل هذان طرفيه لانهما منتهى أمر العليل «والوشيقة» وهى أن يغلى اللحم ثم يرفع يقال منه وشقت اشق وشقاً . وقال الحسن بن هانئ .

---

(١) الرضيف كامير : اللبن يغلى بالرضفة (٢) يقال دخل ابن لسان الحمرة على أهله وهو جائع عطشان فبشروه بمولود واتوه به فقال : والله ماادرى آآكله ام اشربه ، فقالت امرأته : غرثان فاربكوا له ، أى اخلطوا له طعاماً ، ويروى فابكلوا له من البكيلة وهى اقط يلت بسمن فلما طعم وشرب قال كيف الطلاوامه فارسلها مثلا ، والطلاولد الظبية فاستعاره لولده ، يضرب لمن قد ذهب همه وتفرغ لغيره ، وقيل يضرب مثلا للرجل تكلمه وله شأن يشغله عنك

حتى رفعنا قدرنا بضرامها   واللحم بين موزم وموشق

« والعشيمة » بالعين غير معجمة طعام يطبخ ويجعل فيه جراد وهو الغشيمة أيضاً « والبغيث والغليث » والطعام المخلوط بالشعير فاذا كان فيه الزوان فهو المغلوث « والعريقة » وهي شئٌ يعمل من اللبن « والبكيلة » السمن يخلط بالأَقِطِ وهي التي عناها الراجز بقوله :

لأُكُلَةٌ من أَقط وسَمْنِ   الينُ مسّاً في حشايا البطنِ [1]

من يَثْرَبِيات قذاذ خُشْنِ [2]

وقال أبو زيد هي الدقيق يخلط بالسويق ثم يبل بماء أو بسمن أو بزيت . وقال الكلابي : هو الأَقِطُ المصحون تبكله بالماء كانك تريد ان تعجنه : وقال ابن السكيت :هي السويق والتمر يبلان بالماء « والعبيثة » وهي الاقط بالسمن والتمر . وقيل هي الأَقِطُ الرطب يخلط بالتمر اليابس «والحَيْسُ» [3] وهو الاقط مع السمن والتمر « والجبيع » وهو التمر مع اللبن وهو حلواء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « والبسيسة » وهو كل شئٍ خلطته بغيره مثل السويق بالاقط ثم تلته بالسمن أو بالزيت ومثل الشعير بالنوى للابل يقال بسسته أبسه بساً « والصناب » وهو الخردل مع الزبيب . « والبريك » وهو الزبد مع الرطب « والخبيط » وهو اللبن الرائب باللبن الحليب « والخليط » وهو السمن بالشحم « والنخيسة » وهو لبن الضأن يخلط بلبن المعز « والمرضة » وهي اللبن الحلو اذا اختلط مع اللبن الحامض «والوطيئة»وهي العصيدة الناعمة و« النفيتة » وهي العصيدة ان تخنت«واللفيتة» وهي النفيتة اذا زادت قليلا فاذا انعقدت وتعلكت فهي العصيدة « والحزيرة »

(١) الاقط : قال الازهري يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك حتى يمصل (٢) قال في التاج : الاقذ سهم لاريش عليه ، وقيل هو المستوى البرى بلا زيغ فيه ولا ميل ،وقال اللحياني السهم حين يبرى قبل ان يراش والجمع قذ وجمع القذ قذاذ ، قال الراجز : من يثربيات قذاذ خشن ، انتهى باختصار (١) هو تمر واقط وسمن وأنشد :

التمر والسمن جميعاً والاقط   الحيس الا أنه لم يختلط

أن ينصب القدر بلحم يقطع صغاراً على ماء كثير فاذا نضج ذرّ عليه الدقيق فان لم يكن لحم فهو عصيدة . وأول من عمل الخزيرة سويد بن هرمى ، ولذلك قال شاعرهم لبنى مخزوم :

وعلمتُمُ أكل الخزير وأنتمُ على عُدَواء الدهر صم صلاب (١)

ومن تتبع كتب اللغة ونحوها وجد غير ما ذكرنا مما هو على هذا القبيل ولا يسعنا استيعابه .

ولائم العرب الشهيرة

الولائم جمع وليمة ، وهى كل طعام يصنع لعرس وغيره ويدعى اليه . وقال الامام الشافعى وأصحابه : تقع الوليمة على كل دعوة تتخذ لسرور حادث من نكاح أوختان وغيرهما ، لكن الاشهر استعمالها عند الاطلاق فى النكاح وتقيد فى غيره ، فيقال وليمة الختان ونحو ذلك . وقال الازهرى الوليمة مأخوذة من الولم وهو الجمع وزناً ومعنى لان الزوجين يجتمعان . وقال ابن الاعرابى : أصلها من تتميم الشىء واجتماعه . وذهب غالب أهل اللغة الى ان اسم الوليمة مختص بطعام العرس . وهو المنقول عن الخليل بن احمد وثعلب وغيرهما ، وجزم به الجوهرى وابن الاثير . وقال صاحب المحكم : الوليمة طعام العرس والاملاك ، وجزم الماوردى ثم القرطبى بأنها لا تطلق فى غير طعام العرس الا بقرينة . وأما الدَّعوة فهى أعم من الوليمة وهى بفتح الدال على المشهور وضمها قطرب فى مثلثاته وغلطوه فى ذلك على ما قال النووى . قال : ودعوة النسب بكسر الدال وعكس ذلك بنو تيم الرباب ففتحوا دال دعوة النسب وكسروا دال دعوة الطعام انتهى . وما نسبه لبنى تيم الرباب

(١) العدواء أرض يابسة صلبة وربما جاءت فى البئر اذا حفرت وقد يكون حجراً يحاد عنه فى الحفر ، وقيل العدواء المكان الذى لا يطمئن من قعد عليه يقال جئت على مركب ذى عدواء أى ليس بمطمئن ، وفى المحكم جلس على عدواء أى على غير استقامة

نسبه صاحب الصحاح والمحكم لبنى عدى الرباب فالله أعلم . . وولائم العرب ست عشرة وليمة . الأولى « الخُرْسُ » بضم الخاء المعجمة وسكون الراء وهى الطعام الذى يصنع للنفَساء لسلامة المرأة من الطلق . وقيل : هو طعام الولادة . والثانية « العقيقة » وهى ما يصنع للطفل بعـد ولادته وتختص باليوم السابع . والثالثة « الاعذار » وهى ما يصنع للختان . والرابعة «ذوالحذاق» وهى ما يصنع لحافظ القرآن فهى مما حدثت بعد الاسلام . وقيل : انه الطعام الذى يتخذ عند حذق الصبى ذكره ابن الصباغ فى الشامل . والخامسة « الملاك » وهى ما يصنع للخطبة . ويقال الاملاك . وطعامه يسمى (الشُنْدُخ) بضم المعجمة وسكون النون وفتح الدال المهملة وقد تضم وآخره خاء معجمة مأخوذ من قولهم فرس شندخ أى يتقدم غيره سمى طعام الاملاك بذلك لانه يتقدم الدخول . والسادسة «وليمة العرس » وهى ما يصنع للدخول بالزوجة . والسابعة « الوضيمة » وهى ما يصنع للميت أى لاهل المصيبة . والثامنة « الوكيرة » وهى ما يصنع للبناء يعنى للسكن المتجدد مأخوذ من الوكر وهو المأوى والمستقر . والتاسعة «العقيرة» بعين مهملة فقاف وهى ما يصنع لهلال رجب . والعاشرة « التحفة » وهى ما يصنع للزائر . والحادية عشرة « الشُنْدُخ » بالشين المعجمة والدال المهملة المضمومتين آخره خاء معجمة وهى ما يصنع عند وجود الضالة وقد سبق انه يطلق أيضاً على طعام الاملاك والثانية عشرة « النقيعة » بالقاف ثم العين المهملة وهى ما يصنع للقدوم من السفر . وقيـل : النقيعة التى يصنعها القادم والتى تصنع له تسمى التحفة . والثالثة عشرة « القرى » وهى ما يصنع للضيف . والرابعة عشرة « المأدبة » وهى ما ليس له سبب من ذلك . والخامسة عشرة « الجَفَلَى » بفتح الجيم والفاء . وهى التى تعم دعوتها . والسادسة عشرة «النَقَرى» بفتح النون والقاف وهى التى تخص دعوتها . قال طرَفة :

نحن فى المشتاةِ ندعو الجَفَلَى   لا ترَى الآدِبَ منهـا ينْتَقِر

وصف قومه بالجود وانهم اذا صنعوا مأدبة دعوا اليها عموماً لا خصوصاً وخص أيام الشتاء لأنها مَظِنَّةُ قلةِ الشئ وكثرة احتياج من يدعى ، والآدب بوزن اسم الفاعل من المأدبة وينتقر مشتق من النَّقَرى .

أوانى العرب المميزة بأسماء مخصوصة

وحيث فرغنا من الاشارة الى ما كانوا عليه من أمر المطعم ناسب أن نذكر آنيتهم . وهي الدسيعة بالسين والعين المهملتين بوزن كريمة . والجفنة والقصعة والمكتلة والفَيْخة بفتح الفاء والخاء المعجمة وتسمى بالسُكُرّجة أيضاً بضم السين المهملة والكاف والراء المشددة وبالجيم إناء صغير لا يشبع الرجل والصحفة تشبع الرجل . والمكتلة تشبع الرجلين والثلاثة . والقصعة تشبع الاربعة والخمسة . والجَفْنَة تشبع السبعة الى العشرة . والدسيعة أكبرها . وقيل أكبرها الجفنة وهى التى يذكرها الشعراء فى شعرهم فى الغالب كقوله :

لنا الجَفَنات الغرُّ يلمعن بالضحى ... وأسيافُنا يقطُرْنَ من نَجدة دما

وقد نقدت الخنساء على هذا البيت كما فى المفتاح فقالت أىّ فخر يكون فى ان له ولعشيرته ولمن ينضوى اليهم من الجفان ما نهايتها فى العدد عشرة وكذا من السيوف . الا استعمل جمع الكثرة الجفان والسيوف . وأىّ فخر فى أن يكون جفنته وقت الضحوة وهو وقت تناول الطعام غراء لامعة كجفان البائع أما يشبه أن قد جعل نفسه وعشيرته بائعى عدة جفنات ثم أنّى يصلح للمبالغة فى التمدح بالشجاعة . وقد قال وأسيافنا يقطرن . اما كان يجب ان يتركها الى يسلن أو يفضن أو ما شاكل ذلك .

عادات العرب فى الشرب

اعلم أن عادات العرب فى الشرب وآدابهم فيه قد جاءت الشريعة بكثير منها وهى مفصلة فى كتبها . منها : الشرب قاعداً قالوا فان للشرب قائماً آفات

عديدة ، منها انه لا يحصل له الرى التام ولا يستقر الماء فى المعدة حتى يقسمه الكبد على الأعضاء، وينزل بسرعة وحده الى المعدة فيخشى منه أن يبرد حرارتها ويشوشها ويسرع النفوذ الى أسفل البدن بغير تدريج . وكل هذا يضر بالشارب وأما اذا فعله نادراً أو لحاجة لم يضره ولا يعترض بالعوائد على هذا فان العوائد طبائع ثوان ولها أحكام أخرى وهى بمنزلة الخارج عن القياس . ومن آدابه ان يقطع عن الشرب ثلاث مرات . فانه أروى وامرأ وابرأ . فاروى اشد ريا وأبلغه وأنفعه وابرأ من البرء وهو الشفاء أى يبرء من شدة العطش ودائه لتردده على المعدة الملتهبة دفعات فتسكن الدفعة الثانية ما عجزت الأولى عن تسكينه والثالثة ما عجزت الثانية عنه . وأيضاً فانه أسلم لحرارة المعدة وأبقى عليها من ان يهجم عليها البارد وهلة واحدة ونهلة واحدة ، وأيضاً فانه لا يروى لمصادفته لحرارة العطش لحظة ثم يقلع عنها ولم يكسر سورتها وحدتها فان انكسرت لم تبطل بالكلية بخلاف كسرها على التدريج ، وأيضاً فانه أسلم عاقبة وآمن غائلة من تناول جميع ما يروى دفعة واحدة فانه يخاف منه أن يطفىء الحرارة الغريزية بشدة برده وكثرة كميته أو يضعفها فيؤدى ذلك الى فساد مزاج المعدة والكبد والى أمراض ردية خصوصاً فى سكان البلاد الحارة كالعراق والحجاز واليمن ونحوها وفى الازمنة الحارة كشدة الصيف ، فان الشرب وهلة واحدة مخوف عليهم جداً فان الحار الغريزى ضعيف فى بواطن أهلها وفى تلك الأزمنة الحارة . وأما كونه أمرأ فانه من مرئ الطعام والشراب فى بدنه اذا دخله وخالطه بسهولة ولذة ونفع ومنه فكلوه هنيئاً مريئاً . هنيئاً فى عاقبته ، مريئاً فى مذاقه . وقيل معناه انه أسرع انحدارا عن المرى لسهولته وخفته عليه بخلاف الكثير فانه لا يسهل على المرى انحداره.

ومن آفات الشرب نهلة واحدة انه يخاف منه الشرق بأن ينسد مجرى الشراب لكثرة الوارد عليه فيغص به فاذا تنفس رويداً ثم يشرب أمن من ذلك

ومن فوائد القطع ثلاثا . ان الشارب اذا شرب أول مرة تصاعد البخار الدخانى الحار الذى كان على القلب والكبد لورود الماء البارد عليه فأخرجته الطبيعة عنها فاذا شرب مرة واحدة اتفق نزول الماء البارد وصعود البخار فيتدافعان ويتعالجان ومن ذلك يحدث الشرق والغصة ولا يهنأ الشارب بالماء ولا يمر به ولا يتم ريه . وقد ورد فى الحديث اذا شرب أحدكم فليمص الماء مصا ولا يعب عبا فانه من الكُباد . والكباد بضم الكاف وتخفيف الباء هو وجع الكبد . وقد علم بالتجربة ان ورود الماء جملة واحدة على الكبد يؤلمها ويضعف حرارتها ، وسبب ذلك المضادة التى بين حرارتها وبين ما ورد عليها من كيفية المبرود وكميته ولو ورد بالتدريج شيئا فشيئا لم يضادد حرارتها ولم يضعفها . وفى الحديث أيضا : لا تشربوا نفسا واحداً كشرب البعير لكن اشربوا مثنى وثلاث وسموا اذا أنتم شربتم واحمدُوا اذا أنتم فرغتم . ومن الآداب قطع النفس عند الشرب فان الشارب اذا تنفس فى القدح خالط نفسه الماء استقذر وربما سقط من أنفه فى الماء ما يستكره وأحدث فيه داء وربما كان فى فم النافخ رائحة كريهة يعاف الماء لأجلها الى غير ذلك من المضار وكانوا يكرهون الشرب من ثلمة الاناء وهذا من الآداب التى يتم بها مصلحة الشارب فان الشرب من ثلمة القدح فيه عدة مفاسد . أحدها ان ما يكون على وجه الماء من قذى أو غيره يجتمع الى الثلمة بخلاف الجانب الصحيح الثانى انه ربما يشوش على الشارب ولم يتمكن من حسن الشرب من الثلمة . الثالث ان الوسخ والزهومة يجتمع فى الثلمة ولا يصل اليها الغسل كما يصل الى الجانب الصحيح . الرابع ان الثلمة محل العيب فى القدح وهى أردأ مكان فيه فينبغى تجنبه وقصد الجانب الصحيح فان الردىّ من كل شئ لاخير فيه . ورأى بعض السلف رجلا يشترى حاجة ردية فقال لا تفعل ان الله تعالى نزع البركة من كل ردىّ . الخامس انه ربما كان فى الثلمة شق وتحديد يجرح شفة الشارب . وكانوا يكرهونَ أيضا الشرب من فم السقاء ، لان تردد أنفاس الشارب

فيه يكسبه زهومة ورائحة كريهة يعاف لأجلها وربما غلب الداخل الى جوفه من الماء فتضرر به ، وربما كان فيه حيوان لايشعر به فيؤذيه ، وربما كان في الماء قذارة أو غيرها لايراها عند الشرب فتلج جوفه . وكانوا يحثون على تغطية الاناء لما في انكشافه من المحاذير التي لاتخفى . وفي الحديث : غطوا الآناء ، وأوكوا السقاء .

ما يعتبر به جودة الماء عند العرب

تعتبر جودة الماء من عشرة طرق . أحدها : من لونه بأن يكون صافياً . الثاني : من رائحته بأن لايكون له رائحة البتة . الثالث : من طعمه بأن يكون عذب الطعم حلوه كالنيل والفرات ونحوها . الرابع : من وزنه بأن يكون خفيفاً رقيق القوام . الخامس : من مجراه بأن يكون طيب المجرى والمسلك . السادس : من منبعه بأن يكون بعيد المنبع . السابع : من بروزه للشمس والريح بأن لا يكون مختفياً تحت الارض فلا تتمكن الشمس والريح من قصارته . الثامن : من حركته بأن يكون سريع الجرى والحركة . التاسع : من كثرته بأن يكون له كثرة تدفع المخالطة له . العاشر : من مصبه بأن يكون آخذاً من الشمال الى الجنوب أو من المغرب الى المشرق . واذا اعتبرت هذه الاوصاف لم تجدها بكمالها الا في النيل والفرات وسيحون وجيحون ونحوها . وتعتبر خفة الماء من ثلاثة أوجه . أحدها سرعة قبوله للحر والبرد . الثاني : بالميزان . الثالث : أن تبل قطنتان متساويتان الوزن بمائين مختلفين ثم يجففا بالغاً ثم توزنا فأيهما كانت أخف فماؤها كذلك

والماء وان كان في الاصل بارداً رطباً فان قوته تنتقل وتتغير لاسباب عارضة توجب انتقالها فان الماء المكشوف للشمال المستور عن الجهات الأُخر يكون بارداً وفيه يبس مكتسب من ريح الشمال . وكذلك الحكم على سائر الجهات الأُخر . والماء الذي ينبع من المعادن يكون على طبيعة ذلك المَعْدِن ويؤثر في البدن تأثيره

والماء العذب نافع للمرضى والاصحاء والبارد منه أنفع وألذ . قالوا : ولا ينبغى شربه على الريق ولا عقب الجماع ولا عند الانتباه من النوم ولا عقب أكل الفاكهة ، وأما على الطعام فلا بأس به اذا اضطر اليه بل يتعين ولا يكثر منه بل يمتصه مصاً فانه لا يضره البتة بل يقوى المعدة وينهض الشهوة ويزيل العطش . والماء الفاتر ينفخ ويفعل ضد ماذكرناه وبائته أجود من طريه . قالوا : والبارد ينفع من داخل أكثر من نفعه فى الخارج والحار بالعكس ، وينفع البارد من عفونة الدم وصعود الابخرة من الرأس ويدفع العفونات ويوافق الامزجة والاسنان والازمان والاماكن الحارة ويضر كل حالة تحتاج الى نضج وتحليل كالزكام والاورام ، والشديد البرودة منه يؤذى الاسنان ، والادمان عليه يحدث انفجار الدم والنزلات وأوجاع الصدر . والبارد والحار بافراط ضاران للعصب ولا كثر الاعضاء لان أحدهما محلل والآخر مكثف . والماء الحار يسكن لذع الاخلاط الحادة ، ويحلل وينضج ويخرج الفضول ويرطب ويسخن ويفسد الهضم شربه ويطفو بالطعام الى أعالى المعدة ويرخيها ولا يسرع فى تسكين العطش ويذبل البدن ويؤدى الى أمراض ردية ويضر فى أكثر الامراض ، على انه صالح للشيوخ وأصحاب الصرع والصداع البارد والرمد وأنفع ما استعمل من خارج والشديد السخونة يذيب شحم الكلى . وعلى كل حال أن الماء البارد أنفع ولا سيما اذا خالطه مايحليه كالعسل والزبيب والسكر ونحو ذلك فانه من أنفع مايدخل البدن واحفظ عليه صحته . ولهذا كان أحب الشراب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم البارد الحلو . ولما كان الماء البائت أنفع من الذى يشرب وقت استقائه قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقد دخل إلى حائط أبى الهيثم بن التيهان : هل من ماء بات فى شَنَّةٍ ؟ فأتاه به فشرب منه ، فان الماء البائت بمنزلة العجين الخمير والذى شرب لوقته بمنزلة الفطير ، وأيضاً فان الاجزاء الترابية والارضية تفارقه اذا بات والماء الذى فى القرب والشنان ألذ من الذى يكون فى آنية الفخار والاحجار

وغيرها عندهم ولاسيما أسقية الادم ، ولهذا التمس النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ماء بات فى شنه دون غيرها من الاوانى ، وفى الماء اذا وضع فى الشنان خاصية لطيفة لما فيها من المسام المنفتحة التى يرشح منها الماء ، ولهذا كان الماء فى الفخار الذى يرشح الذّ منه وأبرد فى الذى لا يرشح

المياه المشهورة عند العرب

منها ماء (الغيث) وهو لديهم لذيذ الاسم على السمع والمسمى على الروح والبدن تبتهج اسماعهم بذكره ، وقلوبهم بوروده ، وماؤه من ألطف المياه وأفضلها وأنفعها وأعظمها بركة ، ولا سيما اذا كان من سحاب راعد واجتمع فى مستنقعات الجبال وهو أرطب من سائر المياه لانه لم تطل مدته على الارض فيكتسب من يبوستها . ولم يخالطه جوهر يابس ولذلك يتغير ويتعفن سريعا للطافته وسرعة انفعاله وهل الغيث الربيعى ألطف من الشتوى أو بالعكس فيه قولان ، قال من رجح الغيث الشتوى : حرارة الشمس تكون حينئذ أقل فلا يجتذب من ماء البحر الا ألطفه والجوّ صاف وهو خال من الأبخرة الدخانية والغبار المخالط للماء ، وكل هـذا يوجب لطفه وصفاءه وخلوه من مخالط . وقال من رجح الربيعى : الحرارة توجب تحلل الابخرة الغليظة وتوجب رقة الهوى ولطافته فيخف بذلك المـاء وتقل أجزاؤه الارضية وتصادف وقت حيوة النبات والاشجار وطيب الهواء

ومنها ماء (الثلج) و (البَرَد) و (الجمد) وهذا الماء قليـل عندهم لغلبة الحرارة على قطرهم ولكونه لديهم من أنفع المياه وأنقاها . ورد فى الحديث : اللهم أغسلنى من خطاياى بماء الثلج والبَرَد . والثلج له فى نفسه كيفية حادة دخانية فماؤه كذلك ، والحكمة فى طلب الغسل من الخطايا بمائه مايحتاج اليه القلب من التبريد والتصليب والتقوية ، ويستفاد من هذا الأصل طب الابدان والقلوب ومعالجة أدوائها بضدها ، وماء البَرَد ألطف وألذ من ماء الثلج . وأما ماء الجَمد وهو الجليد فبحسب أصله ، والثلج يكتسب كيفية الجبال والارض التى يسقط عليها

فى الجودة والرداءة وينبغى تجنب شرب الماء المثلوج عقب الاستحمام والجماع والرياضة والطعام الحار ولأصحاب السعال ووجع الصدر وضعف الكبد وأصحاب الأمزجة الباردة

ومنها ماء (الآبار) و(القناء) و(العيون) وهذه المياه غالب مياه العرب. وقد جمع بعض الأدباء المتقدمين أسماء مياههم فى رسالة لطيفة وذكر أصحابها جاهلية واسلاماً وما ورد فيها من الشعر مما يطول ذكره. ومياه الآبار قليلة اللطافة وماء القناء المدفونة تحت الأرض ثقيل لأن أحدهما محتقن ولا يخلو عن تعفن والآخر محجوب عن الهواء. وينبغى أن لا يشرب على الفوْر حتى يصدر للهواء، وتأتى عليه ليلة. وأردؤه ما كانت مجاريه من رصاص أو كانت بئره معطلة ولا سيما اذا كانت تربتها ردية فهذا الماء دنىّ وخيم. وأما ماء بئر زمزم فهو عند العرب جاهلية واسلاماً سيد المياه وأشرفها وأجلها قدراً وأحبها الى النفوس وأغلاها ثمناً وأنفسها، وهو هزمة جبريل وسقيا اسماعيل عليهما السلام، وثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم انه قال لأبى ذرّ وقد أقام بين الكعبة وأستارها أربعين ما بين يوم وليلة وليس له طعام غيره: فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم انها طعام طعم، وشفاء سقم. وفى الحديث: ماء زمزم لما شرب له. وقد جرب كثير من الناس من الاستشفاء بماء زمزم أموراً عجيبة، وقد شوهد من يتغذى به الأيام ذوات العدد قريباً من الشهر ولا يجد جوعاً ويطوف مع الناس كأحدهم.

وأما مياه العيون فالغالب عليها الثقل كأكثر مياه الآبار. وللاصمعى رسالة ذكر فيها ما اعتبرته العرب من الأسماء فى البئر وأنواعها وآلاتها وهى فريدة فى بابها، وسنذكر ان شاء الله عند الكلام على علومهم ما لهم من اليد الطولى فى معرفة استنباط المياه واجرائها وان قسماً منهم يقال لهم (النصاتون) يضع أحدهم أذنه على الأرض فيعلم مسافة بعد الماء فى تلك الأرض.

أسماء أوانى المياه عند العرب

كما ان لأوانى الأطعمة أسماء مخصوصة كذلك لأوانى الشرب أسماء تخص

كلاً منها عن الاخرى ، وقد استوعبها ابن فارس وغيره فى كتب فقه اللغة . منها « التِبن » بكسر التاء وفتحها قال فى القاموس هو قدح يروى العشرين . ومنها « الصحن » وهو العُسُّ العظيم . ومنها « العس » وهو القدح العظيم . ويقال : إنه الذى يروى الثلاثة والأربعة . ومنها « القَدح » بفتح القاف والدال قال فى القاموس هو آنية تروى الرجلين ومنها « القَعْب » بفتح القاف وسكون العين قال فى القاموس : هو لقدح الضخم الجافى أو الى الصغر أو يروى الرجل . ومنها « الغُمَرُ » بضم الغين المعجمة وفتح الميم وهو قدح صغير أو أصغر الاقداح ، ويقال تغمر الرجل اذا شرب به .

تقديم العرب الأيمن فى الشرب

ان العادة كانت جارية بين ملوك الجاهلية ورؤسائهم بتقديم الايمن فى الشرب وكانت عادة العرب مجاراة ملوكهم بتقديم الايمن فالايمن فى أىّ شرب كان وعلى ذلك قول عمرو بن كُلْثوم فى معلقته وهو :

صددتِ الكأسَ عنا أمَّ عمروٍ وكان الكأسُ مجراها اليمينا

وقد أقر الشرع هذه العادة ولم يغيرها لفضل اليمين على اليسار . ولهم فى شرب الخمور عوائد وآداب مذكورة فى كتاب (مساوى الخمرة) وكذلك أسماء أوقاته كالصَبُوح والغَبُوق ونحو ذلك ، وهكذا لما يشرب من اللبن وذكره يطول .

عادات العرب فى سقى إبلهم وأسمائها

اعلم ان للعرب فى سقى إبلهم عوائد مختلفة ولكل منها اسم يخصه ، فكانوا اذا أوردوها كل يوم يقولون : سقيناها رفها . أى فى كل يوم . واذا أوردوها يوماً وتركوها فى المرعى يوماً قالوا : سقيناها غِبّاً . واذا أقاموها فى المرعى بعد يوم الشرب يومين ثم أوردوها فى اليوم الثالث يقولون : سقيناها ربعاً . ولا يقولون ثلثاً أبداً لانهم يحسبون يوم المقام مع يوم الشرب فيعدونها أربعة ويؤيده انه يقال للحمى التى تأتى يوما وتنقلع يومين ثم تأتى فى الثالثة حمى الربع ، وتمام ظمأ الابل

فى الغالب ثمانية أيام فاذا أوردوها فى اليوم التاسع منه وهو العاشر من الشرب الأول قالوا : سقيناها عشراً بالكسر فالعشر تسعة أيام أبداً لان يوم الشرب الاول من العشر السابق فى الواقع لا من هذا العشر . واذا زادوا على العشرة قالوا : أوردناها رفها بعد عشر . وحكى عن الليث انه قال : قلت للخليل زعمت أن عشرين جمع عشر والعشر تسعة أيام . فكان ينبغى أن يكون العشرون سبعة وعشرين يوماً لتستكمل ثلاثة اتساع . قال : ثمانية عشر يوماً عشران ان ضممت اليها يومين من العشر الثالث فجمعتها بذلك الاعتبار . قلت : هل يجوز أن تقول للدرهمين مع الدانقين ثلاثة دراهم ؟ قال : لا أقيس على هذا وانما أقيس على قول أبى حنيفة رحمه الله تعالى حيث قال : ان من طلق امرأته تطليقتين وعشر تطليقة تقع ثلاث تطليقات فكما جاز له ان يعتد بعشر تطليقة ويجعله تطليقة واحدة كاملة جاز لى ان اعتدّ بيومى عشر وأعدهما عشراً كاملا .

الاختلاف فى تغذية الماء

اختلف أطباء العرب فى الماء هل يغذى البدن أم لا . فأثبت طائفة التغذية بناء على ما يشاهد من النمو والزيادة والقوة فى البدن به ولا سيما عند شدة الحاجة اليه قالوا : وبين الحيوان والنبات قدر مشترك من وجوه عديدة . منها النموّ والاغتذاء والاعتدال . وفى النبات قوة حس وحركة تناسبه ، ولهذا كان غذاء النبات بالماء فما ينكر ان يكون للحيوان به نوع غذاء أو ان يكون جزأ من غذائه التام . قالوا : ونحن لا ننكر أن قوة الغذاء ومعظمه فى الطعام وانما أنكرنا أن لا تكون للماء تغذية البتة . قالوا : وأيضا الطعام انما يغذى بما فيه من المائية ولولاها لما حصلت به التغذية . قالوا : ولأن الماء مادة حياة الحيوان والنبات ، ولا ريب ان ما كان أقرب الى مادة الشئ حصلت به التغذية فكيف اذا كانت مادته الأصلية ، فكيف ينكر حصول التغذية بما هو مادة الحياة على الاطلاق ؟ قالوا : وقد رأينا العطشان اذا حصل له الرىّ بالماء البارد تراجعت اليه قواه ونشاطه

وحركته وصبر عن الطعام وانتفع بالقدر اليسير منـه ورأينا العطشان لا ينتفع بالقدر الكثير من الطعام ولا يحدثه القوة والاغتذاء . ونحن لا ننكر ان الماء ينفذ الغذاء الى أجزاء البدن والى جميع الأعضاء وانه لا يتم أمر الغذاء الا به ، وانما ننكر على من سلب قوة التغذية عنه البتة ، ويكاد قوله عندنا يدخل فى انكار الأمور الوجدانية . وأنكرت طائفة أخرى حصول التغذية به واحتجت بأمور يرجع حاصلها الى عدم الاكتفاء به وانه لا يقوم مقام الطعام وانه لا يزيد فى نمو الأعضاء ، ولا يخلف عليها بدل ما حللته الحرارة ونحو ذلك مما لا ينكره أصحاب التغذية فانهم يجعلون تغذيته بحسب جوهره ولطافته ورقته وتغذية كل شئ بحسبه وقد شوهد الهواء الرطب البارد اللين اللذيذ يغذى بحسبه ، والرائحة الطيبة تغذى نوعا من الغذاء ، فتغذية الماء أظهر وأظهر .

ما يعالج به ضرر الماء

كان لهم طرق من العلاج لدفع مضرة ماء البحر اذا اضطر أحد منهم الى شربه منها أن يجعل فى قدر ويجعل فوق القدر قصبات وعليها صوف جديد منفوش ويوقد تحت القدر حتى يرتفع بخارها الى الصوف فاذا كثر عصره من عمل ذلك ولا يزال على هذا الفعل حتى يجتمع له ما يريد فيكون فى الصوف من البخار ما عذب ويبقى فى القدر الزُعاق ، ومنها ان يحفر على شاطئه حفرة واسعة يرشح ماؤه اليها ثم الى جانبها قريبا منها أخرى ترشح هى اليها ثم ثالثة الى أن يعذب الماء . ولهم فى تصفية الماء ودفع كدورته حيل وذلك اذا الجأت أحدهم الضرورة الى شرب الماء الكدر التى فيه قطعة من خشب الساج أو جمراً ملتهبا يطفى فيه أو طينا أرمنيا أو سويق حنطة ، فان كدورته ترسب الى أسفل .

تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى

ثلاثة فهارس

الفهرس الأول — فى موضوعات الكتاب

الفهرس الثانى — فى أسماء الرجال والنساء

الفهرس الثالث — فى أسماء البلدان والقبائل

عنى بجمعها وترتيبها

محمد جمال

صاحب المكتبة الأهلية — بمصر

الفهرس الاول

فى مواضيع الكتاب

أنظر فهرس أسماء الرجال والنساء

الفهرس الثانى

فى أسماء الرجال والنساء

ا

خ

ن

الفهرس الثالث

فى أسماء البلدان والقبائل وغيرها

ت

ث

نخبة من مطبوعاتنا

الاسلام وكرومر

أو الاسلام روح المدنية — للشيخ مصطفى الغلاييني ، رد به مزاعم اللورد كرومر ، وأبان فيه أن الاسلام هو دين الفطرة وأنه يصلح العمل به فى كل زمان ومكان — ثمنه ٧ قروش

حديث القمر — للسيد مصطفى صادق الرافعي

ان شئت فقل فى هذا الكتاب انه نثر مطرب ولكنه مفصل فى آيات ، وشعر مرقص ولكنه فى غير أبيات الخ — ثمنه ٥ قروش

خمسة دواوين العرب

(١) النابغة الذبياني وشرحه للبطليوسى (٢) عروة بن الورد وشرحه لابن السكيت (٣) الفرزدق (٤) حاتم الطائى (٥) علقمة الفحل ، يعاد طبعه مرة ثانية بحلة جديدة رائعة فى نحو خمسمائة صفحة مضبوطة بالشكل التام

ديوان الرصافى

هو ديوان معروف افندى الرصافى شاعر العراق وبلبله الصداح ، عنينا باعادة طبعه للمرة الثانية بترتيب جميل وشكل بديع — وثمنه ١٠ قروش

رجال المعلقات العشر

فى تاريخ شعراء المعلقات وأنسابهم ومايتبع ذلك من تاريخ العرب وأحوالهم الاجتماعية وآدابهم ومفاخرهم الخ — تأليف الشيخ مصطفى الغلاييني ثمنه ١٠ قروش

العروة الوثقى

هى الجريدة الشهيرة التى كان يصدرها فى باريس فيلسوفى الاسلام والشرق السيد جمال الدين الافغانى والشيخ محمد عبده (رحمهما الله) — ثمنها ٢٠ قرشاً

غابر الاندلس وحاضرها

للبحاثة الكبير محمد كرد على رئيس المجمع العلمى العربى وقد زارها فى عام ١٣٤٠ - ١٩٢٢ — ثمنه ٥ قروش

غرائب الغرب — جزآن

للاستاذ الموما أليه ، فيه كلام عن مدنية : فرنسا وانجلترا والمانيا وايطاليا... والاستانة ومصر والشام ومقالات فى علائق الشرق بالغرب والغرب بالشرق منذ الزمن الاطول — ثمنهما ٣٠ قرشاً

كشكول جمال — جزآن

مجموعة علم وادب وفكاهة ، يحتاج اليه الشيوخ والشبان ، والسيدات والاوانس ، لانه كتاب الفرد وكتاب العائلة — ثمنهما ١٠ قروش

مدنية العرب

فى الجاهلية والاسلام ، هو كتاب يبحث فى تاريخ العرب فى الجاهلية والاسلام وتاريخ المدنية والفنون الشائعة — ثمنه ٦ قروش

سحر الشعر

مجموعة مقالات وقصائد عصرية فى الشعر والشعراء دبجتها يراعة أشهر كتاب العصر كالزهاوي والرصافى وصروف وجبران والعقاد ونعيمه وواصف والرافعى وشكري والمنفلوطى والخطيب وغيرهم ، ثمنه ١٠ قروش .

حكم النبى محمد

اختارها الفيلسوف الروسى الشهير تولستوى ونقلها عن الروسية الى العربية سليم قبعين ، وقد أعيد طبعها للمرة الثالثة بشكل جميل وحلة بديعة على ورق صقيل وحرف لطيف وثمنه ٣ قروش

بلاغة العرب فى القرن العشرين

هو شذرات وأشعار مختارة من أقلام كبار كتاب العربيه في أمريكا - كجبران والريحانى ونعيمة وابو ماضى وفرحات وعريضه ومشرق وكاتسفليس وغيرهم — ثمنه ١٠ قروش

الضرائر — ومايسوغ للشاعر دون الناثر

تأليف السيد محمود شكرى الالوسى (مؤلف هذا الكتاب) ثمنه ١٥ قرشا

الادب العصرى فى العراق العربى

تاريخى أدبى انتقادي فى تراجم ادباء العراق ورسومهم (جزآن) ٣٠ قرشا

نزهة الانام فى محاسن الشام

تأليف أبى البقاء البدرى المصرى — ثمنه ١٠ قروش

